

مركز البحوث والدراسات الإدارية

أساسيات البحث الكيفي

أساليب وإجراءات النظرية المجذَّرة

تأليف

أ. د. آنسيلم ستراوس

د. جوليت كوربين

ترجمة

أ. د. عبدالله بن حسين الخليفة

قسم الاجتماع - كلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

راجع الترجمة

د. على بن عيسى الشعبى و د. على بن أحمد السلطان

١٤١٩هـ/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم



مركز البحوث والدراسات الإدارية

أساسيات البحث الكيفى
أساليب وإجراءات النظرية المجذَّرة

تأليف

أ. د. آنسيلم ستراوس

د. جوليت كوربين

ترجمة

أ. د. عبدالله بن حسين الخليفة

قسم الاجتماع - كلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

راجع الترجمة

د. علي بن عيسى الشعبي و د. علي بن أحمد السلطان

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

بطاقة الفهرسة

ⓒ معهد الإدارة العامة ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ستراوس ، أنسيلم

أساسيات البحث الكيفي : أساليب وإجراءات النظرية المجذرة/ أنسيلم ستراوس ، جوليت كوربين ، ترجمة عبدالله بن حسين الخليفة – الرياض .

٢١٢ ص : ١٦.٥ × ٢٣.٥ سم

ردمك : ٢-٣٩-٠-١٤-٩٩٦٠

١ – العلوم الاجتماعية – طرق البحث أ – كوربين ، جوليت (م. مشارك) ب – الخليفة ، عبدالله بن حسين (مترجم) ج – العنوان

ديوى : ٣٠٠.٧٢ ١٨/٢٢٩٣

رقم الإيداع : ١٨/٢٢٩٣

ردمك : ٢-٣٩-٠-١٤-٩٩٦٠

هذه ترجمة لكتاب :

Anselm Strauss
Juliet Corbin

Basics of Qualitative Research

Grounded
Theory
Procedures and
Techniques

«إذا لم يقم الفنان بابتداع رؤية جديدة ، فإن كل ما يقوم به ليس إلا أعمالاً آلية مكررة لنماذج سابقة راسخة فى مخيلته» .

جون ديوى

«الفن كخبرة Art as Experience - ١٩٣٥م - ص ٥٠»

تمهيد :

إن هذا الكتاب موجه إلى أولئك الباحثين فى مختلف التخصصات فى العلوم الاجتماعية والمهنية ، والمهتمين ببناء النظرية بأسلوب استقرائى من خلال التحليل النوعى للبيانات . وبصرف النظر عن التجارب المثيرة التى تتكون لدى الباحثين عند قيامهم بجمع البيانات ، فإنه سيأتى الوقت الذى لا بد فيه من إخضاع هذه البيانات للتحليل . وغالباً ما يحبط الباحثون إزاء المهمة الضرورية ؛ إنهم يشعرون بالفزع ليس فقط من جراء الكميات الهائلة من البيانات الميدانية والوثائق أو صفحات المقابلة (التى تشبه جبالاً من المعلومات) التى تواجه الباحثين ، ولكنهم أيضاً يواجهون مشكلة الإجابة عن الأسئلة الآتية : كيف نتمكن من فهم هذه البيانات ؟ كيف نتمكن من الحصول على تفسير نظرى فى الوقت الذى ما زلنا نقوم فيه بتأسيس هذا التفسير فى الواقع التجريبى الميدانى كما يصوره ما تم جمعه من بيانات ؟ كيف نستطيع التأكد من أن ما جمعناه من بيانات وما توصلنا إليه من تفسيرات لها يتمتع بمعايير الصدق والثبات ؟ كيف نستطيع تجاوز الانطباعات التى لا مفر منها وكذلك التحيزات ووجهات النظر المكررة والروتينية التى يحضرها معه الباحث للوضع التحليلى ؟ كيف أستطيع أن أضع تحليلاتى بعضها مع بعض لصياغة نظرية دقيقة للموضوع الذى هو تحت الدراسة ؟

إن الهدف من هذا الكتاب هو الإجابة عن هذه التساؤلات ، وغيرها من التساؤلات المتعلقة بالتفسير والتحليل الكيفى للبيانات ، وقد أعد هذا الكتاب بأسلوب مباشر وواضح ، بغرض تقديم المعرفة والإجراءات الرئيسية التى يحتاج إليها الأشخاص الذين هم على وشك الشروع لأول مرة فى عمل مشاريع بحثية كيفية ممن يرغبون فى بناء نظرية على المستوى الواقعى .

إن نمط التحليل النوعى الذى يناقشه هذا الكتاب يعرف بمدخل النظرية أو طريقة النظرية المجذَّرة (Grounded Theory) على نحو ما يشار إليها أحياناً بذلك . وهذا الكتاب يمثل الكتاب الرابع من سلسلة الكتب التى نشرت حول هذا الموضوع ، فالكتاب الأول كان بعنوان «اكتشاف النظرية المجذرة» لـ (جلاسير وستراوس Glaser & Strauss) –١٩٦٧م ، الذى عرض وقدم الحجة والبرهان والمنطق الذى يقف خلف إجراءات النظرية المجذرة التى نوقشت فى هذا الكتاب والكتب الأخرى .

ونظراً لذلك ، فإنه الكتاب الأول الذى لا يزال مفيداً ومتطلباً أولياً لفهم بقية الكتب الثلاثة ، أما الكتاب الثانى بعنوان «الحساسية النظرية» لـ (جلاسير - ١٩٧٨م) ، والكتاب الثالث بعنوان «التحليل النوعى لإخصائى العلوم الاجتماعية» لـ (ستراوس - ١٩٨٧م) فقد تم إعدادهما ليقرأهما الباحثون ممن لديهم خبرة أكثر إلى حد ما فى مجال التحليل الكيفى ، لكن هذه الخبرة لا تلزم للاستفادة مما يحتويه هذا الكتاب الأخير (النظرية المجذرة) على الرغم من أنه قد وضع خصيصاً للمبتدئين فى التحليل الكيفى ، إلا أننا نتوقع أن الباحثين المتمرسين فى البحث الكيفى سيجدون فيه إجابات إضافية لبعض تساؤلاتهم القائمة منذ أمد بعيد والتى لم يجب عنها من قبل .

وعندما تقرأ كل واحد من هذه الكتب - وهو ما نؤكد عليه - ستلاحظ أن بعضاً من مصطلحاتها وإجراءاتها المحددة والموصى بها ليست غالباً متطابقة ، ويعود هذا أساساً إلى الخواطر والتأملات الإضافية للمؤلفين ، وكذلك بسبب التجارب المختلفة التى تكونت لديهم من خلال تدريس التحليل الكيفى ومن خلال مشاريعهم البحثية فى هذا الميدان . وعند مقارنة كتاب «الحساسية النظرية» لـ (جلاسير) بكتاب «التحليل الكيفى لإخصائى العلوم الاجتماعية» بهذا الكتاب «النظرية المجذرة» ، فستجد مزيداً من الفوارق الإجرائية والاصطلاحية . ومع هذا ، فإن هذه الكتب الأربعة جميعاً تعبر أساساً عن موقف موحد تجاه التحليل الكيفى ، كما تقترح نفس الإجراءات الأساسية . أما هذا الكتاب ، فإنه يركز على توضيح الإجراءات والأساليب (كما هو واضح من العنوان الفرعى له) من خلال الشروحات الموسعة ، ومن خلال أخذ القارئ خطوة خطوة كأفضل طريقة لتعلم التحليل الكيفى .

لقد اعتمدت هذه الكتب الأربعة جميعها على التجارب الحيوية لأولئك الذين اهتموا بالبحث الكيفى تدريساً وبحثاً من خلال الحلقات النقاشية ، ومن خلال الأعمال الاستشارية لسنوات عديدة ، فهذه الكتب جميعاً تقدم مدخلاً موحداً لعمل البحوث الكيفية ، كما أنها تسعى إلى هدف موحد ألا وهو بناء النظرية . إن الاعتقاد الفلسفى والتقاليد العلمية التى تقف وراء هذه الكتب تسمو برسالتها فى بناء النظرية من خلال البحوث النوعية ، فصياغة تفسيرات نظرية مجذرة للبيانات فى ضوء الواقع تقدم وسائل قوية لفهم العالم من جانب ، ولتطوير إستراتيجيات عمل من شأنها أن تساعد

على التوصل إلى مقاييس للتحكم فى الواقع من جانب آخر .

وبالإضافة إلى قراءة وتمحص هذه الكتب المنهجية ، فإننا نعتقد أن فهم القارئ للنظرية المجذرة سوف يزداد من خلال قراءة بعض الكتب التى ألفها كل من (جلاسير و (ستراوس) ومشاركيهما فى كتب ، مثل : «الوعى بالموت ، لجلاسير وستراوس - ١٩٦٥م» ، و «توقيت الموت ، لجلاسير وستراوس - ١٩٦٨م» ، و «الخبراء فى مقابل العاميين ، لجلاسير - ١٩٧٦م » ، و «التنظيم الاجتماعى للعمل الطبى ، لكل من ستراوس ، فاجيرهاف ، سوزيك ، وويتير - ١٩٨٥م "Strauss, Fagerhaugh, Suczek, &Wiener," ، و «العمل والرعاية المستمران ، لكوربين وستراوس - ١٩٨٨م Corbin & Strauss, » .

إن أى فرد يستطيع أن يتعلم الأسلوب التحليلى الذى يدور حوله هذا الكتاب ما دام قادراً على تحمل مشاق دراسة إجراءات ذلك الأسلوب . وكما هو الحال مع أى مجموعة من التدريبات ، فإن مستوى التحصيل سيكون مختلفاً من فرد إلى آخر . ومن جانب آخر ، فإن التدريبات المدروسة فى هذا الكتاب ، ربما تبدو مفيدة بطرق لم تكن متوقعة أساساً لا من جانب مؤلفى هذا الكتاب أنفسهما ولا من جانب قارئيه ، وكما لاحظ (ستراوس ، Strauss, p. Xiii) عند الإشارة إلى العملية التحليلية فإن «أى مجموعة من المهارات يستلزم تعلمها عملاً كادحًا واستمراراً مع ملاحظة أن بعض التجارب ليس بالضرورة ممتعًا إلا أن بعضها الآخر مثير وأحيانًا ممتع» . ومن قبيل التأكيد على ذلك ، فإنها غالبًا تجربة مثيرة وممتعة كذلك إلى حد كبير . وإضافة إلى ذلك ، فإن لهذه التجارب متطلبات أساسية لاكتشاف كيفية الاستخدام والتأقلم مع أى من الطرق بما فيها النظرية المجذرة ، فهذا الاستخدام والتأقلم يشكلان مركبًا من القرائن الموقفية ، لتطوير وتنمية السيرة الذاتية ذات الطابع البحثى ، ومهارة تنفيذ العمل ، إضافة إلى الحساسية الاجتماعية والنظرية . وعلاوة على ذلك ، فإن تنفيذ أى مشروع بحثى يستلزم من القائم به قسطًا من الحظ والجرأة . (انظر : ستراوس ، Strauss, p. xiii) .

نظرة على محتويات الكتاب :

تم تقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء رئيسية : يقدم الجزء الأول منها نظرة عامة على المنطق الإجرائى الذى يقف وراء استخدام النظرية المجذرة ، ويحتوى هذا الجزء على الفصول الأربعة الأولى من الكتاب . أما الجزء الثانى ، فيعطى شرحًا مفصلاً للإجراءات والأدوات التحليلية الدقيقة لهذه الطريقة (بناء النظرية المجذرة) ، ويضم هذا الجزء الفصول من الخامس حتى الفصل الحادى عشر . أما الجزء الثالث والأخير فيقوم على تفسير وشرح الإجراءات الإضافية الضرورية المصاحبة لعملية جمع البيانات وتحليلها ، ويضم هذا الجزء الفصول من الثانى عشر حتى الرابع عشر .

وإذا تناولنا محتويات فصول الكتاب كل فصل على حدة ، فسنلاحظ أن الفصل الأول قام على استخدام صيغة السؤال والجواب ، وذلك حتى يطلع القارئ على الاختلافات بين وسيلة النظرية المجذرة والوسائل التحليلية الأخرى فى البحث النوعى ، فهذا الفصل يفسر الأسس والأصول الفلسفية لهذه الطريقة ، كما يجيب عن بعض التساؤلات التى ترد فى أذهان الطلاب الذين هم على وشك القيام بأول دراسة لهم باستخدام إجراءات النظرية المجذرة .

أما الفصل الثانى المعنون بـ «البداية» ، فالهدف منه يتمثل فى تزويد الطالب بالعناصر الأساسية التى يحتاج إليها لبدء دراسة نظرية مجذرة . إذ نقدم مقترحات حول كيفية تحديد مصادر مشكلات قابلة للبحث ، كما نقدم إرشادات لصياغة المشكلة البحثية .

أما الفصل الثالث فيحتوى على شرح للمقصود بمفهوم «الحساسية النظرية» ، كمفهوم فى غاية الأهمية فى منهجية النظرية المجذرة ، كما يوضح كيف يستطيع الباحث الموازنة بين أن يكون مبدعًا ، كعنصر مهم فى تطوير النظرية ، وبين القيام بعمل علمى جيد يمثل فى نهاية المطاف الهدف من وراء القيام بأى عمل بحثى .

أما الفصل الرابع فيناقش كيفية استخدام الأدبيات والدراسات السابقة فى النظرية المجذرة ، كما يبدد بعض الأساطير التى تطورت وتراكمت عبر السنوات الماضية حول استخدام النظرية المجذرة ، وذلك من خلال توضيح وتفسير كيف يقوم باحث باستخدام

قراءاته وتجاربه الخاصة للتوصل إلى الحساسية النظرية ولتطوير مفاهيم يتم التحقق منها لاحقًا بواسطة بيانات واقعية .

أما الفصل الخامس الذى يمثل أول فصل فى التحليل فيصف عملية الترميز المفتوح حيث نقوم بنقل القارئ خلال الإجراءات خطوة خطوة ، ابتداءً من تسمية ووصف المفاهيم ، ثم تناول كيف تتم عملية تجميع الفئات ، وانتهاء بكيفية تطوير الفئات فيما يتعلق بخصائصها ومستويات أبعادها التى قد تختلف عن تلك الخصائص .

أما الفصل السادس ، فنعتقد أنه من أهم فصول هذا الكتاب ، ففيه قمنا بتقديم الأدوات التى تمكّن المستخدمين من تخطى وتجاوز الانطباعات المخلوطة والطرق التقليدية فى التفكير حول البيانات ، مما يساعد على التفكير حولها بطرق جديدة . فهذا الأمر ضرورى لأى باحث يرغب فى القيام بأى عمل فكرى مبدع حول الظواهر ، وفى الوقت نفسه يرغب فى تأسيس نتائجه فى ضوء الواقع .

أما الفصل السابع فيدور حول «الترميز المحورى» الذى يمثل النوع الثانى من الترميز حيث نقوم بوصف كيفية ارتباط الفئات بفئاتها الفرعية بواسطة الوسيلة التى نسميها النموذج . كما يحتوى هذا الفصل على قسم صغير يصف كيفية قيام المحلل باستخدام التفكير الاستدلالى والاستقرائى ليمتحن (ويصل إلى) الفروض المتصلة بالعلاقات المحتملة بين الفئات والفئات الفرعية .

أما الترميز الانتقائى فهو موضوع الفصل الثامن الذى يتناول ويوضح عملية ربط الفئات الرئيسية بعضها ببعض ، كما يوضح كيف يمكن استيعاب الاختلافات فى النظرية بواسطة تجميع الفئات وفقًا لمواقع أبعادها المحددة . بينما يتناول الفصل التاسع «العملية» فيوضح كيف أن التغير والحراك من الممكن استيعابه فى النظرية .

أما الفصل العاشر فيقدم إطارًا حول كيف يستطيع الباحث إتقان دمج الأوضاع والنتائج فى النظرية بواسطة ربطها بالظاهرة من خلال الفعل والتفاعل . إن هذا الفصل موجه على وجه الخصوص للمحللين الذين هم على درجة عالية من الخبرة بالنظرية المجذرة ، ومع هذا فهو يحتوى على قيمة عالية للمبتدئين ، كما يتضمن هذا الفصل قسمًا مختصرًا فى نهايته ناقشنا فيه الفروق بين النظرية الصورية والنظرية الجوهرية .

أما الفصل الحادى عشر فيتناول «الاختيار النظرى» ، ويوضح كيف يستطيع الفرد أن يقوم بعملية الاختيار فى النظرية المجذرة . وعلى وجه التحديد يبين هذا الفصل الاختلاف فى الاختيار وفقًا لنوع الترميز (المفتوح ، المحورى ، الانتقائى) الذى استخدمه الباحث .

أما دور المذكرات والأشكال التوضيحية فقد تم توضيحها فى الفصل الثانى عشر ، وهذه الوسائل المساعدة تستخدم للمحافظة على نتائج تحليل الباحث بدرجة عالية من التجريد خلال قيامه بعملية الترميز . وفى الفصل الثالث عشر تناولنا المسألة المهمة المتعلقة بعرض وإخراج دراسات النظرية المجذرة فى شكل كتب أو دوريات أو رسائل دكتوراه .

أما الفصل الرابع عشر والأخير ، فيقدم المعايير لتقويم دراسات النظرية المجذرة . ومن المؤكد أن يكون هذا الفصل على درجة عالية من الأهمية ليس فقط لأولئك الراغبين فى نقد وتقويم أعمالهم الخاصة وأعمال الآخرين ، بل أيضًا لأولئك الذين يقومون بعرض واستعراض المقالات لتقويمها قبل النشر فى الدوريات والوكالات التى تقوم بتمويل المشاريع البحثية .

ملاحظة ختامية :

بعد إعداد المسودة الأولى من هذا الكتاب واستخدامها فى تدريس طلاب الدراسات العليا والباحثين المتقدمين ، أشار علينا البعض بأن قيمة الكتاب تتجاوز الهدف الأساسى من وراء تأليفه ، وتتمثل فى تدريس الطلاب كيفية القيام بأبحاث النظرية المجذرة .

كما أن لهذا الكتاب استخدامًا مهمًا لأولئك الراغبين فى القيام بتحليل الموضوعات بالطرق الكيفية ، أو بالجمع فى ذلك بين الطرق الكمية والطرق الكيفية . كما أن المهتمين بتنمية وتطوير المفاهيم ربما يجدون المعلومات المقدمة فى بعض الفصول على وجه التحديد على درجة عالية من الفائدة ، كما أن الأفراد الراغبين فى التعرف على طرق جديدة فى التفكير فى الظواهر ربما يجدون أجزاء من هذا الكتاب ذات قيمة بهذا

الخصوص . إن هذه المجموعات من هؤلاء القراء ليست بحاجة إلى قراءة جميع فصول هذا الكتاب وتطبيقها ، ولذا فعليهم لتحقيق مقاصدهم الاقتصار فى قراءتهم على الفصول من الأول حتى السادس أو السابع وربما يقتصرون كذلك على الفصلين الحادى عشر والثانى عشر .

وغالبًا ما يواجه العاملون فى هيئة تحرير الدوريات العلمية أو فى وكالات تمويل الأبحاث تقارير أو مشاريع بحثية اعتمدت على دراسات النظرية المجذرة ، ومن الممكن لهؤلاء أن يقوموا بادئ ذى بدء بالاستعراض السريع للكتاب بأكمله للتعرف على المصطلحات والطرق الرئيسية المستخدمة فى هذا النوع من الدراسات ، ومن ثم التركيز على الفصل الرابع عشر الذى يحتوى على وصف للمعايير التى يمكن استخدامها لتقويم تقارير أو مشاريع أبحاث النظرية المجذرة .

كما أن المتخصصين المهتمين بتطوير وبناء النظرية بشكل استقرائى أو استدلالى ربما يجدون أجزاء محددة من هذا الكتاب ذات قيمة عالية لتدعيم الطرق البحثية الخاصة بهم ، ونحن أنفسنا مدركون وواعون جميع هذه الاستخدامات الممكنة . ولا نأمل من جميع المستخدمين لهذا الكتاب إلا أن يتعلموا من قراءته بالقدر الذى تعلمنا من جراء إعداده وكتابته .

ملاحظة أخيرة : سيجد قارئ هذا الكتاب أننا استخدمنا فى إخراجه نظامًا خاصًا من الحروف *المائلة* (Italics) **والمسوَّدة (Bold)** ، فأما الكلمات المكتوبة بالحروف المائلة فقد استخدمت للتنبيه على المصطلحات والمفاهيم الخاصة بطريقة النظرية المجذرة ، مثل كلمات «*فئات*» ، «*أبعاد*» ، «*الحساسية النظرية*» ، وقد حاولنا عدم المبالغة فى استخدام الكلمات ذات الأحرف المائلة وإنما استخدمناها بحرية مطلقة . أما الكلمات ذات **الحروف المسودة** فقد استخدمت كذلك فى عبارات ومصطلحات خاصة وجمل بأكملها . فالجمل المكتوبة بالحروف المسودة ذات فائدة معينة خاصة عند إعادة القراءة بسرعة أو عند قراءة النص نظرًا لسهولة ملاحظتها ، أما المصطلحات والعبارات المكتوبة بالحروف المسودة فقد استخدمت كذلك للغرض نفسه ، حيث استخدمت للتنبيه على مصطلحات خاصة عند ضرب الأمثلة وتوضيح الحالات ، وربما

يجد القارىء فى الصفحات الخاصة بالأمثلة التوضيحية بعض الاختلاف فى هذا النظام ، وعليه نرجو من القارئ أن يتحمل معنا ذلك العناء لأن هذا النظام بشكل عام سيساعد على فهم الكتاب إلى حد كبير .

ونود أن نعبر عن شكرنا واحترامنا لعدد من التلاميذ والزملاء الذين قاموا بمراجعة هذا الكتاب ونقده ، وعلى وجه الخصوص كل من : (جيل راين – Jill Rhine) ، و(أنا هازان – Anna Hazan) ، و (لورا ليمبرت – Lora Lempert) ، وذلك على ملاحظاتهم المحددة والعميقة على المسودة الأخيرة للكتاب ، كما نشكر كلاً من (دينيس برنيت – Denise Burnette) و (تيرسيا مونتينى – Theresa Montini) ، و (شيرل هول – Cheryl Hall) و (كاثى سلوبين – Kathy Slobin) على مراجعاتهم للمسودة الأولى من الكتاب ، وكذلك نشكر (جون فوجيمورا – Joan Fujimura) من جامعة هارفارد وكذلك (لى ستار – Leigh Star) من جامعة كاليفورنيا بمدينة أرفاين لاستخدامهم الكتاب فى تدريس طلابهم ، إذ إن جميع ملاحظاتهم كانت مهمة فى إعادة النظر فى الكتاب لتوضيحه وزيادة جودته وفائدته . ومن الانتقادات المهمة تلك التى قام بها (سيتسو مزنو – Setsuo Mizuno) من جامعة هوزى بطوكيو باليابان ، و (ديك كوربين – Dick Corbin) مهندس بسيلسون فالى ، كما نود أن نشكر (سالمونيكا ميث – Salmonica Maeth) على الساعات الطويلة التى استغرقتها فى طباعة وإعادة طباعة المخطوطة الرئيسية لهذا الكتاب ، كما نوجه الشكر العظيم على وجه الخصوص لـ (بيرنى جلاسير – Barney Glaser) الذى قام مع (آنسيلم ستراوس – Anselm Strauss) بابتكار هذه المنهجية من خلال الاتصالات الهاتفية الليلية المكثفة حول الطرق البحثية المبتكرة التى أصبحت تعرف الآن بما يسمى بـ «النظرية المجذرة» .

الجزء الأول

اعتبارات أساسية

إن الاكتشافات كانت ولا تزال الهدف من العلم منذ فجر عصر التنوير ، ومع هذا فإن الكيفية التى تمت بها هذه الاكتشافات تنوعت وفقًا لطبيعة المواد المدروسة وللزمن . فعلى سبيل المثال قام (جاليلو) فى الفقرات المقتبسة الآتية بوصف طريقته فيما حققه من اكتشافات .

تتمثل الطريقة فى الآتى : قم بتوجيه المنظار (التلسكوب) تجاه الشمس كما لو كنت تقوم فعلاً بملاحظة ذلك الجسم . وبالتركيز على ذلك الجسم ودراسته قم بعرض ورقة مسطحة على مسافة قدم واحدة من العدسة المقعرة ، وعلى هذه الورقة سيسقط ظلال أو خيال مدور من قرص الشمس بكل ما به من مواقع أو بقع وقد انتظمت وبدت على الورقة تمامًا بنفس التناسق والانتظام الذى هى عليه فى الشمس . هذا وكلما أبعدت الورق عن المنظار أدى ذلك إلى كبر ذلك الخيال وإلى تصوير المواقع والبقع بشكل أفضل . (Drake, 1957, p: 115) .

وعلى الرغم من أننا ندرس ظواهر دنيوية حتى ولو كانت أشياء محيرة مثلها فى ذلك مثل الشمس والنجوم ، كالأشخاص والجماعات والتجمعات والمنظمات التى تتصرف وتتفاعل فرديًا وجماعيًا فإننا مثل (جاليلو) لدينا طريقة فعالة لتحقيق الاكتشافات . ولكن قبل مناقشة الإجراءات التحليلية الفعلية التى تتكون منها تلك الطريقة فإنه لابد أن نطلب منك النظر بتمعن فى فصول الجزء الأول . فهذه الفصول الأربعة القادمة تعدّ بمثابة المنظار (التلسكوب) الذى نقدمه لك لترى وتتفحص الأشياء من خلاله . فهى تزودك بالمنطق الإجرائى الأساسى الذى يقف وراء طريقة النظرية المجذرة مما يجعلك تفهم بشكل أكثر وضوحًا ما أنت قائم بعمله ولماذا تعمله .

الفصل الأول

مقدمة

قبل الشروع فى المظاهر التقنية المتقدمة للتحليل (كما هى معروضة فى الفصل الخامس حتى نهاية هذا الكتاب) ، ربما يكون من المفيد تقديم بعض المعلومات عن الخلفية الفكرية للتحليل النوعى عمومًا والنظرية المجذرة على وجه الخصوص . هذه المعلومات سيتم عرضها فى هذا الفصل فى صيغة السؤال والجواب ، علمًا بأن هذه الأسئلة مأخوذة من تلك التى تثار دائمًا من قبل الباحثين حديثى الخبرة فى مجال هذا النوع من البحوث .

ما هو البحث النوعى ؟

يقصد بمصطلح *«البحث النوعى»* أى نوع من البحوث التى تعطى نتائج لم يتم التوصل إليها بواسطة الإجراءات الإحصائية أو بواسطة أى وسائل أخرى من الوسائل الكمية . إن هذا المصطلح يشير ويتضمن البحوث حول السير الشخصية والقصص والسلوك ، وكذلك وظائف المنظمات والحركات الاجتماعية أو العلاقات التفاعلية . كما أن بعض بيانات البحث النوعى من الممكن أن تقاس أو تحدد كميًا تمامًا كما فى بيانات التعداد السكانى ، ومع هذا فإن التحليل نفسه تحليل نوعى . وفى الواقع فإن مصطلح *«البحث النوعى»* مصطلح يكتنفه بعض الغموض لأنه ربما يعنى أشياء مختلفةً لأشخاص مختلفين ، فبعض الباحثين يقومون بجمع البيانات بواسطة أداة المقابلة وأداة الملاحظة وهما أداتان مرتبطتان عادة بطرق البحث النوعية . ومع هذا فإن هؤلاء الباحثين يقومون بصياغة أو ترميز تلك البيانات بأسلوب يتيح لهم تحليل تلك البيانات تحليلاً إحصائيًا (كميًا) . إن هؤلاء الباحثين فى الواقع يقومون بتحويل البيانات النوعية إلى بيانات كمية . لاحظ ، مع هذا ، أننا لا نشير إلى هذه العملية ولكننا نشير إلى الإجراءات التحليلية غير الاحصائية التى تؤدى إلى نتائج تم التوصل إليها من البيانات المجموعة بواسطة أدوات متنوعة ، مثل : الملاحظة ، والمقابلة ، والوثائق ،

والكتب ، وأشرطة الفديو ، والبيانات المرمزة أو المنظمة لأغراض أخرى كبيانات التعداد السكانى .

ما نوع المهارات المطلوبة للقيام بالبحث النوعى ؟

إن المهارت المطلوبة للقيام بالبحث النوعى (كما سترى لاحقًا) تتمثل فى كلٍ من الآتى: أن تتراجع للوراء وتقوم بالتحليل النقدى للأوضاع ، التعرف على التحيز والابتعاد عنه ، الحصول على بيانات صادقة وثابتة ، التفكير بأسلوب تجريدى . ولعمل هذا كله ، فإن البحث النوعى يتطلب حساسية نظرية واجتماعية ، والقدرة على إبقاء بعد تحليلى أثناء القيام باستنتاجات معتمدة على الخبرة السابقة والخلفية النظرية لتفسير الظواهر الملاحظة ، وكذلك قوة الملاحظة بمهارة ، ومهارات التفاعل الجيدة.

هل من الممكن أن أجمع بين طرق البحث النوعية والكمية ؟

نعم من الممكن الجمع بين الطرق النوعية والكمية فى البحث ، فالنوعان من الطرق يمكن استخدامهما بفعالية فى المشروع البحثى الواحد (Strauss, Bucher, Enrlich, Schatzman, & Sabshin, 1964) . فجميع المشاريع البحثية وجميع الباحثين يركزون اهتماماتهم على نوع دون الآخر من البحوث ، بسبب القناعة ، ولكن أيضًا بسبب طبيعة الدراسة والتدريب ، وكذلك بسبب طبيعة المشكلة تحت الدراسة . ومن الأمثلة على كيفية الجمع بين النوعين من الطرق ما يأتى: أحد الباحثين ربما يستخدم البيانات النوعية ليشرح أو ليوضح نتائج تم التوصل إليها بالطرق الكمية ، كما أن أحد الباحثين ربما يقوم بمعالجة نتائج الدراسات الديموغرافية إحصائيًا (أو كميًا) ، أو استخدام نوع ما من البيانات الكمية للتأكد جزئيًا من صدق التحليل النوعى . (انظر: Denzin, 1970, on Triangulation) .

لماذا القيام بالبحث النوعى ؟

هناك العديد من الأسباب المشروعة للقيام بالبحث النوعى ، يتمثل أحد هذه الأسباب فى قناعة الباحث المعتمدة على الخبرة البحثية . كما أن بعض الباحثين

ينتمون إلى تخصصات علمية مثل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، أو يلتزمون بتوجهات فلسفية معينة مثل الظاهراتية (الفينومينولوجيا) ، وهى جميعها تؤيد تقليدياً استخدام الطرق النوعية فى جمع البيانات وتحليلها ، تلك التى أدت إلى التوصل إلى نتائج مرضية . وهناك سبب آخر يتمثل فى طبيعة المشكلة تحت الدراسة ، فبعض الدراسات تتناسب طبيعيًا مع أنواع البحث الكيفية ، كالأبحاث التى تحاول اكتشاف طبيعة تجارب الأشخاص مع ظواهر ، مثل : المرض والديانة والإدمان . فمن الممكن استخدام طرق البحث النوعية لاكتشاف وفهم ما يقف خلف أى ظاهرة من هذه الظواهر التى لا يعرف عنها إلا النزر اليسير ، كما أنه من الممكن استخدام هذا النوع من البحوث للحصول على لمحات وملاحظات جديدة ومطولة عن الظواهر التى يعرف عنها أشياء كثيرة . كذلك فإن طرق البحث النوعية من الممكن أن تعطى معلومات مفصلة وصعبة عن الظواهر التى من الصعب التوصل إليها بواسطة طرق البحث الكمية .

من الذى يقوم بالبحث النوعى ؟

يقوم بالبحث النوعى الباحثون فى مجال العلوم السلوكية والاجتماعية ، وكذلك الممارسون فى تلك المجالات المهتمة بالقضايا المتعلقة بالسلوك الإنسانى ووظائفه . وهذا النوع من البحوث من الممكن استخدامه لدراسة المنظمات والجماعات والأفراد ، كما يمكن تنفيذه بواسطة فرق بحثية أو بواسطة أشخاص فرادى أو مجتمعين . وعندما تجمع طرق البحث الكيفية مع طرق البحث الكمية فإن المظاهر الكيفية للبحث تأخذ مكانًا ثانويًا من المشروع البحثى الكبير ؛ إذ إنها غالبًا ما تنفذ بواسطة أفراد أو فريق صغير من المتخصصين .

ما العناصر الرئيسية للبحث النوعى ؟

هناك فى الأساس ثلاثة عناصر رئيسية للبحث النوعى : أولها يتمثل فى البيانات التى يمكن جمعها من مصادر مختلفة كما أشير إلى ذلك سابقًا (فى مكان آخر) ومنها المقابلات والملاحظات وهى أكثرها انتشاراً .

أما ثانى العناصر الرئيسية للبحث النوعى فيتكون من **الإجراءات التفسيرية أو التحليلية المختلفة** التى تستخدم للوصول إلى نتائج أو نظريات ، وتشمل هذه الإجراءات وسائل صياغة واشتقاق المفاهيم من البيانات والمعلومات . هذه العملية التى تعرف بالترميز أو التنظيم تختلف تبعًا للتدريب والخبرة وهدف الباحث . انظر على سبيل المثال : (بيكر - Becker, 1970) و (شارمز - Charmaz, 1983) ، و (لوفلاند، Lofland) و (مايلز وهوبرمان - Miles and Huberman, 1984) . أما الإجراءات الأخرى فتمثل جزءًا من العملية التحليلية ، ويدخل ضمن ذلك : المعاينة غير الإحصائية (انظر: Schatzman & Strauss, 1973) ، وتدوين المذكرات ، وعمل الرسوم التوضيحية للعلاقات بين المفاهيم .

أما العنصر الرئيسى الثالث للبحث النوعى فيتمثل فى **التقارير اللفظية** والمكتوبة ، تلك التقارير التى من الممكن أن تعرض فى الدوريات العلمية أو المؤتمرات ، كما يمكن أن تأخذ أشكالاً متنوعة حسب الجمهور المستفيد وحسب مظاهر النتائج أو النظرية المعروضة . وعلى سبيل المثال من الممكن أن يقوم أحد الباحثين بعرض لمحة موجزة عما توصل إليه من نتائج أو أن يقوم عوضًا عن ذلك بتقديم شرح ومناقشة مفصلة لإحدى جزئيات الدراسة .

هل هناك أنماط مختلفة للبحث النوعى ؟

هناك إجابات مختلفة عن هذا السؤال وذلك حسب الشىء الذى يدور حوله السؤال فعليًا . فعلى سبيل المثال : هل المقصود بالسؤال أنماط البحث أم الأهداف أم المداخل التى يعتمد عليها التحليل ؟ ففى الغالب عند وصف البحث النوعى ، فإن أنماط وأهداف ومداخل التحليل تصبح مربكة ومتداخلة فى ذلك الوصف .

وبعض أنماط البحث النوعى تتمثل فى النظرية المجذرة وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) الوصفية ، والمدخل الظاهراتى (الفينومينولوجى) ، والسير الشخصية ، والتحليل التحادثى (التخاطبى) . فهذه الأنماط يستخدمها ، أو من الممكن أن يستخدمها الباحثون فى تخصصات مختلفة . وعلى سبيل المثال : ربما تستخدم المرضات وعلماء

الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الوصفية لدراسة مشكلة تقع فى نطاق تخصصاتهم تماماً مثلما يمكن أن يستخدموا النظرية المجذرة أو السير الذاتية .

أما فيما يتعلق بالأهداف ، فإنها لحسن الحظ لا تختلف باختلاف الباحثين ، فمن الممكن استخدام نتائج البحث النوعى لتوضيح نتائج البحث الكمى ، أو لبناء أدوات بحث لجمع البيانات ، أو لتطوير سياسة معينة ، أو لتقويم برامج ما ، أو لتقديم معلومات لأغراض تجارية ، أو لإرشاد الممارسين فى نطاق اهتماماتهم ، أو لتحقيق أهداف سياسية ، تماماً كما يمكن أن تستخدم لتحقيق أغراض أكثر علمية كتطوير المعارف الأساسية .

كذلك فإن أحد أهم الاختلافات والأسئلة المتعلقة بالبحث النوعى يرتبط بمسألة المدخل ، أو بعبارة أخرى : ما هى القيود أو الحدود المفروضة على تفسير البيانات ؟ بعض الباحثين على سبيل المثال يرون أن البيانات **يجب ألا تفسر** فى حد ذاتها ، وعوضاً عن ذلك فإن مهمة الباحث تقتصر على جمع البيانات وعرضها بأسلوب يجعل المخبرين (المبحوثين) يتحدثون عن أنفسهم . والقصد من وراء ذلك هو إعطاء وصف صادق بدون (أو مع قليل من) تفسير تلك البيانات والملاحظات التى قدمها الباحث . وعلى الرغم من أن هذه المجموعة من الباحثين يقرون بأن آراء المخبرين عن الواقع ربما لا تعكس الحقيقة ، فإن آراء المبحوثين تعرض وتقدم ، كما عبر عنها هؤلاء المبحوثون ، بطرق عفوية وذات معنى . وتتمثل الفلسفة التى يعتمد عليها هذا المدخل فى عرض النتائج من خلال ذلك الوصف الصادق فى أن تحيزات الباحث وذاتيته لن تتدخل فى فهم البيانات . وعليه ، فإن المهمة العلمية للباحث تقتصر على جمع البيانات وعرضهامثلما يفعل العاملون فى المجالات الصحفية إلى حد ما .

ومن القائمين بالبحوث النوعية من هم مهتمون **بالوصف الدقيق والصحيح** عند قيامهم بالتحليل وعرض النتائج ، إذ يرون أنه نظراً لأن الباحث لا يستطيع عرض جميع البيانات لجمهور القراء ، فإنه من الضرورى أن يقوم الباحث بتقليص تلك البيانات ، والهدف هنا يتمثل فى عرض وصف صحيح لما تمت دراسته وليس بالضرورة أن يكون ذلك من خلال كل ما تم جمعه من بيانات . إن تقليص وتنظيم البيانات يمثل فى حقيقة الأمر عملية اختيارية وتفسيرية للبيانات . فالباحثون الذين يقفون مع هذا المدخل عادة ما ينمقون فقراتهم الوصفية المطولة وما يقتبسونه من

بياناتهم الحقلية بتعليقاتهم التفسيرية . إن معظم الباحثين يتميزون بمهارات عالية فى سبك وصياغة الأوصاف ، وعبارات المتحدثين (المبحوثين) ، والمقتبسات الميدانية ، وتعليقاتهم الخاصة فى قصة وصفية ممكنة التصديق . والمقصود هنا من البيانات التوضيحية هو إعطاء المعنى والإحساس بماهية الواقع المدروس ، فى حين أن مهمة تفاسير وتعليقات الباحث تتمثل فى تقديم فهم موضوعى لذلك الواقع . وتختلف تفسيرات البيانات الوصفية من حيث مستوى التجريد النظرى باختلاف الباحثين ، وربما كذلك على مستوى التقارير الختامية للبحوث . ومن الملاحظ أنه ليس جميع هذه التعليقات التفسيرية ذات طبيعة نظرية على الرغم من أن بعض الباحثين يعتبر ذلك جزءًا من أهداف دراستهم .

كما أن هناك من الباحثين من هم مهتمون ببناء النظرية ، إذ يعتقد هؤلاء أن تطوير التفسيرات ذات الطابع التنظيرى يمثل أفضل وسيلة لفهم الواقع المدروس (Blumer, 1969, Diesing, 1971, Glaser, 1978) . إن بناء النظرية يعنى ضمنًا ، كما هى طبيعة ذلك ، تفسير البيانات نظرًا لأننا لا بد من تحويلها إلى مفاهيم ، والمفاهيم لا بد من ربطها ببعضها ليتشكل عن ذلك ترجمة نظرية للواقع المدروس ، ذلك الواقع الذى يفسر دائمًا وليس بالإمكان معرفة كنهه وحقيقته . إن تلك الصياغة النظرية المنتهى إليها من الممكن أن تستخدم وتفسر ذلك الواقع ، كما أنها تعطى إطارًا للعمل . كذلك فإن الباحثين المهتمين ببناء النظرية يعتقدون أيضًا أن النظريات تمثل أفضل طريقة منظمة لبناء وتركيب وربط المعرفة العلمية .

ما النظرية المجذرة ؟

إن النظرية المجذَّرة هى تلك النظرية التى تمت صياغتها بأسلوب استقرائى من تلك الظواهر المقصودة بالدراسة . وبعبارة أخرى : هى تلك النظرية التى تم اكتشافها وتطويرها والتحقق من صحتها من خلال الجمع والتحليل المنظم للبيانات الخاصة بتلك الظواهر . وعلى هذا ، فإن كلاً من جمع البيانات وتحليلها والنظرية يقف بعضها من بعض فى علاقة تبادلية ، فأى باحث لا يستطيع البدء بنظرية ومن ثم يخضعها للاختبار . بل ، خلافًا لذلك ، يبدأ الباحث بدراسة ظاهرة ما سامحًا أو تاركًا كل ما له علاقة بذلك أن يبدو ويخرج للعيان تلقائيًا .

لماذا بناء نظرية مجذرة ؟

إن أى نظرية مجذرة تم بناؤها بإحكام ستتوفر فيها المعايير الأربعة الأساسية للحكم على مدى انطباق النظرية على الظواهر التى تدور حولها ، وهى كل من : **المطابقة أو التوافق ، والفهم ، والعمومية ، والضبط** . (انظر : Glaser & Strauss, 1967, pp. 237-250 and also Glaser, 1978, p. 3) ، وذلك لمزيد من التوضيح والتعرف على خصائص النظرية التى ليست مجذرة على الإطلاق أو النظرية التى تتحقق فيها خصائص النظرية المجذرة إلى حد كبير) . فإذا كانت النظرية صادقة فيما تقوله عن الواقع اليومى وما يخص الظاهرة المدروسة ، وتمت صياغتها بأسلوب استقرائى دقيق من واقع بيانات متنوعة ، فإنها والحال كذلك ، لا بد أن تطابق الظاهرة المدروسة . ونظراً لأنها تمثل ذلك الواقع الذى تدرسه ، فإنه لا بد أن تكون قابلة للفهم الشامل والاستيعاب وأن تبدو منطقية لكل من المبحوثين والباحثين على السواء . كما أنه إذا كانت البيانات التى قامت عليها النظرية بيانات شاملة ، وتفسيراتها تفسيرات واضحة ، فإن النظرية لا بد أن تكون على مستوى كاف من التجريد ، وأن تتنوع بما فيه الكفاية وبما يجعلها قابلة للانطباق على سياقات وبيئات مختلفة تتعلق بتلك الظاهرة . وأخيراً ، فإن النظرية لا بد أن تتوفر بها خاصية الضبط والتحكم فيما يخص الفعل الذى من الممكن أن يوجه أو يتخذ حيال الظاهرة . وذلك نظراً لأن الفروض المتضمنة للعلاقات بين المفاهيم والتى من الممكن استخدامها لاحقًا لتوجيه ذلك الفعل ، تم اشتقاقها بطريقة منظمة من البيانات الفعلية الخاصة بتلك الظاهرة على وجه التحديد . وإضافة إلى ذلك ، فإن الأوضاع التى تنطبق عليها لا بد أن تستوعب بوضوح ، وبالتالى لا بد أن تنطبق بدقة على أى موقف محدد .

ما هو مدخل النظرية المجذرة ؟

إن مدخل النظرية المجذرة يمثل أحد **طرق** البحوث النوعية التى تستخدم مجموعة من **الإجراءات المنظمة لتطوير وتنمية** نظرية **مجذرة** تمت صياغتها بأسلوب استقرائى حول **ظاهرة** ما . فنتائج هذا النوع من البحوث تتكون من صياغة نظرية للواقع المدروس ، بدلاً من أن تتكون من مجموعة من الأرقام أو مجموعة من المواضيع التى ربط بينها

بشكل هزيل . ومن خلال هذه المنهجية ، فإن المفاهيم والعلاقات التى تربط بينها ليست فقط متولدة وناشئة من العملية البحثية ، بل أيضاً خاضعة للامتحان والاختبار . إن إجراءات هذا المدخل متعددة ، ومع ذلك محددة كما سيلاحظ لاحقًا .

أما الغرض من طريقة النظرية المجذرة بطبيعة الحال فيتمثل فى بناء نظرية صادقة موضحة للظواهر التى تدور حولها . كما أن الباحثين فى مجال النظرية المجذرة يطمحون أن تكون نظرياتهم فى نهاية المطاف ذات صلة بالنظريات الأخرى فى التخصصات الخاصة بها بطريقة تراكمية ، وأن تكون مضامين النظرية ذات فوائد تطبيقية .

أين نشأ مدخل النظرية المجذرة ؟

قام بتطوير النظرية المجذرة كمنهجية معينة عالمان من علماء الاجتماع هما : (برنى جلاسير – Barney Glaser) ، و (أنسيلم ستراوس – Anselm Strauss) . وعلى الرغم من أن كلاً منهما قد جاء من خلفية بحثية وفلسفية مختلفة ، فإن مساهماتهما فى تطوير هذه المنهجية تعتبر على قدر واحد من الأهمية . فقد عمل كل واحد منهما إلى جانب الآخر لتطوير الأدوات والتقنيات اللازمة للتحليل النوعى للبيانات ، تلك الأدوات التى تعكس نوع التعليم الذى تلقاه كل منهما والخلفية الفكرية الخاصة به .

بخصوص (أنسيلم ستراوس) فقد درس فى جامعة شيكاغو المعروفة بتاريخها الطويل وتقاليدها فى مجال البحوث الكيفية . وقد تأثر بينما كان يدرس هناك بكتابات التفاعليين الرمزيين وكتابات المذهب الذرائعى (البرجماتى) . وقد تأثر على وجه الخصوص بكل من : (روبرت بارك – Robert Park) ، و (دبليو آى توماس – W. I. Thomas) و (جون ديوى – John Dewey) ، و (جورج هيربرت ميد – George H. Mead) ، و (إيفرت هيوز – Everett Hughes) ، و (وهيربرت بلومر – Herbert Blumer) . وقد ساهمت هذه الخلفية فى تطوير منهجية النظرية المجذرة من حيث :

أ – الحاجة الماسة للنزول إلى الميدان إذا كان الباحث يرغب فعلاً فى التعرف على ماذا يجرى ويحدث فى الواقع الاجتماعى .

ب – أهمية النظرية المجذرة فى تطوير وتنمية التخصص ذى العلاقة .

جـ - طبيعة التجربة والتغير كعمليات ناشئة ومتطورة باستمرار .

د - الدور النشط للأشخاص فى تكوين وبناء الواقع الذى يعيشون فيه .

هـ - التركيز على كل من التغير والعملية وعلى تنوع وتعقد الحياة .

و - الترابط المتبادل بين كل من الأوضاع والمعنى والفعل . وإضافة إلى ذلك فإن لدى (ستراوس) خبرة سابقة فى البحوث الحقلية ، كما قام كثيراً بتدريس التفاعل الواضح بين كل من عمليات جمع البيانات وتحليلها وقليل من إجراءات ترميز وتنظيم البيانات التى تم التوسع فيها فى الفترات الزمنية اللاحقة (Strauss, 1964) .

أما فيما يتعلق بـ (برنى جلاسير) فقد جاء من خلفية علمية مختلفة ، ولكن مع بعض الميزات والخصائص المهمة المشتركة التى سمحت بلا شك بالتعاون بين الرجلين فى تطوير النظرية المجذرة . وقد تلقى تدريباته فى جامعة كولومبيا وتأثر بـ (بول لاسيرسفيلد (Paul Lazarsfeld) المعروف بمخترع طرق البحث الكمية فى العلوم الاجتماعية . وبينما كان (جلاسير) يقوم بدراسات كيفية فى فترات لاحقة ، فقد رأى أن الحاجة ماسة لمجموعة من الإجراءات المدروسة والمنظمة والمصوغة بدقة وإحكام لترميز البيانات ، وامتحان فروض تمت صياغتها أثناء العملية البحثية . كما أن التقاليد الفكرية لجامعة كولومبيا أعطت أهمية كبرى للبحوث الميدانية (الإمبريقية) ولبناء النظرية . ومن هنا فإن كلاً من التقاليد البحثية لجامعتى شيكاغو وكولومبيا قد تم استخدامها للقيام بأبحاث مفيدة لكل من جمهور المتخصصين والناس العاديين . ولهذا السبب ، فإن معظم كتابات النظرية المجذرة التى صدرت عن هذا الاشتراك بين (جلاسير) و (ستراوس) بما فيها بحث الموت (Daying, 1965, 1968) قد تم توجيهها إلى ذلك الجمهور وإلى زملائهم فى التخصص .

ما هى المتطلبات اللازمة لتعلم هذا المدخل ؟

كما هو الحال مع أى مهارة من المهارات ، فإن البراعة فى عمل نظرية مجذرة تتحقق بالتدريب والدراسة المستمرة . فأى فرد يرغب فى ذلك لا بد آجلاً أو عاجلاً أن يصل إلى مستوى كاف من المهارة والسهولة فى القيام ببحث مفيد ورائع ، بشرط أن تتحقق الظروف الآتية :

١ - أن يقوم الفرد **بالدراسة** الفاحصة ، لا مجرد القراءة العابرة ، لإجراءات هذا المدخل كما هى موضحة فى الكتب المختلفة المشار إليها سابقًا ، وأن يكون مستعداً للاسترشاد بها (انظر : Glaser, 1978; Glaser & Strauss, 1967; Strauss, 1978) . هذه **الإجراءات** تم تصميمها لبناء نظرية بأسلوب دقيق ومنظم . وعليه فإن الاطلاع المختصر والسريع على تلك القراءات سوف يؤدى إلى الخروج بنظرية هزيلة ذات تصور محدود ، وربما لا تعطى تمثيلاً صحيحًا للواقع الاجتماعى .

٢ - لا بد من اتباع هذه الإجراءات عند القيام بالبحث . وبعبارة أخرى ، فإن أخذ مادة فى النظرية المجذرة لا يجعل من الباحث متخصصاً فى النظرية المجذرة . بل من خلال **التدريب على هذه الإجراءات وتطبيقها** بواسطة البحث المستمر ، يستطيع الباحث أن يصل إلى فهم كافٍ لكيفية تطبيقها وإلى المهارة والخبرة التى تمكّنه من الاستمرار بنجاح فى استخدام تلك التقنيات .

٣ - كما أن قدراً محدداً من **الانفتاح** والمرونة أمر مطلوب ، حتى يستطيع الباحث أن يكيف هذه الإجراءات مع الظواهر والأوضاع البحثية المختلفة.

هل تعتبر النظرية المجذرة مدخلاً اجتماعيًا (سوسيولوجيًا) فقط ؟

يمكن للباحثين فى فروع المعرفة الإنسانية المختلفة أن يستخدموا النظرية المجذرة بنجاح . فليس ضرورياً أن يكون الباحث عالم اجتماع أو منتميًا للنظرية التفاعلية الرمزية ، حتى يتمكن من استخدام النظرية المجذرة . فالشىء المهم هنا هو الإجراءات ، وهى إجراءات ليست مقيدة بقيود التخصص . ومع هذا فمن الضرورى أن نضع فى الاعتبار أن الباحثين فى التخصصات المختلفة سيكونون مهتمين بظواهر مختلفة ، وربما ينظرون إلى الظاهرة نفسها من زوايا مختلفة بسبب الاختلافات فى الاهتمامات والتصورات التخصصية . وعلى سبيل المثال ، إذا أخذنا موضوعًا مجالاً للدراسة مثل الأطفال فى المدرسة ، فإن الممرض (أو الممرضة) سيكون مهتمًا بمشكلات الأطفال الصحية ، وعالم النفس سيكون مهتمًا بمسألة تكيفهم ، فى حين سيكون عالم الاجتماع مهتمًا بسلوكهم الاجتماعى ، والمربى سيكون مهتمًا بأنماط وعملية التعلم لدى

هؤلاء الأطفال ، أما الدارس الظاهراتى (الفينامينولوجى) - من أى تخصص كان - فسيكون مهتمًا بالتجربة المدرسية الذاتية لدى هؤلاء الأطفال . فكل منظور أو اتجاه نظرى من هذا سيعمل على تلوين أو تشكيل المدخل المستخدم لدراسة هؤلاء الأطفال . ومع هذا ، فإن مدخل النظرية المجذرة يستطيع أن يزود كل باحث من هؤلاء الباحثين بإجراءات لتحليل البيانات ، تؤدى إلى تطوير نظرية مفيدة للتخصص الذى ينتمى إليه كل منهم . كما يمكن القيام بدراسة متعددة التخصصات باستخدام إجراءات النظرية المجذرة ، وهنا يستطيع أى باحث أن يقدم مساهمته والمنظور الخاص بتخصصه فى هذه الدراسة التكاملية ، وعليه فإن أى نظرية ستنشأ من هذه المحاولة ستعكس بشكل تكاملى وجهة النظر التصورية لكل تخصص .

هل تعتبر النظرية المجذرة طريقة علمية ؟ ، وإذا كان الأمر بالإيجاب ، فأين يوجد الجانب الإبداعى بها ؟

تعتبر النظرية المجذرة طريقة علمية ؛ فقد تم تصميم إجراءاتها بأسلوب يجعل منها طريقة تنطبق عليها المعايير والمحكّات المعتبرة فى القيام بأعمال علمية جيدة ، وذلك شريطة أن يتم تنفيذ تلك الإجراءات بدقة واهتمام ، وهذه المعايير هى : الأهمية ، مطابقة النظرية للملاحظات ، القابلية للتعميم ، الثبات أو إمكانية إعادة إنتاجها ، الدقة ، الصرامة ، وإمكانية التحقق من صحتها . وقد تم شرح هذه المعايير بشىء من التفصيل فى الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب . (انظر Corbin & Strauss, 1990 لمزيد من الشرح المفصل لهذا الموضوع) .

إن الخلاف هنا لا يدور حول ما إذا كانت تلك المعايير منطبقة على هذا المدخل ، بل حول كيفية **تفسير وفهم** تلك المعايير والمحكات **وتحديدها** فى مدخل النظرية المجذرة . فالمعايير لا تمثل إلا أشياء أكثر عمومية لمبادئ أو أدلة محددة ، فى حين أن الباحثين المتخصصين فى البحوث الكيفية يواجهون خطر تفسير تلك المعايير بطريقة بالغة التحديد ، وبلغة وأسلوب التفاسير الوضعية التى قام بتطويرها الباحثون المتخصصون فى البحوث الكمية . وعليه ، فإنه - فى حقيقة الأمر - لا بد للمؤيدين لكل طريقة من طرائق الاكتشاف أن يقوموا بإنشاء مقاييس أكثر تحديداً ، معتمدة على إجراءات محددة وجدوا أنها أكثر فائدة فى أعمالهم البحثية .

كما أن **مسألة الإبداع** تمثل عنصراً حيوياً من عناصر طريقة النظرية المجذرة ، فإجراءات النظرية المجذرة تجبر الباحث على تجاوز المسلمات والافتراضات وخلق نظام جديد بدلاً من الأول . ويظهر الإبداع نفسه فى قدرة الباحث على تسمية وتصنيف الفئات بحرية ، وكذلك فى ترك العقل يتأمل ويضع ما يشاء من الارتباطات غير المقيدة والضرورية لصياغة أسئلة مثيرة ، وكذلك للخروج بالمقارنات التى أدت إلى الاكتشاف . فالمقارنات تجعل الباحث حساساً ويقظاً كما سنرى ذلك لاحقاً ، مما يمكنه من الإقرار والاعتراف بالفئات الكامنة والممكنة ، وكذلك من تحديد الأسباب والنتائج ذات العلاقة عندما تتضح وتظهر فى البيانات . ومع أن الإبداع أمر مطلوب لتطوير نظرية فعالة بطبيعة الحال ، فإن على الباحث دائماً أن يقوم بالتأكد من مصداقية تلك الفئات والعبارات التى تنص على العلاقات ، والتى تم التوصل إليها بإبداع من خلال العملية البحثية الشاملة .

كيف يتم التوصل إلى الاكتشافات ؟

تمثل الأيام الأولى بالنسبة لباحث يقوم بمشروع بحث كيفى لأول مرة ، زمناً فى غاية الصعوبة : فهناك الإثارة والابتهاج الذى يعترى الباحث أثناء قيامه بالمقابلات لأول مرة وخلال أيامه الأولى فى الميدان . كما يمكن أن يواجه الباحث بعض الإحباطات الناشئة عن التأخر فى شروع الباحث فى بحثه ، وذلك بسبب التأخر فى الحصول على سبل لتأمين مصادر البيانات أو فى الحصول على الموافقة الضرورية من الجهات ذات العلاقة . فبعد تجاوز هذه الصعوبات الأولية ، يجد معظم الباحثين فى جمع البيانات عملية مرضية إلى حد كبير . ومع هذا فإن أسعد لحظات البحث بالنسبة للباحثين ذوى الميول التحليلية ، ستتمثل فى تلك اللحظات التى تقود إلى اكتشافاتهم . وربما تكون تلك أموراً من قبيل سرعة البديهة ، أو اكتشافات أساسية فى فهم معانى وأنماط الأحداث ، أو الرضا العميق الناتج من التمكن من حل ألغاز البحث الرئيسية ، أو ربما تكون فقط اكتشافات عادية ومع هذا ممتعة ، أو حتى ربما تكون مجرد التمكن من الوصول إلى فكرة تحليلية ذات مستوى عالٍ من التجريد .

أما عن التساؤل الذى يدور حول ، من أين تأتى الاكتشافات ؟ **فهو سؤال** عادة ما يختلط مع سؤال آخر حول : أين يكون الباحث **عندما** تأتى وتظهر هذه الاكتشافات ؟ ولتوضيح تلك النقطة سأقوم هنا بذكر قصة قصيرة . فقبيل إرسال النسخة الأولية من الكتاب الأول عن النظرية المجذرة إلى الناشر ، تم إرسال نسخة منه إلى صديق متخصص فى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) الذى ربما قام بقراءته قراءة سريعة قبل أن يرسل إلى خطاب شكر من صفحة واحدة . ومع هذا ، فقد قام أيضًا بالاحتجاج على إعداد كتاب من هذا القبيل . لأن الأفكار قبل كل شىء تأتى ، على حد قوله ، من كل مكان سواء أثناء السير أو الركوب فى الحافلات أو فى أى مكان آخر . ومع أن ذلك صحيح بطبيعة الحال ، فإن الأفكار لا تأتى لكل شخص وعن أى شىء . وإنما تأتى أو تبرز تحت ظروف محددة . فالباحث فى البداية لا بد أن يفكر فى البيانات وبقدر من التركيز ، كما لا بد أن يعرف الكثير عن الموضوع قيد الدراسة . وفى نفس الوقت ، لا بد للباحث أن يشعر بشىءٍ من الحيرة والقلق تجاه بعض مظاهر البيانات وميزاتها وكذلك تفسيرها حتى يصبح بإمكانه إثارة التساؤلات والبحث عن إجابات لها . فهذه الأسئلة والإجابة عنها تتم إثارتها والبحث عن إجابة لها حتى ولو كانت على مستوى منخفض من الوعى والإدراك ، وذلك قبل أن يتخلل أو يتطرق السؤال أو الإجابة الأساسية إلى وعى الباحث وإدراكه . وعلى الرغم من معرفة وحسن اطلاع الباحث على النظرية والبيانات ، فإن عليه التخلص من تلك الخصائص والمظاهر من عمله وإلا ربما تشكل عائقًا يحول دون الوصول إلى المنظور الجديد المتضمن فى طبيعة كل من الحدس المفاجئ ، والبصيرة الفذة ، والفكرة الألمعية ، والصياغة النظرية المتميزة . وبكل أسف ، فإن المعرفة المتخصصة والدقيقة ليست فقط ضرورية ولكنها فى أوقات ما تمثل عوائق فكرية تحول دون الوصول إلى هذا النوع من الإبداع الفكرى . وفى الحقيقة ، فإن الكثير من العلماء وكذلك الباحثين المؤهلين خبراء متميزون فى تخصصاتهم ولكنهم ليسوا مبدعين على وجه الخصوص .

ما الفرق بين النظرية والوصف ؟

هذا السؤال عادة ما يثيره الباحثون المبتدئون ، والإجابة عنه تحتوى على فكرتين أساسيتين : أولاهما ، أن النظرية تقوم على **المفاهيم** . فالبيانات المتشابهة تضم إلى

بعضها وتعطى اسمًا معينًا أو مفهومًا محددًا ، مما يعنى ضمنًا تفسيرًا للبيانات . وثانيتهما ، أن هذه المفاهيم مربوطة بعضها ببعض بواسطة عدد من **العبارات التى تعبر عن وجود علاقات** بين تلك المفاهيم . أما فى الوصف ، فإن البيانات ربما تنظم وفقًا للموضوعات . وهذه الموضوعات ربما تمثل عملية تفهم تلك البيانات ، ولكنها أقرب إلى أن تكون ملخصًا لكلمات مأخوذة مباشرة من البيانات بدون أو مع قليل من التفسير للبيانات ، وبدون أن تكون هناك أية محاولة للربط بين تلك الموضوعات بطريقة يتشكل عنها مخطط أو بناء نظرى .

هل من الضرورى أن يقوم الباحث بتدوين جميع مقابلاته أو ملاحظاته الحقلية ؟

تتمثل القاعدة العامة هنا فى أن يقوم الباحث فقط بتدوين أكبر قدر من البيانات التى يحتاج إليها . ومع هذا فإن ذلك ليس بالضرورة قرارًا سهل الاتخاذ ، وليس من الممكن اتخاذه بعقلانية حتى يجد الباحث نفسه فى خضم البحث والدراسة . وهنا عليه ألا يدون من المعلومات إلا بالقدر الذى يرى أنه فى حاجة إليه . كما أن النصائح المشار إليها لاحقًا بهذا الخصوص يجب ألا تؤخذ كرخصة لتدوين جزء يسير من المقابلات الأولية أو البيانات الحقلية المسجلة على الأشرطة . وفى الحقيقة ، وعندما تكون هذه هى الدراسة الأولى التى تقوم بها كباحث وأنت لا تزال قليل الخبرة فى هذا النوع من البحوث ، أو عندما تقوم بإجراء دراسة على مستوى محدود ولم تقم إلا بنزر يسير من المقابلات والملاحظات الحقلية – فمن الحكمة حينئذ أن تقوم بتدوين جميع البيانات ذات الصلة بما تقوم بدراسته .

وربما تكون أو لا تكون هناك حاجة – تبعًا لأهداف البحث الذى تقوم به – إلى أن تعمل على تدوين جميع البيانات المسجلة على الأشرطة ، أو كل فقرة أو سطر من كل مقابلة أو من كل بيانات مسجلة على الأشرطة . فالتدوين الفعلى (من الممكن أن يستلزم قدرًا ليس بالهين من الوقت والجهد البدنى والمادى) لا بد وأن يكون **اختياريًا وانتقائيًا** . وتتمثل الوسيلة الإجرائية فى الأسلوب التحليلى للنظرية المجذرة عمومًا فى الآتى : لا بد للباحث أن يقوم بتدوين وتحليل جميع البيانات التى يحصل عليها من خلال المقابلات والأعمال الحقلية الأولى ، وذلك قبل أن يستمر فى عمل مقابلاته وملاحظاته اللاحقة .

فهذا التنظيم والتحليل الأولى يعطى مرشداً ودليلاً للمقابلات والملاحظات الحقلية اللاحقة ، كما سيتم توضيح ذلك لاحقًا فى هذا الكتاب .

وعندما تتطور نظريتك لاحقًا ربما تجد نفسك فى حاجة إلى سماع الشريط ، والتدوين لتلك الجمل والفقرات ذات الصلة بنظريتك الآخذة فى النشوء والتطور . (فأى باحث ، مع بداية أى دراسة ، ليس متأكداً مما له ومما ليس له علاقة ، وعليه فمن الأفضل أن يقوم بتدوين كل شىء وإلا ربما يفقد بيانات على درجة عالية من الأهمية) . كما أن تدوينك لهذه الجزئيات المختارة من البيانات لن يؤدى بالضرورة إلى إعفائك لاحقًا من القيام بمزيد من التدوين عندما تجد نفسك فى حاجة للقيام بمزيد من التحليل الإضافى أو المفصل . ومع ذلك ، فإن القاعدة الأساسية تنص على أن النظرية لا بد وأن توجه ليس فقط الأشياء التى تبحث عنها وأين تجدها فى ميدان البحث ، ولكن لا بد وأن توجه أيضًا ما تبحث عنه فيما جمعته من البيانات . فمثل ذلك سوف يجعل الباب مفتوحًا أمام احتمال قيامك بجمع بيانات إضافية قبيل الانتهاء من دراستك ، عندما تكتشف من خلال تحليلاتك أن هناك ثغرة فى صياغاتك النظرية فى حاجة إلى معالجة ، وأن هناك حاجة إلى جمع مزيد من البيانات لسد تلك الثغرة . وعند هذا ، قد لا تحتاج إلا إلى تدوين تلك الأجزاء من المقابلات والملاحظات الحقلية ذات الصلة بالفجوة النظرية التى اضطررت من أجلها للعودة إلى الميدان لسدها .

وفى النهاية ، فإنها مسؤوليتك كباحث لتقرر الكم المطلوب من البيانات إلا إذا كانت هناك لجنة رسالة ماجستير أو دكتوراه أو مشرف يصر على كمية المقابلات والملاحظات التى لا بد من تدوينها . لذا لا بد أن تقرر وتحدد الهدف من دراستك ، ونوع الإسهام التحليلى الإضافى (ذى الحساسية التنظيرية والنفسية) للدراسة الشاملة المترتب على تلك الأجزاء المدونة وغير المدونة من البيانات . وربما تحتاج إلى تدوين شامل حتى تحصل على الكثافة أو الغزارة النظرية التى ترغب فى الحصول عليها . كما يمكن أن تحتاج إلى تدوين شامل إذا كان لديك المادة الكافية لتستأجر شخصاً ما ليقوم بتدوين الأشرطة التى سجلت عليها المقابلات والملاحظات الحقلية .

وبصرف النظر عن قيامك بتدوين جميع تلك الأشرطة أو جزء منها ، فمن المهم أن تستمع إلى الأشرطة ، فسماعها وتدوينها أمر ضرورى لتحليل كامل ومتنوع . وختاماً

فإنه يمكن القول **«إن الأكثر أفضل من الأقل»** ، ولكن فى نهاية المطاف فإن المسؤولية النهائية والحكم فى ذلك هى مسؤولية الباحث نفسه .

الملخص :

تعتبر النظرية المجذرة مدخلاً من مداخل البحوث النوعية تم تطويره من خلال الاشتراك بين (جلاسير) (وستراوس) . فأدوات وإجراءات التحليل فى هذا المدخل تمكّن الباحث من تطوير نظرية جوهرية تنطبق عليها المعايير المعتبرة للحكم بجودة الأعمال العلمية . وتتضمن هذه المعايير : الأهمية ، مطابقة النظرية للملاحظات ، التعميم ، الثبات أو إمكانية إعادة إنتاجها ، الدقة ، الصرامة ، إمكانية التحقق من صحتها . وفى حين أن الإجراءات قد تم تصميمها لإضفاء الدقة والصرامة على العملية التحليلية ، فإن مسألة الإبداع تمثل فى هذا المدخل عنصراً مهماً أيضاً ، وذلك نظراً لأن مسألة الإبداع هى التى تمكن الباحث من إثارة أسئلة ذات صلة بالبيانات وتجعله قادراً على عمل المقارنات التى تستنبط من البيانات رؤية جديدة نحو الظواهر ونحو الصياغات النظرية الجديدة . كما أن هذا المدخل من الممكن أن يستخدمه أى باحث يرغب فى تطوير نظرية مجذرة ، بصرف النظر عن نوع تخصصه أو التوجهات النظرية التى يؤمن بها . وأياً كان الأمر ، فإن **الدراسة** المتأنية للأدوات والإجراءات التى يحتويها هذا الكتاب وتطبيقها أمر مطلوب لاكتساب المهارة والبراعة فى هذا المدخل .

الفصل الثانى
البداية

يعتبر الشروع فى أى بحث من أصعب الخطوات التى تمر بها عملية إعداد البحث ، إذ يجد الباحث نفسه أمام أهم سؤالين ، هما : كيف يتم الحصول على مشكلة صالحة للبحث ؟ ثم كيف يتم تحديدها وحصرها بفعالية مما يجعلها عمليًا قابلة للبحث وللدراسة ؟ إن هذين السؤالين ربما يبدوان على درجة معينة من الصعوبة للباحث المبتدئ فى البحث النوعى ؛ لأن عملية صنع الخيارات والالتزام بها بادئ ذى بدء تبدو أقل تنظيمًا وأكثر غموضًا مما هو عليه الحال فى البحوث الكمية .

وسنجيب عن هذين السؤالين من خلال تناولنا لمنهجية النظرية المجذرة . فالهدف من هذا الفصل يتمثل فى توضيح المبادئ الرئيسية التى تقف وراء عملية اتخاذ موقف من تلك الخيارات الأولية .

المشكلات البحثية :

إن مصادر المشكلات البحثية فى مدخل النظرية المجذرة لا تختلف عما هو معروف فى سائر المداخل الأخرى للبحوث الكيفية .

مصادر المشكلات البحثية :

هناك العديد من مصادر المشكلات القابلة للبحث ، مثل :

(١) المشكلة البحثية المقترحة أو المختارة :

من الطرق المتبعة فى الحصول على مشكلة بحثية أن يقوم الباحث نفسه بالسؤال عن اقتراحات أستاذ جامعى يقوم بعمل أبحاث فى مجال من مجالات اهتماماته . وغالبًا ما يكون لدى ذلك الأستاذ مشاريع بحثية قائمة ، وبالتالى سيرحب بطالب الدراسات العليا ليأخذ جزءًا من المشروع البحثى . إن هذه الطريقة تزيد من احتمال

اشتراك الباحث فى دراسة مشكلة بحثية مهمة وممكنة التنفيذ ؛ وذلك نظراً لأن الباحث المتمرس يعرف ما تم وما لم يتم بحثه من مشكلات فى حقل معين من حقول المعرفة . ومن جانب آخر ، فإن ما توصلت إليه من خيار بهذا الصدد ربما لا يشكل الخيار الأفضل الذى يسترعى اهتمامك ، وعليه فمن المهم أن تتذكر دائمًا أن ما تختاره من مشكلة بحثية لن تجد بداً من التعايش معها فترة ليست قصيرة من الزمن ، وعليه فإن الخيار النهائى لا بد أن يكون لمشكلة بحثية تسترعى انتباهك وتستحوذ على اهتمامك .

وهناك طريقة متفرعة عن ذلك تتمثل فى متابعة ملاحظات وتعليقات الزملاء أو المهنيين التى تقول بأن البحث فى كذا وكذا من القضايا سيكون مفيداً ومهمًا . فهذا يمثل غالبًا مصدراً سائغًا للمشكلة البحثية ، وبخاصة إذا كان لديك ميول خاصة تجاه ذلك الحقل الأساسى من المعرفة . فعلى سبيل المثال : إن اهتمام المرأة ذات الميول الرياضية ربما يستثار من خلال تعليق أو ملاحظة ، مثل : ما هو شعور النساء اللاتى يذهبن للمركز الرياضى نحو أجسامهن ؟ فهذه العبارة المفتوحة والواسعة من الممكن أن تقود إلى أنواع مختلفة من الأسئلة . على سبيل المثال : هل النساء اللاتى يذهبن للمراكز الرياضية يختلفن فى شعورهن تجاه أجسامهن عن النساء اللاتى لا يذهبن ؟ أو : هل النساء اللاتى يحملن الأثقال يختلفن فى شعورهن تجاه أجسامهن عن النساء اللاتى يمارسن رياضة الركض أو عن الرجال الذين يمارسون رياضة حمل الأثقال ؟

وهناك طريقة أخرى من هذا النوع تتمثل فيما يقال للطلاب من أن تمويل البحوث متوفر فى مجال كذا وكذا . وفى الحقيقة ، فإن ممولى أعضاء هيئة التدريس ربما يقومون بتوجيه الطلاب للبحوث التى يتوفر لها التمويل والدعم المادى ، فهذه مقترحات مشروعة ما دامت تمثل مشكلات بحثية فى حاجة خاصة للبحث والدراسة .

(٢) الأدبيات المتخصصة :

من الممكن أن تكون الأدبيات المتخصصة باعثًا للبحث بطرق مختلفة ، فأحيانًا تشير هذه الأدبيات إلى مجالات لم يتم اكتشافها نسبيًا ، أو تقترح موضوعًا فى حاجة لمزيد من التطوير والبحث . وأحيانًا أخرى ، توجد هناك تناقضات وغموض فى الأدبيات والكتابات التى دارت حول موضوع ما ، وعليه فإن هذا التعارض يشير إلى

الحاجة إلى دراسة تستطيع حل الاختلافات بين الأدبيات ، كذلك فإن القراءات التى يقوم بها باحث فى موضوع ما – ربما بدلاً مما سبق – تملى عليه الحاجة إلى مدخل جديد لحل مشكلة علمية قديمة ، على الرغم من أنها سبق أن حظيت بدراسات مكثفة فى الماضى . وقد يبدو أن شيئًا ما حول مجال البحث والظواهر المرتبطة به ظل غامضًا ، وعندما يكتشف ذلك أحيانًا فإنه ربما سيستخدم لفهم تلك الظاهرة . كذلك فإن الباحث عند مراجعته للأدبيات المتخصصة قد يجد نفسه مثاراً بواسطة نتيجة تتنافر مع تجربته الخاصة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى قيامه بدراسة لحل ذلك التنافر . وأخيراً ، فإن القراءة ربما تحفز حب الاستطلاع حول موضوع ما ، ففى اللحظة التى يقوم فيها قارئ بإثارة سؤال من نوع «ولكن ماذا يحدث إذا .. ؟» ولم يجد له إجابة فيما يقرؤه ، فإن القارئ هنا يكون قد وضع يده على مجال مشكلة علمية فى حاجة إلى الحل (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب لمزيد من التفصيل حول استخدامات الأدبيات المتخصصة) .

(٢) التجارب الشخصية والمهنية :

تمثل التجارب الشخصية والمهنية غالبًا مصادر المشكلات البحثية ، فإنسان ما قد يتعرض للطلاق وربما يتساءل عن تجربة الطلاق لدى النساء أو الرجال الذين تعرضت حالاتهم الزواجية للطلاق ، وربما يجد شخص ما نفسه أمام مشكلة فى المهنة التى يقوم بها أو المكان الذى يعمل فيه ، فالتجارب المهنية كثيراً ما تؤدى إلى القول بأن بعض خصائص العمل أو مقوماته وتطبيقاته ذات تأثير محدود أو غير فعال أو لا إنسانى أو عادل . وعليه ، فإن من المعتقد أن بحثًا جيداً قد يساعد على تصحيح الوضع . ومن المعلوم أن بعض المهنيين يعودون لمواصلة دراساتهم العليا لأنهم محفزون بطموح لتصحيح الأوضاع المهنية فى مجالاتهم ، فالمشكلات البحثية التى يختارونها مجذرة فى تلك الحوافز .

إن اختيار مشكلة بحثية من خلال التجارب الشخصية أو المهنية ربما يبدو أكثر خطورة ، مقارنة بتلك المشكلات التى يتم تحديدها فى ضوء الأدبيات المتخصصة أو المقترحات . ولكن هذا ليس صحيحًا بالضرورة ، إذ إن معيار التجربة الشخصية للباحث ربما يكون مؤشراً أكثر قيمة على محاولة بحثية ناجحة .

وبالتأكيد ، فإن أى باحث محب للاستطلاع ومهتم بالعالم من حوله ولديه الرغبة فى تحمل المشقة ، من المفروض بعد قدر من التعمق والتروى واستخدام المصادر المقترحة أعلاه لتحديد المشكلات البحثية ألا يجد صعوبة فى وجود مشكلة تستحق الدراسة . أما الخطوة التالية فتتمثل فى كيفية إثارة سؤال بحثى مناسب .

سؤال البحث :

إن كيفية صياغة السؤال البحثى تعتبر فى غاية الأهمية ؛ لأن ذلك يحدد إلى مدى بعيد منهج البحث الذى سيستخدم للإجابة عن سؤال البحث ، وفى هذا تكمن مشكلة عويصة تتمثل فيما إذا كان الباحث يختار منهج «النظرية المجذرة» ؛ نظراً لأن مجال البحث وسؤال البحث الناجم عنه يوحى بأن ذلك المنهج لا بد من استخدامه ، أو تتمثل فيما إذا كان الباحث قد يقرر استخدام منهجية «النظرية المجذرة» ، ثم يقوم بعد ذلك بصياغة سؤال بحثى ليتطابق مع ذلك .

إن هذه المشكلة تشكل أسئلة صعبة للإجابة عنها ، لأن الإجابة عنها ليست محددة وواضحة . وعلى الرغم من أن الافتراض الأساسى هنا يتمثل فى أن سؤال البحث يفترض أن يحدد المنهج المستخدم للإجابة عنه ، فإن العديد من الأشخاص معتادون على استخدام البحوث الكمية . ولذا ، فعندما توحى مشكلة البحث باستخدام دراسة نوعية ، فإنهم سيقومون أيضًا بصياغة أسئلة بحوثهم بأسلوب معين يؤدى إلى استخدام دراسة كمية للإجابة عنه ، وهناك باحثون آخرون يميلون إلى النظر إلى المشكلات البحثية من زاوية البحوث الكيفية ؛ وذلك نظراً لقناعاتهم وميولهم الخاصة أو لنوع الإعداد والتدريب الذى مروا به . فأسئلة البحث التى يثيرونها فى أى مجال بحثى تتم صياغتها بواسطة مفاهيم كيفية ، نظراً لأن هؤلاء الباحثين لا ينظرون أو يميلون إلى النظر إلى تلك المشكلات البحثية من أية زاوية أخرى . إننا نعتقد أنه ليس هناك أى سبب يدعونا إلى مناقشة هذه المسألة هنا ، وكل ما نريد فقط أن نؤكد عليه هنا هو أن مجالات مشكلات بحثية معينة توحى أو تتطلب دائمًا نوعًا معينًا من البحوث لدراستها ، وأن الباحث لا بد أن يتعامل بصدق وصراحة مع المشكلة البحثية التى يقوم بدراستها . وعلى سبيل المثال إذا كان هناك باحث ما يريد التعرف على ما إذا كانت بعض

العقاقير أكثر فعالية وتأثيراً من البعض الآخر ، فإن تجربة (إكلينيكية) مزدوجة ستكون أكثر ملاءمة للإجابة عن ذلك السؤال مقارنة بالنظرية المجذرة . ومع ذلك ، إذا كان هناك شخص ما يريد التعرف على كيفية التجربة التى تتكون لدى المشارك فى دراسة عقاقير ، فإن عليه أن ينخرط فى دراسة النظرية المجذرة أو أى نوع آخر من البحوث الكيفية . هذا ومن الواضح أن خيارات الباحث نفسه وطبيعة الإعداد والتدريب الذى خضع له تقومان بدور معين فى اختيار منهج دون الآخر ، ومع هذا فمن المفروض أن تلك العوامل لا تقف عائقًا أمامنا لاستخدام خيارات منهجية أخرى .

هناك أيضًا مظهر مهم آخر لسؤال البحث يتمثل فى توضيح حدود ما سيقوم الباحث بدراسته ، فمن المستحيل أن يقوم باحث بتغطية جميع مظاهر المشكلة التى هو بصدد دراستها . وسؤال البحث يساعد على تحديد المشكلة وتصنيفها لتصبح ذات نطاق ومدى يقبل التنفيذ . (إن هذا يمثل السؤال الأساسى الثانى المشار إليه سابقًا من تلك الأسئلة التى تواجه الباحثين وبخاصة المبتدئون منهم) .

صياغة سؤال البحث :

ما هو نمط أو شكل الأسئلة البحثية الخاصة بالنظرية المجذرة ؟ كيف تختلف تلك الأسئلة عن أسئلة البحوث الكمية ولماذا تختلف ؟

تذكر أن الهدف الأساسى من وراء استخدام طريقة النظرية المجذرة يتمثل فى تنمية النظرية ، ولعمل هذا فإننا نحتاج إلى سؤال أو أسئلة بحثية تعطينا المرونة والحرية لاكتشاف الظاهرة بعمق . كما أن هذا المدخل للبحث النوعى يقوم على افتراض مفاده أن جميع المفاهيم المتصلة بظاهرة ما لم تحدد حتى الآن ، أو على الأقل بالنسبة لمجتمع البحث أو مكان ما ، أما إذا كانت تلك المفاهيم سبقت دراستها فإن الافتراض هنا أن العلاقات بين تلك المفاهيم ليست مفهومة بوضوح ، أو أن صياغتها ليست دقيقة . ومن هذه الافتراضات أيضًا أنه ربما لم يكن هناك من الباحثين من أثار هذا السؤال البحثى المحدد بنفس الأسلوب المتبع فى طريقة النظرية المجذرة ، وعليه فإنه من غير الممكن والحال كذلك تحديد المتغيرات ذات الصلة بمجال الدراسة من تلك المتغيرات التى ليس لها صلة . هذه الرؤية المنهجية تخلق الحاجة لإثارة سؤال من نوعٍ

ما سوف يمكننا من وجود الإجابات لقضايا تبدو على درجة من الأهمية ولكنها ظلت بدون إجابات .

وبينما تتم إثارة السؤال المبدئى بشىء من العمومية ، فإنه يصبح أكثر تحديداً أو تركيزاً خلال العملية البحثية ، وذلك عندما تكتشف صلة أو عدم صلة هذه المفاهيم والعلاقات فيما بينها بالموضوع . وعليه ، فسؤال البحث يطرح فى البداية كسؤال مفتوح وعام فى نفس الوقت ، ولكنه ليس مفتوحاً بإطلاق إلى الدرجة التى يسمح بجميع الاحتمالات الممكنة . كما أنه ليس مغلقاً أو محدداً أو مركزاً بشدة إلى الدرجة التى تمنع احتمال الوصول إلى الاكتشاف الذى يمثل الهدف المحورى من وراء استخدام طريقة النظرية المجذرة . هذه المحاولة لا تستلزم البدء بعبارات عن علاقات بين متغير تابع ومتغير مستقل ، كما هو المعتاد فى الدراسات الكمية ؛ لأننا لسنا نختبر هذا النوع من الفروض فى هذه الأبحاث . **إن سؤال البحث فى طريقة النظرية المجذرة يتمثل فى عبارة تحدد الظاهرة المراد دراستها** . إنه يحيط الباحث على وجه التحديد بما يريد التركيز عليه وما يريد أن يعرف عن الموضوع . كما أن أسئلة دراسة «الطريقة المجذرة» تميل إلى الاهتمام بالفعل والعملية .

ملاحظة : فيما يلى سنعطى مثالاً عن كيفية قيام شخص ما بكتابة سؤال بحثى فى النظرية المجذرة .

كيف تستطيع النساء أن تتكيف مع الحمل المصاحب بأمراض مزمنة ؟ . هذا السؤال يطرح على الأقل بشكله العام ، حيث تمت صياغته بشكل واسع وغير محدد لدراسة كمية ، هو سؤال مثالى لدراسة النظرية المجذرة ، فالسؤال يعنى أن الدراسة ستقوم ببحث حالة النساء الحوامل من أولئك اللاتى يصاحب حملهن بأمراض مزمنة . وإضافة إلى ذلك ، فإن الدراسة سوف تركز على التكيف مع الحمل من هذا النوع من وجهة نظر الحوامل أنفسهن ، أى أنها ستركز على ما يعملنه أو يفكرن فيه وليس على ما يفعله أو يفكر فيه الأطباء أو أشخاص آخرون . وبطبيعة الحال ، فإنه فى دراسة النظرية المجذرة من المهم أن يبحث ويركز أيضاً على ما يفعله الأطباء وما يقولونه للنساء ، لأن هذه الأفعال والتصرفات ربما تؤثر على تكيف النساء مع الحمل ، لا لأن أفعال الأطباء وتصرفاتهم حيال النساء الحوامل هى القضية الأساسية فى البحث . إن

تحديد كيفية ومدى تأثر تصرفات النساء وأفعالهن بواسطة الآخرين ، لا يشكل إلا جزءًا مما يسعى الباحث للوصول إليه . إن محور الدراسة يدور حول النساء ، ووضع ذلك فى الاعتبار دائمًا يحول دون خروج الباحث عن هدف الدراسة الأساسى وأن يتخبط فى البحث بارتباك هنا وهناك .

كذلك فإنه فيما يتعلق بتحديد وتركيز مشكلة البحث التى تعتمد بالضرورة على كيفية صياغة السؤال ، فإن البحث يمكن أن يسير فى اتجاهات مختلفة أو يمكن أن يركز على أشياء مختلفة . وعلى سبيل المثال ، إذا أثار الباحث أسئلة من مثل :

١ – ماذا يحدث عندما يشتكى مريض أو مريضة من الألم ولكن الممرضة لا تعتقد صدق أى منهما فيما يدعيه ؟ ففى هذه الحالة ، يطرح الباحث سؤالاً « **تفاعليًا** » . ومن ثم ، فإن محور الملاحظات ومراجعات الأشكال التوضيحية والمقابلات وكذلك التحليل سيكون مركزًا على التفاعل .

٢ – ما هى الوسائل أو السياسات التنظيمية التى تتخذ لمعالجة عقاقير الإدمان ؟ ففى هذه الحالة ، يطرح الباحث سؤالاً « **تنظيميًا** » . ومن ثم سيركز على ردود الأفعال أو الاستجابات التنظيمية العاملة لمشكلة العقاقير الإدمانية . فالبيانات لن تجمع فقط من خلال المقابلات ولكن ستجمع أيضاً من خلال دراسة السياسات المكتوبة ، وبعد هذا سيقوم بملاحظة عملية تنفيذ تلك السياسات . وبطبيعة الحال ، الباحث لن يقوم بدراسة جميع السياسات التنظيمية وإنما سيقتصر على تلك السياسات المرتبطة بمعالجة عقاقير الإدمان .

٣ – ما الفرق الذى يمكن أن يلاحظ فى استجابات المرضى للعلاج من المرض الذى تكون لديهم خبرة طويلة معه (تكونت خلال عامين على الأقل) والعلاج منه ؟ فمثل هذا السؤال يشكل سؤال **سيرة ذاتية** ، وهنا لن يكون التركيز فقط على الاستجابات الحالية لمعالجة المرضى ولكن ذلك سيتم اختباره وتمحيصه فى ضوء «التواريخ الشفهية» التى تلقى الضوء على التجارب الماضية مع المرض والعلاج منه .

الملخص :

إن السؤال البحثى الرئيسى يقوم بدور الموجه ، إذ يساعد على توجيه الباحث مباشرة لفحص إنجاز معين ، أو ذلك المكان الذى تظهر فيه الأحداث ، أوالوثائق ، أو الأشخاص وهم يتفاعلون مع بعض ، أو المبحوثين المقصود مقابلتهم . إن هذا السؤال يساعد الباحث على الشروع فى دراسته كما يساعده على الاستمرار فى التركيز خلال المشروع البحثى . وكلما ساور الباحث الشعور بعدم التركيز أو وجد نفسه ضائعًا فى خضم البيانات الهائلة التى تجمعت لديه ، فإن السؤال البحثى الرئيسى سيمثل المرجع الأساسى للباحث دائمًا لإزالة الغموض واللبس الذى قد يطرأ أثناء العمل البحثى . وبعد هذا ، ومن خلال تحليل البيانات التى تبدأ عادة مع بداية جمعها (أى من خلال المقابلات أو الملاحظات الأولى التى قام بها الباحث) فإن عملية تخصيص وتحديد السؤال ستبدأ مباشرة . وستتم مناقشة كيفية ذلك لاحقًا فى الفصول الخاصة بمسألة الترميز .

الفصل الثالث
الحساسية النظرية

يعتبر مصطلح «الحساسية النظرية» من المفاهيم المرتبطة استمرارياً بالنظرية المجذرة ، كما أنه فى الحقيقة يمثل العنوان الذى اختاره (جلاسير – Glaser, 1978) لكتاب حول هذا المنهج . والأسئلة التى تطرح نفسها هنا هى : ما المقصود بالحساسية النظرية ؟ ومن أين تأتى هذه الحساسية ؟ وكيف تستخدم الحساسية النظرية لمساعدتنا على بناء النظرية بدلاً من أن تشكل عائقًا لتحقيق ذلك ؟ إن هذا الفصل سيحاول اكتشاف إجابات لهذه الأسئلة بشكل عام ، حتى يعطى ذلك أساساً للمناقشات الأكثر تفصيلاً فى الفصول اللاحقة . ولمزيد من القراءات حول هذا الموضوع ، انظر : (جلاسير – Glaser, 1978 – الفصل الأول) ، وكذلك (جلاسير وستراوس – Glaser & Strauss, 1967 – الفصل التاسع) .

تعريف :

يشير مفهوم «الحساسية النظرية» إلى صفة ذاتية للباحث ، فهو يعنى الوعى بالمعانى الشفافة والدقيقة للبيانات ، فأى باحث عندما يمارس العمل البحثى يتمتع بلا شك بدرجة من الحساسية تختلف عن الآخرين ؛ نظراً للاختلافات بين الباحثين فى مدى القراءات التى قاموا بها حول الموضوع المرغوب دراسته ، وكذلك تجاربهم ذات الصلة بمجال الدراسة . كما أن تلك الحساسية من الممكن تطويرها من خلال العملية البحثية . إن الحساسية النظرية تشير إلى كل من : وضوح الرؤية ، والقدرة على إعطاء معان للبيانات ، والفهم الشامل ، والقدرة على التميز بين الأشياء ذات الصلة الوثيقة بالموضوع وغير ذات الصلة . فجميع هذه الأشياء يتم عملها فى مصطلحات تصورية نظرية لا مصطلحات جامدة . إنها الحساسية النظرية التى تساعد الباحث على بناء نظرية مجذرة ، عميقة التصوير ومترابطة ، كما تساعده على القيام بهذا العمل التنظيرى المترابط ذى العمق التصورى ، بدرجة أسرع من سائر الباحثين الذين يفتقرون للحساسية النظرية .

مصادر الحساسية النظرية :

هناك العديد من المصادر للحساسية النظرية ، فمنها **الأدبيات المتخصصة** فى الموضوع الذى يتضمن الاطلاع على النظريات وطرق بنائها والبحوث والوثائق بأنواعها كالسير الذاتية والوثائق الحكومية . فالاطلاع على تلك الأدبيات والقرب منها سيكون بالطبع لدى الباحث خلفية غنية من المعلومات تجعله حساساً وواعياً بالظاهرة محور دراسته وما يطرأ عليها (وسيتم مناقشة الاستخدامات الخاصة بالأدبيات فى النظرية المجذرة فى الفصل اللاحق) .

ومن هذه المصادر أيضاً **التجربة والخبرة المهنية** ، وخاصة إذا كان الباحث محظوظاً من حيث حصوله على خبرة مهنية سابقة مع الظاهرة المدروسة . ومن خلال العمل عدة سنوات فى حقل ما يتكون لدى الفرد بالضرورة فهم لما يجرى فى ذلك الحقل من الأشياء ولماذا تتم تلك الأشياء وبتلك الصورة ، وماذا سيحدث مستقبلاً فى حالات أوضاع معينة . فهذه المعرفة وإن كانت ضمنية يتم أخذها وإدماجها فى الوضع البحثى ، كما أنها تساعد على فهم الأحداث والأفعال المرئية والمسموعة بدرجة أسرع مما لو قام الباحث بدراسة فى حقل ما بدون الاستعانة بخبرته المهنية السابقة حول الحقل قيد الدراسة . فعلى سبيل المثال ، إن الممرضة التى تقوم بدراسة عمل الممرضات فى المستشفيات ستتحرك بسرعة فى دراستها وتدرك الموضوع بدقة أسرع من شخص لم يسبق له دراسة المستشفيات . فكلما تكوّن للباحث تجربة مهنية أكثر ، تكوّن لديه الأساس المعرفى الغنى والواضح ، مما يمكّنه من الانطلاق فى عمله البحثى . ومن جانب آخر ، إن هذا النوع من التجربة يمكن أن يكون عائقاً لملاحظة الأشياء التى أصبحت روتينية أو واضحة (وفى الفصل السادس سنناقش الوسائل التى تساعد الباحث على تجاوز مثل تلك الصعوبات) .

ومن مصادر الحساسية النظرية ما يتعلق **بالتجربة الشخصية** ، فعلى سبيل المثال ، إن التعرض لتجربة الطلاق سيجعل الباحث حساساً لما تعنيه تجربة الفقدان . وإن تجربة الفقد الناجم عن فقد أحد الأحبة أمر مختلف عن الفقد الناجم عن الطلاق . ومع هذا ، وبمعنى تصورى ، هناك أوجه شبه تماماً ، كما أن هناك أوجه اختلاف بين النوعين من تجربة الفقد . ومن خلال الاعتماد على التجربة الشخصية للطلاق ، يمكن

للمحلل أن يجعل من ذلك أساسًا لعقد المقارنات التى تبعث من جهة أخرى على توليد أو صياغة مفاهيم ممكنة ذات صلة بالظاهرة المدروسة ، وصياغة علاقات بين تلك المفاهيم تتعلق بالفقدان من خلال الوفاة . (وسنناقش استخدام المقارنات فى الفصل السادس) . إضافة إلى ذلك ، وبعد أن تتكون لديك خبرة أكثر بالمشروع البحثى ، فإن هذا سيصبح أيضًا مظهرًا مفيدًا لتجاربك الشخصية ومع هذا يجب الحذر من أن نفترض أن تجربة أى شخص آخر ستكون مشابهة لتجربتك . وفى الحقيقة فإنه عندما تكتشف أو تفكر لاحقًا فى هذه الفوارق ، فإن تلك المعلومات ستزود تحليلك بشىء من تلك الاختلافات والفوارق .

وحتى هذه النقطة ، فإننا لا نزال نتحدث أو نناقش قضية «الحساسية النظرية» التى تتأتى من خلال خلفية المحلل التى تنعكس على الوضع البحثى . وإضافة إلى ذلك فإن **العملية التحليلية** نفسها تقدم مصدرًا إضافيًا للحساسية النظرية فبالتبصر ومحاولة فهم الظاهرة تزيد وتتضاعف تلك الحساسية من خلال التفاعل مع البيانات ، إذ تتأتى من خلال جمع البيانات وإثارة الأسئلة حول البيانات وعقد المقارنات ، والتفكير فيما يلاحظه الباحث وصياغة الفروض وتطوير إطار نظرى مصغر حول المفاهيم والعلاقات فيما بينها . وفى المقابل فإن الباحث يستخدم هذه الإجراءات ليلاحظ ويتأمل فى البيانات ، فغالبًا ما نقوّم فكرة ما بإثارة فكرة أخرى مما يدعو الباحث إلى التركيز فى البيانات عن كثب ، وإعطاء معانٍ لكلماتٍ لم يبدُ أن لها معنى فيما سبق ، والبحث عن الأوضاع التى ربما تفسر ما يحدث هنا . إن هذه الحساسية النظرية للمفاهيم ومدلولاتها والعلاقات فيما بينها ، أمر يجعل من الأهمية بمكان المزج بين عملية جمع البيانات وعملية تحليلها . فكل عملية تغذى العملية الأخرى ، مما يضاعف من التبصر والاعتراف بمعالم النظرية المنبثقة عن تلك العمليات .

الحفاظ على التوازن بين الإبداع والعلمية :

إن «الحساسية النظرية» تمثل مظهرًا إبداعيًا للنظرية المجذرة ، فهذه الحساسية لا تمثل فقط القدرة على استخدام التجربة الذاتية والمهنية ، ولكنها أيضًا تمثل القدرة على استخدام الأدبيات السابقة . إنها تجعل الباحث قادرًا على رؤية الوضع البحثى

والبيانات المرتبطة به بطرق جديدة ، وكذلك على اكتشاف إمكانيات البيانات لتطوير النظرية ؛ وكما كتب عالم أحياء مشهور يومًا ما : «إن الاكتشاف الدقيق لا يتمثل فى أن نرى الأشياء أولاً ، ولكنه يتمثل فى تأسيس ارتباطات دقيقة بين ما هو معروف سابقًا وبين ما هو غير معروف حتى الآن ، فذلك ما يمثل جوهر اكتشاف معين . (Selye, 1956, p: 6)

ولكن (سيلى – Selye) أضاف أن الهدف من القيام بالبحث يتمثل فى بناء نظرية تساهم فى حجم المعرفة النظرية المسماة بـ «العلم» . وعليه ، فكيف سنصبح علماء ومبدعين فى الوقت نفسه ؟ كيف نصبح بفعالية أحرارًا من الافتراضات المتحيزة ، وغير المعترف بها وغير المكتشفة لنتمكن من إنتاج نظرية صادقة وثابتة ؟ .

وفى الواقع ، إنه ليس من السهولة أن تقوم باستخدام معرفتك وتجاربك بصورة مبدعة فى الوقت الذى تقوم فيه بالاستمرار فى التركيز على حقيقة الظاهرة بدلاً من التفكير بشىء من الخيال حولها . ولمساعدتك فى هذا الخصوص فإننا نقدم لك المقترحات الآتية :

١ - **قم بين الحين والآخر بالتراجع أثناء العمل البحثى واطرح أسئلة من هذا النوع :**

ما الذى يحدث هنا ؟ هل ما أفكر فيه يتطابق فعلاً مع ما تظهره البيانات من حقيقة ؟ فالبيانات فى حد ذاتها لا تكذب . أما كيف تعلم هذا الدرس من قبل أحد مؤلفى هذا الكتاب فمن الممكن وصفه فيما يلى :

من خلال القيام بدراسة عن العمليات التى تستخدمها النساء المصابات بأمراض مزمنة أثناء الحمل ، أصبح من الواضح أن أفعالهن موجهة نحو ضبط المخاطر المرتبطة بالحمل ، الأمر الذى يجعل من المحتمل حصولهن على أطفال أصحّاء . وإضافة إلى هذا ، فقد تمت ملاحظة أن تلك المخاطر تختلف خلال فترة الحمل ، ففى بعض الأحيان يرتفع مستوى الخطورة وفى أحيان أخرى يهبط . ومن المعقول أن يتوقع أى أحد بناء على ذلك أن أساليب تعامل الحوامل مع المخاطر ستختلف باختلاف مستويات الخطورة : فكلما ارتفع مستوى الخطورة زاد مستوى ضبط تلك الوسائل أو إستراتيجيات التعامل مع الخطورة . فالباحث افترض أن التحقق من هذه الفرضية سيتمثل ببساطة فى التأكد من ذلك مع كل

حالة ، إلا أن هذا افتراض خاطئ . فما وجدته الباحثة من أن الفرضية أحيانًا قد تحققت وأنها أحيانًا أخرى لم تتحقق أمر لا يقدم ولا يؤخر ؛ لأنها قامت بتصنيف النساء الحوامل وفقًا لمستويات الخطورة كما تقدرها هى كباحثة حسب الوضع . وهذا - كما تبين لاحقًا - ليس بالضرورة رؤية الحوامل أنفسهن . وبعبارة أخرى فإن الباحثة قد استعارت النموذج الطبى لمستويات الخطورة ، ولكن النساء الحوامل لم ينظرن إلى تلك المستويات من نفس الزاوية ، وعندما تقوم الباحثة بالعودة إلى البيانات لثير التساؤلات حولها ، وتتساءل لماذا لم تتطابق عبارات وأفعال معينة مع مرئياتها ، فإنها تستطيع القول بأن النساء قد تصرفن وفقًا لرؤيتهن الخاصة للوضع أو الموقف . وبعبارة أخرى ، فإن الخطورة التى قمن بتقويمها ووزنها ليست بالضرورة هى نفسها تلك التى حددها الأطباء . وعندما يتم تعديل الفرضية الأساسية لتعكس الموقف الحقيقى فإنها عند ذلك ستتطابق وتتفق مع البيانات ، الأمر الذى يعنى هنا أن تقويم وتقدير النساء الحوامل للمخاطر يؤثر على عدد أنماط الإستراتيجيات التى تتخذها هؤلاء النساء للتحكم فى تلك المخاطر .

٢ - **قم بالمحافظة على موقف الشك** : إن جميع التفسيرات والنظريات والفئات والفروض والتساؤلات ذات الصلة بالبيانات ، سواء كان مصدرها بشكل مباشر أو غير مباشر عمل المقارنات بين الأدبيات والتراث الفكرى السابق أو الخبرة - لا بد من النظر إليها على أنها **أشياء مؤقتة** . فجميعها تحتاج إلى التحقق منها من خلال امتحانها بواسطة البيانات الفعلية ، ويتعين عدم النظر إليها كحقائق . فعلى سبيل المثال ، إن الفئات المأخوذة من الأدبيات (كالمتغيرات التى تم تحديدها فى دراسات سابقة) تعتبر ذات خصوصية معينة ، فربما تتطابق مع الدراسة من حيث أتت هذه المتغيرات (ومن الزاوية التى تغطيها تلك المتغيرات) . ومع هذا فإنه لا يعنى بالضرورة أن تلك المتغيرات تنطبق على الوضع الذى نقوم بدراسته ، أو أنها أتت مصاحبة لمفاهيم أخرى بنفس الطريق كما هو الحال مع النظريات السابقة . وعليه ، فلا بد أن نتذكر أن أى تفسيرات نظرية أو فئات تم استخدامها فى الموقف البحثى ، لا بد من التعامل معها كأشياء مؤقتة حتى يتم تأييدها بواسطة البيانات الفعلية ، أى حتى يتبين أنها تتطابق مع الموقف المدروس .

٣ – **قم باتباع الإجراءات البحثية** : إن جمع البيانات والإجراءات التحليلية يتم تصميمها لتحقيق الدقة والصرامة فى الدراسة . وفى نفس الوقت فإنها تساعدك كباحث على اجتياز المغالطات وتقودك لاجتياز بعض افتراضاتك التى ربما تؤدى إلى قراءتك للبيانات قراءة غير صحيحة ، وهناك سبب منطقى لأن تقوم بجمع البيانات وتحليلها بالتناوب . فمثل هذا يؤدى إلى الاختيار من المفاهيم التى تبدو ذات صلة بذلك الموقف أو الوضع البحثى المعين ، كما أنه يؤدى إلى تعميق التحقق من الفروض فى الوقت الذى تتم فيه صياغتها وتنميتها . فتلك الفروض التى تبين خلال ذلك عدم صحتها من الممكن إعادة صياغتها حتى تتطابق مع حقيقة الوضع تحت الدراسة . وتمثل عملية الترميز كذلك مجموعة من الإجراءات المحددة والمنتظمة التى لا يمكن عملها بمجرد الصدفة أو بمجرد هوى ورغبة الباحث (انظر الفصول : الخامس حتى الثامن) . وحتى تصبح النظرية الناشئة من البحث نظرية مجذرة ونظرية ثابتة وصادقة ، فإن الإجراءات لا بد أن تتبع بدقة كما هو الحال مع تلك الإجراءات التى تتبع فى الدراسات الكمية الجيدة . فليس هناك معايير مزدوجة لبعض البحوث على حساب البعض الآخر . وعلى الرغم من اختلاف الإجراءات بين البحوث الكيفية والكمية ، فإن المعايير الرئيسية تظل هى نفسها فى كلا النوعين من البحوث .

ونود أن ننهى مناقشتنا لقضية «الحساسية النظرية» باقتباس من الكتاب المعروف بـ «*العلم : طرقه ومعانيه*» . لـ (رابورت و رايت – Rapport & Wright, 1864) . فى مقدمتهما عن الفصل الخاص بالاكتشاف ، إذ كتب المؤلفان :

«ولكن الصدفة ليست إطلاقًا هى العامل الحاسم فى الاكتشاف ، فالعالم المبتدئ الذى يطمع من خلال الحظ أن يشابه (لافويسير – Lavoisier) أو (فارادى – Faraday) أو حتى علماء أقل منهما ، لا بد من إرشاده بالعبارة المشهورة لـ (باستير -Pasteur) القائلة : إن الصدفة تفضل العقل المتأهب فقط (Pasteur, pp.:130-131) .

الملخص :

تتمثل الحساسية النظرية فى القدرة على التعرف على الجوانب المهمة فى البيانات ، وكذلك فى القدرة على تحديد معانٍ لتلك الجوانب . إنها تساعد الباحث على صياغة نظرية تعبر بصدق عن واقع الظاهرة المدروسة (Glaser, 1978) . وهناك مصدران للحساسية النظرية : أولهما يأتى من كون النظرية قد تم تجذيرها وتأسيسها بعمق فى ضوء الأدبيات المتخصصة والتجارب المهنية والذاتية للباحث نفسه ، فالباحث يأتى معه بهذه المعرفة المتعددة المصادر للوضع البحثى . ومع هذا ، فإن الحساسية النظرية يتم الحصول عليها أيضًا أثناء العملية البحثية من خلال التفاعل المستمر مع البيانات ، أى من خلال التفاعل بين عمليتى جمع البيانات وتحليلها ، وفى حين أن العديد من الأساليب التحليلية التى يستخدمها الباحث لتنمية الحساسية النظرية لديه أساليب مبدعة وبارعة التصوير حرفيًا ، فإنه من الأهمية المحافظة على التوازن بين ما هو من إبداع الباحث وصنيعه وبين تلك الأشياء الحقيقية . ويمكن تحقيق ذلك من خلال الآتى :

(أ) إثارة التساؤل عما يحدث فى الموقف البحثى .

(ب) المحافظة على موقف الشك حيال أى من الفئات والمتغيرات أو الفروض التى أتى بها الباحث معه (من المصادر) أو التى نشأت فى المراحل الأولى من البحث مع محاولة التحقق من تلك الفئات والمتغيرات والفروض باستمرار بواسطة البيانات نفسها .

(ج) من خلال اتباع الإجراءات الخاصة بجمع البيانات وتحليلها فى ضوء ما تمت مناقشته فى هذا الكتاب . فالعمل العلمى المتميز (أو النظرية العلمية المتميزة) هو ذلك الذى تم تحقيقه من خلال التفاعل بين إبداعية الباحث والمهارات التى اكتسبها من خلال التدريب .

الفصل الرابع
استخدامات الأدبيات والدراسات السابقة

تحديد المصطلحات :

الأدبيات المتخصصة (Technical Literature) : تتضمن كلاً من تقارير البحوث النظرية أو الفلسفية المتميزة بالكتابات العلمية الفنية . فهذا النوع من الأدبيات يمكن أن يستفاد منها كأدبيات مرجعية يستخدمها الباحث لمقارنة ما يتوصل إليه من نتائج من خلال بيانات واقعية تم جمعها بواسطة دراسات النظرية المجذرة .

الأدبيات غير المتخصصة (Nontechnical Literature) : تتضمن كلاً من السير الذاتية ، واليوميات ، والوثائق والمخطوطات ، والتسجيلات ، والفهارس ، وغير ذلك من المواد التى من الممكن استخدامها كبيانات أولية أو بيانات إضافية لما تم جمعه من بيانات عن طريق المقابلات أو الملاحظات الحقلية فى دراسات النظرية المجذرة .

إن التراث الفكرى الموجود حيال ظاهرة من الظواهر - سواء كان متخصصًا أم غير متخصص - يقوم بدور مهم ومتنوع فى النظرية المجذرة ، الأمر الذى حدا بنا إلى أن نخصص عددًا من الصفحات لاكتشاف استخدامات التراث الفكرى . وسنبدأ بالأدبيات المتخصصة ، ثم بعد ذلك نتطرق إلى الأدبيات غير المتخصصة من التراث الفكرى .

استخدامات الأدبيات المتخصصة :

عندما نقوم كباحثين بعمل بحثى ، فإننا جميعًا نضع فى الاعتبار ، أو نقدم لذلك بإطار مرجعى من الأدبيات العلمية والفنية ، كما سبقت الإشارة فى الفصل السابق . ذلك الإطار المرجعى الذى تكوّن لدينا إما من خلال الدراسة والاستعداد للامتحانات أو ببساطة من خلال محاولاتنا المستمرة للاطلاع على كل ما هو جديد من الأدبيات الخاصة بمجال تخصصاتنا ، ولفهم بعض الشىء عن كيف ولماذا تستخدم الأدبيات

المتخصصة ، كما هو الحال فى النظرية المجذرة ، فإنه من المهم أن نفهم شيئًا من المنطق الذى يقف وراء هذه الطريقة البحثية ، وأن نقارن ذلك باستخدام الأدبيات فى المناهج الكمية .

فالباحثون الذين يستخدمون المناهج الكمية ، يكون للأدبيات المتخصصة عندهم استخدامات محددة ، فهى تساعد الباحث على تحديد البحوث السابقة فى حقل أو مجال ما ، كما تساعده على اكتشاف الفجوات فى فهم ما تقدمه تلك الأدبيات من نتائج . كما أن تلك الأدبيات تقدم أطرًا تصورية ونظرية من الممكن استخدامها لتوجيه مشروعات البحوث الكمية وتفسير نتائجها . كذلك فإن الأدبيات المتخصصة تساعد الباحث على أن يحدد بدقة متغيرات مهمة والعلاقات بين تلك المتغيرات ليقوم بدراستها . وجميع هذه الاستخدامات للأدبيات المتخصصة مهمة جدًا فى الدراسات الكمية ، وذلك نظرًا لأن الباحثين هنا يركزون على اختبار العلاقات بين المتغيرات أو تحديد الكيفية التى تحدد هذه المتغيرات فى مجموعات أو عناقيد . فهؤلاء الباحثون لا بد أن يحددوا قبل بداية البحث المتغيرات التى تهمهم ، كما أنهم يحددون كيفية تفسير تلك النتائج التى سيتوصلون إليها بعد ذلك من خلال الوسائل المعيارية المستخدمة فى اختبار العلاقات بين المتغيرات .

ويقف على طرف نقيض من ذلك ، الباحث الذى يقوم بدراسة النظرية المجذرة ، فعوضًا عن التركيز على اختبار العلاقات بين المتغيرات يركز على اكتشاف الفئات المهمة والعلاقات فيما بين تلك الفئات ، كما يركز على وضع أو إخراج هذه الفئات بطرق جديدة . وعليه ، فعندما يبدأ الباحث دراسته بقائمة من المتغيرات (الفئات) التى تم تحديدها سلفًا ، فإنها من الممكن جدًا أن تشكل عائقًا للاكتشاف والابتكار . كما أن الباحث أيضًا فى النظرية المجذرة يريد أن يفسر الظاهرة فى ضوء الإطار النظرى الذى ينشأ ويبزغ أثناء البحث ذاته ، وبالتالى فإن الباحث لا يرغب فى أن يكون مقيدًا أو ملزَمًا باستخدام نظرية تم تطويرها سابقًا وربما تنطبق أو لا تنطبق على مجال الدراسة والبحث (وإذا كنت كباحث تحتفظ معك أثناء البحث بافتراضات **غير مدركة** ومرتبطة بنظرية تم تطويرها سابقًا ، فما عليك إلا أن تكون محترسًا من بعض هذه الافتراضات ، وكيفية تأثيرها على تحليلاتك ، وذلك باستخدام بعض الوسائل الموضحة فى الفصل السادس) .

وإذا كنت بعد انتهائك قد وجدت أن نظريتك الناشئة عن دراستك ذات صلة بنظرية معترف بها تم تطويرها سابقًا ، فما عليك عندئذ إلا أن تستخدم نظريتك للتوسع فى النظرية السابقة . ومع هذا ، فمن المهم أن تفهم (كما أشرنا إلى ذلك أدناه) أنه عندما تأخذ نظريتك فى النشوء والبزوغ ، يمكن أن تقوم بإدماج تلك العناصر من النظريات السابقة التى يبدو أنها ذات صلة بنظريتك الناشئة والآخذة فى البزوغ ، وذلك شريطة أن تكون تلك العناصر قد برهنت هى نفسها على وثاقة صلتها بالبيانات التى جمعت من خلال دراستك . وإذا وضعنا فى الاعتبار ما تم إيضاحه أعلاه ، فإنه ليس من المنطق – بناء على ذلك – أن يبدأ الباحث بمتغيرات (فئات) أو نظريات موجودة لأن ذلك من المحتمل أن يمنع أو يعوق تنمية صياغات نظرية جديدة ، إلا إذا كان هدفك بطبيعة الحال أن تعيد النظر فى تلك المتغيرات أو النظريات للبحث عن معانٍ جديدة لها .

وبإيجاز فإن ما قلناه أعلاه يتمثل فيما يلى : إن أى باحث عند قيامه بعمل بحثى سيأتى للوضع البحثى ومعه إطار مرجعى من الأدبيات المتخصصة ، ومن المهم والأمر كذلك أن تعترف بذلك وتستخدمه لصالح البحث على نحو ما سيتم إيضاحه أدناه . ومع هذا ، فليست هناك حاجة لأن يقوم الباحث مقدمًا بمراجعة جميع الأدبيات المتخصصة كما يفعل ذلك بكثرة الباحثون الذين ينتمون إلى مداخل بحثية أخرى (كما هو الحال فى البحوث الكمية) ، وذلك نظرًا لأننا إذا كنا حاذقين فيما نقوم به من تحليل ، فإن ذلك سيؤدى إلى ظهور فئات جديدة لم تكن فى حسباننا ولا فى حسبان غيرنا من قبل . وعليه فإننا لا نرغب فى أن نكون محيطين بجميع ما تحتويه الأدبيات السابقة إلى الدرجة التى تجعلنا مقيدين أو حتى نشعر بنوع من الاختناق الذى لا تمكننا معه هذه المعرفة بالأدبيات المتخصصة من القيام بمحاولات إبداعية . وما دام الاكتشاف هو الهدف من وراء النظرية المجذرة ، فإنه ليس لدينا مسبقًا معرفة بجميع الفئات (المتغيرات) ذات الصلة بنظريتنا . وعليه ، فإننا لا نرجع إلى الأدبيات السابقة إلا بعد أن تبدو وتظهر وتتكشف هذه الفئات كفئات ذات صلة وأهمية ، للتعرف على ما إذا كانت تلك الفئات موجودة فى تلك الأدبيات المتخصصة ، وللتعرف على ما قال عنها الآخرون فى حالة وجودها .

كيف نستخدم الأدبيات المتخصصة ؟

للأدبيات المتخصصة استخدامات متنوعة فى بحوث النظرية المجذرة ، وفيما يأتى سيتم مناقشة هذه الاستخدامات :

١ - **من الممكن استخدام الأدبيات المتخصصة لاستثارة «الحساسية النظرية»** من خلال تقديم المفاهيم وتحديد العلاقات فيما بينها ، تلك التى سيتم امتحانها بواسطة البيانات الحقيقية . وعلى الرغم من أن الباحث لا يرغب فى الدخول إلى الحقل البحثى ومعه قائمة كاملة من المفاهيم والعلاقات فيما بينها ، فإن البعض ربما يعود مراراً ومراراً إلى تلك الأدبيات ، وهذا أمر يبدو فى غاية الأهمية . فهذه الأدبيات من الممكن أن يقوم الباحث بالإتيان بها معه للحقل البحثى عندما يبحث عن دليل حول ما إذا كانت المفاهيم والعلاقات فيما بينها تنطبق فعلياً على ذلك الموقف الذى يقوم بدراسته ، وكذلك للتعرف على أية صيغة وبأية هيئة تنطبق تلك المفاهيم والعلاقات فيما بينها على الموقف المدروس .

إن هناك إدراكاً خاصاً لإمكانية استخدام المواد الوصفية المنشورة لتدعيم «الحساسية النظرية» . إن تلك الكتابات تعطى غالباً أوصافاً دقيقة للواقع وبشىء يسير من التفسير لذلك الواقع ، الذى ربما لا يتجاوز ما يذكر بصدد تنظيم أجزاء لفصول المواد حسب بعض الموضوعات . فقراءة تلك الكتابات ستجعلنا واعين لما سنبحث عنه فى البيانات ، كما ستساعدنا على صياغة تساؤلات ربما نحتاج إلى إثارتها مع المبحوثين . كذلك فإن المفاهيم التى قد تنبثق عن تلك الدراسات ربما تكون ذات صلة بمفاهيمنا الخاصة . وهنا أيضاً ، لا بد أن نكون متيقظين للبحث عن دلائل فى البيانات الخاصة بنا ، وكذلك لتحديد الصيغ والأشكال التى ظهرت بها تلك الدلائل فى دراستنا .

إن المعرفة بالكتابات الفلسفية والنظريات الموجودة من الممكن أيضاً أن تزودنا بطرق لمقارنة وتفسير البيانات . فعلى سبيل المثال : إن الباحث الضليع فى النظرية التفاعلية الرمزية ربما يقوم بامتحان المعانى المعطاة للمواقف بواسطة الأشخاص الذين شاركوا فى تلك المواقف . كما أن الباحث الذى ينطلق من التصورات الماركسية ربما يهدف لتحديد بناء الاستغلال الاقتصادى فى موقف ما .

وإذا كان أحد الباحثين يرغب فى التوسع فى نظرية قائمة بحيث يجعلها قادرة على تفسير حالات أو أوضاع أخرى ، فإن عليه أن يبدأ بالنظرية الموجودة ويحاول اكتشاف كيفية انطباقها على مواقف جديدة ومتنوعة ، تختلف عن تلك المواقف والأوضاع التى قد سبق تطبيق النظرية عليها . وعلى سبيل المثال : قد يرغب باحث فى الابتداء بموقف الوعى (انظر : Glaser & Strauss, 1965) فهذه النظرية تتصل بالمحافظة على الأسرار وقد تطورت من دراسات (جلاسير وستراوس) عن الموت . فالباحث الذى يرغب فى التوسع فى هذه النظرية يستطيع تطبيق الإطار العام لموقف الوعى على مواقف أو أوضاع أخرى كدراسة الجواسيس ، الخيانات الزوجية ، وهوية الشواذ جنسيًا . فالإطار النظرى الذى قدمه كل من (جلاسير وستراوس) يستطيع أن يقدم مجموعة من المفاهيم الدقيقة والعلاقات فيما بينها ، وبإمكان ذلك الباحث أن يتحقق من مصداقيتها من خلال البيانات التى قام بجمعها لدراسته . ومن خلال نتائج تلك الدراسة اللاحقة ، فإن النظرية الأساسية قابلة للتنقيح أو للإضافة أو للتعديل لتطابق تلك الأوضاع والمواقف المحددة .

٢ - **كما أن تلك الأدبيات من الممكن استخدامها كمصادر ثانوية للبيانات** ، فالأبحاث المنشورة غالبًا ما تحتوى على مواد مقتبسة من المقابلات أو الملاحظات الحقلية ، وهذه **المقتبسات** من الممكن استخدامها كمصادر ثانوية للبيانات ذات الصلة بأهداف دراستك . كما أن هذه التقارير المنشورة ربما تحتوى على بيانات **وصفية** تتعلق بالحوادث ، والأفعال ، والأوضاع ، وتصورات الأشخاص (الفاعلين) ، التى من الممكن استخدامها كبيانات وتحليلها باستخدام الطرق الموضحة فى الفصول اللاحقة . وفى الواقع فإن نوعًا من أنواع البحوث الكيفية يهتم بتحليل الكتابات والعبارات الفلسفية أو النظرية فى حد ذاتها .

٣ - **كما أن الأدبيات المتخصصة من الممكن أن تقوم باستثارة التساؤلات** ؛ فمن الممكن استخدام الأدبيات السابقة لصياغة قائمة من الأسئلة التى تريد أن تطرحها على مبحوثيك أو أن توجه ملاحظاتك المبدئية فى الميدان . فهذه القائمة (كما سبق ذكرها فى الفصل الثانى) ربما تتغير بعد المقابلات أو الملاحظات الأولى ، ولكنها ربما تساعدك على الشروع فى بحثك وإرضاء اللجان المدرسية واللجان ذات

العلاقة بالعلوم الإنسانية المتصلة بأهداف بحثك . كما أنه من الممكن استخدام تلك الأدبيات لاستثارة التساؤلات خلال عملية التحليل . وعلى سبيل المثال ، عندما يكون هناك اختلاف بين بياناتك وبيانات نتائج الدراسات السابقة ، فإن هذا الاختلاف من المفروض أن يعيدك إلى بياناتك لتتساءل عن سبب الاختلاف ، ولتثير تساؤلات ، مثل : هل أغفلت شيئًا مهمًا فى الدراسة ؟ ، هل الأوضاع فى هذا البحث مختلفة عن مثيلاتها فى الدراسات السابقة ؟ وما هى تلك الأوضاع المحددة التى يمكن أن تعزى إليها تلك الاختلافات ؟ .

٤ - **تقوم الأدبيات المتخصصة بتوجيه الاختيار النظرى** : فتلك النظريات تعطى وتقدم لك أفكارًا حول الطرق أو الاتجاهات التى من الممكن اتخاذها لاكتشاف ظاهرة لنمو نظريتك . بعبارة أخرى ، إن تلك الأدبيات تستطيع أن تقودك لمواقف وأوضاع ربما لم تفكر فيها من قبل ، إلا أنها تتشابه أو تختلف مع تلك المواقف التى خضعت للبحث فى تلك الدراسات ، وبذلك فهى تساعدك على إضافة مظهر أو جانب مختلف للدراسة .

٥ - **كما أنه من الممكن أن تستخدم تلك الأدبيات كتأييد إضافى للمصداقية** ، فعندما ينتهى الباحث من تطوير نظريته وكتابة نتائجه ، فإنه يمكنه الإشارة إلى الأدبيات المتخصصة فى الأماكن المناسبة من تقرير دراسته وذلك لإعطاء أدلة من الأدبيات المتخصصة على صحة ما انتهى إليه من نتائج ، أو بدلاً من ذلك يمكن للباحث أن يوضح كيف أن نتائج دراسته تختلف عن نتائج الأبحاث المنشورة ولماذا هذا الاختلاف . (فمن المفروض هنا على الباحث ، أن يكون قادرًا على إظهار تلك الأوضاع ذات الآثار الخاصة فى الموقف المدروس ، ومدى تأثير تلك الأوضاع فى الظاهرة محور دراسته) . أما ما يجب على الباحث تجنبه فهو الرجوع باستمرار للأدبيات المنشورة للحصول على أدلة منها على كل شىء يلاحظه فى دراسته ، فمثل هذا التصرف سيعوق الإبداعية ويمنعها من الظهور فى الدراسة .

مثال على كيفية استخدام الأدبيات المتخصصة :

فيما يأتى مذكرة حول دراسة علمية فنية متخصصة أعدها أحد المؤلفين المتخصصين (كوربين – Corbin) وذلك بعد لقاء جماعى حول (النظرية المجذرة) ، هذه المذكرة توضح الكثير من الخصائص الموضحة سابقًا . أما الدراسة الموضحة فى هذه المذكرة فهى حول طالبة دراسات عليا تقوم ببحث تجربة الإصابة بالسرطان ، تقول المذكرة :

(جى) طالبة دراسات عليا فى علم الاجتماع جاءت إلى الاجتماع مبدية رغبتها فى القيام بدراسة نظرية مجذرة على الأدبيات الخاصة بها . وتذكر (جى) أنها قامت بمراجعة جميع الأدبيات فى ضوء ما قامت به من مقابلات . فتلك المقابلات وجهت الباحثة لنوع الأدبيات التى تحتاج إلى الاطلاع عليها لاحقًا . وبهذا المعنى فإن قراءتها مجذرة فى دراستها . وعلى سبيل المثال عندما تكلم أحد من قامت بمقابلتهم عن نوع معين من العلاج الطبى ، فإن (جى) قامت بعدئذ بقراءة ذلك النوع من العلاج . وإذا أخبرها المبحوثون بأنهم استخدموا نوعًا غير طبى من العلاج مثل طريقة (سيمنقتون Symington) قامت (جى) كذلك بالقراءة والاطلاع على تلك الطريقة . ومن خلال عملها وجدت أن هناك فئات مختلفة من القراءات : منها ما هو طبى بحت ، ومنها ما هو سير ذاتية تصف التجارب ، ومنها ما يدور حول الأشكال البديلة للعلاج .

وفى محاضرتها حول الموضوع ذكرت (جى) أنها كانت مشغوفة إلى حد كبير بدراسة هذه المشكلة ، وقررت أنها لم تقتنع بعمل نظرية مجذرة حولها بالاعتماد على ما هو موجود فى الأدبيات فى حد ذاتها ، لأنها شعرت بأن التفاعل بين البيانات التى تقوم بجمعها وبين الأدبيات هو الشىء المهم فى هذه الحالة ، فهذه ليست دراسة عن الأدبيات ولكنها دراسة عن تجارب الناس مع السرطان . وبعد الاستماع إلى (جى) ظهرت أشياء عديدة أثارت اهتمامى حول كيفية استخدام (جى) للأدبيات .

وأول ما أثار اهتمامى هو ما أشارت إليه من أن هناك فارقًا بين السرطان كمرض والسرطان كتجربة ذاتية ، ومع هذا فالنوعان مرتبطان ببعضهما ، وأدبيات الموضوع تؤيد ذلك ، وبإمكان أحد الباحثين الذين استرعى اهتمامهم هذه الفكرة أن يعود إلى الميدان وأن يقوم بجمع بيانات ليعقد مقارنة بين البيانات والأدبيات ، بالإضافة إلى تعلم

شيء ما عن العلاقة بينهما . كما أن الأدبيات تحيطنا علمًا بالأوضاع المؤثرة على مسار المرض والتجربة الذاتية للسرطان وكيف يؤثر كل واحد منهما فى الآخر . ومرة أخرى ، فإن أى باحث يمكن أن يعود إلى الميدان للبحث عن هذه الأوضاع ليبين كيفية تأثيرها فى مسار المرض والتجربة الذاتية للمرض . فعلى سبيل المثال : وجدت أن نوعًا من العلاج ربما يساعد على ضبط مسار المرض ، ولكنه فى الوقت نفسه يؤدى إلى تساقط شعر المريض وشعوره بالغثيان ونقص الشهية . فهذا يجب أن يؤثر على تجربة الشخص الذاتية وكيفية النظر إلى السرطان كمرض ، خاصة إذا قام الباحث بعقد المقارنة بين هيئة المريض وشعوره قبل وبعد إخضاعه للعلاج الكيميائى أو غيره من أساليب العلاج كالعلاج بالإشعاعات والجراحة . كما أن اختيار المريض لنمط من العلاج مثل طريقة (سيمنغتون) كبديل للأنماط الأخرى من العلاج أو كمساعد لها ، من الممكن أن يؤثر على تجربة المريض الذاتية وعلى مسار المرض ذاته . وخلافًا لذلك ، فإن الحصول على تجربة ضعيفة مع العلاج التقليدى أو البديل ربما يساعد الإنسان على التركيز على نمط واحد من العلاج ، أو ربما يقوده إلى تركهما معًا . وعليه فإن نتائج تجربة المريض مع أحد أنماط العلاج ربما تؤدى إلى التأثير على تجربته مع الأنماط الأخرى . إن جميع هذه الأفكار هى تصورات مأخوذة من الأدبيات المتخصصة ، ولا بد من التحقق من صحتها من خلال البيانات الواقعية ؛ الأمر الذى سيؤدى ليس فقط إلى التحقق من الفرضية ، ولكنه أيضًا يساعد على كيفية عمل هذه الأشياء فى الواقع .

واستخدام الأدبيات بهذه الطريقة أشبه ما يكون بالاختيار النظرى لتلك الأدبيات فى ضوء ما يقوم به الباحث من مقابلات من جانب ، ومن ثم العودة ثانية للميدان ليقوم الباحث بالاختيار النظرى فى الواقع المدروس فى ضوء الأدبيات من جانب آخر . وعليه ، فإن تلك الأدبيات تجعل الباحث واعيًا بـ :

١ - **الأوضاع** التى تؤثر على التجارب الذاتية .

٢ - **إستراتيجيات** التعامل مع تلك التجارب . (يقول أحد المرضى: نظرًا لأن تعاطى العلاج يمرضنى فسأجرب برنامج جيرسون الغذائى (Gerson diet) ، أو أنماطًا أخرى من العلاج ، وسأقلع عن العلاج التقليدى) .

٣ - **نتائج** حقيقة التجربة .

(فهناك من يخبر المرضى الذين استخدموا طريقة «سيمنقتون» مع أنهم لم يعانوا انتشار المرض ، أنهم لم يقوموا بالتفكير إيجابياً بما فيه الكفاية أو أن المرضى أنفسهم يعتقدون بذلك بمحض إرادتهم) . كما أن الأدبيات المتخصصة تملى على الباحثين فكرة العملية أو **التغير** عبر الزمن ، وكذلك **الاختلاف** فى أنماط التجارب التى تعتمد على الخيار الذى اتخذه المريض نفسه . وأخيراً فإن الأدبيات توجهنا كباحثين **للاختيار** من بين أنواع مختلفة من الأوضاع .

إن اختبار الأدبيات المتخصصة المناسبة والمصاحبة لعملية التحليل يجعل الباحث قادراً على معرفة الكثير من الأوضاع الواسعة والطبيعية المؤثرة على الظواهر . وكما يذكر (انسيلم ستراوس – Anselm Strauss) إن المكتبة تشبه إلى حد كبير مجموعة من الأشخاص الذين يتحدثون إليك ، فما عليك إلا أن تستمع **وبطبيعة الحال ، فإن أى فئات (متغيرات) أو فروض وغير ذلك تولدت من خلال مراجعة تلك الأدبيات لا بد من التأكد من سلامتها من خلال البيانات الواقعية (الأولية)** . إن التفاعل بين قراءة تلك الأدبيات والقيام بعملية التحليل ثم النزول إلى الميدان للتأكد مما ورد فى تلك الأدبيات من خلال الواقع ، ربما يعطى صورة متكاملة ، كما يساعد على دعم وتعزيز غزارة وعمق مفاهيم النظرية .

الأدبيات غير المتخصصة :

تتكون الأدبيات غير المتخصصة من : الرسائل ، والسير الذاتية ، والمذكرات اليومية ، والتقارير ، وأشرطة الفيديو ، والصحف اليومية ، وأنواع أخرى من المواد . وعلى الرغم من أن هذه الأشياء لا تستخدم كمصادر فى الدراسات الكمية ، فإنها تقوم بدور مهم فى دراسات النظرية المجذرة . ومن الممكن استخدام تلك المصادر كبيانات أولية خاصة فى الدراسات التاريخية والسير الذاتية ، وفى معظم الدراسات تشكل هذه المصادر مصادر مهمة للبيانات إذ تستخدم كبيانات إضافية لما يجمع من بيانات عن طريق الأدوات العادية كالملاحظات والمقابلات ، فعلى سبيل المثال : من الممكن أن نتعلم الكثير عن منظمة ما من حيث تشكيلها ووظائفها (الذى ربما لا يتضح مباشرة من خلال

الملاحظات والمقابلات) وذلك من خلال دراسة تقارير تلك المنظمة وما يصدر عنها من مراسلات مع منظمات أخرى ومن مذكرات يومية . إن الأدبيات غير المتخصصة من الممكن استخدامها لجميع الأغراض كما هو الحال مع الأدبيات المتخصصة ، ومع هذا فإن هناك مظهراً إضافياً للأدبيات غير المتخصصة . ونظراً لصعوبة تصديق أو تحديد صحة وصدق بعض الوثائق أو السير الذاتية وغير ذلك ، فإنه من الأهمية بمكان أن نقوم بالتأكد من تلك البيانات من خلال بيانات أخرى إذا كان الأمر ممكنًا مثل بيانات المقابلة أو بيانات الملاحظة . أو إذا كنت تقوم بدراسة تاريخ الحياة (life history) فإنه من المفروض أن تقوم بقراءة أنماط عديدة من السير الذاتية ووثائق أخرى كالرسائل ، واختبار تلك الوثائق للوقوف على ما بينها من أوجه الشبه والاختلاف .

الملخص :

إن كل نمط من أنماط الأدبيات ذو فوائد متنوعة ومختلفة حسب تلك الأنماط ، الأمر الذى يقدم أو يعطى أشكالاً متنوعة من البيانات حول (التواريخ الشخصية أو الأحداث التنظيمية على سبيل المثال) أو نتائج بحثية أو صياغات نظرية . فالباحثون المبدعون – إضافة إلى استخدامهم للأدبيات السابقة – يستخدمون أحيانًا أنواعًا أخرى مختلفة من المواد المنشورة وغير المنشورة ليضيفوها إلى ما جمعوه من بيانات حقلية عن طريق المقابلة أو الملاحظة .

إن جميع أنواع الأدبيات من الممكن استخدامها قبل الشروع فى البحث ، وذلك من خلال التفكير فى البحث والشروع فى تنفيذه . كما أنه من الممكن استخدام تلك الأدبيات خلال القيام بتنفيذ الدراسة نفسها مما يساهم فى دفعها إلى الأمام . وفى الحقيقة ، لا بد أن يقوم الباحث بإخضاع تلك الأدبيات – سواء كانت متخصصة أو غير ذلك – للفحص خلال البحث ذاته ، وذلك من خلال التفاعل بين قراءة الأدبيات وتحليل البيانات . وعلى ذلك ، فإننا نقرأ ونستخدم المواد المنشورة خلال جميع مراحل البحث . إننا نود أن نذكرك ، مع هذا ، أن الفئات (المتغيرات) والعلاقات بينها ، لا بد من فحصها من خلال بياناتك الأولية ، فمن الممكن أن تستخدم جميع أنواع الأدبيات ذات الصلة وما عليك إلا أن تحترس من أن تكون مقيداً بتلك الأدبيات .

الجزء الثانى

إجراءات الترميز

ابتداء من هذا الجزء نكون قد وصلنا إلى مركز أو محور الكتاب المتمثل فى الفصول الخاصة بالتحليل ، أو الترميز والتصنيف كما تسمى غالبًا . إن الترميز يمثل تلك العمليات التى من خلالها يتم تصنيف البيانات وصياغتها أو تحويلها إلى مفاهيم ، ومن ثم إعادتها وإخراجها بطريقة جيدة . إن ذلك يمثل العملية المحورية التى يتم من خلالها صياغة النظرية من البيانات .

ما هو الشىء المميز أو الخاص بعملية الترميز عند بناء نظرية مجذرة ؟ ما الذى يجعل هذا الأمر مختلفًا عن سائر الطرق التحليلية الأخرى ؟ كما قلنا فى الفصول الأولى من الكتاب ، فإن الأغراض من النظرية المجذرة أكثر اتساعًا وشمولاً من مجرد تمكين الباحث من استخراج قضايا قليلة ، أو من تطوير إطار نظرى متكون من مفاهيم مرتبطة ببعضها ارتباطًا ضعيفًا . ولتلخيص ما سبق ذكره ، فإن الإجراءات التحليلية للنظرية المجذرة قد صممت لـ :

١ - بناء نظرية وليس فقط لامتحان نظرية .

٢ - إعطاء العملية البحثية الأسس الدقيقة التى تجعل من النظرية عملاً علميًا صارمًا .

٣ - مساعدة المحلل على تجاوز الانطباعات والافتراضات التى أتى بها معه إلى العمل البحثى والتى ربما تنمو أيضًا خلال العملية البحثية .

٤ - توفير أو تقديم الأساس وبناء الكثافة وتنمية الحساسية والترابط المطلوب لتوليد نظرية غنية مصوغة بإحكام ، قادرة على التفسير ، ومقاربة للواقع التى تمثله تلك النظرية .

ولتحقيق هذه الأهداف فإن الأمر يتطلب موازنة فيما بين خصائص الإبداع ، والصرامة العلمية ، والاستمرارية ، وفوق ذلك الحساسية النظرية . إن هذا يمثل تجانسًا غريبًا بين مجموعة من الخصائص والسمات ، ولكن على وجه التحديد فإن هذه الخصائص تبدو وتتجلى عندما وأينما يتم التوصل إلى اكتشافات واختراعات كبيرة كانت أم صغيرة . وعلى الرغم من أن المبتدئ لا يستطيع بطبيعة الحال التوصل إلى اكتشافات ، فإنه مع هذا وبشىء من العمل الجاد والإصرار قادرٌ على تقديم إسهامات وإضافات علمية للحقل المتخصص فيه . إن ما ننوى القيام به هو تقديم عدد من الوسائل لمساعدتك - كمحلل - للاستفادة من قدراتك الإبداعية كى تقوم - إضافة إلى

ذلك – بتنمية **الحساسية النظرية** التى ربما تكون **ماثلة لديك** ، هذا والأمر يعود إليك فى نهاية المطاف للقيام بالعمل الجاد الذى يحقق ذلك .

إن التحليل فى النظرية المجذرة يتكون من ثلاثة أنواع رئيسية من الترميز ، هى :

١ – الترميز المفتوح .

٢ – الترميز المحورى .

٣ – الترميز الانتقائى .

وسيتم وصف ومناقشة كل نوع من هذه الأنواع فى الفصول القادمة ، كما يحتوى هذا الجزء من الكتاب على فصول تتعلق بوسائل تعزيز الحساسية النظرية واكتشاف العملية والتغير فى البيانات . أما الفصل التحليلى الأخير (الفصل العاشر) فهو عبارة عن وضع للفصول التحليلية فى إطار يسمى بـ (*المصفوفة الوضعية*) . إن ذلك يمثل فى الحقيقة إطاراً تحليلياً للنظرية المجذرة .

ونود التأكيد على أن الحدود بين الأنواع الثلاثة من الترميز هى حدود وهمية . فالأنواع الثلاثة ليس من الضرورة أن تحدث على مراحل ، ففى جلسة واحدة من جلسات الترميز ربما تتحرك بسرعة وبدون وعى بين الترميز المفتوح والترميز المحورى على وجه الخصوص ، وعلى الرغم من أن هذين النوعين من الترميز يحدثان غالبًا فى المراحل المبكرة من المشروع البحثى ، فإنهما أيضًا من الممكن أن يظهرا فى المراحل الأخيرة من المشروع ، وذلك نظراً لأنه من خلال الترميز الانتقائى غالبًا ما يجد الباحث مفاهيم لم تنمُ أو تترابط مع غيرها على الوجه المطلوب . وعندها ، فإن كلاً من الترميز المفتوح والمحورى يتم استخدامهما مع ذلك لخدمة وتيسير الترميز الانتقائى . وعليه ، فإن هذه الأنواع تبدو شيئًا مختلفًا من هذه الزاوية .

أما النقطة التالية التى نود مناقشتها هنا فتتمثل فى أن جمع البيانات وتحليلها عمليتان مترابطتان إلى حدٍ كبير ، وعليه يجب أن تحدثا بالتعاقب نظراً لأن التحليل يقوم بتوجيه عملية اختيار البيانات (وسنناقش هذه النقطة بشىء من التفصيل فى الجزء الحادى عشر الخاص بالاختيار النظرى) . لذا فإننا لن نركز على عملية جمع البيانات على وجه الخصوص ، لأن ذلك سبقت مناقشته مناقشة جيدة فى كتب عديدة متميزة كتبت عن تنفيذ الأبحاث الحقلية .

وقبل مناقشة عملية الترميز ، فإننا نرغب أن نحيطك بأربع من الأفكار المهمة ، هى :

١ – إن القيام بالتحليل يمثل فى واقع الأمر القيام بالتفاسير ، وهنا دليل جيد على ذلك ، فكما يقول (ديزنج ـ Diesing, 1971, p.14) أحد فلاسفة العلم :

«المعرفة العلمية تمثل إلى حد كبير ابتكاراً أو تنمية وليست محاكاة أو تقليداً: فالمفاهيم والفروض والنظريات ليست موجودة جاهزة فى الواقع ولكن لا بدَّ من القيام ببنائها وتركيبها» .

٢ – إنه على الرغم من أننا نقوم بتحديد هذه الإجراءات والأدوات لك ، فإننا إطلاقًا لا نعنى الالتزام الحرفى بها ، ومرة ثانية كما يذكر (ديزنج – Diesing, 1971, p.14) :

«إن الإجراءات ليست ميكانيكية أو أتوماتيكية كما أنها لا تشكل أرقامًا تضمن الوصول إلى نتائج . وخلافًا لذلك ، فإن هذه الإجراءات لا بد من تطبيقها بشىء من المرونة حسب الظروف . كما أن ترتيب تطبيق تلك الإجراءات ربما يختلف من عمل لآخر ، كما أن البدائل لذلك ممكنة عند كل خطوة» .

٣ – وفى الواقع ، فإن هناك وسيلة خاصة تشكل محوراً رئيسيًا لجميع أدوات الترميز وتساعد على التأكيد على الاستخدام المرن لهذه الأدوات ، تتمثل فى **إثارة الأسئلة** ، وعلى الباحث أن يطرح العديد من الأسئلة طيلة قيامه بمشروعه البحثى . وعندما تقرأ الفصول اللاحقة ، فإنك سترى العديد من الأسئلة التى أثيرت حول الظواهر محور الدراسة ، وحول كل من خصائصها المختلفة ، أبعادها ، وعناصرها وما إلى ذلك . وإذا كانت هناك أسباب معينة تدعوك لمتابعة تلك الأسئلة ، فإننا نشجعك على القيام بذلك ، نظراً لأنها أسئلة متعددة ومتنوعة : فهى متعددة لأن الباحث المبدع حقيقة لا بد أن يثير العديد من الأسئلة ، كما أنها متنوعة لأن كل إجراء ترميزى فى طريقة النظرية المجذرة يستدعى أنواعًا مختلفة من الأسئلة (وسترى أمثلة على ذلك فى الفصول اللاحقة) . ونظراً لأن بعض الإجراءات تختص بالمراحل الأولى أو المتأخرة من المشروع البحثى ، فإن أنواع الأسئلة المثارة سوف تختلف إلى حد ما باختلاف المرحلة التى يمر بها المشروع البحثى . وبهذا فما عليك إلا أن تبذل اهتمامًا خاصًا بالكيفية التى تم بها غرس هذه الأسئلة خلال صفحات هذه الفصول ، وأن تقوم بالتدرب على إلقاء الأسئلة التحليلية . ونظراً

لأن هذه الأسئلة أسئلة **تحليلية** فإنها من الممكن أن تكون أسئلة ذات طابع توليدى أو إرشادى للتحليل ، أى أن التحليل **يتولد عن** هذا النوع من الأسئلة .

٤ - إننا ننصح ونؤكد على أهمية **الدراسة المستفيضة لكل نوع من أنواع الترميز** بعد قراءة الفصول الخاصة بها (ولو بصورة سريعة) . فالفصول من الخامس حتى العاشر تغطى الإجراءات الرئيسية التحليلية والمنطق الذى تعتمد عليه ، وكل إجراء لا بدَّ من فهمه واستيعابه قبل المضى قدماً للإجراء اللاحق ، وإلا فإن الفهم العام لهذه الإجراءات لن يكون مطمئناً خلافاً لما يطمح إليه القارئ . إن هذه الإجراءات عندما تفهم وتطبق ، ستصبح أدوات بحثية على درجة عالية من الفعالية .

الفصل الخامس
الترميز المفتوح

تحديد المصطلحات :

المفاهيم (Concepts) : هى تلك الأوصاف أو النعوت التى توصف بها الأحداث المتميزة والحوادث وغير ذلك من الظواهر .

الفئات (Categories) : وضع أو تصنيف المفاهيم فى فئات ، ذلك التصنيف الذى يتم اكتشافه عندما تقارن المفاهيم بعضها ببعض ، وتبدو ذات صلة بالظاهرة أو بظاهرة مشابهة لها . وعليه ، فالمفاهيم التى يتم جمعها أو دمجها مع بعض فى تنظيم عال ، والمفاهيم المتميزة بقدر عال من التجريد ، يطلق عليها مصطلح "الفئات" .

الترميز (Coding) : عملية تحليل البيانات .

منكرات الترميز (Coding Notes) : هى ما ينتج عن عملية الترميز ، وهى تشكل نوعًا واحدًا من أنوا ع المذكرات .

الترميز المفتوح (Open Coding) : هى تلك المرحلة التى يتم من خلالها كل من تصنيف البيانات ، وامتحانها ، وصياغتها فى مفاهيم ، ووضعها فى فئات .

الخواص (Properties) : السمات أو الميزات أو الخصائص المرتبطة بالفئة .

الأبعاد (Dimenstions) : موقع السمات أو الخصائص من المدى أو المتصل الخاص بالظاهرة المدروسة .

تصنيف الأبعاد (Dimensionalizing) : عملية تصنيف أو تجزئة خاصة من الخواص فى عدد من الأبعاد المتصلة بها .

ليس بالإمكان وجود أى علم بدون مفاهيم ، والسؤال الذى يطرح نفسه يتمثل فى الآتى : لماذا تحتل هذه المفاهيم مكانًا رئيسيًا من العلم ؟ إن ذلك يعود إلى أننا نقوم

– خلال تسمية الظواهر – بتركيز اهتمامنا باستمرار على تلك الظواهر ، وعندما يتم تركيز اهتمامنا عليها نبدأ بتمحيص هذه الظواهر (أو المفاهيم حسب ما تم تحديدها ووصفها آنفًا) وإثارة العديد من الأسئلة حولها . فهذه الأسئلة لا تقوم فقط بوصف ما نراه أو نلاحظه عن هذه الظواهر ، ولكنها تأخذ شكل *العبارات النظرية* (Propositions) أو الفروض ، من حيث إنها تقوم باقتراح ما قد يوجد من ترابط بين الظواهر . فالعبارات النظرية تسمح بالاستنتاجات ، وهذه الاستنتاجات بالمقابل تؤدى إلى توجيه عملية جمع البيانات التى تؤدى هى الأخرى إلى استنتاجات واستنباطات أبعد ، كما تؤدى إلى الاختبار الآنى أو المؤقت للعبارات النظرية . وفى الختام فإن التواصل بين الباحثين الذى يشمل التفاعل الضرورى بين المناقشات والاعتراضات باعتباره أمرًا ضروريًا لتدعيم نمو العلم ، أمر ممكن التحقيق من خلال تحديد المفاهيم والارتباطات بين هذه المفاهيم التى تتم صياغتها فى شكل عبارات نظرية . هذه الأفكار قام بمناقشتها بتوسع العالم (هيربرت بلومر ـ Blumer, 1969, pp. 153-182) .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن يتمثل فى الآتى : ما هى صلة ما ذكر أعلاه بقضية **الترميز المفتوح** ؟ إن الترميز المفتوح جزء من التحليل المتعلق على وجه التحديد بنعت أو وصف الظواهر ووضعها فى فئات من خلال الاختبار الدقيق للبيانات . وبدون هذه الخطوة التحليلية الأولية الرئيسية ، فإن ما تبقى من التحليل وعملية الاتصال اللاحقة لتلك الخطوة لن تحدث أو تظهر للعيان . ومن خلال الترميز المفتوح يتم : تجزئة البيانات إلى أجزاء مميزة ، اختبار تلك البيانات بدقة ، ومقارنتها بعضها ببعض للوقوف على ما بها من أوجه الشبه أو الاختلاف ؛ إثارة العديد من الأسئلة حول الظواهر كما تعكسها البيانات . وخلال هذه العملية ، تتم افتراضات الباحث وافتراضات الآخرين حول الظواهر موضع التمحيص والمساءلة ، الأمر الذى يؤدى إلى اكتشافات جديدة .

الإجراءات :

هناك إجراءان رئيسيان لعملية الترميز على الرغم من أن طبيعتهما تتغير بتغير أنواع التحليل ذاتها : الأول منهما يتعلق *بعمل المقارنات* ، والآخر *بعملية إثارة التساؤلات* . وفى الحقيقة ، فإن النظرية المجذرة غالبًا ما يشار إليها فى الأدبيات

على أنها المنهج المقارن الثابت للتحليل (انظر: Glaser & Strauss, 1967, pp. 101-116) .
إن هذين الإجراءين يساعدان على إضفاء الدقة والتحديد على المفاهيم فى النظرية المجذرة . وسترى أدناه كيفية استخدام هذين الإجراءين لتحقيق أهداف صياغة المفاهيم والفئات من البيانات من خلال الترميز المفتوح . إننا لم نقم بتسمية هذه العمليات فى إطار مناقشتنا لها ، وما عليك إلا أن تلاحظ عن كثب طريقة استخدامنا لها . (ولمزيد من الشرح والمناقشة لهذه الأساليب راجع كلاً من Glaser, 1978, pp : 56-72; Glaser & Strauss, 1987, pp. 106-107, and Strauss, 1987, pp. 58-64) .

وصف الظواهر :

قمنا إلى هذا الحد بتوضيح أهمية المفاهيم باعتبارها الوحدات الأساسية للتحليل فى طريقة النظرية المجذرة ، فأى شخص يستطيع أن يعدد البيانات الخام ، ولكنه لا يستطيع الربط بين تلك البيانات أو الحديث عنها بسهولة . **وعليه ، فإن صياغة المفاهيم من البيانات تشكل الخطوة الأولية فى التحليل** . إن ما نعنيه بتجزئة البيانات وصياغة المفاهيم منها ، يتمثل فى عزل ملاحظة ما ، أو جملة ، أو فقرة ، وإعطاء كل منها حدثًا أو فكرة ، أو اسمًا مميزًا ، أو شيئًا ما يستطيع أن يمثل الظاهرة محور الاهتمام . ولكن كيف يمكن أن نعمل هذا ؟ إننا نتمكن من عمل ذلك من خلال إثارة العديد من الأسئلة حول كل شىء ، مثل : ما هذا ؟ وماذا يمثل ؟ ثم نقوم بمقارنة الحوادث حادثة بحادثة أثناء مسيرتنا فى جمع البيانات وتحليلها ، الأمر الذى يمكننا من إعطاء الظواهر المتشابهة اسمًا موحدًا وإذا لم نفعل ذلك فربما ينتهى الأمر بنا إلى مواجهة أسماء كثيرة ومحيرة .

علينا الآن أن نتريث لنأخذ مثالاً على ذلك : افترض أنك جالس فى مطعم مشهور ذى مستوى عال ، يحتوى على ثلاثة طوابق ، فى الطابق الأول منه يوجد مكان لتناول المشروبات ، وفى الطابق الثانى مكان صغير لتناول الطعام ، أما الطابق الثالث فيوجد به صالة الطعام الرئيسية وكذلك المطبخ ، وقد صمم المطبخ بشكل يستطيع معه الزبائن رؤية ما يحدث بداخله . كما يحتوى الطابق الثالث من المطعم كذلك على المشروبات

والأكواب . وخلال جلوسك فى الطابق الثالث منتظراً الخدمة التى طلبتها لاحظت وجود سيدة ترتدى زياً أحمر . وقد بدت واقفة فى المطبخ فى حين أن إحساسك العام يملى عليك أن المطعم لن يقوم بتوظيف سيدة ترتدى زياً أحمر لمجرد الوقوف فى المطبخ ، ومن هنا فإن حب الاستطلاع لديك قد استثير بهذا الموقف ، وقررت بناء على ذلك القيام بتحليل استقرائى لترى إذا كنت تستطيع أن تحدد طبيعة عملها فى المطعم (وعندما تنفذ عمل نظرية مجذرة لمرة واحدة ، فستقوم دائماً بذلك) .

وقد تلاحظ أن السيدة ذات الزى الأحمر تقوم باستمرار بالنظر ومراقبة المنطقة المجاورة للمطبخ ، **مكان العمل** ، كما تقوم بالتركيز هنا وهناك بالتفكير فيما يجرى ويحدث فى المطعم . ومن هنا قمت بطرح هذا السؤال على نفسك : ماذا تعمل هذه السيدة هنا؟ ومن هنا قمت بتسمية ذلك بعملية «**الملاحظة والمراقبة**» . ولكن ملاحظة ومراقبة ماذا؟ **إنها تلاحظ العمل بالمطبخ** .

بعد ذلك تلاحظ أن شخصاً ما يتقدم نحوها ويطرح عليها سؤالاً ما ، لتقوم هى بالإجابة عنه . هذا التصرف يختلف عن التصرف السابق ، الملاحظة والمراقبة ، ولهذا تقوم كباحث بتسميته أو بوصفه (تزويد معلومات) .

وعلى الرغم من أنها تشكل محور جميع هذه الأنشطة ، فإنه لا يبدو عليها أن ما تقوم به من عمل يتعرض للتعثر . ولوصف هذه الظاهرة ، فإنك تستخدم مصطلح **الانسيابية** .

بعد ذلك قامت السيدة ذاتها بالعودة والمشى بسرعة وبكل هدوء **وفعالية** إلى صالة الطعام ، واستمرت فى **مراقبة وملاحظة** الأنشطة فى هذا المكان أيضاً .

وهذه السيدة تبدو أيضاً كما لو كانت تلاحظ وتراقب كل شىء ، ولهذا فأنت تصف هذا الموقف على أنه «**يقظة وانتباه**» (Attentiveness) .

بعد ذلك تأخذ السيدة ذات الزى الأحمر فى التقدم نحو شخص ما فتخبره بشىء ما . ونظراً لأن هذه الحادثة تتضمن تقديم معلومات ، *فإنك كباحث ستسمى ذلك أيضاً بنفس المسمى السابق «تزويد معلومات»* .

وعلى الرغم من أن هذه السيدة تمثل محور جميع هذه الأنشطة فإنه يبدو أنها تقوم بها بإحكام ، *وعليه فإنك كباحث ستستخدم مصطلح* «**المضطلع بشؤونه**» لتسمى أو تنعت به هذه الظاهرة .

بعد ذلك تقوم السيدة بالمشى بسرعة وبهدوء **وفعالية** نحو منطقة الطعام (حيث يجلس مرتادو المطعم من الزبائن) وذلك لتستمر فى **ملاحظة ومراقبة** كل ما يحدث من أنشطة وتصرفات وسلوكيات فى تلك المنطقة .

إنها تبدو كما لو كانت **تتابع** كل شخص وكل شيء يجرى فى المطعم . ولكن تلاحظ وتراقب ماذا ؟ وكملاحظ ماهر فإنك تكتشف أنها تقوم بملاحظة نوعية **وجودة** الخدمة ، أى الأفعال وردود الأفعال التى تحدث بين المضيف والزبون **وتوقيت الخدمة** ، وماذا يحدث فى الفترة التى تتخلل بين : إجلاس الزبون على طاولة الطعام ، وتحديد الخدمة المطلوبة (أو أخذ الطلب) ، وتقديمها له ، **وردود الفعل لدى الزبون** ، ورضاه عن الخدمة المقدمة له .

وفى هذه الأثناء يتقدم أحد المضيفين ومعه طعام معد لجماعة كبيرة من المحتفلين ، وفى الحال تتقدم السيدة ذات الزى الأحمر لمساعدته فى تقديم الطعام لهم ، إنها تقوم هنا بدور «**مقدم المساعدة**» .

إن هذه السيدة تبدو كما لو كانت تعرف ماذا تقوم به تماماً وبخبرة فائقة «**إنها على درجة عالية من الخبرة**» .

وهنا تتقدم نحو حائط قريب من المطبخ لتنظر إلى ما اتضح أنه جدول معلق بالحائط ، إنها هنا تقوم بعملية «**جمع معلومات**» .

وفى هذه الأثناء تتقدم مضيفة نحو السيدة ذات الزى الأحمر لتتحدثا برهة من الزمن ، وهنا تأخذان فى البحث فى صالة الطعام عن طاولات الطعام الخاليات ، كما تتشاوران حول مدى رضا الزبائن الجالسين لتناول الطعام . إن تلك المضيفة والسيدة ذات الزى الأحمر فى موقف «**التشاور**» .

إن هذا المثال لا بد أن يكون كافيًا لك لفهم كيفية وصف الظواهر ونعتها . فغالبًا ما يقوم الباحث المبتدئ بتلخيص البيانات أكثر من *تحويلها إلى مفاهيم* . أى أنه يقوم بمجرد إعادة لب أو جوهر العبارة أو الجملة وبشيء من التلخيص ، ولكن يظل ذلك بطريقة وصفية . فعلى سبيل المثال بدلاً من استخدام مصطلح مثل «التشاور» لوصف آخر حادثة من المشهد السابق ، فإن الباحث ربما يستخدم شيئًا مثل «إن السيدة ذات الزى الأحمر جلست وتحدثت مع المضيفة» ، أو يستخدم مصطلحًا مثل : «الاطلاع على الجدول» ، و «التحرك نحو صالة الطعام» ، و «السيدة ذات الزى الأحمر لا تعطل أعمال الآخرين» . إن صياغة مثل هذه العبارات لا تقدم لك مفهومًا لتتعامل معه . إنك تستطيع أن تلاحظ بسهولة من خلال هذا التصنيف أو الترميز المبدئى أن من السهولة والفعالية أن نتعامل مع مصطلح مثل «جمع المعلومات» مقارنة بعبارة من مثل «الاطلاع على الجدول» ، لأنه من الممكن أن نقوم بوصف عشرات الأحداث أو الحوادث من خلال مصطلح «جمع المعلومات» من مثل طرح السيدة ذات الزى الأحمر سؤالاً على كبير الطباخين ، أو تدقيقها فى عدد الأكواب النظيفة ، واستدعائها لمأمور التزويد والتموين بالمطعم ونحو ذلك ، فجميع هذه الأحداث تقع فى إطار «**جمع المعلومات**» .

اكتشاف الفئات :

من الممكن خلال قيامنا بالبحث أن نصل إلى عشرات بل مئات الأوصاف النظرية . وليس من المستغرب من طالب مبتدئ أن يأتى إلى حلقة دراسية ومعه ثلاث أو أربع صفحات مطبوعة من المفاهيم ، إذ لا بد لها من تجميع أو تصنيف بحيث توضع المفاهيم المتشابهة بعضها مع بعض وإلا سننتهى بمأزق شبيه بموقف «السيدة العجوز ذات الحذاء الأحمر» التى يتبعها عدد كبير من الأطفال (المفاهيم) . إذ فى هذا الموقف لن نعرف ماذا سنعمل حيال تلك المفاهيم الكثيرة (إن هذا الموقف يمثل تمامًا حالة شعور الطلاب فى بعض الأحيان حيال هذه المسألة) .

وعندما نتمكن من تحديد ظواهر معينة فى البيانات ، فإننا من الممكن أن نبتدئ بتجميع مفاهيمنا حول تلك الظواهر . فمثل هذا العمل سيساعد على تقليص

عدد الوحدات التى يجب التعامل معها من قبل الباحث . إن عملية تجميع تلك المفاهيم التى يبدو أنها ذات صلة بالظواهر نفسها عملية تسمى «**اشتقاق الفئات**» . لاحظ هنا أننا قلنا «تبدو أنها ذات صلة بـ» ، وذلك نظرًا لأن أى علاقات مقترحة حتى هذه النقطة أو المرحلة يتم النظر إليها واعتبارها على أساس أنها علاقات مؤقتة . وسنتكلم عن ذلك بشكل أكثر تفصيلاً فى الفصل السابع المتعلق بـ (الترميز المحورى) . فالظواهر التى تمثلها فئة ما يتم إعطاؤها اسمًا نظريًا ، ومع هذا فإن الاسم يفترض فيه أن يكون على قدرٍ أعلى من التجريد مقارنة بالأسماء المعطاة للمفاهيم التى تم جمعها تحت ذلك المسمى . إن هذه الفئات ذات قوة نظرية لأنها قادرة على أن تسحب معها مجموعات أخرى من المفاهيم ، أو مجموعة من الفئات الفرعية .

إننا حتى الآن لم نجب عن سؤالنا حول طبيعة عمل (السيدة ذات الزى الأحمر) ، وعليه فدعونا نعدْ إلى ذلك المثال ولنتكلم فى نفس الوقت عن موضوع الفئات . إن هناك عددًا متنوعًا من الطرق للشروع فى عملية وضع الفئات ، وعليه فمن الممكن أن نأخذ كل مفهوم وذلك أثناء مسيرتنا فى وصف أو نعت الظواهر ، ونسأل عن مجموعة الظواهر التى يتصل بها ذلك المفهوم ، وعما إذا كان هذا المفهوم يشابه أو يختلف عن ذلك المفهوم السابق عليه أو اللاحق له ، أو ربما نتراجع إلى الوراء قليلاً وننظر إلى جميع الملاحظات ، مع الأخذ فى الاعتبار جميع المفاهيم التى تمت صياغتها ونتساءل عما تدور حوله هذه المفاهيم . وباستخدام أى من الطريقتين ، فإنه من المفترض أن نصل إلى النتيجة نفسها . وسوف نقوم بتفصيل الحديث عن المدخل الثانى فقط ، فهدفنا ليس هو مناقشة الطرق المختلفة لصياغة الفئات ، ولكن هدفنا لا يتجاوز توضيح ما يتم ويحدث فى عملية صياغة الفئات .

وكمثال على ذلك ، سنأخذ مفهوم (*الملاحظة والمراقبة*) ونتساءل : لماذا تقوم السيدة ذات الزى الأحمر بملاحظة ومراقبة كل من : انسياب الحركة ، ورضا الزبائن عن الخدمة ، ونوعية وجودة الخدمة ، وأخيرًا مسألة التوقيت . هل كل ذلك من أجل هدف الملاحظة والمراقبة التى تقوم بها فى المطبخ ؟ ، أو أن ذلك من أجل هدف مختلف عن ذلك تمامًا ؟ . أو عن (التشاور) الذى تقوم به مع مقدمى الخدمة ؟ فما علاقة الخبرة الجيدة بمسألة (الملاحظة والمراقبة) ؟ وهنا ربما تصل إلى نتيجة مؤداها أن كلاً من

(المراقبة والملاحظة) و (التشاور) جميعها تنتمى إلى الشىء نفسه . أى إلى **العمل** الذى تقوم به والمتمثل فى **تقويم العمل والمحافظة على انسياب العمل** . إن ذلك يمثل عملاً خاصًا ، أى عمل الطعام ، وتقديمه على الطاولات فى المطعم . وهنا من الممكن أن نصف جميع المفاهيم المتصلة بهذا العمل كـ : **أنواع العمل الخاصة بالتقويم والحفاظ على انسياب العمل** . ولكن مفهوم **(الخبرة)** لا ينتمى لهذا العنوان . وعند مقارنته بكل من مفهوم (المضطلع بشؤونه) ومفهوم (اليقظة والانتباه) نلاحظ أنه يشابههما . وعليه فهذه المفاهيم الثلاثة من الممكن جمعها وضمها تحت عنوان (الخصائص أو السمات) . ولكن خصائص وسمات ماذا ؟ والجواب كالتالى : إنها خصائص وسمات ذلك الشخص المتميز بقدرته على تقويم العمل والمحافظة على انسيابه . ولكن هذه العبارة الطويلة عبارة صعبة للغاية ، وعليه فلا بد أن نصف عملها باسم أفضل من ذلك ، فربما نسميها مثلاً (موجهة الطعام) . عندها سنلاحظ أن كلاً من مفهوم (اليقظة والانتباه) ومفهوم (المضطلع بشؤونه) وكذلك مفهوم (الخبرة) تصبح خصائص وسمات أو أوضاعًا لموجهة الطعام الجيدة فى المطعم . إن الخصائص والأوضاع تشير إلى فئة أو مجموعة من الظواهر المختلفة والمترابطة . وعليه فإن لدينا الآن فئة واحدة هى (موجهة الطعام) ، واثنتين من الفئات الفرعية والمتمثلة فى كل من : (أنواع العمل الخاصة بتقويم العمل والمحافظة على انسيابه) و (الأوضاع الخاصة لموجهة الطعام الجيدة) . تذكر أنه فى مقدمة هذا الفصل قمنا بتقديم تعريف لمفهوم (الفئة) ، وعليه فإننا نقترح عليك العودة مرة أخرى إلى ذلك التعريف لقراءته مرة أخرى وذلك على ضوء ما تقدم من فقرات .

إن العنوان الحقيقى لعمل السيدة لن يكون بطبيعة الحال (موجهة الطعام فى المطعم) ، ولكن هذا العنوان قريب بما فيه الكفاية لمسمى ذلك العمل . إنها لم تعد السيدة ذات الزى الأحمر الغامضة . ففى أذهاننا ، قمنا بتصنيفها وتحديد مسمى لعملها ، كما أننا نعلم بعض الشئ عما تقوم به من واجبات وما يتطلب ذلك منها من مهارات لتنفيذها . وفى الحقيقة فإن العديد من الدراسات تم الشروع فيها من خلال هذه الأنواع من المحادثات والملاحظات العرضية التى أصبحت لاحقًا أكثر جدية ، وأشد كثافة وتنظيمًا ، وذلك عندما يقرر المستمع أو الملاحظ أن ما يدونه أو يلاحظه جدير فعلاً بالدراسة ، أو على الأقل من الممكن أن يكون القيام به متعة عظيمة .

وإذا كنا نقوم بدراسة حقيقية فى النظرية المجذرة ، فإنه ليس من الممكن أن نتوقف عند هذا الحد من الترميز والملاحظات الأولية (أما فى حالة كون هدفك لا يتجاوز تحديد موضوعات وقضايا - للدراسة مستقبلاً - فإنه من الممكن والأمر كذلك أن نتوقف عند هذه المرحلة) . إنك تحتاج فعليًا إلى شىء أكثر من مجرد سرد المفاهيم فى قائمة أو وضع هذه المفاهيم فى مجموعات . فالفئات ، بعد كل شىء ، لا بد أن تحلل وتطور بواسطة الباحث . وقبل الاستمرار فى مناقشة هذه الفكرة ، فإنه لا بد لنا أن ننتظر برهة من الزمن للوقوف على عملية وضع المسميات للفئات .

تسمية الفئة :

كيف يتم وضع مسميات للفئات ؟ فى المثال السابق ، نلاحظ أن مسمى «موجهة الطعام» قد ابتدعه الباحث نفسه ، ومن هنا فإن معظم مسميات الفئات تنبع من الباحث نفسه . فالمسمى الذى يختاره الباحث هو غالبًا ذلك المسمى الذى يبدو أنه مرتبط منطقيًا بالبيانات التى يمثلها ، ومن المفروض أن يكون ذلك المسمى ذا طابع تصويرى بما فيه الكفاية ، حتى يكون مضمونه ومدلوله حاضراً فى ذهن الباحث عند الحاجة إليه . ويشترط أن يكون مسمى الفئة مفهومًا تجريديًا بصورة أكثر من تلك الأشياء التى يشير إليها ذلك المسمى . وما عليك كباحث إلا أن تتجنب تحمل المشاق عند اختيارك المسمى المناسب وعلى وجه الخصوص عند البداية . وعندما تصل لاحقًا إلى مسمى أفضل ، فإنه بإمكانك أن تغير المسمى الأول . *فالأمر المهم هنا هو أن تضع مسمى للفئة* تستطيع تذكره بسهولة والتفكير فيه ، وأكثر من ذلك أهمية أن تقوم بالشروع فى تنميته وتطويره تحليليًا .

وبطبيعة الحال ، فبعض المسميات التى تختارها تأتى من تلك المفاهيم المعروفة لديك من خلال تخصصك أو من خلال قراءاتك المهنية (راجع الفصل الرابع) . وقبل مناقشة هذه الأنواع من المفاهيم المأخوذة من الأدبيات فلا بدَّ لنا من مناقشة المفاهيم الخاصة بك . وعندما تستمر فى عملية ترميزك للبيانات ، فربما تلاحظ وتسمى ظاهرة ذات طابع تجريدى عالٍ أو ظاهرة تبدو أنها تضم مفاهيم أخرى . ولتوضيح ذلك ، لنفترض أنك تقوم بدراسة للأطفال وهم يلعبون وقد قمت بترميز ملاحظاتك ، باستخدام

المصطلحات الآتية : (الخطف والإمساك بسرعة) ، (الاختفاء) ، (التجنب) ، (عدم الاكتراث) ، بعد ذلك أخذت تفكر فى الحدث اللاحق ، وهنا تثير سؤالاً من مثل : «ماهذا ؟ ، وبأى ظاهرة يرتبط ؟» ، عندها يكون جوابك كالآتى : «إستراتيجية تجنب المشاركة فى اللعب بالدمية» ، وهنا ربما نقول : «أوه . . فهذه الفئات فى حقيقة الأمر تمثل جميعها إستراتيجيات لتجنب المشاركة فى اللعبة بالدمية» ، ومن هنا فإنك قمت بتجميع أو ضم كل من : قيام الأطفال بالخطف ، والاختفاء ، والتجنب وعدم الاكتراث ، وأى شىء آخر يتصل بذلك تحت ذلك العنوان «تجنب المشاركة فى اللعب بالدمية» .

ومع ذلك فإنه يمكنك أيضًا أن تستعير مسمى من الأدبيات المتخصصة من مثل المصطلحات الآتية : التعب أو الإجهاد المؤقت ، وتجربة المرض ، وفقدان المكانة . فمثل هذه المفاهيم لها بعض المزايا ما دامت تنطوى على معانٍ ومضامين تحليلية ، ربما يمكن اعتبارها على درجة عالية من النضج بسبب كفاءتها وجودتها . وباستخدام هذه المفاهيم ، فإن ذلك ربما يشكل إسهامًا علميًا - إلى جانب الهدف من دراستك - يضاف إلى نمو المفاهيم المهمة فى التخصص أو المهنة التى تنتمى إليها .

ومن جانب آخر ، فإنه لا بد من أن نذكرك أن *استخدام مفاهيم مستعارة ربما يؤدى إلى أضرار وخيمة* . والمفاهيم المستعارة غالبًا ما تأتى معها بالمعانى والارتباطات المشتركة . والمفاهيم المذكورة أعلاه والمفاهيم الأخرى - مثل : «الوصمة ، وخيال الجسم ، والتنافر المعرفى» كلمات على درجة عالية من الدقة . ولكن من يقرأ نظريتك التى استخدمت فيها تلك المفاهيم سيتوقع منك أن تحدد هذه المفاهيم بالطرق المعيارية المتعارف عليها ، أو أنه سيقرأ ما تكتبه من خلال ما تحمله تلك المفاهيم من معانٍ لديه . كما أن الأمر ربما يؤدى بك إلى التحيز باستخدام هذه المفاهيم ، إذ ربما ستحتل المعانى المعيارية لتلك المفاهيم مكان الصدارة فى عملك ، الأمر الذى يؤدى إلى توقف عملية البحث أثناء مسيرتها بدلاً من دفعها إلى الإمام . وعليه ، فعندما تستخدم مفاهيم من الأدبيات فما عليك إلا أن تعمل ذلك وبشىء من العناية والدقة فيما لديك من معان .

ومن المصادر المهمة للمسميات ما يتمثل فى تلك الكلمات والعبارات التى يستخدمها المخبرون أنفسهم ، وخاصة تلك العبارات والكلمات الجذابة التى تسترعى انتباهك . ومثل هذه المصطلحات تسمى (الرموز الحية - *in vivo codes*) (انظر: Glaser,

(1978, p. 70; Strauss, 1987, p. 33) . ولتوضيح ذلك مرة أخرى نقدم مثالاً من مشهد فى إحدى الوحدات بمستشفى ما حيث نود القيام بدراسة عن كبيرة الممرضات . ففى أثناء مناقشة كبيرة الممرضات مع الباحث للسياسات والإجراءات الخاصة بتلك الوحدة من المستشفى ، قامت بالإشارة إلى إحدى الممرضات الحاصلات على رخصة ممارسة التمريض فى الوحدة وأخذت تقول : «إن هذه الممرضة هى التى تقوم بمهمة المحافظة على تقاليد المهنة فى هذه الوحدة» ، ثم استمرت كبيرة الممرضات فى وصفها لهذه الممرضة فقالت عنها إنها تقوم بالاضطلاع بواجب تدريب الممرضات الجدد على تقاليد ونظم وسياسات الوحدة . كما أنها تقوم بمهمة التأكيد على هذه القواعد والتقاليد والنظم والسياسات ، إذ عادة ما تقوم بتأنيب الآخرين عندما تلاحظ عدم تقيدهم بتلك القواعد . لاحظ أن مصطلح «المحافظة على التقاليد» يشكل مسمى مهمًا وجيداً لفئة . إنه مصطلح جذاب يوحى أو يلخص جميع الأشياء التى قالتها كبيرة الممرضات عن تلك المرضة . وباستخدامنا لذلك المصطلح ، فإننا لا نتعامل هنا فقط مع مصطلح جيد ، بل إننا سنقوم كما هو الشأن مع جميع الفئات بتطويره ابتداءً بحصر بعض من خصائصه ، كأن نقول على سبيل المثال إن «المحافظة على التقاليد» تقوم بتدريب الممرضات الجدد على تقاليد الوحدة ، كما أنها تقوم بمهمة المؤكد والمدعم البارز على النظم والتقاليد .

تطوير الفئات من خلال ما لها من خواص وأبعاد :

عندما تشرع فى تطوير فئة من الفئات فإن عليك أن تفعل ذلك بادئ ذى بدء من خلال خواص تلك الفئة التى من الممكن لاحقًا وضعها *فى أبعاد* . وتذكر أننا قلنا فى الجزء الخاص بالتعريفات من هذا الفصل إن الخواص تمثل صفات أو سمات الفئة ، أما *الأبعاد* فتمثل موقع تلك الصفات أو السمات من متصل تلك الفئة . إن عملية الترميز المفتوح تسهل اكتشاف الفئات وكذلك خواصها وأبعادها .

إن الخواص والأبعاد على درجة عالية من الأهمية لذلك يجب أن تؤخذ فى الاعتبار من حيث العمل على تنميتها وتطويرها بانتظام ، لأنها تمثل الأساس لعمل وصياغة العلاقات بين الفئات الرئيسية والفئات الفرعية ، وكذلك بين الفئات الرئيسية ذاتها .

ووفقًا لذلك ، فإن فهم طبيعة الخواص والأبعاد والعلاقات فيما بينها يعتبر مطلبًا رئيسيًا بالمقابل لفهم جميع الإجراءات التحليلية للنظرية المجذرة .

فالخواص ، كما سبق تعريفها ، تمثل سمات أو ميزات للظواهر (الفئات) . دعنا على سبيل المثال ننظر إلى ظاهرة (فئة) اللون ، هنا سنلاحظ أن خواصه تتضمن : الظل ، الكثافة ، المظهر ، وما إلى ذلك . إن كل خاصة من هذه الخواص من الممكن أن توضع فى أبعاد ؛ أى أن هذه الخواص تختلف أو تتوزع على متصل . فاللون مثلاً يمكن أن يختلف فى درجة كثافته من عالى الكثافة إلى منخفض الكثافة . وكذلك فى مظهره من المظلم الحالك إلى الخفيف الواضح وما إلى ذلك .

إن الخواص الموضحة أعلاه تعبر عن خواص عامة للون ، فهى تتعلق باللون بصرف النظر عن الموضع الذى يوجد فيه اللون . إن معرفة الخواص العامة للفئة (الظاهرة) أمر مهم : لأن ذلك يعطيك جميع الأبعاد التى تختلف وفقًا لها تلك الفئة (أو الظاهرة) . ففى كل وقت تبدو فيه حالة لفئة ما فى البيانات ، يصبح من الممكن تحديد موقع لها من *المتصل أو المدى البعدى* لتلك الفئة . وبناء على ذلك ، فإن أى حالة محددة من ذات الخاصّة العامة (كاللون مثلاً) سيكون لها موقف مختلف من ذلك المتصل أو المدى . وعليه ، فإن لكل فئة مجموعة من الخواص العامة ، كما أن لكل خاصة موقعًا مختلفًا من متصل أو مدى تلك الفئة . وفى الحقيقة ، فإن ذلك يعطى لظهور كل حالة لفئة من الفئات سجلاً *بُعديًا* خاصًا . ومن الممكن تجميع عدد من هذه السجلات لتشكل نمطًا معينًا . إن السجل الخاص ببعد واحد يمثل فى واقع الأمر *خواص* محددة لظاهرة تحت مجموعة محددة من الأوضاع .

وكمثال على ذلك ، دعنا نفكر حول مظهر اللون فى أنواع مختلفة من الورود . ففى كل وقت يبدو فيه الورد ، نستطيع تصنيف لونه عبر متصل من الخواص العامة كما سبق ذكر ذلك ، مثل : الظل ، والمظهر ، والكثافة . وذلك من خلال تحديد موقع الورد عبر المتصل الخاص بكل من الخواص العامة ، مما يؤدى ، بناء على ذلك ، إلى تعيين الخواص المحددة (أو سجل اللون) لكل نوع من أنواع الورد . بعدها ، يصبح من الممكن تصنيف الورد وفقًا للسجلات المحددة من اللون الخاص بالورد إذا كنا نرغب فى

ذلك . وبصرف النظر عن نوع الورد (سواء كان ذلك زهرة الثالوث أو أى نوع آخر من الورد) فإن هذا التصنيف سوف يظهر لا محالة . ففى إحدى المجموعات ربما يكون لدينا ورد ذو مظهر داكن ، وكثافة منخفضة ، وظل متوسط . وفى مجموعة أخرى من الورد ، ربما يكون ذا مظهر خفيف ، وكثافة عالية وظل مرتفع .

إن لأى خاصة بطبيعة الحال خواص فرعية ، من الممكن وضع كل واحدة منها بالمقابل ، على متصل من الأبعاد فى حالة كون التحليل يتطلب مثل ذلك . وعلى سبيل المثال فإن إحدى خواص الورد ما يتعلق باللون ، واللون له خواص فرعية ، مثل : المظهر ، والظل ، والكثافة ، ونحو ذلك . ومن خواص الورد أيضًا ما يتعلق بالحجم الذى يمكن أيضًا تجزئته إلى عدد من الخواص الفرعية ، كالطول والعرض والضخامة .

والآن دعنا نعود مرة أخرى لمثالنا الرئيسى المتعلق بالسيدة ذات الزى الأحمر لنطبق عليه ما ذكرناه وتعلمناه عن الخواص والأبعاد . ففى الجلسة الأولى للترميز تمكنا من اكتشاف الفئة التى أسميناها بـ **(موجهة الطعام)** . فهذه الفئة تضفى هدفًا ومعنى محددًا لوجود السيدة ذات الزى الأحمر فى المطعم خلافًا لعميلة من عميلات المطعم التى ربما تكون مرتدية زيًا أحمر فى نفس الوقت . إن إحدى الفئات الفرعية للفئة المسماة بـ **(موجهة الطعام)** ما يتعلق بالقيام **بأنوع محددة من العمل** ، كالمتابعة ، والمراقبة ، والمساعدة وهلمَّ جرًا . فهذه الفئات الفرعية الأخيرة فى حقيقة الأمر أجزاء من الفئة الفرعية المسماة بـ **(أنواع العمل)** . وإضافة إلى ذلك ، فإن لكل نوع من هذه الأنواع خواص يمكن توزيعها على أبعاد مختلفة . فلكل حادثة من القيام بأى نوع من أنواع ذلك العمل تصبح من الممكن أن تعطى تحديدًا معينًا من خلال ملاحظة كل من : تكرار القيام بذلك العمل ، والزمن الذى تستغرقه ذلك ، وكيفية القيام به أو تنفيذه ، ومن وكم يشترك معها فى القيام بذلك العمل ، وفى أى زمن يتم القيام بذلك العمل ، ونحو ذلك .

ولتوضيح ما سبق ، دعنا نأخذ ذلك النوع من العمل الذى سميناه بـ **(المراقبة والملاحظة)** كمثال ، مع كل ملاحظة أو مراقبة من الممكن أن نلحظ **مدى تكرار** ذلك . كما أنه من الممكن أن تجزأ تلك التكرارات إلى أبعاد ، وذلك من خلال السؤال عن مدى تكرار ملاحظتها ومراقبتها لذلك المكان من المطعم مقارنة بمكان آخر منه ، حيث من

المتوقع أن تتدرج الإجابة عنه على سبيل المثال من (غالبًا) ... حتى (أبدًا) . كما أن للملاحظة والمراقبة خاصة **المدى أو البعد** . ومرة أخرى ، فمع كل حادثة من الملاحظة والمراقبة من الممكن أن نلاحظ إذا كانت ملاحظتها ومراقبتها لأى مكان فى المطعم مرتفعة أم منخفضة ، وإذا كانت كثافة المراقبة والملاحظة تتغير عبر الزمن . ومن خواص المراقبة والملاحظة أيضًا ما يتعلق *بالزمن المستغرق* فى هذه العملية والذى يمكن الوقوف عليه من خلال تحديد كمية الوقت ، من حيث الطول والقصر ، الذى تأخذه السيدة ذات الزى الأحمر أثناء قيامها بالمراقبة والملاحظة .

من الممكن أن نعمل الشىء نفسه مع الفئة التى أسميناها بـ (تزويد المعلومات) . فمن خواص تلك الفئة ما يتعلق **بكمية المعلومات** وذلك من خلال تحديد ما إذا كانت تزود كمًا هائلاً أو قليلاً من المعلومات فى كل مرة تقوم فيها بتزويد المعلومات . ومن تلك الخواص أيضًا ما يتصل **بأسلوب تزويد هذه المعلومات** ، وذلك من خلال تحديد ما إذا كان ذلك يتم كتابيًا أم شفهيًا ، بصوت مرتفع أم بصوت هادئ ، وبطريقة علنية أم بطريقة سرية .

ومن هنا نستطيع أن نرى كيف أن عملية وضع خواص الفئات فى أبعاد ، أمر يساعد على الحصول على تصور محدد لما تقوم به السيدة ذات الزى الأحمر من عمل . وإذا كنا نقوم فعلاً بدراسة عن موجهى أو موجهات الطعام فى المطاعم ، فإننا بلا شك سنحتاج إلى هذا النوع من الدقة والتحديد عن كل موجه أو موجهة للطعام وعن كل نوع من العمل الذى يقوم أو تقوم به .

إن هذه الخواص والأبعاد من الممكن عرضها بيانيًا على النحو الآتى :

الفئة	الخواص	المدى البعدى (مطبق على كل حالة)
المراقبة أو الملاحظة	التكرار	دائمًا .... أبدًا
	المدى	كثير .... قليل
	الكثافة	عالية .... منخفضة
	الزمن المستغرق	طويل .... قصير

وخلال التحليل ، غالبًا ما تكون الخواص موجودة فى صورها البعدية ، أو فى الخواص المحددة المتصلة بمثل هذه الظاهرة ، وهذه تشير إلى الخواص العامة . فعلى سبيل المثال ، أحدهم قد يستمع إلى أحد الطلاب وهو يقول «لقد أمضيت جميع ما لدى من وقت فى المذاكرة» . فكلمة (جميع) تعتبر كلمة مهمة ، حيث إنها تعكس بعد **الزمن** باعتباره خاصة عامة أو سمة للمذاكرة التى من الممكن أن تختلف أو تتنوع من قضاء جميع الوقت إلى عدم قضاء شىء من ذلك فى المذاكرة . (وإذا رغبنا فى أن نكون أكثر دقة فما علينا إلا أن نجزئ الزمن إلى خواص فرعية كالكمية والنوع ، ومن ثم توزيع ذلك أو وضعه فى أبعاد بنفس الطريقة الموضحة أعلاه) .

تنوع طرق الترميز المفتوح :

هناك العديد من الطرق المتنوعة المستخدمة فى عملية الترميز المفتوح . فأحد الباحثين ربما يبتدئ بتحليل المقابلات والملاحظات الأولى سطرًا سطرًا ، ويتضمن ذلك فحصًا دقيقًا للبيانات عبارةً عبارةً وأحيانًا لكلمات مفردة . إن هذه الطريقة تمثل حقيقة أكثر الطرق تفصيلاً وأكثرها عائدًا . كما أن هذه الطريقة ، من جانب آخر ، تبعث على الضجر والملل بصورة أكثر من سائر الطرق الأخرى وخاصة عندما تعمل أو تمارس خلال حلقات عديدة . ومع هذا ، ففى بداية القيام بأية دراسة وكذلك الحال عند الشروع فى تعلم إجراءات الترميز ، فإن استخدام هذه الطريقة يعتبر أمرًا ممتعًا نظرًا لأنها أكثر الطرق من حيث العائد . كما أن توليد الفئات مع بداية الدراسة من خلال تحليل البيانات سطرًا سطرًا يمثل أمرًا مهمًا ؛ لأن تلك الفئات تصبح الأساس لخياراتك النظرية . وهذه الفئات ترشدك إلى الأشياء التى تركز عليها فى مقابلاتك وملاحظاتك اللاحقة ، كما أنها تزودك ببعض الأفكار المهمة فى إرشادك للحصول على أمثلة من الظواهر الواقعة فى إطار تلك الفئات . وعلى سبيل المثال ، فإن تحليل البيانات سطرًا سطرًا ربما يوجه اهتمامك لمقارنة المطعم الأول السابق ذكره مع مطعم آخر وإن كان كثير الزبائن إلا أنه ليس مطعمًا ذا مستوى اجتماعى واقتصادى عال ، وحيث لا يوجد به من يقوم بمهنة (موجهة الطعام) وذلك لترى ماذا يطرأ على الطعام والخدمة خلال ساعات الذروة فى المطعم .

كما أنه من الممكن أن يقوم الباحث بالترميز المفتوح من خلال استخدام **الجملة أو الفقرة** بدلاً من العبارة أو الكلمة . وفى هذه الحالة سينصب الاهتمام على الفكرة الرئيسية التى تدور حولها الجملة أو الفقرة (من بيانات المقابلة أو العمل الحقلى أو الوثائق) . وبعد التعرف على الفكرة ما عليك إلا أن تحدد لها مسمى ، بعد ذلك قم بعمل تحليل أكثر تفصيلاً لذلك المفهوم . إن هذا المدخل من الممكن استخدامه فى أى وقت ، كما يعتبر هذا المدخل مهماً على وجه الخصوص عندما يكون لديك فئات متعددة سبق تحديدها ولا تريد فى دراستك الحالية إلا أن تقوم بالتوسع فى ذلك من خلال محاولة الوقوف على الفئات الأخرى ذات الصلة بتلك الفئات التى سبق تحديدها .

أما الطريقة الثالثة فتتمثل فى أن تأخذ **وثيقة بأكملها** أو بيانات الملاحظة أو المقابلة وتثير التساؤل التالى : ما الذى يحدث هنا ؟ ما الذى يجعل هذه الوثيقة مثل الوثيقة السابقة التى قمت بترميزها أو مختلفة عنها ؟ . وبإجابتك عن هذه الأسئلة فباستطاعتك العودة إلى البيانات لتقوم على وجه التحديد بتحليل أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين الوثيقتين .

كتابة مذكرات الترميز :

عادة ما تكتب المسميات المبدئية للمفاهيم إلى اليمين من المقابلات والمذكرات الحقلية والوثائق الأخرى ، أما الفئات والمفاهيم المتصلة بها فيتم بعدئذ أخذها من الصفحات وتكتب كمذكرات للترميز أو كنوع من *المذكرات* . (راجع ما ذكر حول ذلك فى الفصل الثانى عشر) . وهناك العديد من الطرق المحددة للقيام بهذا التدوين والتسجيل ، وما على أى شخص إلا أن يختار الطريقة التى يرغبها أو يجدها مناسبة له بشكل أكثر من غيرها .

إن عملية الترميز عملية ممتعة ، أليس كذلك ؟ . وذلك لأنك لا تدرى على الإطلاق ماذا ستكتشف فى حالة واحدة من حالات جمع البيانات . ومع هذا فإن أفضل اللحظات هو ما سوف يأتى بعد ذلك . وعليه ، فما عليك إلا أن تنتقل إلى الفصل اللاحق الذى نناقش فيه الأدوات التى تستطيع استخدامها لزيادة حساسيتك النظرية خلال الترميز المفتوح .

الملخص :

تعتبر المفاهيم حجر الزاوية بالنسبة للنظرية ، كما يعبر الترميز المفتوح فى طريقة النظرية المجذرة عن تلك العملية التحليلية التى يتم من خلالها تحديد المفاهيم وتطويرها عن طريق ما لها من خواص وأبعاد . وتتمثل الإجراءات التحليلية الرئيسية اللازمة لتحديد المفاهيم وتطويرها فى إثارة التساؤلات حول البيانات ، وفى عقد المقارنات للتعرف على أوجه الشبه وأوجه الاختلاف فيما بين الأحداث والحوادث والمظاهر الأخرى من الظواهر . وفى ضوء ذلك يتم تحديد مسميات معينة لتلك الحوادث والأحداث المتشابهة ومن ثم ضمها إلى بعضها ليتشكل عن ذلك ما أطلقنا عليه مسمى «الفئات» .

الفصل السادس

الأساليب اللازمة لتدعيم الحساسية النظرية

اقتصرنا حتى الآن فى مناقشتنا للتحليل على البيانات التى قمنا بجمعها عن المطعم . وبإمكانك أن تستمر على هذا النمط وذلك بأن ترمز *فقط تلك الأشياء التى تلاحظها* . لاحظ أننا قلنا (فقط تلك الأشياء التى تلاحظها) . إن المشكلة تتمثل فى أن الباحثين غالبًا ما يفشلون فى ملاحظة الكثير مما يوجد أمامهم لأنهم يأتون إلى الحلقات أو الجلسات التحليلية وهم محملون بالافتراضات والتجارب والانغماس فى الأدبيات . وستقول كباحث (أوه لستُ أنا) ، والمشكلة أنك لست فى الغالب واعيًا لما تؤدى إليه هذه الأمور (الافتراضات والتجارب والأدبيات) من تلوين أو التأثير على (تفسيرك للأحداث حتى يقوم أحد بتنبيهك إلى ذلك) .

ولتوضيح هذا الشأن ، افترض على سبيل المثال أنك تقوم بقيادة سيارتك فى حديقة فى صباح أحد الأيام حوالى الساعة (٩,٣٠) ، وهنا لاحظت وجود شخصين قذرين وغير حليقين يرتديان ملابس رثة ، وقد جلسا على مقعد بالحديقة يعربدان . والسؤال ما هى ردة الفعل المباشرة لديك تجاه هذا المشهد ؟ وستكون ردة الفعل لديك أن هذا المشهد هو لرجلين (لا مأوى لهما) ، وربما يكون الأمر كذلك ، ولكن هذا المشهد ربما يعكس شيئًا غير ذلك ، وربما يكون نمطًا من التفاعل ، أو رغبة فى البقاء والاستمرار ، وربما يكون مشهدًا متولدًا عن الشعور بالوحدة والعزلة أو مشهدًا معبرًا عن الإحباط الناتج عن عدم تحقيق الأحلام . إننا لن نعرف حقيقة هذا المشهد إطلاقًا حتى نقوم بالبحث وراء ما هو واضح .

إن افتراضاتنا وتجاربنا ومعارفنا ليست بالضرورة غير جيدة فى حد ذاتها . تذكر أننا قلنا فيما سبق إن تلك الافتراضات والتجارب والمعارف أمور تساعدنا على تطوير الحساسية النظرية . إننا لا نحتاج فقط إلا أن نتحدى ما لدينا من افتراضات ونتعمق فيما وراء تجاربنا ، والنظر إلى ما وراء الأدبيات إذا كنا نطمح إلى اكتشاف الظواهر والوصول إلى صياغات لنظرية جديدة .

ولاكتشاف النظرية من خلال البيانات فإننا نحتاج إلى الحساسية النظرية التى تتمثل فى القدرة على ملاحظة ماذا يجرى بصورة تحليلية عميقة . وتتولد هذه الحساسية النظرية مؤخراً فى المشروع البحثى من خلال التعامل مع البيانات ذاتها . ولكن فى المراحل التحليلية الأولى من المشروع البحثى ، فإننا نحتاج إلى طرق تساعدنا على التفكير فى الظواهر التى نقوم بدراستها . إن الأدوات التى سنقدمها لك قد تم تصميمها لتمكننا بوضوح من التفكير فى الظواهر من خلال استخدامنا للتجارب والمعارف لتقوية بصيرتنا - لا لإضعافها - لفهم تلك الظواهر . إننا لا نستطيع التأكيد بما فيه الكفاية على قيمة وجدوى هذه الأدوات لكل من الباحثين المبتدئين والباحثين المتمرسين ، ونظراً لأن هذه الأدوات والأساليب جميعها مستخدمة خلال العملية البحثية وفى كل نوع من أنواع الترميز ، فإننا سنقوم الآن بمناقشتها .

وظائف الأساليب اللازمة لتدعيم الحساسية النظرية

١ - توجيه تفكيرك لتجاوز ما هو معروف من خلال الأدبيات المتخصصة والتجربة الشخصية .

٢ - مساعدتك لتفادى الطرق العادية فى التفكير فى الظواهر .

٣ - تحفيز العملية الاستقرائية .

٤ - دفعك للتركيز على ما حولك ، مما يؤدى بك إلى عدم أخذ البيانات على علاتها .

٥ - السماح بتوضيح أو الكشف عن افتراضات الناس الذين شملتهم البيانات .

٦ - مساعدتك على الاستماع إلى ما يقوله الناس وما يقصدونه من وراء ذلك .

٧ - منعك من التسرع عند فحص البيانات ، «فالألماس لا توجد إلا فى الأماكن الصعبة» .

٨ - تجبرك على إثارة الأسئلة وتقديم الإجابات (الآنية) المؤقتة .

٩ - السماح بالوصف أو النعت المقيد وإن كان ذلك مؤقتاً .

١٠ - السماح باكتشاف وتوضيح المعانى الممكنة للمفاهيم .

١١ - اكتشاف الخواص والأبعاد فى البيانات .

وظيفة إثارة التساؤلات :

إن الهدف من وراء إثارة التساؤلات يتمثل فى فتح وتهيئة البيانات للتحليل ، والتفكير حول الفئات الممكنة وكذلك حول خواصها وأبعادها . إنها تساعدك على إثارة التساؤلات بصورة أكثر دقة فى المقابلات اللاحقة أو فى قراءاتك للأدبيات ذات الصلة . إننا لا نعنى أن هذه الأسئلة تمثل حقيقة ما بهذه البيانات ، بل إننا نشير ـ عوضًا عن ذلك ـ إلى ما يمكن أن نحصل عليه من خلال جمع وتحليل البيانات مستقبلاً إذا كنت تعرف ما تريد إثارته من أسئلة .

إن هناك أسئلة عامة معينة من الممكن إثارتها آليًا حول البيانات . فكل سؤال من الممكن أن يحفز أو يؤدى إلى إثارة سلسلة من الأسئلة المترابطة والمحددة التى تؤدى بالمقابل إلى تطوير الفئات وما لها من خواص وأبعاد . وتتمثل الأسئلة الأساسية فى كل من : **من هو ؟ متى ؟ أين ؟ ، ماذا ؟ ، كيف ؟ ، كم ؟ ، ولماذا ؟**

دعنا نتوقف هنا لتطبيق هذه الأسئلة على وضعٍ ما لترى ماذا نقصد من وراء ذلك . افترض أنك تقوم بدراسة كيفية تعامل المصاب بمرض المفاصل (الروماتزم) مع الألم . إن عليك أن تجلس وأمامك بيانات ما قمت به من مقابلات وتقرأ الاقتباسات الموضحة أدناه . ولكن ضع فى حسبانك أن محور التركيز فى تحليلك هو كيفية تعامل المصاب بمرض المفاصل مع الألم . ولعمل ذلك ـ بطبيعة الحال ـ فما عليك إلا أن تفهم ما يعنيه ذلك الألم ، وماذا يعنى كذلك للمصاب به ؟ ، لأن تلك المعانى تقوم بدور بارز فى كيفية تعامل الناس وتدبيرهم لأوضاعهم . فالأسئلة التى ستثيرها ستساعدك على الحصول على جمع هذه المعلومات . وفيما يلى نعرض فقرة مقتبسة من مقابلة مع امرأة مصابة بمرض ألم المفاصل :

إن عملية تخفيف الألم تمثل مشكلة رئيسية للمصاب بمرض التهاب المفاصل . فأحيانًا ما يكون الألم أكثر شدة منه فى أحيان أخرى ، ولكن عندما يكون الألم شديداً ـ (أووه) ـ فإن شدة الألم لا يمكن تقديرها لدرجة أنك تريد ملازمة الفراش ولا تريد عمل أى شىء . وفى هذه الأحيان فإن أى عقار مخفف للألم لا يؤثر إلا تأثيراً مؤقتًا أو جزئيًا .

إن ما سيأتى واضح للغاية من خلال البيانات . فالمرأة تخبرك أن الألم مشكلة بالنسبة لها : **تجربة الألم** . كذلك فإن ما تشعر به من ألم له خاصة الاختلاف والتنوع من حيث **الشدة** ، أى من الألم الشديد للغاية إلى الألم غير الشديد . وعندما يكون الألم شديداً فإن هناك نتيجتين : أولاهما أن أنشطتها تتقلص ، **محدودية الأنشطة** ، وثانيتهما أنها تمكث فى الفراش ، **ملازمة الفراش** ، كما أن تلك البيانات تحيطنا علماً بأن المرأة تستخدم العقاقير لتسكين ما تشعر به من آلام ، **تسكين الألم** . إن **تناول المرأة للدواء بنفسها** يشكل إستراتيجية لتسكين الألم ، وهناك خاصتان لتسكين الألم : التوقيت (التأثير المؤقت للدواء) ودرجته (التأثير الجزئى للدواء) .

والآن دعنا نلاحظ ما تكون لدينا هنا . فلدينا فئتان هما **تجربة الألم وتسكين الألم** . وقد انبثقت هاتان الفئتان من ترميزنا الأولى للبيانات . وقد اعتبرتا فئتين نظراً لما يمكن أن تلاحظه من أن المفاهيم الأخرى (الفئات الفرعية) من الممكن إدراجها تحت هاتين الفئتين كخواص وأوضاع ونتائج وإستراتيجيات . إن ما توصلنا إليه هنا من نتائج لا بأس بها فى وقت محدود من التحليل .

ونستطيع أن نستمر على هذا المنوال فى كل مقابلة على أمل تطوير وتنمية هذه الفئات مستقبلاً وظهور فئات أخرى ، ولكن هذه ستكون عملية طويلة ومملة كما أن ما سنحصل عليه من البيانات سيعتمد إلى حد كبير على مدى الحساسية النظرية لدينا . وعليه فدعنا نرَ إذا كان من الممكن زيادة حساسيتنا من خلال استخدام تلك القائمة من الأسئلة فى دراسة موضوعنا المختار . إننا سنطبق تلك الأسئلة ليس بالضرورة على تلك المرأة المصابة بمرض التهاب المفاصل ، ولكن سنطبقها **بشكل عام على الناس** الذين يعانون هذا المرض . لاحظ أنه - لتتمكن من طرح أو إثارة الأسئلة الفرعية التابعة لكل عنوان رئيس - يجب عليك أن تعتمد على الخبرة الشخصية والمهنية إذا كانت متوفرة لديك وكذلك من خلال الخبرة المتكونة لديك ، من خلال الأدبيات المتخصصة . ومع ذلك ، فإننا نستخدم هذه المصادر بأسلوب إبداعى مترابط .

من *الذى يقدم مخفض الألم للمصابين بمرض التهاب المفاصل* ؟ هل المرضى يقدمون لأنفسهم هذا الدواء أم أن آخرين يقومون بذلك لهم ؟ فعلى سبيل المثال ، هل يقوم هؤلاء على الإطلاق بالذهاب إلى طبيب أو مستوصف أو إلى غرفة الإسعاف

بالمستشفيات ، للحصول على مخفف الألم ؟ هل يقوم أشخاص آخرون غير الطبيب بتقديم مسكّن للألم للمرضى من هذا النوع كإخصائيي العلاّج الطبيعي الذين يستخدمون الأساليب المائية ، أو الذين يقومون بتبصير المرضى بالكيفية التى يقومون بوضع أجسامهم عليها أو تحريكها ، والطرق المختلفة للحركات التى تساعد على تقليل الضغط على مواضع الألم من الجسم ؟ كذلك ، ماذا عن التقنيّين الذين يستطيعون تدريب هؤلاء المرضى على الأساليب الارتجاعية البيولوجية (Bio feedback techniques) للتخفيف من الألم ؟ أو ماذا عن المستشارين المعنويين (Spiritual advisors) الذين يستطيعون تدريبهم على الاستغراق فى التأمل (Meditation) لتخفيف الألم ؟ .

ما الذى يؤدى إلى تخفيف الألم ؟ العقاقير تؤدى إلى تخفيف الألم كما فى هذه الحالة . ولكن ماذا يمكن للناس أن يستخدموا بهذا الصدد إضافة إلى العقاقير ؟ هل يقومون بوضع أنفسهم فى أوضاع مختلفة ؟ أو بالاستغراق التأملى ؟ أو بالتوقف عن الحركة ؟ أو بالمحافظة على درجة عالية من حرارة الجسم ؟ أو بممارسة أنشطة هادئة كالقراءة ومشاهدة التلفزيون مما يمكن أن يبعدهم عن التفكير فى الألم ؟ ما هى الأشكال الحديثة الموجودة فى الأدبيات المتخصصة ؟ هل يوجد أماكن أو مستوصفات خاصة تهدف إلى تدريب المصابين على كيفية التعامل مع ما بهم من آلام ؟ .

ما هى طبيعة تجربة الألم وكيف يتم التعامل معه ؟ وما هو القدر المحتاج إليه من المسكّن ؟ هل جميع الأشخاص يعانون الألم بنفس الطريقة ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف تختلف تجربة الألم من شخص لآخر ؟ ماذا تعنى المصابة بمرض ألم المفاصل عندما تقول : (إن الألم شديد) ، هل يكون الألم أشدّ عندما تكون متعبةً أم غير متعبة ، عندما تكون حائرة أم غير حائرة ، عندما تكون كئيبة أم غير كئيبة ؟ هل تحاول تخفيف الألم من خلال التذمر أو عدم التذمر ، من خلال الحركة أم عدم التحرك من خلال الحصول على المسكّن بذاتها أو من خلال طلب المساعدة من مكان أو شخص آخر ؟ كيف يحاول المصابون تخفيف ما يشعرون به من آلام ؟ هل الحاجة ماسة إلى كثير من المسكّن أو إلى قليل منه ؟ .

متى *يظهر الألم* ومتى *تبدأ المرأة في أخذ* مسكّن *الألم* ؟ هل يكون الألم أشدّ في الصباح أم في المساء ؟ أعظم كثافة بعد الحركة أم خلالها ؟ هل تأخذ المرأة الدواء قبل التحرك عندما تظهر أولى علامات الألم ؟ أم هل تنتظر حتى يصبح الألم أكثر كثافة ؟ هل تستخدم طرقًا أخرى لتسكين الألم قبل أن تأخذ الدواء ؟ .

لماذا يكون مسكّن *الألم مهمًا* ؟ ماذا يحدث عندما لا يهدأ أو يسكن الألم ؟ ماذا يحدث عندما يخف الألم ؟ كيف يؤثر ذلك على كل من مستوى نشاطها ورؤيتها للحياة ؟ وكيف تشعر حيال مرض التهاب المفاصل ذاته وحيال ما ستتناوله من جرعات مستقبلاً للعلاج منه ؟ .

كما أن هناك أسئلة مؤقتة يمكن إثارتها هنا تدور **حول تكرار الألم وفترته ومعدله وتوقيته** . دعنا نلاحظ ماذا يحصل عندما نقوم بتطبيق هذه الأسئلة على مذكرتنا القصصية تلك .

التكرار ؟ كم من المرات التي لا بد فيها من تخفيف الألم ؟ هل كل ساعة يوميًا ؟ هل من الممكن التنبؤ بالألم ، وكذلك بالدواء المستخدم لتسكينه ؟ .

الفترة ؟ ما طول الفترة التي يستغرقها الألم ؟ ما طول الفترة التي يستغرقها مسكّن الألم ؟ هل توجد أشياء محددة من الممكن استخدامها إلى جانب إجراءات تخفيف الألم لإطالة أو تقصير آثارها ؟ .

المعدل ؟ إلى أي مدى من السرعة أو البطء يتم تخفيف الألم ؟ وإلى أي مدى من السرعة أو البطء يتلاشى تأثير مسكّن الألم ؟ هل يتم ذلك فجأة أم تدريجيًا ؟ .

التوقيت ؟ هل يمكن تقديم العلاج المسكّن للألم في وقت محدد من اليوم ؟ كم من الوقت يجب أن يمضي حتى يتم تقديم الجرعة اللاحقة من الدواء للمريض ؟ إذا كان علاج المرضى يتطلب تمارين معينة ، فكم من الوقت يستغرق ذلك ؟

كما أنه من الممكن أن يقوم الباحث بإثارة أسئلة ذات *ارتباطات مكانية* مثل : ما مساحة المكان الذي تغطيه الوسائل الخاصة ؟ هل يمثل المستودع مشكلة ما ؟ ، أو

أسئلة ذات طابع تقنيّ مثل : ما نوع الوسائل الخاصة التى يحتاج إليها المريض ؟ وهل هناك مهارات خاصة لا بد منها لاستخدام تلك الوسائل ؟ ثم ما هو حجم تلك الوسائل وثمنها وإمكانية نقلها من مكان إلى مكان ؟ . (لاحظ أن العقاقير من الممكن نقلها من مكان إلى مكان آخر) .

ومن هنا فإنك تستطيع أن ترى الآن أن لديك الكثير من الأمور للتفكير فيها مقارنة بوضعك عندما ابتدأت فى التفكير فى البيانات الخاصة بالألم . إن جميع الإجابات عن تلك الأسئلة ربما لا تكون متوفرة فى البيانات الحقيقية الموجودة لديك ، ومع هذا فلست فى حاجة للأخذ بذلك فى الاعتبار . هذا والأمر يتوقف عليك فى البحث عن إجابات لتلك الأسئلة فى مقابلاتك اللاحقة وجلساتك التحليلية . إن هذا لا يعنى أنك ستسعى لإثارة جميع تلك الأسئلة المحتواة فى القائمة . فمعظم تلك الإجابات ستتضح لك فى مقابلاتك اللاحقة بدون قيامك بإثارة تساؤلات حولها ، وعندها فإنك هذه المرة سوف تستمع إلى تلك الإجابات . إنك هنا ستفحص بياناتك من خلال تلك الإجابات ملتقطًا ما يبدو من تلميحات وسائلاً عن مزيد من التفاصيل . كما أنك أيضًا ، ستكون أكثر حساسيةً عندما تقوم بفحص البيانات خلال الجلسات التحليلية اللاحقة ، مثيرًا هذه الأنواع من التساؤلات حول البيانات . وعندما لا تجد إجابات عن هذه التساؤلات يصبح من الضرورة أن تتساءل : «إلى من أتحدث لاحقًا لأجد تلك الإجابات؟» (ولعلك لا تنسى ما قد تعلمته سابقًا من أن ما حصلت عليه من إجابات ستقوم بتحويله إلى مفاهيم ، ومن ثم تصنيفها فى فئات مع تحديد خواصها وأبعادها تمامًا كما تم توضيح ذلك سابقًا) .

تحليل الكلمة والعبارة والجملة :

فيما يلى سنريك أن أى باحث ليس فى حاجة إلى فقرة بكاملها أو إلى قائمة من الأسئلة حتى يتمكن من فتح البيانات للتحليل ، فالشروع فى تحليل البيانات أمر ممكن من خلال جملة واحدة أو عبارة أو حتى كلمة واحدة أحيانًا .

إن تحليل كلمة أو عبارةً أو جملة يمثل تمرينًا خاصًا ذا قيمة ، نظرًا لأن ذلك يحيطك علمًا بكيفية إثارة التساؤلات حول المعانى المحتملة سواء كانت مقصودة فى حد ذاتها أم مفترضة من قبل المتحدث أو من قبل من هم حوله ، كما أنها تساعد على

إحضار افتراضاتك الخاصة حول ما قيل ، وتجبرك على تمحيص تلك الافتراضات ووضعها موضع المساءلة والتحقيق . إن هذا المثال من الممكن أن يكون بمثابة مناورة حتى بالنسبة للباحثين المتخصصين ، لأنه حتى هؤلاء غالبًا ما يحضرون معهم افتراضاتهم المسبقة وأطرهم التصورية فى جلساتهم التحليلية .

وفى الغالب ، عندما ينظر أى شخص إلى الكلمات فإنه سيقوم بتحديد ما تحمله تلك الكلمات من معانٍ وذلك فى ضوء الاستخدام أو التجربة . وإننا غالبًا ما نعتقد ذلك لأننا سنتصرف وسنشعر بطريقة محددة أن ذلك ـ بطبيعة الحال ـ يمثل أو يعبر عما يعنيه المبحوث من تلك الكلمات . إن هذا الاعتقاد ليس بالضرورة اعتقاداً صحيحًا ، وما عليك لمعرفة ذلك إلا أن تأخذ أية كلمة من الكلمات ومن ثم تسأل الناس عما تعنيه تلك الكلمة بالنسبة لهم . إن كلمة مثل (أحمر) ربما تكون مثالاً جيداً ، فشخص ما ربما يقول : (... موردٌ الشفاه «حمّور» ، أو دم) . وآخر ربما يقول : انفعال ، أو غضب شديد ، وربما تعنى كلمة (أحمر) تلك فستانًا مفضلاً ، ورداً ، سيارة فخمةً ، وربما لا تعنى شيئًا مما سبق . وكمثال نقترح عليك أن تقوم بتدوين جميع ما بدا لك من أفكار عندما تفكر فى كلمة (أحمر) ، ألا يدعوك ذلك إلى الدهشة ! فالأحمر يعنى شيئًا أكثر من مجرد لون ما ، إنه ينطوى على عاطفة ، شعور ، تركيب ، إحساس ، رائحة ، وفعل ما ؛ فجميعها محتواة فى تلك الكلمة (أحمر) . إن هذه الارتباطات مأخوذة من المعانى التى قمنا بربطها بهذه الكلمة عبر السنين إما لأسباب شخصية أو ثقافية .

ولتبسيط الأمر فإن **الإجراء** الذى يتخذ هنا يتمثل فى أن تقوم بادئ ذى بدء بالاطلاع السريع على وثيقة ما ، أو على الأقل على عدد من صفحاتها ، بعد ذلك قم بالرجوع إلى أية كلمة أو عبارة أو جملة استرعت انتباهك أهميتها ودلالتها . ويشترط أن تكون الفقرة المختارة فقرة تود التفكير فيها بعمق . بعد ذلك قم بحصر جميع المعانى الممكنة لتلك الكلمة ابتداء بالمعانى الأكثر إمكانية وانتهاء بالمعانى الأقل إمكانية .

ولترى كيف نستطيع استخدام هذا الأسلوب ، سنقوم بتوضيح كيف استخدم فى حلقة بحثية لابتداء تحليل بيانات إحدى الطالبات .

يتمثل المكان فى فصل من الفصول الدراسية ، أما موضوع بحث الطالبة فيدور حول الإعاقة ، والطالبة هنا تريد المساعدة فى تحليل بيانات المقابلة التى قامت بعملها مع شاب معاق . أما الكلمة التى اختارها طلاب الحلقة البحثية من تلك المقابلة لغرض التحليل فهى كلمة (فى أى وقت) التى أخذت من عبارة (فى أى وقت عندما أقوم بأخذ حمام) .

[م : المدرس ، ط : الطالب أى طالب] .

م - أخذًا فى الاعتبار الإطار الذى تمت فيه المقابلة ، ماذا يمكن أن تعنيه كلمة (فى أى وقت) .

ط - إن الرجل شعر **بالاستقلالية** حينما كان يقوم بأخذ حمام . نتيجة .

م - فى أى مكان آخر ربما يشعر بالاستقلالية حينما يكون هناك ؟

ط - فى الفراش وفى الكرسى الخاصين بالمعاقين .

م - فى أى مكان يشعر **بالتبعية** حينما يكون هناك ؟ إن هذا يمثل نتيجة أخرى ، ولكنها مرتبطة بالاختلاف فى نوع الأنشطة .

ط - عندما تواجهه مجموعة كبيرة من خطوات السلم .

م - ماذا يمكن أن تعنيه كلمة «فى أى وقت» إضافة إلى ما ذكر ؟

ط - وضع من الأوضاع ربما يحدث لاحقًا فى المقابلة .

ط - انتهاء فعل ما وابتداء فعل آخر . أى فكرة **الطور** أو **تتابع** الأفعال .

م - دعنا نأخذ وضعًا آخر ترد به كلمة «فى أى وقت» ومقارنة ذلك مع ما سبق . فربما من خلال تلك المقابلة ستكون لدينا معانٍ أخرى ممكنة لتلك الكلمة . إن الوضع يتمثل فى مضمار للسباق . أما ما يقوله المتحدث (المقابل) فيتمثل فى : «حينما تنطلق البندقية ، فإننى أنسى جميع الشهور التى قمت فيها بالتدريب الشاق» .

ط - معدلات الحركة خلال كل طور من أطوار الفعل ، أى *خاصة التوقيت* وفكرة *العملية* .

ط - الاستعداد الذى يحدث قبل كلمة «حينما» . وضع التدريب أو الاستعداد اللازم قبل بروز ذلك النشاط .

ط - محاولة القائم بالمقابلة للتعرف على المعانى المحتملة لكلمة «فى أى وقت» . *خاصة المحاولة ، ونتيجة الإحراز* .

وقد استمر طلاب الحلقة البحثية فى مناقشة كلمة «فى أى وقت» مكتشفين المعانى الممكنة لها ومثيرين المزيد من الأسئلة ومحددين مسميات معينة للظواهر ، علماً بأن لا شيء من ذلك تفرضه تلك البيانات ، أى أنه ليس هناك من بين الطلاب من يقصد أن أيًا من المعانى الممكنة التى برزت من خلال تلك الحلقة البحثية تنطبق على وضع ذلك الشاب المعاق أو على هذا المثال من النشاط . إن ما يمكن أن يستفاد من هذا المثال يتمثل فى إعطاء تلك الطالبة مدى ممكنًا من المعانى التى من المحتمل أن تكون مرتبطة بكلمة (فى أى وقت) ، الأمر الذى يؤدى إلى زيادة الحساسية لديها حول ما يمكن أن تصادفه فى تحليلاتها لهذه المقابلات أو المقابلات الأخرى التى ستقوم بها .

ومرة ثانية ، لاحظ كيف أن كلمة واحدة ربما تتضمن العديد من المعانى . لاحظ كذلك أننا لم نذهب بعيداً عن الوضع المدروس ، كما أننا قمنا بجعل تحليلنا لكلمة «فى أى وقت» مرتبطًا بالنشاط ، ومع ذلك وحتى فى هذا المثال ، فإن التفكير حول كلمة واحدة يتيح أو يسمح فى الوضع بالاعتبار لكل من العملية والأوضاع والنتائج والاختلافات ، وما إلى ذلك مما يمكن أن ينطبق على تفكير الطالبة مستقبلاً حول الأنشطة والمعاقين .

وتجنبًا لتكرار ما ذكر ، فإننا لن نعطى أمثلة لتطبيق هذا الإجراء على العبارات أو الجمل ، وإنما يكفى لنقول إن أى باحث يستطيع الحصول على قدر كبير من التحليل من خلال استخدام الإجراء ذاته مع العبارات أو الجمل . إن هناك العديد من الإمكانات عندما نقوم بتحليل جملة ، مثل «إن أول مرة فى علاج للسرطان لم تكن ذات فعالية» ، فأى باحث يستطيع أن يبتدئ تحليله بطرح سؤال ، مثل : ما المعانى الممكنة التى ربما ترتبط بكل كلمة بمفردها ومع بقية الكلمات : السرطان ، العلاج ، ثم علاج السرطان ، وكذلك عبارة إن أول مرة فى ... ؟» . ونظراً لأننا نركز على هذه الكلمات الآن (وعلى الفئات الممكنة المأخوذة مما قمنا به من تحليل) فإننا سنكون أكثر ميلاً لسؤال المبحوثين تماماً ، إذا لم يقوموا بإخبارنا عن المعانى التى تشير إليها هذه الكلمات بالنسبة لهم . إن مثل هذا يناقض النظرة السريعة العامة لمعانى الكلمات فى المقابلات التى غالبًا ما تتم ، نظراً لأن المعانى عادة ما يتم افتراضها عندما يتكلم شخص ما . **وإذا لم نعمل على التأكد من مصداقية المعانى الممكنة** من خلال التفاعل بين الباحث والمبحوثين ، أو

لم نقم بتدريب أنفسنا على طرح الأسئلة حول معانى المصطلحات الواضحة التحليلية المتنوعة من وجهة نظر المبحوثين ، فإننا نضع القيود أمام النمو الممكن لما نسعى إليه من نظرية .

التحليل الإضافى من خلال المقارنات :

فى الفصل الخاص بالترميز المفتوح لاحظنا أن القيام بالمقارنات أمر ضرورى لتحديد المفاهيم ووضعها فى فئات ، أما الآن فسنقوم بمزيد من مناقشة استخدام المقارنات ولكن هذه المرة كحافز للحساسية النظرية .

إن المقارنات التى نحن بصددها هنا شبيهة بالأساليب الأخرى التى سبق لنا مناقشتها ، والهدف من ورائها هو مساعدتك لتجاوز الافتراضات وكذلك لاكتشاف الأبعاد المحددة . لاحظ ، أنه من أجل القيام بهذه المقارنات لا بد لك من الاعتماد على ما لديك من معرفة شخصية أو مهنية وكذلك على الأدبيات المتخصصة .

أسلوب قلب المفهوم رأسا على عقب (الأسلوب العكسى) :

افترض أنك تقوم بدراسة صناعة الحاسب الآلى ، وقد لاحظت من قراءتك للصفحات الأولى من بياناتك الحقلية أن شركة (أى بى إم - IBM) هى أكبر شركة فى هذه الصناعة ، وفى واقع الأمر ، فإن شركة (أى بى إم) تسيطر على هذه الصناعة . والآن ربما تتساءل عما تعنيه كلمة «سيطرة» فى صلتها بالصناعة على وجه العموم ، وما هى النتائج المترتبة على السيطرة بالنسبة للطرق الخاصة بالبيع وتسعيرة المنافسين ، وبالنسبة للمناورات الدفاعية التى يتخذها المنافسون وكذلك تنظيمهم لمنتجاتهم . إن الإجابات عن هذه التساؤلات لا بد أنها موجودة فيما لديك من بيانات . وبإمعان النظر فى البيانات ، فإن ذهنك سيظل مشدوداً إذ لا يوجد بها ما يشد اهتمامك للإجابة عن تلك التساؤلات .

وعندما يحدث ذلك ، فإنك تستطيع تجاوز عدم قدرتك العقلية للإجابة عن تلك التساؤلات بواسطة الأسلوب العكسى ، أى من خلال قلب مفهوم السيطرة رأساً على عقب وبتخيل المعنى المعاكس لمعنى السيطرة : بمعنى أن صناعةً ما ليست مسيطراً عليها

من قبل شركة واحدة ، وعوضاً عن ذلك فإن قوة الشركة وتأثيرها يكون موزعًا بدرجة واسعة على هذه الصناعة (كما هو الحال فى صناعة الملابس أو البناء) . إن ما تقوم به هنا هو عمل *مقارنة بين نقيضين فى بعد واحد لتلك الصناعة : أى مقارنة مستوى مرتفع بمستوى غير مرتفع على الإطلاق* .

وعندما تعود إلى ملاحظاتك الحقلية أو تراجع الأدبيات المنشورة ، فستكون أكثر تركيزًا وأشد احتمالاً فى ملاحظة الخواص والأبعاد التى ربما أغفلتها ، خصوصاً إذا لم يسبق لك القيام بهذا التدريب البسيط . **فهذا التدريب من المفروض أيضًا أن يساعدك على التفكير التحليلى - لا الوصفى - فى البيانات ، وذلك لصياغة الفئات المؤقتة وما لها من خواص وكذلك على التفكير فى أسئلة تؤدى إلى مزيد من التحليل والاكتشاف** .

سنقوم فيما يلى بإطلاعك على هذا الأسلوب وهو يطبق وذلك باستخدام مثال آخر ، وفى هذه المرة فإن اهتمامنا منصب على الجسم . لقد قررنا أن نتعلم شيئًا عن الجسم من خلال دراسة عالم حمل الأثقال . وقد وقعنا على هذا الخيار المحدد لأن لدينا بعضاً من الخبرة فى مجال حمل الأثقال ، كما أن بإمكاننا الوصول إلى أماكن الملاحظة ومقابلة مبحوثين من هناك ، وذلك لأنه أحيانًا يكون من الصعب الوصول إلى مثل تلك الأماكن والحصول على مبحوثين فى المناطق غير المألوفة . وما علينا إلا أن نكون واعين بأن معرفتنا لهذا المكان من الدراسة ربما تعوق تحليلنا من خلال أن نظل مركزين بدرجة شديدة على الواقع الملاحظ كما هو معروف لدينا .

وللشروع فى ذلك ، فما علينا إلا أن نقوم بقضاء عدد من الساعات مساء يوم فى مركز الألعاب الرياضية (GYM) لجمع بيانات عما يجرى هناك . ومع نهاية ذلك المساء بينما نحن نقوم بالتحليل ، نكون قد توصلنا إلى الفئات التالية : قوة الجسم ، شكل الجسم ، مراقبة الجسم ، تدريب الجسم ، حركة الجسم . وجميع هذه الفئات تشكل فئات فرعية لفئة أكبر يمكن تسميتها «تنمية وتطوير الجسم» . والآن دعنا نأخذ إحدى تلك الفئات الفرعية ولتكن مثلاً «**قوة الجسم**» ولنقم بفتحها للغور فى داخلها حتى نكتشف الخواص والأبعاد الممكنة التى ربما تطبق عليها . لقد قمنا بفحص تلك البيانات إلا أنه يبدو أنْ لا شيء ذا أهمية سيتمخض عنه ذلك . لقد وصلنا إلى طريق

مسدود . وعليه ، فقد قررنا التفكير فى نوعٍ آخر من الرياضة التى لا تشكل قوة الجسم فيها أمرًا ضروريًا ، أو لا تتطلب قوة جسمانية إلا بشكل محدود كما هو الحال فى صيد سمك التونة (السلمون المرقط) . وعليه فإننا سنقوم بعقد مقارنة بين رياضة (صيد التونة) وبين رياضة (رفع الأثقال) .

والآن ما الذى يشد انتباهنا فى رياضة صيد التونة ؟ فى الواقع ، إن أى إنسان ابتداء من سن الرابعة حتى سن الخامسة والثمانين يستطيع ممارسة صيد التونة . وعلى هذا **فالعمر** ربما يشكل فكرة مهمة تؤخذ فى الاعتبار عندما ينظر إلى رياضة حمل الأثقال فى علاقتها بالقوة . إضافة إلى العمر ، ماذا يشد انتباهنا فى رياضة صيد سمك التونة ؟ إنه رياضة تمارس فى الهواء الطلق ، **المكان** . فالمكان يمثل عاملاً آخر للتمحيص والتحقيق . إذ ربما يكون له صلة برياضة حمل الأثقال على وجه العموم ولكن ليس بالضرورة ذا صلة بالقوة . ولنستمر على هذا المنوال ، فصائد سمكة التونة غالبًا لا يستخدم يديه للإمساك بها ، بل يحتاج للإمساك بها إلى **أدوات خاصة** ، تمامًا كما يحتاج حامل الأثقال إلى أدوات خاصة . ولكننا نحتاج إلى طرح سؤال عن العلاقة بين القوة والأدوات . هل هذه الأدوات تستخدم لزيادة القوة ؟ كيف يتم ذلك ؟ كلما زادت قوة الإنسان زاد حجم الأثقال (بواسطة الأدوات) التى يستطيع حملها . إن صيد الأسماك ليس غالبًا رياضة **خطيرة** إلا فى حالة وقوع الصياد فى الماء وهو لا يجيد السباحة . هل من الممكن أن تشكل القوة المرتفعة أو المنخفضة للاعب خطورة عند استخدام الأدوات الخاصة بحمل الأثقال ؟ إن صيد الأسماك رياضة غالبًا ما تمارس فى الصباح الباكر أو خلال ساعات النهار ، فماذا عن رياضة حمل الأثقال ؟ هل توجد هناك أوقات مختلفة خلال اليوم أو الأسبوع أو الشهر عندما تصل قوة جسم الإنسان للذروة أو تبدأ فى التلاشى . ولأى سبب يحصل ذلك ؟ .

وعوضًا عن عقد مقارنات من خلال نوع مختلف تمامًا من أنواع الرياضة ، فإننا نستطيع أن نقوم أيضًا بهذا النوع اللاحق من المقارنات العكسية . فباستطاعتنا مقارنة رجل حامل للأثقال قادر على رفع (٢٥٠) رطلاً ، بامرأة حاملة أثقال قادرة على حمل (١٠٠) رطل . دعنا نلاحظ ماذا يمكن أن نحصل عليه من خلال هذه المقارنة ، فهذا الرجل **أكثر قوة** من المرأة ، كما هو واضح من خلال وزن الأثقال التى يستطيع

رفعها . ومن هنا يتبادر إلى ذهننا السؤال : من أين تأتى هذه القوة للرجل ؟ إنه أكبر عضلات وأضخم جسمًا حقًا ، ولكن لماذا ؟ إن جزءًا من هذه القوة يأتى من الفروق فى العوامل **الجسمانية الداخلية** ، كالفروق فى الهرمونات بين الرجال والنساء . هل من الممكن بناءً على ذلك أن يأخذ الرجل مزيدًا من الهرمونات كعامل لزيادة قوته ؟ هل من الممكن أن تفعل المرأة الشيء نفسه أيضًا ؟ نظرًا لأن هذه الهرمونات رجالية ، ماذا يمكن أن يكون هناك من *نتائج* بالنسبة للنساء اللاتى يتناولن الهرمونات الرجالية ، إضافة إلى زيادة القوة ؟ ما هى نتائج ذلك أيضًا بالنسبة للرجال ؟ هل تناول هذه الهرمونات **أمر** مباح ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فلماذا ؟ وكيف يتمكنون من الحصول عليها ؟ .

إضافة إلى تناول الهرمونات ، كيف تتمكن النساء من زيادة القوة لديهن ؟ من خلال **مساعدتهن** أثناء رفعهن للأثقال العالية بواسطة رجال من حملة الأثقال العالية (٢٥٠ رطلاً) . ومع التدريب والتكرار ، فإنهن يستطعن تدريجيًا تنمية قدراتهن على رفع وزن أعلى من الأثقال لوحدهن ، إلا إذا كانت تلك الأثقال أكبر بكثير من **قدر استطاعتهن** . هل يلجأ الرجال إلى طلب المساعدة من الرجال (أو النساء) الآخرين ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذا يحيطنا علمًا بأن رفع الأثقال أحيانًا ما يؤدى إلى *التفاعل* بين الرياضيين . هل يتم ذلك غالبًا أم أحيانًا ، ومتى ؟ ما هى *الإستراتيجيات* الأخرى التى من الممكن أن يستخدمها الرجال والنساء لتدعيم كثافة القوة لديهم ، هل من خلال رفع الروح المعنوية لديهم أم من خلال تشجيع وحث الآخرين لهم ؟ .

وحتى من خلال هذا التحليل الموجز ، فإنك تستطيع أن ترى كيف أنه من خلال التركيز على الفئة الفرعية الخاصة **بقوة الجسم** وباستخدام الأسلوب العكسى للتفكير فى ذلك وتحليله بشكل مقارن ، تمكنا من اكتشاف وتحليل بياناتنا . وقد قمنا بطرح عدد من الأسئلة لمتابعتها فى ملاحظاتنا ومقابلاتنا اللاحقة ، كما قمنا بتنمية الفئات الفرعية الممكنة لقوة الجسم ، وكذلك بتنمية الأبعاد المرتبطة بها ، الأمر الذى أدى بالمقابل إلى التعرف على الإستراتيجيات التى من الممكن استخدامها لزيادة قوة الجسم . كما قمنا بالربط بين بعض النتائج الممكنة وبين استخدام هذه الإستراتيجيات . بوضع ذلك فى الاعتبار ، وإننا نستطيع العودة مرة أخرى إلى ما دوّناه من ملاحظات

وبيانات حقلية ، وبدرجة من الحساسية النظرية للموضوع الذى تحت الدراسة أعلى مما كان عليه الوضع سابقًا . بعدها من الممكن أن نعود مرةً أخرى إلى الميدان لاختبار ما لدينا من فروض . ولاكتشاف وتحليل الفئات الأخرى (شكل وهيئة الجسم ، تدريب الجسم ، مراقبة الجسم وما إلى ذلك) ، فإنه من الممكن أن تستخدم هذا الأسلوب (الأسلوب العكسى للمقارنة) والأساليب الأخرى التى سبقت مناقشتها .

المقارنة المنتظمة بين ظاهرتين أو أكثر :

دعنا الآن نركز على مشكلة مختلفة نوعًا ما . ولنفترض أننا جئنا لتحليل مفهوم **الجسم** ، وهو مفهوم نال قدرًا كبيرًا من الدراسة والبحث فى الأدبيات المتخصصة . وفى الحقيقة فقد انتابنا الإعجاب الشديد بدراستين تناولتا موضوع «خيال الجسم» . وبدون وعيٍ منا ، فقد أتحنا لهاتين الدراستين التأثير على المدخل الذى اتبعناه لتحليل البيانات ، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن واضحًا لدينا ، فإن التحيزات ربما تتم ملاحظتها من قبل الزملاء أو الأعضاء فى لجان الرسائل العلمية . هذا وإذا قاموا بإحاطتنا بذلك ، فسنصاب بالذهول والحيرة والارتباك . ولنأخذ مثالاً آخر : إننا متعودون على النظر إلى المشكلات البحثية بطرق محددة ، إلى درجة أنه عندما تخفق تلك الطرق فى اكتشاف العوامل الخاصة بالمشكلات التى نقوم بدراستها وبحثها ، فإننا نلف وندور بنفس طرقنا القديمة فى التفكير ، الأمر الذى لا يبدو معه ممكنًا تحقيق الاخترا ع والاكتشاف من خلال تلك الطرق .

ماذا يمكن أن نفعله للتخلص من طرقنا النمطية فى التفكير فى الوقت الذى نستطيع فيه المحافظة على الأشياء المهمة فى قراءاتنا وتجاربنا ؟ **ربما استخدام المقارنات المنتظمة فى بداية تحليلنا يمثل أحد الطرق لتحقيق ذلك** . فيما يلى توضيح لكيفية عمل ذلك .

خذ على سبيل المثال ما تعرفه من خلال الأدبيات وتجاربك الخاصة عن خيال الجسم ، واشرع فى ترميز هذه الظاهرة بطريقة منتظمة وفقًا لما تعلمته إلى هذا الحد من هذا الكتاب . وعليه ، فمن المفروض أنه سيكون لديك بعض من المفاهيم والفئات والخواص .

والآن خذ إحدى هذه الفئات ولتكن «الوزن» مثلاً . إن أدبيات البحث تخبرك بأن كلاً من الزيادة المفرطة وكذلك النقص المفرط فى الوزن يشكل أحد الأوضاع التى تؤثر سلباً فى خيال الجسم عند الشخص . إننا نستطيع هنا أن نبتدئ فيما نسميه *المقارنة المغلقة* كمقارنة امرأة ضخمة الوزن بامرأة أخرى ذات وزن طبيعى ولكنها إضافة إلى ذلك على درجة من الجاذبية . إننا هنا سنرغب فى طرح أسئلة من شأنها توضيح أوجه الشبه والاختلاف بين هاتين المرأتين ، مثل : ماذا يحدث عندما تمشى امرأة على درجة عالية من الجاذبية فى الطريق خاصة إذا كانت ترتدى فستاناً ضيقاً . إن الناس من حولها سيلتفتون للنظر إليها بشىء من الإعجاب . هل جميع الناس سيفعلون ذلك ؟ بطبيعة الحال ، بعض الرجال وربما بعض النساء . هل هناك كيفية أخرى سيتم النظر إلى تلك المرأة من خلالها ؟ إن بعض الرجال سينظرون إليها نظرات غير عادية ، أو ربما بقدر من الإعجاب على الأقل . كما أن بعض النساء سينظرن إليها بقدر كبير من الإعجاب أو الاشمئزاز .

هل تصل هذه الانطباعات إلى المرأة أثناء سيرها فى الطريق ؟ أى كيف تستطيع معرفة ما يفكر فيه الآخرون أو يشعرون به حيالها ؟ كيف يمكن أن يؤثر على خيالها وتصورها معرفتها أن رجلاً كان ينظر إليها بنظرات غير عادية ؟ هل النظر إليها بإعجاب من قبل امرأة ما يعنى الشىء نفسه بالنسبة لها عندما ينظر إليها رجل بإعجاب ؟ (إن هذه الأسئلة تساعدك على الشروع فى التفكير حول الأوضاع التى يتطور فيها نمو الخيال وكذلك على التفكير فى العناصر التفاعلية اللازمة لتطوره) .

والآن يمكنك أن تطرح على نفسك السؤال التالى : كيف ينظر الناس إلى امرأة ضخمة وهى تسير فى الطريق مرتدية فستاناً ضيقاً ؟ هل ينظرون إليها بإعجاب أم باشمئزاز ؟ وتحت أى الظروف ينظر الناس إليها بإعجاب ؟ ما الإستراتيجيات التى يستخدمونها فى توصيلهم لمشاعرهم نحوها ؟ ما هى النتائج المترتبة على استخدام أى من هذه الإستراتيجيات بالنسبة لتصورها وخيالها ؟ هل من المحتمل أو من غير المحتمل أن ترتدى هذه المرأة فستاناً ضيقاً ، إذا كانت واعية بما يدور فى أذهانهم ؟ هل يعنى ارتداؤها لفستان ضيق أنها غير مبالية بما يفكر فيه الآخرون من حولها ، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة أنها راضية ؟ لماذا يتوقع أن تشعر هذه المرأة بهذه

الطريقة ؟ ، فى حين أن الأخريات من ذوات البدانة المفرطة لا يشعرن بشىء من ذلك ؟ هذه الأسئلة ستؤول بك للاعتقاد بأنه ربما ليس جميع النساء ذوات البدانة المفرطة يعانين سوء خيال الجسم .

إذا كنا فى حاجة إلى الاقتراب من إحدى أولئك النسوة للاستفسار منها عن اتجاه ما ، فأى منهن ستشعر بارتياح أكثر عندما تقوم بالاستفسار منها حول ذلك ؟ ولماذا ؟ ما الرسائل التى ستوصلها لها عن شعورك بالارتياح من عدمه ؟ إن عليك أن تحاول احتمالات متنوعة وأن تقوم بحصر الآثار المحتملة لتلك الأوضاع على خيال الجسم . كذلك ، كيف ستشعر عندما تتجاهل المرأة سؤالك ، فى حين تقوم المرأة ذات البدانة المفرطة بالاجتهاد كثيراً فى إرشادك للاتجاه موضع السؤال ؟ كيف يمكن بعد ذلك توصيل شعورك هذا لكل من هاتين المرأتين ؟ إن هذه الأسئلة تدعوك للأخذ فى الاعتبار بجميع الآثار أو النتائج المترتبة على شعور المرأة أنها ذات بدانة مفرطة ، علماً بأن بعضاً من هذه النتائج ليست بالضرورة سلبية ، إن هذه النتائج بطبيعة الحال ستنعكس إيجابياً على ما ستتخذه من اعتبارات عندما تقوم بتطوير فئة خيال الجسم .

دعنا الآن نستخدم ما لدينا من قدرات إبداعية لاستحضار موقف يشتمل على هاتين المرأتين اللتين ربما تناقضان بشدة توقعاتنا ، ونقوم بطرح بعض الأسئلة عن ذلك الموقف . حيث يقوم شاب بطرح أسئلة على فتاتين تجلسان على مقربة منه بحيث لا يرى كل طرف منهما الآخر . وبعد طرح ذلك الشاب لأسئلته على الفتاتين واستماعه لإجاباتهما انتهى به الأمر إلى اختيار الفتاة المسماة بـ (آنى) فى حين تخلى عن الفتاة المسماة بـ (جون) ، مما أدى بجمهور المتفرجين على المشهد إلى الضحك واستهجان اختياره . وعندما قابل الشاب (جون) عرف السبب الكافى وراء ردة فعل الجمهور لاختياره (آنى) ولذلك نظراً لأن (جون) على درجة عالية من الجمال . ولكنه تذكر أن إجاباتها عن أسئلته إجابات ساذجة . أما (آنى) من جهة أخرى ، فقد اتضح أنها امرأة مفرطة فى البدانة . كما بدا للشاب ، بعد الصدمة الأولى ، أنه رضى عن اختياره ، وقد بدت (آنى) وهى على درجة عالية من الارتياح والرضا عن نفسها وذات شخصية عظيمة . إنها بالتأكيد لا تتطابق مع الخيال المتصور عن تلك المرأة التى تعانى سوء خيال الجسم .

والآن لا بد لنا أن نتوقف لنتساءل : لماذا ؟ من أين تأتى تصوراتنا الشخصية (Stereotype) ؟ هل هو خيالنا أو تصورنا أم خيالهم وتصوراتهم التى نقوم بسحبها على تلك النسوة ؟ . وهل من المتوقع أن يكون لدى امرأة جذابة هيئة جسمية سيئة ؟ لماذا ؟ هل يعود ذلك كله إلى حجم الجسم ؟ إن إثارة أسئلة من هذا القبيل ومتابعتها عند جمعك وتحليلك للبيانات ، ستأخذك بسرعة إلى الأدبيات المتخصصة فى الصورة الجسمية ، كما سيساعدك ذلك على اكتشاف ومتابعة الاحتمالات الأخرى الممكنة . وعلى الرغم من أنك ربما فى النهاية ستصل إلى نفس النتائج التى تم التوصل إليها فى الأدبيات المتخصصة **فإن تفسيراتك النظرية ستكون أكثر عمقًا لأن ما أثرته من أسئلة قد أخذك بعيدًا عن الطرق العادية من التفكير ، كما سمح لك باكتشاف السبل الأخرى من التفكير وقدم لك رؤى جديدة للنظر من خلالها إلى المشكلة محور الدراسة والبحث .**

المقارنات بعيدة المدى:

قبل اختتام هذا الجزء من الفصل ، سنقوم باختصار بذكر *استخدام المقارنات* بعيدة *المدى* . إن المحللين غالبًا ما يحاولون الاقتراب نوعًا ما من المواضيع التى تدور حولها اهتماماتهم البحثية عند قيامهم بعقد المقارنات ، وذلك خوفًا من عدم استطاعتهم معرفة أى شىء يمكن تطبيقه على ما يقومون بدراسته من مواضيع من خلال استخدام المقارنات بعيدة المدى . إن هذا الافتراض ليس صحيحًا . ولتوضيح ذلك ، دعنا نعد إلى دراستنا الخاصة برافعى الأثقال . وفى هذه المرة نود التفكير فى الآلات وفى بناء الجسم . وللحصول على بعض الأسئلة والفئات حول العلاقة بين الآلات وبناء الجسم ، فإننا رأينا أن نقوم بعقد المقارنة بين رياضة رفع الأثقال وبين عزف آلة الكمان . والآن ، ماذا يمكن أن نتعلمه من عزف آلة الكمان حول العلاقة بين الآلات وبناء الجسم ؟ دعنا نبحث فى ذلك .

إن عازف آلة الكمان يحتاج إلى آلة ، كما أن لاعب رفع الأثقال يحتاج أيضًا إلى آلات . يستطيع عازفو آلات الكمان حمل آلاتهم معهم ، كما أن بعضًا من الآلات الخاصة ببناء الأجسام ممكنة الحمل ، فى حين أن البعض الآخر لا يمكن حمله نظرًا

لثقله ، **خاصة قابلية التنقل** . ماذا عن المراكز الرياضية ذاتها ؟ هل جميع المراكز الرياضية ثابتة أم أن هناك ما هو قابل للنقل منها ؟ من الذى يستخدم هذه المراكز الرياضية ؟ إن آلات الكمان ذات أوتار قابلة للكسر ، كما أن آلات بناء الأجسام قابلة للكسر هى الأخرى ، **خاصة القابلية للكسر** . ماذا يحصل عندما تتعطل (تنكسر) بعض الآلات بالمركز الرياضى فى مساء مزدحم بمرتادى المركز ؟ هل من الممكن أن تستمر فى التمرين فى مركز رياضى يوجد به آلات متعطلة باستمرار ؟ هناك مصانع متخصصة لإنتاج وإصلاح آلات الكمان . كما أنه لا بد وأن يكون هناك مصانع لإنتاج وإصلاح الآلات الخاصة برياضة رفع الأثقال . وبذا ، فإننا نأتى إلى بعض الأوضاع الكبيرة والمشاهدة والمتمثلة فى **المصانع** الخاصة بإنتاج وخدمة الآلات . ما هى هذه المصانع ؟ ماذا عن آخر ما توصلت إليه التقنية فى كلا المجالين ؟ إن الآلات التى يستخدمها عازف الكمان دائمًا تنتمى له ، فى حين أن رافع الأثقال ربما يملك الآلات الخاصة به أو بها ، ولكنه ربما يستخدم أيضًا آلات شخص آخر . إن هذا لا يوضح فقط **خاصة الملكية** ، ولكنه أيضًا أدى بنا إلى طرح مزيد من الأسئلة ، من مثل : من هو الذى يملك هذه الأدوات ؟ ماذا يعنى هذا بالنسبة للمكان الذى يحدث فيه التدريب على ألعاب رفع الأثقال ؟ ما نوع آلات رفع الأثقال التى من الممكن امتلاكها ؟ وتحت أى الأوضاع يستطيع أى شخص استخدامها فى المنزل ؟ وتحت أى الأوضاع يستطيع شخص الذهاب إلى المركز الرياضى لاستخدام آلاتهم ؟ عازفو آلة الكمان لديهم غالبًا من يقوم بتدريبهم ، فهل لدى رافعى الأثقال مدربون لتوضيح كيفية استخدام تلك الآلات للاعبين ؟ إن لديهم **مدربين لرفع الأثقال** ، منهم هؤلاء المدربون . ما هى المؤهلات التى تتوفر لدى هؤلاء المدربين ؟ وتحت أى الأوضاع يستطيع أى لاعب استخدام مدرب ؟ وهل يحتاج أى لاعب إلى مدرب لتدريبه على كيفية رفع الأثقال ؟ ما الأدوار الأخرى التى يقوم بها المدربون إضافة إلى تدريب اللاعبين على كيفية استخدام الآلات الخاصة برفع الأثقال ؟ .

وكما ترى ، فإن هذه الاحتمالات التى تم اكتشافها من خلال عقد المقارنات لا حدود لها . ومع هذا فإننا لسنا فى حاجة للاستمرار لعدة ساعات فى عقدنا للمقارنات ، ولكننا من المفترض أن نواصل القيام بذلك حتى نشعر بأننا قد تحررنا من أى شىء يعوقنا ، أو حتى نحصل على قائمة من الخواص والأبعاد التى سنقوم لاحقًا بمتابعة

بحثها وتحليلها . عندها ، فإننا نستطيع العودة إلى بياناتنا ولكننا هذه المرة جاهزون للقيام باكتشافات جديدة نظراً لأن لدينا فهمًا ووعيًا أكثر لما تحتوى عليه فعلاً أو يفترض أن تحتوى عليه تلك البيانات .

التريث والتوقف الجبرى (رفع العلم الأحمر) :

إن هناك وسيلة أخرى نرغب فى إحاطتك بها قبل اختتام هذا الفصل تسمى بـ (رفع العلم الأحمر - Waving the red flag) ، أى التوقف لمزيد من التأمل والتبصر فى البيانات . ومرة أخرى فإن هذه الوسيلة تهدف إلى مساعدة المحلل وتمكينه من أن يرى ما وراء الأشياء الواضحة فى البيانات . إن الافتراضات القائمة على التصورات الثقافية على وجه الخصوص أمور من الصعب أخذها فى الاعتبار ؛ وذلك لأن الأشخاص الذين ينتمون إلى ثقافة واحدة غالبًا ما يفكرون بطريقة واحدة ، الأمر الذى يستحيل معه طرح تساؤلات حول هذه الافتراضات المشتركة .

وعلى سبيل المثال ، قامت إحدى طالباتنا بدراسة استخدام أحد المترجمين الآسيويين فى المستوصفات ، وعند سردها لحادثة ما ذكرت الطالبة أنه فى بعض الأحيان يتم استدعاء المترجمين الرجال إلى المستوصفات ليقوموا بالترجمة للعملاء من النساء . إن استخدام الرجال أمر مشكل فى هذه الحالات لأن بعض القضايا المتعلقة بأمراض النساء تعتبر من المواضيع الحساسة التى لا يمكن مناقشتها إطلاقًا فى جمع من الرجال والنساء . وهنا قام المدرس بطرح السؤال التالى : «هل هناك موضوعات لم تناقش إطلاقًا ؟ فأجابت الطالبة «لا على الإطلاق» . وهنا أخذ المدرس فى تنويع الأوضاع على النحو الآتى : «فى حالة كون حياة المرأة فى خطر ، هل من المتوقع مناقشة تلك القضايا؟» . فأجابت الطالبة بالنفى مؤكدةً على «أن هذه الأشياء محظور مناقشتها فى حضرة الرجال» . والآن فإن المدرس بناء على خبرته عرف أن فى جميع الثقافات موضوعات حساسة ، ولكن أيضًا يوجد بتلك الثقافات طرق معينة للتعامل مع تلك المواضيع الحساسة ، كما أنه فى أوضاع معينة يستطيع أحدهم عدم الاكتراث بهذه المحظورات أو الالتفاف من حولها . إن الطالبة عرفت ذلك فى الواقع أيضًا ، ولكنها كانت مستغرقة إلى درجة كبيرة فى البيانات الموجودة معها إلى درجة أنها لم

تفكر فى وضع الأمر موضع المناقشة والتمحيص . وإذا حصل واستمرت الطالبة تهتم فقط بما هو واضح فى البيانات بدلاً من وضعه موضع المساءلة والتمحيص ، فإنها بذلك تكون قد فقدت القضية برمتها ، أى فقدت التعرف على كيفية التعامل مع المواقف الحساسة فى الثقافات الآسيوية المتنوعة باستخدام المترجمين ، الأمر الذى يشكل جزءًا مهمًا فى دراستها .

وللتأكيد على فكرتنا الأساسية هذه ، فإنه من المفروض أن تكون على درجة عالية من الحساسية لكلمات وعبارات محددة مثل «لا على الإطلاق» ، «غالبًا» ، «ليس من الممكن أن تكون تلك الطريقة» ، «إن أى شخص يعرف أن هذه هى طريقة عمل ذلك» ، «ليس هناك حاجة للمناقشة» ، ففى أى وقت تسمع كلمات أو عبارات من هذا القبيل فما عليك إلا أن تتوقف وترفع العلم الأحمر - إنه عَلم افتراضى بطبيعة الحال .

إن هذه الكلمات والعبارات لا بد أن يتم التعامل معها كرموز أو إشارات حتى تستطيع رؤيتها عن كثب . ماذا يجرى هناك ؟ ماذا تعنى بقولك «على الإطلاق» ؟ أو «دائمًا» ؟ لماذا يكون هذا على هذه الشاكلة ؟ إطلاقًا ، تحت أى وضع من الأوضاع ؟ كيف يتم فعلاً المحافظة على هذه الحالة من النفى المطلق ؟ وما النتائج المترتبة على ذلك ؟ وماذا يحدث إذا لم يتم فعلاً المحافظة على تلك الحالة من النفى المطلق ؟ أى عندما لا يقوم شخص جاهل على الإطلاق بأى شىء لا يفترض أن يقوم به ؟ هل هناك إستراتيجيات محددة للالتفاف حول تلك الحالة من النفى المطلق ؟ كيف يتم قبول الناس المعتادين ثقافيًا على الاعتقاد بالنفى المطلق ؟ هل يتصرف الناس وفقًا لتلك العادة مع أنهم لا يعتقدونه ؟ أم أنهم يعتقدونه مع أنهم لا يتصرفون وفقًا له ؟ .

إن القضية التحليلية التى نود التأكيد عليها هنا تتمثل فى نصيحتنا لك بألا تسلم بأى شىء أو تأخذه على علاته إطلاقًا . لأنك عندما تفعل ذلك ، أى تأخذ بأى شىء على علاته ، فإنك بذلك تعوق بروز العديد من الاحتمالات التى ربما تشكل المفتاح لاكتشاف الإجابة عن واحدة من المشكلات البحثية محور دراستك .

قضايا وإشكاليات :

لقد لاحظنا خلال العديد من السنوات أن لدى الطلاب أحيانًا بعضًا من القضايا والإشكاليات المتصلة باستخدام تلك الأساليب التى تناولناها فى هذا الفصل . وعليه فإنه من المهم مناقشتها هنا لأنه ربما يكون لديك شىء من ذلك أيضًا :

١ - ينتاب الطلاب شىء من الرهبة عندما يرون تطبيق هذه الأساليب فى غرفة الدراسة . إنهم يشعرون بأن لدى المدرس نوعًا من القدرة السحرية التى لا يمكن أن تكون لديهم . وتمامًا كما يفعل الساحر ، فإنه يستطيع أن يحول الذرة (البيانات) إلى ذهب (النظرية) .

٢ - غالبًا ما يصبح الطلاب منهمكين فيما لديهم من بيانات - فهى ذات طابع سحرى - إلى درجة أنهم لا يستطيعون أن يحرروا أنفسهم منها . ويبدون وقد نسوا ما تعلموه من أساليب ، الأمر الذى يؤدى بهم إلى أن يتساءلوا: لماذا لم يتمكنوا من رؤية أى شىء فى هذه البيانات أكثر من الأشياء التى ألفوها ؟ . وهنا لا يجد هؤلاء بدًا من الرجوع إلينا ناشدين المساعدة للخروج من هذا المأزق التحليلى .

٣ - وأحيانًا ما يشعر الطلاب بالخوف من استخدام هذه الأساليب بانتظام لأنهم يعتقدون أن هذه الأساليب ستؤدى إلى تحميل البيانات شيئًا ليس فيها . إن هؤلاء الطلاب يخافون من عدم استطاعتهم تعلم أى شىء عن المواضيع الرئيسية لدراساتهم من خلال الابتعاد كثيرًا عن البيانات .

٤ - كما أن الطلاب فى الغالب ليسوا متأكدين من كيفية استخدام هذه الأساليب ومتى يستخدمونها . إنهم يعتقدون ضرورة استخدامها خلال عملية المقابلات وفى أى جلسة تحليلية .

والآن دعنا نجب ونناقش هذه القضايا والإشكاليات . فأولاً : ما عليك إلا أن تصدق ما نقوله ، فالقدرة على استخدام هذه الأساليب لا تشغل أو تستلزم أى نوع من السحر . إنك أيضًا تستطيع أن تحول بيانات محددة إلى أفكار نظرية فعّالة بعد تعلمك استخدام هذه الأساليب . إن ما يتطلبه تعلمها هو التحمل والصبر وكثير من التدريب وثقة كبيرة فى قدرتك على تعلم تلك الأساليب . وثانيًا : فإن هذه الأساليب لا بد من استخدامها وتطبيقها إذا كنت ترغب فى اكتشاف ما فى البيانات ، كما أن عليك ألا تقيد ما لديك

من القدرة الإبداعية والحساسية النظرية . وإذا لم تستخدم هذه الأمور ، فإن اكتشافاتك ستكون محدودة كما أن ما تتوصل إليه من نظريات ستكون ذات مفاهيم هزيلة تعوزها المصداقية .

ثالثًا : عليك أن تتجنب على الإطلاق تحميل البيانات أى شىء ليس فيها . إن ذلك يعنى منذ البداية أن أيًا من المفاهيم والفئات والفروض التى تنتج من استخدام هذه الإجراءات الإبداعية لا بد من اعتبارها مفاهيم وفئات وفروضًا مؤقتة . إن وظيفتها تتمثل فى جعل الباحث حساسًا لمعرفة ما يبحث عنه ، وقد صممت هذه الإجراءات لتحرير التفكير وإيقاظ الحساسية لدى الباحث . ويجب ألا تخلط بين الأفكار المترتبة على استخدام هذه الأساليب وبين البيانات ذاتها . إن تلك الأفكار لا تشكل أكثر من احتمالات افتراضية لا بد من تدعيمها وتأييدها بواسطة البيانات .

رابعًا : يتعين استخدام هذه الأساليب كأمور مساعدة للتحليل على *ألا يكون ذلك* مع كل بيانات حقلية أو مقابلة . إن هذه الأساليب على درجة عالية من الأهمية خاصة عند تحليل البيانات من مقابلات أو ملاحظات حقلية أو وثائق ؛ لأنها تساعد على رؤية ما تحتوى عليه تلك البيانات عن كثب . وعليك أن تراعى هنا أن هذه الأساليب لا تستخدم مع كل كلمة أو عبارة أو فقرة . وعند القيام بالتحليل مؤخراً ، فإن هذه الأساليب ذات أهمية عالية عندما تصاب بالحيرة أو بالإحباط والتعثر أو عندما تكون غير متأكد من الخطوات اللاحقة التى ستتبعها فى تحليلك أو جمعك للبيانات . **إن هذه الأساليب وسائل فعّالة . وكما هو الحال مع جميع الأساليب ، مع ذلك ، فإن عليك أن تتعلم كيفية استخدامها ومتى تستخدمها ، ولكن يتحتم عليك أن تستخدمها !** إن عليك أن تجرب هذه الأساليب وأن تكتشف طرقًا خاصة بك لتستفيد منها بفعالية لتحقيق أهدافك المحددة . ضع أيضًا فى حسبانك أنه بينما قمنا بتقديم هذه الإجراءات من خلال الترميز المفتوح **فإن استخدام هذه الأساليب على نفس الأهمية وذلك عندما تصل إلى ذروة التحليل فى الترميز المحورى والترميز الانتقائى .**

وبينما يتمثل هدفك فى القيام بعمل تحليلى جاد من خلال هذه الأساليب ، وعلى الرغم من أن تعلّم استخدامه بمهارة وبسهولة ربما يكون عملاً صعبًا ، فليس هناك سبب يمنع من كون تعلم هذه الأساليب أمراً مفعماً بالمتعة . وربما يبدو من الطريف أن

نقول لك «عليك بالاسترخاء وإرضاء وإمتاع نفسك» ، ولكن عليك ألا تخلط بين الجدية في العمل والمتعة التي ربما تحصل لك من جراء القيام باستخدام تلك الأساليب .

الملخص :

إن كلاً منا يأتي إلى تحليل البيانات ومعه تحيزاته وافتراضاته ، وأنماطه الخاصة في التفكير والمعاني التي تكونت لديه من خلال الخبرة والقراءة . ومن الممكن أن تؤدي هذه الأمور إلى إعاقتنا عن رؤية الأشياء المهمة في البيانات وربما تمنعنا من التحرك من مستويات التحليل الوصفية إلى مستويات التحليل التفسيرية (التنظيرية) . ومع هذا ، فإن هناك أساليب معينة يمكن استخدامها لمنع حدوث هذه المشكلات أو لإيجاد حلول لها متى وجدت . وتشتمل هذه الأساليب على كل من : استخدام أسلوب إثارة التساؤلات ، تحليل الكلمة المفردة ، وكذلك الجملة ، الإجراء العكسي ، وعمل المقارنات بنوعيها : المغلق وبعيد المدى ، والتوقف الجبري (رفع العلم الأحمر) . إن جميع ما تتطلبه معرفة ذلك يتمثل في التدريب والتطبيق : فكلما كثر التطبيق ، زادت معرفتك بتلك الأساليب وارتفع مستوى المخيلة الإبداعية لديك .

وفي الحقيقة ، فإن اكتشافاتك للمخيلة الإبداعية هذه من المتوقع بدرجة كبيرة أن تزداد وتتحسن من خلال التدريب المستمر لهذه الأساليب . وتستطيع عند البداية أن تتدرب في بيانات الآخرين أو في أي وثيقة ما ـ حتى في مقالة بمجلة من المجلات ـ لأنك ربما تجد ذلك نفسياً أكثر سهولة من مواجهة البيانات الخاصة بك . ولكن تذكر أن التدريب على هذه الأساليب ضروري حتى تجد أن استخدام تلك الأساليب أصبح بالنسبة لك أمراً آلياً .

إضافة إلى ذلك ، فإن من المتوقع أن تتعلم هذه الأساليب بسهولة إذا ما قمت قبيل نهاية الجلسة التحليلية بمراجعة الخطوات الحقيقية التي تتبع خلال جلسة تحليل البيانات . إن هذا يؤدي إلى تدعيم وعيك حول كيفية استخدامك لهذه الإجراءات والنتائج المترتبة على ذلك . وخلافاً لما ذكر ، فإن مراجعة هذه الأساليب من حين لآخر على غرار ما فعلناه يؤدي بالضرورة إلى استخدام هذه الأساليب بشكل طوعي وطبيعي .

الفصل السابع
الترميز المحورى

تحديد المصطلحات :

الترميز المحورى (Axial Coding) : مجموعة من الإجراءات التى من خلالها يتم إعادة وضع البيانات مرة أخرى مع بعض بطرق جديدة بعد الترميز المفتوح ، وذلك بواسطة الربط بين الفئات . ويتم تحقيق هذا باستخدام نموذج من الترميز يتضمن كلاً من : الأوضاع ، والإطار ، وإستراتيجيات ونتائج الفعل والتفاعل .

الأوضاع السببية (Causal Conditions) : الحوادث والأحداث وأى شىء يحدث من شأنه أن يؤدى إلى ظهور أو نمو الظاهرة .

الظاهرة (Phenomenon) : تلك الحوادث والأحداث والأفكار المركزية التى يتم توجيه مجموعة من الأفعال والتفاعلات نحوها لإدارتها والتعامل معها ، أو تلك التى ترتبط بها مجموعة من الأفعال .

الإطار (Context) : تلك المجموعة المحددة من الخواص المتصلة بالظاهرة . أى مواقع الحوادث والأحداث المتصلة بظاهرة ما عبر مدى من الأبعاد . إن الإطار يمثل مجموعة من الأوضاع الخاصة التى لا بد من أن يتم من خلالها أخذ إستراتيجيات الفعل والتفاعل .

الأوضاع المعترضة (Intervening Conditions) : تلك الأوضاع البنائية المتصلة بإستراتيجيات الفعل والتفاعل المرتبطة بظاهرة من الظواهر . إن هذه الأوضاع تقوم بتسهيل أو إعاقة الإستراتيجيات المأخوذة ضمن إطار محدد .

الفعل/التفاعل (Action / Interaction) : الإستراتيجيات المصممة لإدارة وتوجيه الظاهرة تحت مجموعة محددة من الأوضاع المدركة ، وكذلك التعامل معها وتنفيذها والاستجابة لها .

النتائج (Consequences) : المخرجات أو النتائج المترتبة على الفعل والتفاعل .

يقوم الترميز المفتوح - كما تم توضيحه فى الفصل الخامس - على فكرة تجزئة البيانات مما يساعدنا على تحديد بعض الفئات وكذلك خواصها ومواقع أبعادها . أما الترميز المحورى فيقوم على فكرة إعادة وضع تلك البيانات مع بعض بطرق جديدة من خلال *الربط بين فئة ما وبين الفئات الفرعية التابعة لها* . ونحن هنا لا نعنى الربط بين العديد من الفئات الرئيسية ليتشكل عن ذلك صيغ نظرية شاملة (انظر الفصل الثامن) ، ولكن نعنى بالتحديد تنمية وتطوير ما سوف تصبح فى نهاية المطاف واحدة من الفئات الرئيسية المتعددة . وبعبارة أخرى ، فإننا لا نزال هنا فى الترميز المحورى مهتمين بنمو وتطوير الفئة ، ولكنه تطوير لها من خلال ما هو أبعد من قضايا الخواص والأبعاد .

فتركيزنا فى الترميز المحورى ينصب على تحديد فئة ما (*ظاهرة ما*) فى صلتها بالأوضاع المؤدية إلى خروج تلك الظاهرة ذاتها ، وعلى الإطار (المجموعة المحددة من الخواص) التى توجد به ، وعلى *إستراتيجيات* الفعل والتفاعل التى يتم من خلالها التعامل مع الظاهرة وتوجيهها وتنفيذها ، وكذلك على *النتائج* المترتبة على تلك الإستراتيجيات . فهذه الميزات المحددة لفئة ما تضفى الدقة على الفئة ، وعليه فإننا نعتبر تلك الميزات *فئات فرعية* لها . وفى الحقيقة ، فإن الفئات الفرعية تلك تمثل فئات فى حد ذاتها ، ولكن لأننا نربط بين تلك الفئات الفرعية وبين الفئة الرئيسية بصيغة ما من العلاقات ، فإننا قمنا بإضافة كلمة «الفرعية» لها .

تذكر أننا استخدمنا فى بعض الأمثلة الخاصة بالتحليل - فى الفصل الخاص بأساليب تدعيم الحساسية النظرية (الفصل السادس) - مصطلحات ، من مثل : «الأوضاع» ، و «الإستراتيجيات» ، و «النتائج» . وقد ظهرت هذه المصطلحات عند قيامنا بالترميز لترينا أنه عندما نقوم بتجزئة البيانات فى الترميز المفتوح ، فإننا نبتدئ بطبيعة الحال بإعادة وضع تلك البيانات مع بعض فى شكل علاقات . **وعلى الرغم من أن الترميز المفتوح والمحورى يمثلان إجراءات تحليلية متميزة ، فإن الباحث عندما يقوم بالتحليل فإنه يقوم بالمزاوجة بين النموذجين .**

قبل الشروع فى مناقشة كيفية تحديد الفئة من خلال الترميز المحورى ، فإننا نرغب منك أن تضع فى الاعتبار النقاط الآتية :

١ - خلال الترميز المفتوح ، يتم تحديد عدد كبير من الفئات المتنوعة . وبعض من تلك الفئات يختص بظواهر محددة ، من مثل : الألم ، التعامل مع الألم ، قوة الجسم ، خيال الجسم . فى حين أن فئات أخرى تشير إلى الأوضاع المرتبطة بتلك الظواهر . وهناك فئات أخرى تعبر عن إستراتيجيات الفعل والتفاعل المستخدمة لتوجيه الظاهرة والتعامل معها والاستجابة لها . وأخيراً فإن بعض المفاهيم يشير إلى نتائج الفعل والتفاعل فى علاقة ذلك بظاهرة محددة .

٢ - إن المسميات أو النعوت الفعلية الموضوعة للفئات لا تعنى بالضرورة إذا كانت الفئة تشير إلى وضع أو إستراتيجية أو نتيجة ما ، بل يتعين عليك أن تقوم بتحديد تلك الأشياء على هذا الحال . وعلى سبيل المثال ، فإن مفهوم **تسكين الألم** لا يتضمن مصطلح «*النتيجة*» فى أى جانب من مسماه . ومع هذا ، وفى بعض الأحيان (حسب الهدف من الدراسة) فإن تسكين الألم ربما يكون نتيجة لفعل تم اتخاذه للتخلص من الألم . كما أن كلاً من : الأوضاع ، و الإستراتيجيات ، والنتائج - ليست موضحة أو محددة على هذه الصورة فى تلك المقابلات أو الوثائق التى نقوم بتحليلها ، على الرغم من أن حدثًا أو حادثةً ربما توحى بتلك الأشياء . خذ فى الاعتبار على سبيل المثال العبارة الآتية : «عندما أشعر (وضع) بألم فى مفاصل الأعضاء (ظاهرة) فإننى أقوم بتناول حبوب الأسبرين (نتيجة) » . لاحظ كيف قمنا بتوضيح وتحديد سمات النموذج .

٣ - إن كل فئة سواء كانت الظاهرة تشير إليها أو إلى واحدة من فئاتها الفرعية المحددة ، لا بد وأن يكون لها عدد من الخواص التى من الممكن تحويلها إلى أبعاد ، الأمر الذى يؤدى إلى مزيد من التحديد للفئة . وعلى سبيل المثال ، فإن الفئة الفرعية التى أسميناها بـ «تسكين الألم» (نتيجة) ، فئة ذات خواص عامة كالتوقيت والدرجة وإمكانية أن يكون لها آثار جانبية وما إلى ذلك مما سيكون شيئًا محدداً فى كل حالة . وبينما تكون ظاهرة التهاب مفاصل الأعضاء ذات خواص عامة كالدرجة والتوقيت والكثافة ، فإن هذه الخواص «مرة ثانية» أشياء محددة لكل حالة . وعندما نقوم بترميز وثيقة تدور حول الألم (أو حول أى ظاهرة أخرى) فإن كل حدث أو حادثة سوف يتم تحديد موقع بُعدى لها فى علاقتها بتلك الخواص ،

ذلك الموقع البعدى الذى يشكل أهمية بارزة فى ترابط النظرية (انظر الترميز الانتقائى ، فصل - ٨) .

٤ - فى الترميز المحورى ، يتم ربط الفئات الفرعية بالفئات الرئيسية الخاصة بها من خلال ما نسميه بـ «*مخطط النموذج*» (Paradigm model) . وسيتم لاحقًا توضيح وتفسير هذا المخطط وتوضيح كيفية استخدامه للربط بين الفئات الفرعية والفئة الرئيسية فى الترميز المفتوح .

المخطط النموذجى :

فى النظرية المجذرة نقوم **بالربط بين الفئات الفرعية والفئة الرئيسية الخاصة بها بواسطة مجموعة من العلاقات** التى تعبر عن كل من : الأوضاع السببية ، والظواهر ، والأوضاع المعترضة ، وإستراتيجيات الفعل والتفاعل ، والنتائج . ولتوضيح ذلك بشكل أبسط ، فإن هذا المخطط يمكن عرضه على النحو الآتى :

(أ) الأوضاع السببية ←—— (ب) الظواهر ←—— (ج) الإطار ←——
(د) الأوضاع المعترضة ←—— (هـ) إستراتيجيات الفعل والتفاعل ←—— (و) النتائج .

إن استخدامك لهذا النموذج سيساعدك على التفكير المنظم فى البيانات وعمل الارتباطات فيما بينها بطرق بالغة التعقيد . وابتداء من الآن ، وعندما تصادفك مواقف حياتية معينة ، فإنك آليًا تقوم بالاعتماد على نموذج سببى (إن ذلك الشىء حدث نظرًا لذلك السبب أو الوضع) لتفسر لنفسك وللآخرين الأسباب الكامنة وراء ذلك . وبالتدريب المستمر تستطيع أن تتعلم ببساطة التفكير من خلال نماذج تفسيرية أكثر تعقيدًا . وبدون استخدام هذا النموذج ، فإن ما تقوم ببنائه من نظرية مجذرة ستفتقر إلى العمق والدقة .

وقبل التطرق لمناقشة الآليات التى من خلالها تتم عملية الربط بين الفئات من خلال المخطط النموذجى ، فإننا سنقوم بالتوضيح المفصل لكل سمة أو خاصة من سمات هذا المخطط .

الظاهرة :

تمثل الظاهرة كلاً من الفكرة الرئيسية ، والحدث ، والحادثة ، حيث يتم توجيه الأفعال والتفاعلات **لإدارتها والتعامل معها ، أو تلك التى ترتبط بها مجموعة من الأفعال والتفاعلات** . ونقوم بتحديد *الظاهرة* من خلال طرح تساؤلات مثل : ماذا تشير إليه تلك البيانات ؟ ماذا تدور حوله تلك الأفعال والتفاعلات ؟ (انظر الفصل الخامس لمزيدٍ من التفصيل) .

الأوضاع السببية :

يشير هذا المصطلح إلى الأحداث أو الحوادث المؤدية إلى ظهور أو تطور ظاهرة ما . وعلى سبيل المثال ، إذا كنا مهتمين بدراسة الألم ، فإنه من المتوقع أن نكتشف أن كسر القدم أو الإصابة بمرض التهاب مفاصل الأعضاء يؤدى إلى الشعور بالألم . فمثل تلك الحوادث تسبب أو تؤدى إلى الشعور بالألم . وباستخدام المخطط النموذجى فإن حادثة الألم من الممكن تمثيلها بيانياً على النحو الآتى :

الوضع السببى	الظاهرة
كسر القدم أو الإصابة بمرض التهاب المفاصل	الشعور بالألم

وفى الواقع ، فإن *وضعًا سببيًا* واحداً قلما ينتج عنه ظاهرة ما . تذكر أننا نقوم بالنظر إلى الألم المرتبط بكسر القدم . إنها خواص تلك القدم المنكسرة (وصاحب القدم ذاته) التى ترتبط مع بعض لتؤدى إلى الشعور بالألم . والآن علينا أن نكون على درجة عالية من الدقة لوصف ذلك الكسر ، أى لنحدد خواص الكسر وموقعه البعدى خلال تلك الخواص . فربما نقول إن هناك أكثر من كسر واحد أو اثنين (أو عدداً من الكسور) ، كما أن واحداً من هذه الكسور كسر مركب (نوع الكسر) . إضافة إلى ذلك ، فالشخص المصاب بكسر القدم ليس مغمى عليه أو مصاباً بالكساح وعليه فإن الجهاز العصبى لدى ذلك الشخص سليم ويقوم بوظائفه (درجة الإحساس) . كما أننا نستطيع أن نأخذ الألم ، وننظر إلى خواصه وأبعاده المحددة التى من الممكن فى الواقع تفسيرها من خلال إعادة النظر إلى الأبعاد المحددة للأوضاع السببية . وعلى سبيل

المثال ، من الممكن أن نتوقع أن كثافة الألم وشدته فى حالة المصاب بكسر القدم ـ حيث تكون الكسور متعددة ومركبة وبحيث تكون هناك درجة عالية من الحساسية الماثلة فى القدم ـ ستكون على درجة عالية . أما فيما يتعلق **باستمرار** الشعور بالألم ، فربما نقول إن ذلك مستمر . والآن فإن الرسم البيانى الذى يمثل ذلك سيكون على النحو التالى :

الوضع السببى	*الظاهرة*	
كسر القدم	ألم	
خواص القدم المكسورة	*الأبعاد المحددة للألم*	
كسور متعددة	الكثافة	عالية
كسر مركب	استمرار الألم	آخذ فى الاستمرار
وجود حساسية	الموقع	أسفل القدم

إنك ربما تعتقد أن كسر القدم أو الإصابة بمرض التهاب المفاصل تشكل ظواهر فى حد ذاتها . إن هذا صحيح ، ولكن عليك أن تتذكر أننا قمنا بالتركيز على الألم وليس على الإصابة بمرض التهاب المفاصل أو الأعضاء أو الكسر . إن اهتمامنا بأى واحد منهما ليس إلا باعتباره وضعًا سببيًا لذلك الألم وقادراً على تفسير كمية الألم ، ونوعه ، ومدى استمراريته ونحو ذلك ، من خلال إعادة النظر إلى الخواص المحددة لذلك الوضع السببى . إنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الوضع السببى من الممكن أن يكون أى حادثة (مثل : سلوك معين ، كلام وأحاديث ، أو شىء قام بعمله شخص ما) ، كذلك أى حادثة وقعت بمجرد الصدفة . إن جميع هذه الأشياء تعتمد بالضرورة على الأوضاع المحيطة التى تقع هذه الحوادث أو الأشياء فى إطارها .

إن الأوضاع السببية أو الأوضاع السابقة ، كما تسمى أحيانًا يتم الإشارة إليها فى البيانات من خلال مصطلحات ، من مثل : «عندما»، «بينما» ، «منذ» ، «بسبب» ، «نظراً لـ» ، «أخذاً فى الاعتبار بـ» . وحتى عندما تكون هذه الكلمات أو المصطلحات موجودة فى البيانات ، فإنك غالبًا تستطيع أن تحدد الأوضاع السببية من خلال تركيزك على ظاهرة ما وإعادتك النظر بشكل منتظم فى بياناتك ، بحثًا عن هذه الحوادث والأحداث التى يبدو أنها تسبق تلك الظواهر .

الإطار :

يمثل *الإطار* **مجموعة محددة من الخواص المتصلة بظاهرة ما** . أى موقع الحوادث والأحداث المتصلة بظاهرة ما عبر مدى بعدى . (راجع الفصل الخامس ، إذا لم يكن ذلك واضحًا لديك) . وفى الوقت نفسه فإن الإطار **يمثل تلك المجموعة الخاصة من الأوضاع التى من خلالها يتم أخذ إستراتيجيات الفعل والتفاعل لتوجيه ظاهرة محددة والتأثير فيها والاستجابة لها** . إنه الإطار الذى نقوم بوصفه عندما نقول «تحت ظروف الألم الشديد المستمر فإننا نقوم بتناول كذا وكذا للحد منه» .

ولتوضيح هذه النقطة دعنا نعد إلى المثال الخاص بالقدم المكسورة ، فالقدم المكسورة تؤدى إلى الشعور بالألم . إن معرفة ذلك فقط ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تجعل الأمر صعبًا فى علاجه . إن علينا أن نتعرف على أشياء محددة عن السبب وراء الألم وكذلك عن الألم نفسه حتى نتمكن من علاجه . وفيما يتعلق بالقدم المكسورة فإننا نرغب فى معرفة **متى** حدث ذلك الكسر وكيف حدث ذلك ، وعدد **الكسور** وأنواعها وما إذا كان **الإحساس** ماثلاً أو غائبًا من القدم المكسورة وما إلى ذلك . أما عن الألم ، فإننا نرغب أن نعرف شيئًا عن مساره ووضعه عبر الزمن ، كذلك مدى **استمراريته** ، وموقعه على وجه التحديد ومدى **كثافته وشدته** ونحو ذلك .

وهنا نستطيع أن نقول تحت الأوضاع المحددة المتكونة من (أ) كون الألم لا يزال فى بداية مساره . (ب) كون الألم على درجة عالية من الشدة . (جـ) وكونه ذا أمد أو فترة قصيرة . (د) وكونه يقع على امتداد العظمة الطويلة إلى الأسفل من القدم ، فإننا سوف نقوم بأخذ هذه المحكات أو التدابير للتخفيف من الألم .

والآن فإن الرسم البيانى الخاص بالألم سيكون مشابهًا للآتى :

الوضع السببى	*الظاهرة*	
كسر القدم	ألم	
خواص القدم المكسورة	*الأبعاد المحددة للألم*	
تعدد الكسور	الكثافة	عالية

كسر مركب	الاستمرارية	مستمر
وجود حساسية	الموقع	أسفل القدم
حدوث الكسر منذ ساعتين مضتا	المسار	مبكراً
السقوط فى شارع ملىء بالجليد	الحصول على مساعده	سريع

إطار التعامل مع الألم :

فى الأوضاع التى يكون الألم فيها :

مستمراً ، ذا كثافة عالية ، واقعًا فى أسفل القدم ، فى بداية مساره ، وحيث تم الحصول على المساعدة فى وقت وجيز .

الأوضاع المعترضة :

والآن نتطرق إلى مجموعة أخرى من الأوضاع المرتبطة بالظواهر (الفئات) محور دراستنا واهتمامنا . لقد تحدثنا فى البداية عن الأوضاع السببية ، ثم تطرقنا بعد ذلك إلى الإطار والمحيط الذى يمثل كلاً من الخواص المحددة لظاهرة ما ، وكذلك مجموعة الأوضاع المسببة للأفعال والتفاعلات فى الوقت نفسه . أما الآن فنتحدث عن *الأوضاع المعترضة* ، فما هى الأوضاع المعترضة ؟ إنك ربما تعتقد أنها *الإطار البنائى الواسع* المتعلق بظاهرة من الظواهر . وتعمل هذه الظواهر إما على تسهيل أو إعاقة إستراتيجيات الفعل والتفاعل المستخدمة فى إطار محدد . إن مثل هذه الأوضاع لا بد أيضًا من توجيهها والتعامل معها ، ومن الممكن أن نلاحظ مثالاً على وضع من هذه الأوضاع المعترضة فى العبارة الآتية : «إنك مريض وفى حاجة إلى تقنية طبية معينة لعلاج ما تعانيه من مرض ، وليس من الممكن الحصول عليها إلا فى مركز طبى بعيد . وللحصول على هذا العلاج ، فلا بد لك إلى حد ما من السفر . وبعبارة أخرى ، فإنك لا تستطيع مباشرة الحصول على ذلك العلاج نظراً لعامل المسافة ذلك» .

إن الأوضاع المعترضة تشكل تلك الأوضاع العامة والشاملة التى تؤثر فى إستراتيجيات الفعل والتفاعل . هذه الأوضاع تشتمل على كل من : الزمان ، المكان ،

الثقافة ، الوضع الاقتصادى ، الحالة التقنية ، المهنة ، التاريخ ، السير الذاتية . (وسنتطرق فى الفصل العاشر إلى هذه الأشياء بصورة أكثر تفصيلاً ، كما سنبين كيفية استيعابها فى التحليل) . هذه الأوضاع المعترضة تتنوع وتختلف من تلك الأوضاع التى تقع على مسافة بعيدة من الحالة تحت الدراسة إلى تلك الأوضاع القريبة منها . والآن دعنا نعد إلى مثالنا عن القدم المكسورة لنرى كيف تعمل هذه الأوضاع المعينة على تسهيل أو إعاقة الفعل والتفاعل .

افترض أن قدم شخص ما قد أصيبت بالكسر ، بينما كان فى الغابة وليس فى المدينة ، وكان بصحبة شخص آخر . إن هذه الأوضاع من الممكن أن يؤثر فى مقدار الوقت الذى يمضى قبل أن يجد العناية الطبية ويحصل على مسكّن للألم . كما أن السمات الذاتية لكل من الشخص المصاب والقائمين على علاجه كالعمر ، والأمراض ، والأوضاع الأخرى الموجودة ، والتاريخ الماضى للمرض ، والفلسفات ، والأيديولوجيات المتعلقة بالألم والمرض ـ جميعها أمور مهمة ، يضاف إلى ذلك أيضًا بعض السمات التقنية (التكنولوجية) كالإجراءات والأساليب الطبية المتاحة للتعامل مع المرض ومعرفة كيفية استخدامها والوسائل المتاحة ونحو ذلك .

إننا نستطيع الاستمرار فى حصر الأوضاع المعترضة ولكن ما ذكر أعلاه كاف لتوضيح الفكرة ، ولا يمكن أن تنطبق جميع الأوضاع على كل حالة . والأمر يعتمد عليك كمحلل فى تحديد الأوضاع التى تود تطبيقها ودمجها فى التحليل ، من خلال كيفية قيام تلك الأوضاع بتسهيل أو إعاقة الفعل والتفاعل وكيفية توجيه الفعل والتفاعل عندما يكون ذلك مناسبًا .

إستراتيجيات الفعل والتفاعل :

تعتبر النظرية المجذرة *طريقة تعتمد على الفعل والتفاعل فى بناء النظرية* . وسواء كان الباحث يقوم بدراسة الأفراد أو الجماعات أو التجمعات ، فإن هناك الفعل والتفاعل الموجه للتحكم فى الظاهرة والتعامل معها والتأثير فيها ، كما توجد فى إطار أو تحت مجموعة محددة من الأوضاع المدركة . ويشير العنصر التفاعلى إلى كل من الذات والتفاعلات الأخرى .

إن للفعل والتفاعل خواص أخرى ، وأولى هذه الخواص تتمثل فى كون كل منهما ذا **طبيعة عملية** تتطور بذاتها . وعليه فمن الممكن دراسة الفعل والتفاعل بوصفهما سلاسل أو حركة أو تغيراً عبر الزمن (انظر الفصل السابع) . وثانيتها أن الفعل والتفاعل موضوع المناقشة **موجهان لتحقيق هدف** ، أى أن كلاً منهما يحدث لسبب ما وذلك كرد فعل للظاهرة أو التحكم فيها . ولذا فإن هذه الأفعال والتفاعلات تظهر خلال إستراتيجيات و (تكتيكات) . وعلى الرغم من أنه ليس جميع الأفعال والتفاعلات موجهة لتحقيق هدف ، فإنها فى بعض الحالات ربما تكون أفعالاً وتفاعلات ارتدادية . كما أن الأفعال والتفاعلات ربما تبدو أيضًا لأغراض غير مرتبطة بالظواهر مدار الدراسة ، ولكنها ذات نتائج لتلك الظواهر . وكمثال ، افترض أنك تقوم بدراسة احترام الذات لدى الأطفال . فى ذلك الوضع يقوم طفل بإراقة كوب من الحليب على الأرض . لقد تأثر احترام الذات لدى الطفل سلبيًا من جراء صراخ أمه ، وذلك نظرًا لوجود عدد من أصدقائه ، على الرغم من أن الأم لم تقصد جرح شعور ابنها على مشهد من الآخرين . وثالثة تلك الخواص **أن الأفعال وردود الأفعال التى لم تحدث لسبب ما** ، على نفس الدرجة من الأهمية للنظر فيها ، مثلها مثل تلك الأفعال وردود الأفعال التى ظهرت أو حدثت **فعلاً** . وبعبارة أخرى ، إذا كان شخص من المفترض أو من المعتاد أن يقوم بعمل شيء ما فى حالة من الحالات إلا أنه لم يقم بذلك ، فإننا بعد ذلك يجب أن نسأل : لماذا لم يحدث ذلك ؟ ورابعتها ، وكما ذكرنا سابقًا ، أنه تُوجد غالبًا *أوضاع* معترضة تعمل إما على تسهيل أو إعاقة الفعل والتفاعل ، وهذه الأوضاع يجب أن يتم الكشف عنها أيضًا .

ومرة أخرى فإن الشكل البيانى الخاص بالألم ، الذى قمنا بإعداده ، يشبه التحليل الآتى :

الوضع السببى	*الظاهرة*	
كسر القدم	ألم	
خواص القدم المكسورة	*الأبعاد المحددة للألم*	
تعدد الكسور	الكثافة	عالية
كسر مركب	الاستمرارية	مستمر

وجود حساسية	الموقع	أسفل القدم
حدوث الكسر منذ ساعتين مضتا	المسار	مبكراً
السقوط فى الغابة	الحصول على مساعدة	سريع
	النتائج المتوقعة	عالية

إطار التعامل مع الألم :

فى الأوضاع التى يكون الألم فيها مستمراً ، ذا كثافة عالية ، واقعًا فى أسفل القدم ، فى بداية مساره ، وحيث يستغرق الحصول على المساعدة وقتًا طويلاً ، وحيث تكون درجة النتائج الممكنة عالية ، فإنه يحدث الآتى :

إستراتيجيات التعامل مع الألم :

- تجبير الكسر .
- البحث عن مساعدة عاجلة .
- المحافظة على درجة الحرارة لدى ذلك الشخص .

الأوضاع المعترضة :

- قلة الخبرة والتدريب فى الإسعافات الأولية .
- عدم وجود بطانيات .
- وجود مسافة طويلة للحصول على مساعدة .

وكما هو الحال مع الأوضاع ، فإنه يوجد ضمن البيانات التى نقوم بتحليلها عبارات موحية محددة تشير إلى الإستراتيجيات . وتتمثل فى تلك الأفعال وأسماء الفاعل والمفعول الموجهة للفعل . فهذه الأفعال وأسماء الفاعل والمفعول تخبرك بأن شخصًا ما يقوم أو يقول شيئًا ما استجابة لظاهرة من الظواهر . وكمثال على ذلك ، لنفترض أن باحثًا ما يرغب فى دراسة انسياب العمل فى وحدة بمستشفى ما ، ودور رئيسة المرضات فى المحافظة على استمرارية انسياب العمل فى الوحدة الخاصة بها ، فإنه من المتوقع أن نلاحظ الأشياء الآتية فيما لدينا من بيانات :

إذا كانت هناك خلافات حادة بين العاملين بالمستشفى حول الدوام المسائى ، وأخذت هذه الخلافات تؤثر فى أداء العمل ، عندئذ سأحضر لأعمل مع العاملين فى ذلك المساء وذلك لتقويم ما يحدث هناك .

ففى هذا المثال ، لدينا ظاهرة هى (انسياب العمل) التى انتابها بعض الاضطرابات (إطار) ورئيسة الممرضات التى جاءت **للعمل** فى الدوام المسائى حتى تتمكن من **تقويم** ما يحدث هناك (أفعال إستراتيجية تم اتخاذها استجابة للاضطرابات فى انسياب العمل بالمستشفى) .

النتائج :

إن الفعل والتفاعل المتخذ استجابة لظاهرة ما أو للتحكم فيها ذو *نتائج ومخرجات* معينة ، ومن المتوقع غالبًا أن تلك النتائج والمخرجات من الممكن التنبؤ بها أو أنها كانت مقصودة فى حد ذاتها ، كما أن عدم حدوث الفعل والتفاعل له نتائج ومخرجات أيضًا . وتعتبر متابعة هذه النتائج والمخرجات أمرًا مهمًا فى النظرية المجذرة .

وتتنوع هذه المخرجات والنتائج ، فمنها ما يكون نتائج للناس والأماكن والأشياء ومنها ما يكون حوادث أو أحداثًا ، كالمرض الذى يشتد نظرًا لعجز المريض عن اتباع نظام غذائى معين . وربما تأخذ تلك النتائج صورة استجابة للأفعال وردود الأفعال كما هو الحال عندما يطلب شخص منك بإصرار أن تقوم بعمل شىء ما ، فإن إستراتيجية ردة الفعل لديك ستتمثل فى تنفيذ ما طلب منك بصورة هزيلة ، أو أن تمتنع البتة عن تنفيذ ذلك . كما أنه من الممكن أن تكون النتائج أشياء حقيقية أو ممكنة الحدوث فى الحاضر أو المستقبل . ومن المتوقع أن تصبح النتائج لمجموعة من الأفعال جزءًا من الأوضاع (كالإطار أو الأوضاع المعترضة) التى تؤثر فى المجموعة اللاحقة للأفعال والتفاعلات التى تبدو فى شكل سلاسل أو ربما تشكل جزءًا من الأوضاع اللاحقة فى سلاسل أخرى . وعليه ، تكون **نتائج لأفعال وتفاعلاتها فى فترة ما من الممكن أن تصبح جزءًا من الأوضاع فى فترة أخرى .**

ولاستكمال مثالنا عن حالة الألم المترتب على القدم المكسورة ، فإننا نستطيع القول

بأن واحدة من نتائج التصرف (الفعل) المتخذ لتخفيف الألم تتمثل فى تسكين الألم (فئة فرعية) . كذلك فإن لتسكين الألم قائمة من الخواص ـ كما سبق ذكر ذلك ـ التى من المكن وضعها فى هذا الوضع المحدد على طول مدى بعدى . ففى مثالنا عن القدم المكسورة ، إذا كان ذلك قد حدث فى الغابة بمعية الأصدقاء ممن توجد لديهم خبرة فى المساعدة الأولية وقاموا بوضع القدم فى وضعها الطبيعى وتجبيرها ، ثم قاموا بعد ذلك بطلب المساعدة الأولية ، فإنه من المتوقع أن النتيجة المترتبة على إستراتيجيات التعامل مع الألم تلك ستكون تقليص الألم . أما إذا كان ذلك الفرد من ناحية ثانية بمفرده ، واضطر لانتظار شخص ما ليساعده ، فإنه من المتوقع فى هذه الحالة ألا يكون هناك مخفف للألم . وفى الحقيقة ، إذا لم يقم شخص بمساعدته بعد وقت وجيز من الحادثة ، فإن ذلك المصاب سيعانى كثيراً من الألم وسيشكل ذلك ضغطاً على الجسم بأكمله . وعليه ، فإن زيادة كثافة الألم ، أو المعاناة الشديدة من الألم ، ستؤثر على الإستراتيجيات المتخذة للتعامل مع الألم فى سلسلة الفعل اللاحقة ، أى على سبيل المثال عندما يجد الشخص المصاب خلال فترة ليست بالقصيرة من يمد له يد المساعدة .

ربط وتطوير الفئات من خلال النموذج :

يتم ربط وتطوير الفئات من خلال الإجراءات التحليلية الرئيسية التى تم تناولها فى الفصل الخامس والمتمثلة على وجه التحديد فى إثارة التساؤلات وعقد المقارنات . وتعتبر العملية الفعلية للترميز المحورى خلال تلك الإجراءات عملية بالغة التعقيد . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن التحليل يتم من خلال القيام بأربع خطوات تحليلية مميزة فى الوقت نفسه . وتتمثل هذه الخطوات فى : (أ) الربط الافتراضى للفئات الفرعية بالفئة الرئيسية من خلال عدد من العبارات التى تشير إلى طبيعة العلاقات فيما بين تلك الفئات وبين كل من : *الظواهر* ، والأوضاع السببية ، والإطار ، والأوضاع المعترضة ، وإستراتيجيات الفعل والتفاعل ، والنتائج . (ب) التحقق من مصداقية تلك الفروض من خلال البيانات . (ج) *البحث المستمر عن خواص* الفئات والفئات الفرعية *والمواقع البعدية* للبيانات (الحوادث والأحداث وما إلى ذلك) التى تشير إليها . (د) الاكتشاف الأولى *للاختلاف* والتنوع فى الظاهرة بواسطة مقارنة كل فئة وفئاتها

الفرعية لعدد من الأنماط المتنوعة التى يتم الوقوف عليها من خلال مقارنة المواقع البعدية لعدة حالات فى البيانات . فأى مقارنات فى الترميز المحورى يقوم بها الباحث وأية أسئلة يتم طرحها من قبله تتعلق بتلك الخطوات الموضحة أعلاه .

ربط الفئات الفرعية بالفئة الرئيسية :

إن طبيعة الأسئلة التى يتم إثارتها فى الترميز المحورى تتمثل فى حقيقة الأمر فى تلك الأسئلة التى تشير إلى نوع ما من العلاقات . فعندما نقوم بمقارنة فئة بفئة أخرى – على سبيل المثال – فإنه من المتوقع إثارة السؤال التالى : هل الفئة المسماة بـ «**تسكين الألم**» مرتبطة بتسكين **الألم** كنتيجة لإستراتيجيات تم اتخاذها لتخفيف الألم ؟ لاحظ هنا أننا لا نتحدث عن حدث أو حادثة معينة تم ترميزها ولا عن خواص أو أبعاد كذلك . وبدلاً من ذلك ، فإننا قمنا بطرح أسئلة تتعلق بالأوصاف أو المسميات النظرية فى حد ذاتها ، وكيف أن فئة ما مرتبطة بفئة أخرى . فعندما نرى أن المصابين بمرض التهاب مفاصل الأعضاء يستخدمون إستراتيجيات معينة لتخفيف ما بهم من ألم ، فمن الممكن أن نطرح السؤال الآتى : فى الأوضاع التى يشعر فيها الناس بالألم ، ما هى الإستراتيجيات التى يقومون باستخدامها للتحكم فى الألم ؟ ومن هنا فإننا قمنا بالربط بين فئتين .

التحقق من العبارات من خلال البيانات :

مع وجود فئة تربط بين التساؤلات العالقة فى أذهاننا ، فإننا عندئذ نركن إلى ما بين أيدينا من بيانات للبحث عن دليل أو حدث أو حادثة تؤيد أو ترفض تلك التساؤلات . إنه يتعين علينا أن ننظر فيما قمنا به من مقابلات وما جمعناه من وثائق ونحو ذلك لنرى ما يعمله المصابون بمرض التهاب مفاصل الأعضاء عند شعورهم بالألم . وإذا كانت البيانات قد أضفت تأييداً واضحاً لتساؤلاتنا ، فإننا نستطيع عندئذ تغيير السؤال أو تحويله إلى عبارة تعبر عن علاقة أو نوع من الفرض وتقول : فى ضوء أوضاع الشعور بالألم ، فإن المصابين بمرض التهاب مفاصل الأعضاء يقومون باستخدام عدد من الإستراتيجيات للتحكم فى الألم . كذلك عندما يستخدم المصابون بمرض التهاب

مفاصل الأعضاء إستراتيجيات التحكم فى الألم فإنه يخف لديهم عندئذ الشعور بالألم . لاحظ أننا هنا لم نقم بتحديد دقيق فى هذه العبارات لأنها لا تشكل إلا عبارات عامة وشاملة .

وفى الوقت الذى نبحث فيه عن دليل من البيانات للتحقق من تلك العبارات التى تشير إلى علاقات ، فإننا أيضًا نبحث عن أمثلة تبين متى تكون هذه العلاقات غير مدعمة . فمن المتوقع من خلال أى مقابلة أو وثيقة نقوم بفحصها تدور حول شخص يشتكى من ألم الإصابة بمرض التهاب مفاصل الأعضاء ، أن ذلك الشخص فى الحقيقة سيقوم بعمل شىء ما تجاه ذلك الألم ، وأن عمله هذا سوف يؤدى إلى تخفيف ما يشعر به من ألم . ولكن القيام بعمل شىءٍ ما والتمكن من تخفيف الألم عبارات مقيدة . وبعبارة أخرى ، بعض الأشخاص ربما لا يقومون بعمل أى شىء ، ومع هذا فإنهم يتمكنون من تخفيف ما يشعرون به من ألم ، ومنهم من يقوم بالانتظار بعض الوقت ، بينما قد يقوم آخرون بعمل شىء تحسبًا للشعور بالألم . فى حين قد يقوم البعض الآخر بالانتظار طويلاً للقيام بعمل شىء ما ، ومع هذا فإنهم عندما يقومون بذلك لا يتمكنون من تخفيف آلامهم . إن جميع هذه الحالات تقيد تساؤلاتنا الرئيسية والعبارات المتضمنة لعلاقات لها . **فهذه الحالات لا تقوم بالضرورة بدحض** تساؤلاتنا وعباراتنا أو تكذيبها ، **بل هى عوضًا عن ذلك تضيف مزيدًا من العمق والتنوع فى الفهم .** إنه من الأهمية بمكان عندما نقوم بدراسة فى النظرية المجذرة أن نجد أدلة على الاختلاف والتنوع تمامًا كما نسعى لوجود أدلة لتأييد تساؤلاتنا وعباراتنا النظرية . إذ تخبرنا تلك الحالات العكسية أو البديلة عن وجود شىء ما مختلف عن تلك الحالة ، الأمر الذى يحتم علينا مواصلة البحث والملاحظة عن كثب فيما يمكن أن يكون ذلك . **فمتابعة البحث والتدقيق فى هذا الاختلاف سيضيف بلا شك مزيدًا من العمق والتنوع فى نظريتنا .**

مزيد من تطوير وتنمية الفئات والفئات الفرعية من خلال ما لها من خواص ومواقع بعدية :

فى الوقت الذى نقوم فيه بفحص بياناتنا باحثين فيها عن دليل لدعم تساؤلاتنا وعباراتنا المتضمنة للعلاقات وكذلك عن بدائل لذلك ، فإننا نواصل ملاحظاتنا بحثًا عن دليل لخواص أخرى للفئات وعن الموقع البعدى لكل حالة نقوم بترميزها ، ففيما يتعلق بالفئة الخاصة بـ«تسكين الألم» فإننا نرغب فى معرفة الخواص الأخرى الموجودة إلى جانب تلك الخواص التى تم لنا اكتشافها خلال الترميز المفتوح . وعندما نقوم بمقارنة كل حادثة فإننا نود معرفة أين تقع كل خاصة من هذه الخواص من البعد . ومرة أخرى ، فإننا نهدف إلى الدقة محاولين تحديد كل حادثة فى البيانات ووضعها فى الموقع البعدى الدقيق . وبهذا العمل ، فإن ذلك يضفى على نظريتنا عمقًا تصوريًا ، كما يساعدنا على اكتشاف ما يمكن اكتشافه من تنوع . وعليك أن تنتبه أن على الباحث مسؤولية الموازنة بين تطوير عمق كاف والمحاولات المتكررة لتكوين ذلك العمق (انظر الفصل الحادى عشر الخاص بالاختيار النظرى) ، وأى باحث يستطيع بلا شك مواصلة العملية التحليلية بصورة غير محددة . إن الفكرة تتمثل فى التوصل إلى نظرية تتميز بالعمق التصورى وبالدقة ، وبالتنوع النظرى الكافى الذى يمكنها من الانطباق على حالات كثيرة ومتنوعة من أية ظاهرة .

ربط الفئات على المستوى البعدى :

عندما نقوم لاحقًا بمناقشة الترميز الانتقائى (الفصل الثامن) سيتبين كيف يقوم الباحث بربط جميع الفئات الرئيسية مع بعضها (تذكر أنه من الممكن أن يكون لدينا خمس أو ست من الفئات التى تم تطوير كل واحدة منها من خلال الفئات الفرعية التابعة لها) . ومع هذا ، فإن عملية الربط تبتدئ فى الواقع فى الترميز المحورى . وبينما نقوم بالتحليل ، فإننا نلاحظ أنماطًا فى البيانات من خلال المواقع البعدية للأحداث والحوادث المتصلة بخاصة من خواص الظاهرة . وبعبارة أخرى ، فإننا نلاحظ أن فروقًا فى الطرق التى يقوم من خلالها الأشخاص الذين يعانون شدة كثافة الألم وطول استمراره والتعامل معه مقارنة بطرق التعامل معه بواسطة أولئك الأشخاص الذين لا يعانون إلا شيئا طفيفًا من الألم ولفترة قصيرة ، أو نلاحظ فروقًا فى تسكين

الألم عند القيام بإجراء لتسكين الألم (إستراتيجيات تسكين الألم) تحسبًا لظهوره أو عندما يبتدئ مسار الألم مقارنة بما يتم عند أخذ هذه الإجراءات مؤخراً فقط وعندما يأخذ الألم فى الاستمرار لبعض من الوقت . إن البحث فى هذه الأنماط وملاحظتها أمر مهم كما أنه يقوم بتوفير الأساس للترميز الانتقائى .

ولتوضيح الصورة دعنا نضف إليها ما يأتى ، عندما نقوم بتحليل البيانات سنلاحظ كيف أن عنقوداً من الخواص المحددة للأوضاع والإستراتيجيات والمخرجات المتصلة بالظاهرة تتفاعل مع بعضها البعض لتتمخض عن مزيد من الفروق . وكمثال على ذلك ، فربما تلاحظ أنه عندما يكون الألم كثيفًا ويستمر طويلاً ، فإن إجراءات تسكين الألم عندئذ ليس لها تأثير ، ومن المتوقع مع مرور الوقت أن يقوم الأفراد - بعد اكتشافهم لذلك - بتعديل ما لديهم من إستراتيجيات لإنجاز إجراءات تسكين الألم مبكرًا فى مساره والتمكن من الحصول على نتائج أفضل . ومثل هذه التغيرات تشير إلى مفهوم العملية أو الحركة فى البيانات . وعلى الرغم من أن مفهوم العملية سيتم تناوله لاحقًا فى الفصل التاسع ، فمن الأهمية بمكان أن تلاحظ هذه التغيرات مبكراً .

التعقيد :

عندما يبدو أن تلك الإجراءات والوسائل والخطوات الخاصة بالترميز المحورى على درجة عالية من التعقيد ، فما عليك إلا أن تتذكر أن الواقع للأسف ذو طبيعة معقدة . وكذلك عندما تقوم بترميز بيانات ، فإن كثيراً مما ذكر أعلاه يحدث بشكل آلى . ومن الأهمية بمكان أن تضع فى الحسبان ما تقوم بعمله بشكل اعتيادى حتى تتمكن من تنفيذه بشكل هادف . بتطويرنا لنظرية مجذرة ، فإننا نحاول أن نضع أيدينا على كل ما نستطيعه من التعقيد والحركة فى العالم الحقيقى ، علمًا بأننا نعرف أننا لن نتمكن من جميع ذلك على الإطلاق . ولنتذكر أننا لا نقوم بتعداد أرقام على الرغم من أننا نبحث عن دليل لتأييد وتحديد ما لدينا من عبارات تصور علاقات تتعلق بالبيانات . **إن اكتشاف وتحديد الفوارق بين وخلال الفئات وكذلك ما بينها من أوجه الشبه يشكل أمراً حاسمًا فى صلب النظرية المجذرة .**

التنقل فيما بين التفكير الاستقرائى والاستدلالى :

ربما تكون قد لاحظت عند القيام بعملية الترميز أننا باستمرار نقوم بالتحرك فيما بين التفكير الاستقرائى والاستدلالى . أى أننا نقوم بصورة استدلالية باقتراح عبارة من العلاقات أو عدد من الخواص الممكنة ، وما يتعلق بها من أبعاد عند تحليل البيانات ، ومن ثم نحاول فى الواقع التحقق مما قمنا باستنتاجه من خلال البيانات وذلك عندما نقوِّم الحوادث واحدة بعد الأخرى . **أى إننا نقوم بتفاعل مستمر بين عمليتى اقتراح العبارات المحتوية على علاقات والتأكد من مصداقية ذلك من خلال البيانات** . وهذا التقدم والتراجع المستمر هو ما يجعل النظرية مجذرة .

وكمثال على ذلك ، فمن المتوقع خلال الترميز أن نلاحظ حادثة ما من التحكم فى الألم ونقترح أن الأوضاع ذات الألم الكثيف سيتبعها اتخاذ إجراءات أو تدابير لتخفيفه . ومن ثم نقوم بالتحقق من كل حالة من حالات الألم الكثيف التى لاحظناها فى البيانات وذلك لتحديد إذا كان ذلك هو واقع الأمر ، أى أننا نقوم بالتحقيق الاستقرائى لما قمنا باقتراحه بطريقة استدلالية أو استنتاجية . أو ربما نقوم بقراءة عبارة لنجد أنفسنا أمام عبارة من مثل «عندما أستيقظ صباحًا (وضع) وعندما تكون مفاصلى صلبة أو منقبضة ومؤلمة (ظاهرة) فإننى أقوم بالجلوس على حافة السرير قبل النهوض وتحريك كل مفصل ببطء وبشىء من الحذر (إستراتيجيات) . وعندما أنتصب واقفًا بعد ذلك فإن حركاتى أقل خطرًا وأقل ألمًا» (نتائج) . وهنا ، فإن الأوضاع والإستراتيجيات والنتائج تم توضيحها لنا . لقد لاحظنا تلك الأشياء ذاتها فى البيانات . ومع ذلك فإن حادثة واحدة ليست كافية لتدعيم مجموعة من العلاقات أو الخواص أو الأبعاد . وعوضًا عن ذلك ، **فإن علاقاتنا المقترحة يجب أن نجد ما يؤيدها مرات ومرات من خلال البيانات** ، حتى ولو وجدنا أن التفاصيل تختلف من حالة إلى أخرى . أى أن شخصًا ما ربما يقول : «قبل أن أخرج لشراء حوائجى وقبل القيام بحركات كثيرة» بدلاً من «قبل أن أستيقظ صباحًا» أو بدلاً من «تحريك المفاصل ببطء» ، «فإننى أقوم بتناول دواء الأسبرين لتقليل الألم» . إن الذهاب خارج المنزل لشراء حوائج هو مثال آخر لوضع يؤدى إلى الشعور بالألم ، بينما يشكل تناول دواء الأسبرين إستراتيجية وقائية للتحكم فيه . ومع ذلك ، فإن الحوادث المعينة تختلف من حالة إلى أخرى .

إن المفاهيم – وكذلك ما يتم التوصل إليه من علاقات بينها من خلال التفكير الاستدلالى – لا بد من التحقق منها مرات ومرات بواسطة البيانات الواقعية . فبادئ ذى بدء ، يتم التعامل مع تلك المفاهيم والعلاقات بشكل مؤقت ، وعندما لا تجد تدعيماً من البيانات فلا بد من صرف النظر عنها وإهمالها . **وعليه ، فإن ما نصل إليه فى نهاية المطاف من نظرية مقتصر على تلك الفئات وما لها من خواص وأبعاد ، وكذلك على العبارات المنطوية على العلاقات الموجودة فعلاً فيما يتم جمعه من بيانات** ، وليس على ما تتوقعه فى تلك البيانات مما لم تتمكن من إيجاده فيها . إننا نقوم ببناء نظرية مجذرة ، وما يجعل هذا النمط من بناء النظرية مختلفًا عن الأنماط الأخرى إنما يعود إلى عملية التحقيق أو التجذير الهادفة هذه . وهذا لا يعنى أنك لا تستطيع مؤخراً أو الآن أن تختبر كميًا تلك العلاقات ، ولكن المقصود من بناء النظرية أن عليك أن تقوم بجمع البيانات الكافية لتقدم باستمرار دليلاً على ما لديك من فئات وما اقترحته من علاقات بينها . أما ما لم تستطع الحصول عليه فى بياناتك من أدلة فسيشكل واحداً من جوانب القصور فى دراستك . ويعود ذلك إما إلى أنك لم تجمع ما فيه الكفاية من البيانات ، أو أنك لم توفق فى الذهاب إلى المكان المناسب أو مقابلة الأشخاص المناسبين ونحو ذلك . أو ربما أن ما اقترحته من علاقات ليس صحيحاً أو أنه فى حاجة إلى إعادة النظر فيه حتى نتمكن من مطابقة أو مقاربة ما بحوزتك من بيانات .

تعقب واكتشاف العلاقات :

ستصادف أحيانًا عند قيامك بالترميز ما يظهر أنه إستراتيجية أو وضع أو نتيجة . وعندما تحدد حادثة أو حدثًا بهذه الطريقة ، فإنك تستطيع العودة إلى الظاهرة المرتبطة به وكذلك إلى الأوضاع التى يبدو أن لها صلة بهذه الحالة . كما يمكنك إلى جانب ذلك ، اكتشاف الإستراتيجيات التى تم اتخاذها وما يترتب على ذلك من نتائج . إن السعى وراء العلاقات أو تعقبها بدلاً من الانتظار والبحث عن الصدفة سيجعل تحليلك على درجة عالية من التنظيم والتواصل المستمر .

استخدام الأنظمة الصغيرة والأساليب التوضيحية الأخرى للتسجيل :

من الممكن أن يكون قد انتابك شيء من الدهشة حتى الآن حول مقدرتك على متابعة جميع ما انتهى إليه تحليلك من نتائج ! ، وبدون الغوص فى تفاصيل المذكرات والرسوم البيانية التى سيتم مناقشتها فى الفصل الثانى عشر ، فإننا سنقدم لك هنا قليلاً من الافتراضات الأولية .

ويتمثل أحد الأساليب التى من الممكن أن يستفيد منها الباحث فى متابعة تحليله ، فى استخدام الرسوم التوضيحية التى تعتبر أحياناً رسوماً بيانية صعبة ، من خلالها يقوم الباحث بتوضيح نقاط الالتقاء والتقاطع أو الطرق التى من خلالها تتفاعل الفئات الفرعية مع بعضها ، وكذلك توضيح الفئة المرتبطة بتلك الفئات الفرعية . ومن الممكن أن نعطى مثالاً على ذلك فيما يأتى :

المرحلة الأولى :

الألم	*الظاهرة*
سبب غير معروف	
نوع جديد	
كثافة	الخواص المعينة المحددة لـ :
	التعامل مع المرض ، الإطار
فترة قصيرة	
متكرر خلال فترة طويلة إلى حد ما	
فى أحد أجزاء الجسم	
قوّمت ـــــــ وقررت الانتظار حتى يتلاشى	
الألم من نفسه (اعتماداً على تجربة سابقة)	*إستراتيجية التحكم*

المرحلة الثانية :

عودة *الألم*	*الظاهرة*
جميع الخواص الموضحة أعلاه	
قمت بإعادة تقويم الوضع وقررت أخذ	

المرحلة الثالثة :

عودة *الألم مرة أخرى* *الظاهرة*

كثافة قليلة خلال فترة أطول *الخواص المعينة*

المحددة لـ : *التعامل مع الألم ، الإطار ، الإستراتيجية*

قمت بتقويم الوضع وأخذ كمية أقل من الأسبرين

المرحلة الرابعة :

عودة *الألم مرة أخرى* *الظاهرة*

ألم شديد الخواص المعينة

المحددة لـ : *التعامل مع الألم ، الإطار ، الإستراتيجية*

منتشر فى أجزاء أخرى من الجسم

مستمر طويلاً

إعادة تقويم الوضع ، ومن ثم ←——— الذهاب إلى الطبيب . وقد تضمنت إستراتيجياته أو تقويمها الفنى فحوصات وإجراء عملية

وهناك أسلوب آخر يتمثل فى استخدام الرسوم البيانية المنطقية على نحو ما فعلناه فى هذا الفصل موضحًا بها كلاً من العلاقات والخواص والمجالات البعدية أثناء مسيرة البحث .

وبعد ذلك نستطيع ببساطة صياغة العلاقات فى مذكرات ربما باستخدام الحروف الكبرى أو المسودة إضافة إلى أمثلة (مكتوبة بحروف صغيرة) من البيانات التى أدت إلى صياغة تلك العلاقات أو قدمت دليلاً لتأييدها .

الملخص :

يتمثل الترميز المحورى فى عملية ربط الفئات الفرعية بفئة ما . وتعتبر هذه عملية معقدة من التفكير الاستقرائى والاستدلالى المنطوى على عدد من الخطوات التى يتم التعرف عليها - كما هو الحال فى الترميز المفتوح - من خلال المقارنات وإثارة التساؤلات . ومع ذلك ، فإن استخدام تلك الإجراءات فى الترميز المحورى يتم بشكل أكثر تركيزاً وموجهاً للكشف عن الفئات والربط بينها من خلال المخطط النموذجى . أى أنّ علينا أن نقوم بتطوير كل فئة (ظاهرة) من خلال كل من الأوضاع السببية المؤدية لبروز تلك الظواهر ، وكذلك من خلال الموقع البعدى لهذه الظاهرة عن طريق ما لها من خواص ، وكذلك من خلال الإطار وإستراتيجيات الفعل والتفاعل المستخدمة للتعامل مع الظاهرة والتحكم فيها والاستجابة لها فى ضوء ذلك الإطار ، وفى ضوء نتائج ما تم اتخاذه من أفعال وتفاعلات . وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا نواصل فى الترميز المحورى البحث عن مزيد من الخواص التابعة لكل فئة وملاحظة الموقع البعدى لكل حادثة أو حدث أو واقعة .

إننا نقترح على أولئك المهتمين بتحليل الأفكار الرئيسية (theme) أو تطوير المفاهيم ، أو الذين تنطوى مشاريعهم البحثية على ذلك ، التوقف عند هذا الحد من هذا الكتاب . فمن المتوقع أنك استوعبت بما فيه الكفاية إجراءات النظرية المجذرة لتحقيق تلك الأهداف البديلة . أما إذا كنت مهتماً بتطوير نظرية ، فما عليك إلا أن تستمر فى متابعة باقى فصول الكتاب .

الفصل الثامن
الترميز الانتقائى

تحديد المصطلحات :

- ***القصة (Story)*** : حكاية وصفية تدور حول الظاهرة المركزية للدراسة .
- ***مجرى القصة (Story Line)*** : الصياغة النظرية للقصة . ويمثل ذلك الفئة المحورية .
- ***الترميز الانتقائى (Selective Coding)***: عملية اختيار الفئة المحورية بطريقة منظمة بحيث يتم ربطها بالفئات الأخرى والتحقق من تلك العلاقات ، وكذلك إضافة تلك الفئات التى هى فى حاجة إلى مزيد من التهذيب والتطوير .
- ***الفئة المحورية (Core Category)*** : الظاهرة المركزية التى يتم من حولها توحيد ودمج جميع الفئات الأخرى .

بعد مضى بعض من الزمن (عدة أشهر أحيانًا) من جمع البيانات وتحليلها ، فإنك لا محالة تواجه مهمة دمج ما انتهيت إليه من فئات لصياغة نظرية مجذرة ! . لاحظ أننا قد ختمنا الجملة السابقة بعلامة تعجب حتى تعبر بحيوية عن تلك الحيرة والارتباك التى يعايشها عدد كبير من الباحثين عند وصولهم إلى ذلك الحد من دراساتهم . إن دمج ما قام به الباحث من تحليلات وصياغات مع بعض تشكل حتى بالنسبة للباحثين المتمرسين مهمة صعبة . وكما كتب (بول أتكينسون) أحد المؤلفين لكتاب مدرسى متميز فى البحوث الحقلية (Hammersley & Atkinson, 1983) قائلاً فى رسالة شخصية :

إن هذا الجانب ـ وضع جميع عناصر البحث مع بعضها ـ يشكل واحداً من الأشياء الأكثر صعوبة على الإطلاق ، وبمعزل عن تحقيق ذلك ، فمن الصعوبة تقديم أو إقحام مزيج مناسب لكل من : (أ) الاعتقاد بأن ذلك من الممكن ، أو سوف يتم تحقيقه . (ب) إدراك أنه لا بد من القيام به وأن ذلك ليس معتمداً على إثارة رومانتيكية . (ج) أن ذلك ليس حلاً للغز أو لمشكلة رياضية ، ولكنه شىء يجب أن يتم ابتداعه . (د) أنك لا تستطيع دائمًا أن تضع كل شىء فى صيغة واحدة ، وأن أى مشروع بحثى يمكن أن يسمح بعدد من الطرق المختلفة لإخراجه .

وكما يفهم من قول (أتيكنسون) ، فإن الدمج النهائى عملية معقدة ، ومع ذلك فمن الممكن تنفيذها بطبيعة الحال . وفى هذا الفصل سنقدم بعض الخطوط العريضة لمساعدتك على القيام بهذه الخطوة الأخيرة من الانتقال من تكوين وإبداع قائمة من المفاهيم ، إلى إنتاج وتركيب نظرية منها . **إن عملية الدمج هذه لا تختلف كثيراً عن الترميز المحورى ، إذ يتم تنفيذها على مستوى تحليل عالٍ بالغ التجريد .**

وفى عملية الترميز المحورى ، فإن الباحث يقوم بتطوير الأساس للترميز الانتقائى . فقد قمت إلى ذلك الحد من الترميز الانتقائى للتوصل إلى عدد من الفئات ، وما يتبعها من خواص وأبعاد ، وما لها من علاقات نموذجية ساهمت فى إثراء تلك الفئات وفى مدى عمقها . كما يفترض أنك قد تمكنت إلى هذا الحد من ملاحظة العلاقات الممكنة بين الفئات الرئيسية من خلال ما لها من خواص وأبعاد . إضافة إلى ذلك ، فمن المحتمل أنك شرعت أيضاً فى صياغة تصور ما عن موضوع دراستك . وبعد كل هذه الأمور ، فإن الناس قد أخذوا لعدة أشهر فى مساءلتك عما تقوم بدراسته ، وما توصلت إليه من نتائج حيال ذلك . وبالتأكيد ، فإن بعضاً من نتائج دراستك قد تشكلت فى مخيلتك إن لم تكن فعلاً قد كتبت على الورق . والسؤال الذى يطرح نفسه هنا يتمثل فى : كيف تستطيع أخذ تلك الأشياء الخام والموجودة فى رسومك البيانية ومذكراتك (راجع الفصل الثانى عشر) ومن ثم تطويرها بشكل منتظم فى صورة واقعية تتميز بعمق التصور وقابلية الفهم ، وتكون مجذرة علاوة على كل ذلك ؟ .

هناك العديد من الخطوات التى يتم من خلالها تحقيق ذلك : أما الخطوة الأولى فتنطوى على توضيح مجرى *القصة* ، وأما الثانية فتتكون من *الربط* بين *الفئات الفرعية والفئة المحورية التى تتبعها* من خلال *النموذج* ، وأما الخطوة الثالثة فتنطوى على *ربط الفئات على المستوى البعدى* ، وأما الرابعة فتستلزم التحقق من مصداقية تلك العلاقات من خلال البيانات ، وأما الخطوة الخامسة والأخيرة فتتكون من *إضافة تلك الفئات* التى ربما لا تزال فى حاجة إلى مزيد من التهذيب أو التطوير . ومن الأهمية بمكان أن تفهم هنا أن هذه الخطوات لا يتم أخذها أو اتباعها بالضرورة فى تسلسل خطِّى ، كما أنها ليست خطوات متميزة عند التطبيق الفعلى . وعليه فإننا لم نميز بين هذه الخطوات إلا لهدف التوضيح . **ففى الواقع يقوم الباحث بالتحرك أو التنقل إلى الأمام أو الخلف فيما بين تلك الخطوات .**

ورغبة فى مساعدتك فى فهم عملية الدمج نستخدم بيانات قام بجمعها أحد مؤلفى هذا الكتاب (كوربين – Corbin) وذلك لتوضيح تلك الخطوات الإجرائية . وكما ستلاحظ ، فهذه الدراسة واضحة وليست على درجة عالية من الصعوبة . وتركز على مسألة كيف تمكن عشرون من النساء الحوامل المصابات بمرض مزمن من التعامل مع الحمل . وقد تم اختيارهن كمبحوثات خلال نهاية الشهر الأول وبداية الشهر الثانى من الحمل ، وقد تمت متابعتهن منذ ذلك الحين وحتى الأسبوع السادس بعد الوضع . كما تم تحديد أربع إلى خمس مقابلات مقننة مع كل واحدة من المبحوثات . وتم تحديد إحدى هذه المقابلات لكل شهر من الحمل ، وأخرى خلال أسبوع من الولادة ، أما المقابلة الأخيرة ، فقد حددت فى الأسبوع السادس بعد الولادة . وإضافة إلى ذلك ، فقد قامت الباحثة باستخدام الملاحظة خلال الزيارات التى تمت قبل الولادة وأجرت خلالها مقابلات عامة مع الحوامل . وعندما كان أزواجهن موجودين خلال القيام بتلك الملاحظات والمقابلات ، تمت ملاحظتهم والقيام بمقابلتهم أيضاً . كما أن الباحثة قامت بمصاحبة الحوامل أثناء خضوعهن لإجراءات الفحص الخاصة بالحمل الذى تعرضن له وذلك حيثما تيسر ذلك . وقد اعترفت النساء بأنواع مختلفة من الأمراض مثل : ارتفاع السكر فى الدم ، مرض القلب ، التهابات صدرية ، مرض الكلية ، ارتفاع ضغط الدم . كما أن بعضهن كنّ يعانين أكثر من مرض مزمن كالسكرى والكلى مثلاً . ومن هؤلاء النساء امرأة تعرضت لعملية زرع الكلية . ومن المفروض أن نضيف هنا أن الباحثة عندما شرعت فى دراستها كانت مهتمة بتأثير الأمراض المزمنة فى رفع مستوى الخطورة لدى الحوامل . ولم يكن لدى الباحثة أى تصور عما إذا كانت الحوامل أنفسهن يقمن بدور نشيط فى التحكم فى خطورة الحمل . وعندما أخذت تتفهم ذلك ، فإن وجهة نظرها قد تحولت من وجهة النظر الإكلينيكية الطبية إلى وجهة نظر باحثة شاملة وغير متحيزة (Corbin, 1987) .

توضيح مجرى القصة :

للتمكن من تحقيق دمج الفئات ، فلا بد أولاً من أن نقوم بصياغة مجرى القصة وأن نلتزم بذلك . ويتمثل هذا (انظر تحديد المصطلح سابقًا) فى القيام بتصور قصة وصفية

عن الظاهرة المحورية للدراسة . (وعندما يتم تحليلها فستشكل الفئة المحورية) **وأحيانًا ما يكون الالتزام بمظهر القصة أمرًا صعبًا لكون الباحث غارقًا فى بياناته إلى الحد الذى يبدو له كل شىء فيها على درجة معينة من الأهمية ، أو عندما تبرز هناك أكثر من ظاهرة واحدة فى البيانات** . وسنناقش أدناه الإجراءات المؤدية إلى تحقيق الالتزام بمجرى القصة . وعليك هنا أن تتذكر الأساليب الأساسية الخاصة بعقد المقارنات وإثارة التساؤلات .

تحديد القصة :

يتمثل أحد الطرق المستخدمة فى الابتداء فى دمج الفئات فى جلوسك إلى منسق للكلمات (حاسب شخصى) أو آلة كاتبة ، أو إلى قلم وورقة لتكتب بعضًا من الجمل عن جوهر قصتك . ولتسأل نفسك هنا عما فى هذا الموضوع من الدراسة يبدو لافتًا للنظر بدرجة كبيرة ، وعما تعتقد أنه يمثل المشكلة الرئيسية ، ومن الأهمية بمكان أن تقتصر فى استجاباتك على **عدد قليل من الجمل** ، لأن الشرح والتفصيل فى تلك الاستجابات هنا سيؤدى إلى الإرباك والتشويش . وببساطة فإن الباحث فى حاجة إلى نظرة وصفية عامة إلى القصة . وباستخدام مثال النساء الحوامل المصابات بأمراض مزمنة ، عندما حان الوقت لدمج الفئات ، فقد قامت الباحثة بكتابة مفكرة على نحو ما يلى :

يبدو أن القصة الرئيسية تدور حول كيفية تعامل النساء الحوامل المصابات بأمراض مزمنة مع ما يدركنه من خطورة مرتبطة بحملهن . ومن الممكن أن يقال إن كل مرض أو كل حمل أخذ فى التقدم ، مما يعنى أن الخطورة تم التحكم فيها أو توجيهها . فالنساء الحوامل يقمن بالتحكم فيما يدركنه من خطورة وذلك أملاً فى الحصول على أطفال أصحاء . ويظهر أن هذه النتيجة المرغوبة تشكل القوة الأولية التى تشجعهن على القيام بأى شىء ضرورى للتقليل من مستوى الخطورة . ومع هذا ، فهؤلاء الحوامل لسن متلقيات كسولات للعناية ، ولكنهن - عوضًا عن ذلك - يقمن بدور مهم فى عملية التعامل مع الحمل والمرض : فلسن مسئولات فقط عن مراقبة عملهن وما بهن من أمراض فى المنزل ، لكنهن إضافة إلى ذلك يقمن باتخاذ قرارات فعالة فيما يتصل بنظام التغذية الذى تم إحاطتهن من قبل أطبائهن باتباعه . وفى الوضع المتأخر من

الحمل ، وضعن فى حسبانهن الأضرار التى ربما تلحق بالأطفال من خلال إجراء بعض الفحوص كأخذ عينة من سوائل الأغشية المحيطة بالجنين ، أو من خلال تعاطى جرعات كبيرة من بعض الأدوية خلال الحمل . وبهذا فإنهن بعناية وحذر يقمن بتقويم الخطورة ووضع القرارات المناسبة لما يجب اتخاذه من تلك الإجراءات الطبية والعلاجية . فعندما يعتقدن خطأ الطبيب ، فإن هؤلاء الحوامل يقمن بعمل ما يعتقدن صحته .

ففى هذا المثال يتبين أن التعامل مع «عوامل الخطورة» المرتبطة بالحمل والمرض اعتبر هنا القضية الرئيسية . إن الدافع فى القيام بدور فعال فى التعامل مع خطورة المرض والحمل شكّل رغبة ملحّة لدى هؤلاء النسوة للحصول على طفل سليم . أما سبب اختيار الباحثة للتركيز على التعامل مع تلك الخطورة فيعود إلى أن هذه الظاهرة قد برزت بوضوح وقوة فى كل ما قامت به الباحثة من مقابلات وملاحظات . فكل امرأة حامل تحدثت عن رغبتها فى إنجاب طفل سليم على الرغم من الخطورة ، وأبدت استعدادها للقيام بأى شىء ضرورى يؤدى إلى تحقيق هذا الهدف .

الانتقال من الوصف إلى صياغة المفاهيم .

مجرى القصة :

من الأمور المساعدة وربما الضرورية ما يتمثل فى القيام بالوصف حتى يتمكن الباحث من وضع ما يدور بمخيلته على الورق . وعندما تلتزم بالقصة فمن الضرورى أن تتجاوز عملية الوصف إلى عملية صياغة المفاهيم ، أى إلى *مجرى القصة* . وقد آن الأوان هنا أن تروى القصة **بأسلوب تحليلى** . وكما هو الحال مع الترميز المفتوح والمحورى ، فإن ذلك يعنى هنا أن الظاهرة المحورية لا بد من إعطائها اسمًا محددًا (كما لا بد من ربط الظاهرة باعتبارها فئة ما ببقية الفئات الأخرى) . وهنا عليك أن تنظر إلى ما قمت بحصره من فئات لترى إذا كانت إحداها على مستوى كاف من التجريد ليضم تحت إطاره جميع ما تم وصفه فى القصة . وأحيانًا فإن هذه الفئة تكون جاهزة لديك ، ولذا تمثل هنا *الفئة المحورية* . وفى أحيان أخرى ، يبدو أنه لا توجد فئة

معينة على درجة كافية من التجريد لتعبر عن القصة بكاملها ، وعندئذ ، ماذا ستعمل ؟ والإجابة عن هذا السؤال تتمثل فى أنه يجب عليك أن تعطى اسماً للظاهرة المحورية .

ففى المثال السابق ، لاحظنا أن لدى الباحثة العديد من الفئات ، إلا أن أيًا من تلك الفئات لم يكن على درجة كافية من التجريد أو الاتساع أو الشمول لتعبر عن الفكرة الرئيسية للتعامل مع الخطورة حتى يتيح ذلك المحافظة على نمو الجنين . إذ يبدو أن كل فئة تختص بوصف جزء من أجزاء الظاهرة . وبعد التفكير طويلاً حول الموضوع ، فإن مصطلح (التحكم الوقائى ـ Protective Governing) قد تم اختياره كفئة محورية . «فالتحكم» يعنى أن الأمهات يقمن باتخاذ بعض التدابير والتصرفات ليتحكمن فى الخطورة المرتبطة بحملهن: كما أن كلمة «الوقائى» تشير إلى أن تلك التدابير والتصرفات ذات طبيعة وقائية . (وكم كان من الأهمية بمكان أن نجد حالات سلبية – أى نساء حوامل لم يقمن باتخاذ أية تدابير وقائية – لكنه لم يوجد أحد من هذا القبيل خلال الدراسة) . ومن الممكن أن يختلف أو يتنوع الشكل النحوى الذى تتخذه أو تظهر به الفئة المحورية . فمن الممكن أن يكون ذلك اسمًا كالمسار ، أو العمل ، أو الوعى ، أو الموت ونحو ذلك ، كما يمكن أن يكون مزيجًا من الاسم والصفة مثل (التحكم الوقائى) ، أو اسم الفاعل مع الاسم مثل «صائرة أمًا» «ومتعايش مع مرض التهاب مفاصل الأعضاء» . والخيار بين هذه الأمور أمر يتوقف على الحمل ذاته . والشىء الوحيد المطلوب هنا يتمثل فى كون الوصف أو النعت المفاهيمى يتطابق مع أو يقارب القصة التى يمثلها .

الاختيار بين ظاهرتين أو أكثر من الظواهر البارزة :

أحيانًا ما يواجه الباحث فى البيانات بظاهرتين على درجة واحدة من الأهمية . **حيث من الضرورى ـ مع ذلك ـ أن نقوم باختيار إحداهما** حتى نتمكن من تحقيق الدمج المحكم والتطوير العميق للفئات المطلوبة فى النظرية المجذرة . ويعتبر تطوير فئتين بشكل متكامل ومن ثم دمجهما والكتابة عنهما بشىء من الوضوح والدقة أمرًا فى غاية الصعوبة . وينطبق ذلك أيضًا حتى على الباحث أو الكاتب المتمرس (فمن المتوقع بالضرورة أنه سيقوم بعملية تطوير نظريتين متمايزتين ولكنهما مترابطتان وكذلك بعملية الكتابة عنهما) . **وتتمثل طريقة معالجة هذه المشكلة فى قيامك باختيار ظاهرة واحدة ،**

ثم ربط الفئة الأخرى بها باعتبارها فئة جانبية ، ومن ثم كتابة ذلك كنظرية واحدة .
وفى بحث أو كتاب آخر ، من الممكن أن نقوم بأخذ الفكرة الثانية ومن ثم يمكن عمل الشيء نفسه معها كالفكرة السابقة .

وكمثال على ذلك دراسة قام بها المؤلفان ، حيث بدت ظاهرتان فى البيانات كظاهرتين مهمتين . وكل ظاهرة من الظاهرتين تتمتع بقدر من الأهمية وتستحق المتابعة والكتابة حولها . أما إحداهما فتتمثل فى مسار الأمراض المزمنة وطريقة تعامل الأزواج معها . وأما الثانية فتتمثل فى تأثير إخفاق الجسم فى السيرة الذاتية . فعندما حان الوقت للقيام بعملية دمج الفئات فى الدراسة ، قررنا التركيز على مسار المرض وكيفية التعامل معه . أما السيرة الذاتية فمن المتوقع الاحتفاظ بها كمفهوم ثانوى . إذ تعمل هذه الظاهرة كوضع مؤثر على كيفية التعامل مع المرض وكذلك بالمقابل كظاهرة متأثرة بكيفية التعامل تلك . وفى دراسة لاحقة ، فإن إخفاق الجسم وتأثيره فى السيرة الذاتية سيحتل التركيز الأساسى ، وعندها سيتم النظر إلى الأمراض المزمنة وكيفية التعامل معها كمجموعة من الأوضاع المؤثرة فى كل من درجة إخفاق الجسم والتعامل مع السيرة الذاتية فى علاقتها بالإخفاق .

ماذا يحدث لو لم أتمكن من تحديد مجرى القصة :

يعتبر الباحثون فى بعض الأحيان ممارسين – Practitioners – يقومون بأعمال بحثية تتعلق بمجالاتهم العملية . ومن هنا فإنهم يجدون صعوبة فى إبعاد أنفسهم بما فيه الكفاية عما لديهم من بيانات حتى يتمكنوا من الحصول على وصف دقيق وصياغة مفاهيم مجرى القصة ، الأمر الذى يساعدهم على اختيار فئة محورية . ومن المفيد والحالة كذلك أن نحصل على مشورة من باحث أو مدرس أو زميل متمرس يستطيع الاستماع إلى ما لديك ، ومن ثم مساعدتك على مواجهة تلك المشكلة . وهنا فإن هذا المستشار سوف يطرح عليك أسئلته من مثل : ما هى الظواهر التى تصورها بياناتك مرات ومرات ؟ ما هى النتائج التى توصلت إليها ؟ ما الهدف الرئيسى من هذه الدراسة والذى ترغب إيصاله للآخرين ؟ ما الأشياء التى تعتبرها على درجة عالية من الأهمية فى هذا المجال ولماذا ؟ (وكمثال على جلسة استشارية جرت بين مدرس وتلميذ ، راجع: Strauss, 1987, p. 166) .

تحديد خواص وأبعاد الفئة المحورية :

كما هو الحال مع الفئات الأخرى ، فإنه لا بد أن تصبح الفئة المحورية متطورة من خلال ما لها من خواص . فإذا قمت برواية القصة بشكل مناسب إضافة إلى قيامك بالإفصاح عن الفئة الرئيسية ، فإنه من المفترض والوضع كذلك **أن تقوم القصة أيضًا بالإفصاح عن خواصها** .

وبالعودة إلى المثال المتعلق بالحمل ، يتضح لنا أن اثنتين من الخواص المهمة وما يتبعها من أبعاد قد تم تحديدهما ، «فالخطورة المتوقعة» تتنوع وتختلف بمدى من الانخفاض والارتفاع . كما اتضح أن هناك مصدرين للخطورة هما الحمل والمرض ، يؤدى كل منهما إلى مضاعفة خطورة الآخر ، كما أن لكل منهما مسارًا ما . فكل من الخطورة والمرض من الممكن أن يوصفا بأن كلاً منهما «على المسار» أى أن كلاً منهما يواصل الطريق المفروض : لأن الخطورة قد تم احتواؤها ، أو من الممكن أن يوصفا بأنهما خارج المسار لأن عوامل المرض لم يتم ضبطها . وبتمثيل ذلك بيانيًا ، فإن هذه الخواص ومداها البعدى تشبه ما يلى :

الخواص		*المدى البعدى*
الخطورة المدركة	منخفضة	عالية
مسار الألم – الحمل	على المسار	خارج المسار

وعندما يتم تحديد الفئة المحورية ، **فإن الخطوة اللاحقة لذلك تتمثل فى ربط الفئات الأخرى بتلك الفئة المحورية** ، وبذلك تصبح تلك الفئات *فئات فرعية* . وقبل مواصلة مناقشة ذلك ، فإن هناك سؤالين حول الفئة المحورية يجب التعرض لهما وتوضيحهما .

أما السؤال الأول فيتعلق بما إذا كانت الفئة المحورية يجب أو لا يجب أن تكون «عملية نفسية أساسية» (Glaser, 1978, p. 100 ، انظر أيضًا الفصل التاسع الذى يناقش «العملية» بشىء من التفصيل) ، والإجابة عن هذا السؤال بالنفى . إن النظرية المجذرة تعتبر نموذجًا موجهًا نحو الفعل ، وعليه فإن النظرية بطريقة ما لا بد أن تعكس الفعل والتغير أو توضح الأسباب الكامنة وراء التغير اليسير . ولكن الفئة المحورية ذاتها من الضرورة أن تكون «عملية» ، وأقل من ذلك أن تكون عملية نفسية

أساسية ، على الرغم من أنه من الممكن أن تكون بالتأكيد كذلك . (انظر الفصل الحادى عشر عن - العملية) .

تذكر من مناقشتنا لمجرى القصة أن تحديد الظاهرة المحورية يشكل أمراً حاسماً بالنسبة للدراسة . **فالظاهرة المحورية تمثل الصدارة فى عملية الدمج** . وهى الرابطة الضرورية التى تعمل على جعل جميع عناصر النظرية مترابطة ومتكاملة بصورة مناسبة . وعندما يتم تحديد الظاهرة واعتمادها كفئة محورية فإننا عندئذ نقوم بتمحيص جميع الخطوات الإجرائية المتبقية الموضحة فى هذا الفصل . غير أن الفئة المحورية بالنسبة للباحث تتمثل فى تلك الظاهرة التى يتم التركيز عليها فى التحليل .

وكمثال على ذلك ، فإن مفهوم «الوعى» (Glaser & Strauss, 1965) اسم يعبر عن نوع خاص من الظواهر ، أى أنواع مختلفة من الوعى فى وضع ما . إن الكتاب الذى تم فيه تحليل هذه الظاهرة يظهر مسألتى الفعل والتغير مبرزاً العملية وجميع العناصر الأخرى فى النموذج . فهو يناقش كيف أن أنواعاً مختلفة من الوعى (إطار) أصبحت (أوضاعاً للفعل والتفاعل) ، وكيف تتم المحافظة عليها (إستراتيجيات) وكيف تتغير (العملية) ، وماذا يعنى ذلك بالنسبة للأفراد المعنيين (النتائج) . ومع هذا ، وفى الكتاب ذاته ، فإن الوعى يمثل المفهوم الذى تم تنظيم الكتاب من خلاله .

أما السؤال الثانى فيتعلق بمعيار اختيار الفئة المحورية . فلا بد للمعيار أن يقارب أو يوافق أو يصف الظواهر من خلال ما تعبر عنه . كذلك فإن المعيار لا بد أن يكون شاملاً بما فيه الكفاية ليضم ويربط ما بين الفئات الجانبية والفئات الأخرى . ولا بد أن تكون الفئة المحورية كالشمس المتمركزة فى علاقات منتظمة مع الكواكب الواقعة فى فلكها .

ربط الفئات الأخرى بالفئة المحورية :

إن عملية ربط الفئات الأخرى بالفئة المحورية تتم كما سبق من خلال كل من : النموذج ، والأوضاع ، والإطار ، والإستراتيجيات ، والنتائج . وكما تمت ملاحظة ذلك سابقاً فإن المسميات المحددة للفئات ليس من الضرورة أن تضم تلك المصطلحات

النموذجية . وعليه فالمشكلة تتمثل فى تحديد أى فئة تشير إلى أحد أجزاء النموذج . هذا التحديد يضم بالضرورة تلك الفئات الفرعية فى علاقات نموذجية ولتبسيط ذلك نقول ، إن التنظيم التحليلى يشبه ما يلى : **أ** (أوضاع) تقود إلى **ب** (ظواهر) تقود إلى **ج** (إطار) ، يقود إلى **د** (الأفعال والتفاعلات التى من بينها الإستراتيجيات) التى تقود عندئذ إلى **هـ** (النتائج) .

ومرة ثانية ، سنقوم مؤقتًا بتأجيل التفاصيل المتعلقة بكل فئة جانبية . وبالتركيز على الفئات ذاتها . تذكر أن الربط الفعلى للفئات بعضها ببعض أمر أكثر تعقيداً من مجرد سبب بسيط يؤدى إلى نتيجة ، وذلك نظراً لوجود مجموعة من الأوضاع المعترضة التى تتدخل فى مراحل متنوعة (انظر الفصل السابع والعاشر لمزيد من التوضيح للأوضاع المعترضة) . إنها تلك الأوضاع المعترضة التى تفسر لماذا يصل شخص ما إلى نتائج محددة أو يقوم باختيار مجموعة محددة من الإستراتيجيات ، بينما لا يفعل شخص آخر ذلك . وعليه ، فإنه من الضرورى تحديد هذه الأوضاع والربط بينها وبين الفئات الأخرى .

العودة إلى القصة :

كيف تتم عملية تنظيم الفئات وكذلك إعادة تنظيمها من خلال علاقاتها النموذجية حتى نستطيع بطريقة سليمة أن نطابق أو نقارب مجرى القصة ؟ لتوضيح ذلك ، دعنا مرة أخرى نعد إلى رواية القصة . وفى هذه المرة سنقوم بتقديم تفاصيل وصفية أكثر . وعليه ، فإن قصتنا عن النساء الحوامل المصابات بأمراض مزمنة ستبدو على النحو التالى :

إن وجود وضع مزمن يغير من طبيعة الحمل وذلك بإضافة عنصر من الخطورة الذى من غير المفضل أن يكون موجوداً . إنه التفاعل بين المرض والحمل الذى يعمل على وجود عوامل المخاطرة . وفى السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية كان ينظر للنساء الحوامل المصابات بالسكر أو بأمراض الكلى أو بأمراض جلدية كنساء على قدر عال من الحظ إذا أنجبن أطفالاً أحياء . كذلك فإن صحتهن عندما يبلغن العمر الذى يتمكنّ

معه من الولادة كانت معرضة للخطورة ، الأمر الذى يعنى أن تلك النساء على درجة عالية من الحظ للتمكن من الحمل والاستمرار فيه . وفى الوقت الحاضر ، فإن العديد من الأمراض المزمنة أصبح من الممكن علاجه والتحكم فيه ، الأمر الذى أدى إلى تحسين صحة النساء أثناء سنوات الحمل . وفى الوقت الذى لا تزال فيه الحوامل تحظى بالاهتمام الكبير ، فإن التقنيات الحديثة ساعدت على زيادة الفرص لدى النساء لولادة طفل حى سليم ، كما قامت بتعديل الوسائل الكفيلة بالتعامل مع المشكلات المحددة للمواليد التى ربما تظهر بعد ولادة الطفل . وبطبيعة الحال كلما كان المرض شديداً وصعب التحكم فى أعراضه ، كانت الخطورة المرتبطة بالمرض عندئذ عالية . كذلك فإن هناك مراحل معينة فى فترة الحمل التى يعتبرها الأطباء أكثر خطورة من الأخرى . فالأسبوع السابع والثلاثون بالنسبة للحامل المصابة بمرض السكر – على سبيل المثال – يمثل منعطفاً مهماً ، الأمر الذى يكثف من متابعة الحامل بعد تلك الفترة من قبل الفريق الصحى .

ومن المدهش أن نلاحظ كيف قامت النساء الحوامل **بتحديد مستوى الخطورة** . لقد جمعن بيانات من قرائن متنوعة من أطبائهن وممرضاتهن ، ولكنهن أيضاً اعتمدن على التجارب السابقة للأخريات فى الحمل والمرض . كما أنهن أيضاً **يلاحظن** الجنين ذاته بيقظة ، مفسرات لحركاته ونموه المتوقع ، مستدلات على ذلك من خلال زيادة أحجامهن ، كما أنهن يقمن بمتابعة ومراقبة ما يشعرن به جسدياً ، فجميع هذه الأشياء تُقدم لهن بيانات لتقدير مستوى الخطورة لديهن .

وهناك مظهر مهم آخر يتمثل فى قيام كل من النساء وأعضاء الفريق الصحى **بتقويم** أنواع الخطورة المختلفة والمرتبطة بأنواع مختلفة من العلاج المقترح . إنهن يقمن بتقويم الخطورة ، ليس بالنسبة للأطفال فحسب ، ولكن أيضاً خطورة ذلك على أنفسهن وعلى الآخرين (**الموازنة**) . وعندما تعتقد النساء أن كمية محددة من الدواء أكثر أو أقل من المطلوب تؤثر على الطفل ، فإنهن عندئذ يقمن إما بمناقشة ذلك مع الأطباء أو بتغييره بأنفسهن . أو إذا كن يعتقدن أن العلاج الذى يتلقينه ليس صحيحاً ، فإنهن سيحاولن مناقشة ذلك مع الأطباء لتغييره . وعندما لا ينجحن فى محاولتهن تلك ، فإنهن سوف يقمن بترك المستشفى على الرغم من النصيحة الطبية ، وذلك رغبة فى

الحفاظ على أطفالهن وأنفسهن . كما أن النساء يقمن بتقويم خطورة الأنواع المختلفة من العلاج والنظام الغذائى على ما يقمن به من وظائف أسرية . إذ من الصعوبة بمكان بالنسبة لامرأة لديها طفلان آخران أن تأخذ راحة بعد ظهر كل يوم . فإذا لم يكن هناك من يعتنى بطفليها ، فمن المتوقع عندئذ ألا تركن إلى الراحة .

ويمثل **التعامل والتحكم** وظيفة مشتركة بين النساء الحوامل والفريق الطبى . ومن خلال الالتحاق بنظام الرعاية الصحية ، فإن هؤلاء النساء بذلك يفوضن جزءًا من مهمة الإدارة والتحكم للأطباء ، أى ذلك الجزء المتعلق بالعلاج وإنهاء العلاج . أما التنفيذ الفعلى للعلاج فهو مهمة النساء أنفسهن وأزواجهن فى المنزل ، إلا إذا كنّ فى حقيقة الأمر فى حاجة إلى التنويم فى المستشفى . إن إستراتيجياتهن فى التعامل والتحكم وما لدى أطبائهن من إستراتيجيات من هذا القبيل ، يقصد من ورائها **التحكم** فى الخطورة . وبعض هذه الإستراتيجيات خاصة بالتحكم فى الخطورة الجسمية المضرة للطفل وللمرأة ذاتها ، والبعض الآخر للتحكم فى الخوف النفسى المرتبط بالخطورة الجسمية . كما أن والد الطفل يقوم بجزء مميز وإن كان غير مباشر فى عملية التعامل والتحكم تلك ، إذ يقوم بدور التأييد والتدعيم . فالآباء يقومون ـ كلما كان الأمر ممكنًا ـ بالمجىء مع الأمهات للفحوصات السابقة على الولادة . إذ من المؤكد أن يكونوا مع زوجاتهم إذا كانوا يستطيعون الاستئذان من العمل ، أو عندما تتعرض المرأة لإجراءات طبية خاصة أو تكون فى حاجة إلى تنويم بالمستشفى ، أو إذا كان لديها قرارات مهمة تحتاج إلى اتخاذها . إن مخرجات إستراتيجيات التحكم والتعامل تلك تختلف وتتنوع ، فإذا كان كل من المرض والحمل قد تم المحافظة عليهما (على المسار) فإن مستوى الخطورة بذلك قد تم احتواؤه ، وتم تحقيق الحصول على طفل سليم . وفى بعض الأوقات ، فإنه من غير الممكن احتواء الخطورة ، فعلى الرغم مما يقوم به الفريق الطبى والنساء الحوامل أنفسهن من أعمال شاقة ، فإن الحمل تأثر سلبيًا بالألم ، أو أن الألم ذاته قد أدى إلى تعقيد الولادة . فأحد الأطفال توفى مباشرة بعد الولادة بسبب تعقد الولادة ، كما أن بعض الأطفال قد أودعوا فى غرفة العناية المركزة للأطفال لعدة أيام ، ولكن أخيرًا تم خروجهم من المستشفى وبمستوى جيد من الصحة ، وقد اعتقد جميع النساء أن أطفالهن أعزاء عليهن للغاية لأنهن قد عملن الشىء الكثير وضحين بالكثير من الجهد فى سبيل الحصول عليهم . كما أن بعض الأزواج اعتقدوا أن تجربة الحمل والولادة التى مروا بها قد قربت الزوج من الزوجة ووثقت من علاقتهما ببعض : وذلك

لأنهما تعرضا لأشياء كثيرة معًا فى سبيل الحمل والولادة .

وباستخدام هذه القصة كمرشد أو موجه فإن المحلل يستطيع **أن يرتب الفئات ويعيد ترتيبها من خلال النموذج حتى تتضح مطابقتها أو مقاربتها للقصة ، كما يستطيع تقديم نسخة تحليلية منها** . وإذا لم يقم المحلل بذلك ، فإن الفئات ستبقى مجرد قائمة من الفقرات . وهنا نقدم لك توضيحًا لتنظيم الفئات . ففى دراسة الحمل ، فإن الفئات التى بزغت تضم كلاً من عوامل الخطورة (مصادر الخطورة) ، وإطار الخطورة ، والرغبة فى إنجاب طفل سليم ، والتقويم ، والموازنة ، والضبط والتحكم (عملية التعامل والإدارة المشتركة) ، والمخرجات (احتواء الخطورة) ، وهناك بالإضافة إلى ذلك فئتان بارزتان ، قد أصبحتا خاصتين للمفهوم المحورى «**التحكم الوقائى**» – Protective Governing – عندما تم تحديدهما . فتذكر أن هاتين الخاصتين تتمثلان فى كل من **مستوى الخطورة المتوقع** ومسار **الحمل والمرض** .

وأخيرًا ، فإن عوامل الخطورة (التأثير التفاعلى للحمل والمرض) تم النظر إليها كمسببات *لأوضاع* الخطورة التى أدت إلى الحاجة لنوع خاص من الإدارة والتعامل سمى بـ «التحكم الوقائى» . وقد تم تحديد *إطار* الخطورة كإطار مسبب للفعل . وقد دل على المكان الذى وضعت المرأة نفسها فيه من متصل الخطورة (risk continuum) ، وما إذا كانت قد نظرت إلى حملها وما بها من مرض كما لو كانا سائرين فى المسارات الخاصة بها . وهنا كما هو الحال فى الترميز المحورى ، فإن إطار الخطورة قد نشأ من خلال التفاعل بين خواص التحكم الوقائى . هذا الإطار اختلف وفقًا لمدى من *الأبعاد* ، أو تبعًا للاتحاد الممكن من المستوى المتوقع من الخطورة ومسار الحمل/المرض . كما أن التقويم (كفعل) قد تم النظر إليه كوضع معترض بين الظواهر الخاصة بالتحكم الوقائى وإطار المخاطرة . إن هذا يعود إلى أن تقويم القرائن أصبح الوسيلة التى من خلالها قام النساء الحوامل بتحديد حملهن أو النظر إليه على انطوائه على مستويات من الخطورة . وقد حتم عليهن ذلك أن يقمن بجمع معلومات عن عوامل الخطورة المعينة لديهن ، أما عن مدى صحة تلك المعلومات التى قمن بجمعها فإن ذلك يعتمد على كل من مستويات المعرفة ، وتجربة الحمل السابقة ، وتفسير وفهم الحوادث

التى ظهرت خلال فحوص الحمل ونحو ذلك .

إن «التحكم والضبط» أصبح مصطلحًا لتلك الإستراتيجيات المستخدمة من قبل النساء الحوامل للتعامل مع كل من الخطورة الجسمية والخطورة النفسية المرتبطتين بالحمل . (وعلى الرغم من أن التحكم والضبط يشكل عملية إدارية تتضمن كلاً من الفريق الصحى والنساء الحوامل ، فإننا سنشير أدناه مباشرة إلى أفعال وتصرفات النساء فقط) . فالتحفز والموازنة تم النظر إليهما كأوضاع بارزة تعترض وتتوسط فيما بين إطار الخطورة والتحكم والضبط ، وذلك نظراً لأن خيارات العلاج دائمًا ما يتم الموازنة بينها فى مقابل الرغبة فى إنجاب طفل سليم . (ويدخل ضمن تلك الموازنة بطبيعة الحال الخيارات المتاحة لديهن مثل : التقنية الخاصة بهذا الصدد ، ومعرفة أطبائهن بها ، إضافة إلى العديد من الأوضاع المعترضة كتجربة المرض - على سبيل المثال) . وتمثل أفعال وتصرفات الضبط والتحكم فى الحقيقة المخرجات لعملية الموازنة تلك . وبذا أصبحت الفئة المتعلقة بمخرجة احتواء الخطورة مساوية للنتائج ، أو إنها تشكل النتيجة الختامية لإستراتيجيات التحكم والضبط تلك ، أى المحافظة والاستمرار على احتواء عوامل الخطورة المتعلقة بالحمل والمرض التى أدت فى نهاية المطاف إلى إنجاب طفل سليم . وبتوضيح ذلك بيانيًا ، فإن الرسم البيانى التحليلى يشبه ما يلى :

عوامل الخطورة المرتبطة بالحمل / الأمراض المزمنة ←——— تؤدى إلى الحاجة إلى التحكم الوقائى .

كيفية تنفيذ عملية التحكم الوقائى :

إن التقويم يؤدى إلى تحديد أطر الخطورة المعدلة خلال : الحوافز ، والموازنة ، والأوضاع المعترضة الأخرى التى ←——— تؤدى إلى إستراتيجيات الضبط والتحكم فى الخطورة ، الأمر الذى ←——— يؤدى عندئذ إلى احتواء الخطورة .

إن تنظيم الفئات على هذا النمط لم يتم التوصل إليه بدون الكثير من التفكير حياله . فوضع بعض الفقرات فى مكانها أمر فى غاية الوضوح - وعلى سبيل المثال - ليس هناك أدنى شك فى أن التحكم والضبط يمثلان إستراتيجية . ولكن الأمر ليس كذلك

بالنسبة للتقويم والموازنة . فهما يدلان أو يشيران إلى الفعل والتصرف بدون أن يشكلا فى الواقع إستراتيجيات للتحكم فى المخرجات ، على الرغم من أنهما (التقويم والموازنة) يؤثران فى المخرجات ، ويمكن النظر إلى جميع هذه الأمور (التقويم ، والموازنة ، والضبط) ، كالوسائل التى من خلالها يتم تنفيذ التحكم الوقائى أى كعملية ما مكونة من ثلاث خطوات .

إن عملية سرد القصة وترتيبها التتابعى تشكل المفاتيح الأساسية لتنظيم الفئات بشكل واضح . وإذا تم سرد القصة بطريقة صحيحة ومنطقية فإن تنظيم الفئات سينبثق وينشأ بدون أى نوع من الصعوبة .

الصعوبة فى تنظيم الفئات :

إذا واجهتك صعوبة فى نقطة مشابهة فى دراستك عندما تقوم بالربط بين الفئات ، ما عليك إلا أن تقوم بإعادة كتابة قصتك أو سردها . فالصعوبة فى عملية الدمج هذه تعنى أن شيئًا ما خاطئ أو مفقود فى مدى منطقية قصتك . وربما تحتاج إلى إعادة كتابة قصتك عدداً من المرات حتى تتمكن من كتابتها بشكل صحيح ، الأمر الذى يجعل من تعيين الفئات أمراً معقولاً بالنسبة لك .

التأكد من مصداقية العلاقات :

من الممكن أن يقوم باحث ما بكتابة عبارة افتراضية تنطوى على علاقات بين الفئات . وعلى الرغم من صنعوبة ذلك ، فإن عبارة من هذا القبيل حول التعامل مع الحمل ربما تشبه ما يلى : فى ظروف الحمل المصاحب لأمراض مزمنة ، تقوم النساء الحوامل باتخاذ تدابير وقائية للتعامل والتحكم فى الخطورة المتوقعة بواسطة وسائل تقويم مستوى الخطورة ، والموازنة بين البدائل العلاجية ، وباستخدام عملية التعامل والإدارة المشتركة المسماة بعملية «الضبط والتحكم» ، الأمر الذى من الممكن معه احتواء الخطورة والنجاح فى إنجاب طفل سليم . وبمساعدة هذه العبارة ، فإن الباحث يستطيع العودة إلى البيانات أو إلى الميدان للتحقق من مصداقية تلك العبارة ، والسؤال هل هذه العبارة تنطبق عمومًا على كل امرأة حامل شملتها الدراسة ؟ لقد تم عمل هذا

فى محاولة الباحث الفعلية ، فالعبارة قد تم تدعيمها حالة بعد حالة ، ولكن عليك أن تلاحظ شيئًا ما حول العبارة : فهى عبارة ثابتة ، كما أنها لا تفسر فى واقع الأمر أيًا من التعقيد والتنوع الذى لاحظه الباحث . والسؤال هنا : ماذا يترتب على ذلك ؟ وللإجابة عن السؤال سنتطرق إلى الخطوة التالية الخاصة بعملية الدمج والربط .

الكشف عن الأنماط :

يبدأ الباحث خلال التحليل المحورى بملاحظة أنماط معينة (العلاقات المتكررة بين الخواص والأبعاد التابعة للفئات) . فعلى سبيل المثال ، أصبح من الواضح للباحثة فى دراستها عن الحمل أن توقعات النساء الحوامل للخطورة تميل أو تنزع للاختلاف والتنوع خلال فترة الحمل حسب ظروف المرض والحمل ، وأنه عندما تتغير توقعاتهن تلك فإن ما يستخدمنه من إستراتيجيات يتغير كذلك .

كما أنه عند بناء الفئات فى الترميز المحورى ، فإن قدرًا معينًا من الدمج يبدو ويظهر بشكل طبيعى . خذ على سبيل المثال فئة «التقويم» . فعندما نتساءل عن سبب قيام النساء بالتقويم باستمرار ، فإننا نجيب أوتوماتيكيًا بأن ذلك «يعود إلى الخطورة الصادرة عن التأثير المزدوج لكل من الحمل والألم» . وعليه ، فإن فئتى «التقويم» و«عوامل الخطورة» مرتبطتان على الرغم من أن العلاقات المقترحة فى الترميز المحورى لا تزال غير مرتبطة بإحكام .

وبعبارة أخرى ، فإنه يوجد نسيج من نوعٍ ما ، أو شبكة من العلاقات التصورية جاهزة هناك على الرغم من كونها غير مرتبطة بإحكام ومتشابكة ، الأمر الذى يتعين معه على المحلل أن يقوم بتصنيفها وتنقيتها لاحقًا من خلال الترميز الانتقائى الذى سيقوم به . **فمن الأهمية بمكان تحديد تلك الأنماط وتصنيف وتجميع البيانات وفقًا لها ، لأن ذلك هو ما يضفى الدقة والتحديد على النظرية . عندها فإن الباحث يستطيع أن يقول فى ظل هذه الظروف (المحددة) بأن هذا يحدث ، بينما فى ظل تلك الظروف يستطيع أن يقول بأن هذا ما يبدو ويظهر .**

تنظيم وترسيخ الارتباطات :

لتنظيم وترسيخ الارتباطات فإننا نستخدم مزيجًا من التفكير الاستقرائى والاستدلالى الذى من خلاله نستطيع باستمرار طرح التساؤلات وصياغة الفروض ومن ثم عقد المقارنات .

ومن خلال مناقشتنا للترميز إلى هذا الحد ، فإنك تعرف أن الإطار يمثل المجموعة المحددة من خواص الظواهر - الأوضاع - التى تشكل الأفعال جزءًا لا يتجزأ منها . كما تعلم أيضًا أن الإطار يشكل في حقيقة الأمر تنظيمًا ما . ولكن لماذا ؟ إن ذلك تنظيم لخواص الظواهر العامة المنظمة أو المصنفة من خلال اتحادات متنوعة عبر المدى البعدى الخاص بها **لتشكيل الأنماط** (إن هذه العبارة الأخيرة ليست إلا توسعًا للتعريف المبدئى الذى تم تقديمه ومناقشته فى الفصل السابع) .

ولترى كيف يعمل ذلك ، دعنا نعد لمثالنا المتعلق بـ «التحكم الوقائى» . فقد تم تحديد خواصه لتشتمل على «توقعات الخطورة» التى تتنوع من عالٍ إلى منخفض ، و«مسار الحمل/المرض» الذى يتنوع من «على المسار» إلى «خارج المسار» . وهذه الخواص تتحد فى أنماط متنوعة لإيجاد إطار الفعل . وفى دراسة الحمل تم تحديد أربعة من الأطر ، هى :

١ - الإطار المنخفض من الخطورة على المسار .

٢ - الإطار المرتفع من الخطورة على المسار .

٣ - الإطار غير الخطر خارج المسار .

٤ - الإطار الخطر خارج المسار .

طرق اكتشاف هذه الاتحادات أو الأنماط :

هناك عدة طرق من الممكن استخدامها لاكتشاف تلك الأنماط . **فالاتحادات ربما تنشأ أو تنبثق من خلال التحليل** . وبغوص الباحث فى البيانات لعدة أشهر ، فإنه لا يمكنه والأمر كذلك إلا أن يلاحظ الفوارق أو الأنماط المنبثقة . وربما قد لا يتمكن

مباشرة من أن يضع فى اعتباره جميع التفاصيل الخاصة بتلك الأنماط . ولكنه مع ذلك سيتكون لديه حس بالاختلافات والفوارق . ففى دراسة الحمل ، لاحظت الباحثة أن توقعات الخطورة تميل إلى التغير عبر الزمن وفقًا للظروف المحيطة بالحمل والمرض . ونظرًا لأن الباحثة تتميز بقدر من الحساسية النظرية لذلك التغير ، فقد قامت بالنظر فى البيانات للحصول على مزيد من الشواهد على ذلك النمط وكذلك لمعرفة أسباب ذلك التغير وكيفيته ونحو ذلك على وجه التحديد .

وعند معرفة خواص الظاهرة المحورية ، فإنك تستطيع أن تستنتج الاتحادات أو الارتباطات المتنوعة . ولعمل ذلك ، فإن جدولاً رباعيًا يفى بذلك الغرض .

وأحيانًا ما تجد هذه الفروق المنمطة بمجرد الصدفة . وقد تلاحظ شيئًا مختلفًا فى البيانات أثناء عملية الترميز فتقوم بمتابعته والعودة ثانية إلى ما قمت بجمعه من بيانات لتتمكن من جعل ذلك الاكتشاف على درجة عالية من التحديد والدقة . وعند قيامك بملاحظة ما ، قد يتبادر إلى ذهنك فكرة مفاجئة من خلال ملاحظاتك أو من خلال شىء ذكر فى المقابلات ، وعليه فالارتباطات التى شغلت تفكيرك لعدة أسابيع أصبحت على درجة واضحة . والشىء نفسه ربما يحدث خلال حديثك مع زميل أو قراءتك للكتابات ذات العلاقة ، أو حتى عندما تقوم بقيادة سيارتك فى الطريق . فهذه الفكرة المفاجئة والنشوة المصاحبة لها غالبًا ما تمثل ما يشير إليه المتخصص فى النظرية المجذرة بـ «نشوة الاكتشاف» . (من الحكمة دائمًا أن يكون لديك قلم رصاص وورقة لتدون بها تلك الأفكار المفاجئة من الومضات التحليلية (Glaser, 1978, p.58) . لاحظ أنه سبق لنا مناقشة هذا الإجراء فى الفصل السابع الخاص بالترميز المحورى) .

تجميع الفئات :

من خلال تحديد الفوارق فى الإطار ، فإن الباحث يستطيع بانتظام الشروع فى تجميع الفئات . **ويتم ذلك من خلال جمع تلك الفئات حسب الصفوف أو الخطوط البعدية لخواصها وذلك وفقًا للأنماط المكتشفة . ومرة أخرى ، فإن هذا التجميع يتم من خلال طرح التساؤلات وعقد المقارنات** . وكمثال على ذلك ، دعنا نعود إلى الدراسة الخاصة بالنساء الحوامل ولنفكر حول الفئة المسماة بـ «التقويم» . فإحدى خواص

التقويم ما يتعلق بحقيقة أن التقويم يعتمد على القرائن . أى أن النساء الحوامل نظرن إلى القرائن المتعلقة بطبيعة عوامل الخطورة من خلال رؤيتهن أنفسهن لتلك القرائن كأشياء ذات صلة بالخطورة . كما أن القرائن بالمقابل ذات خواص فرعية مثل : نوع القرينة الذى تم توزيعه إلى قرائن جسمية ، وقرائن تفاعلية ، وقرائن وقتية ، وقرائن موضوعية . والسؤال الذى يطرح نفسه للبحث عن إجابة له من خلال تحليل البيانات يتمثل فى : كيف اختلفت تلك القرائن باختلاف الأطر ؟ وبعبارة أخرى ، كيف تختلف القرائن الجسمية والقرائن التفاعلية ، والقرائن الوقتية ، والقرائن الموضوعية ، فيما بين الإطار الذى يكون فيه مستوى الخطورة مرتفعًا وعلى المسار ؟ وكيف تختلف بالمقابل تلك القرائن بين الإطار الذى يتميز بكون الخطورة خارج المسار وبغياب تأزم المرض وبين الإطار الذى يتميز بكون الخطورة خارج المسار وبتأزم المرض ؟ لاحظ أننا فى الحقيقة قد قمنا بعقد المقارنة فيما بين الأنواع أو الأصناف البعدية المحتملة ، أى أن القرائن التفاعلية والوقتية والجسمية والموضوعية لا بد أن تختلف حسب النوع والكثافة وما إلى ذلك فهذه الفوارق تسمح لنا بمقارنة تلك القرائن فى أطر متنوعة .

وفى دراسة النساء الحوامل ، لاحظنا أننا لم نقم فقط بتحليل «التقويم» بهذا الأسلوب ولكننا إضافة إلى ذلك استخدمنا ذلك الأسلوب لتحليل كل من : عوامل الخطورة ، والموازنة ، والضبط والتحكم ، والمخرجات . ولمساعدة الباحث على التحليل ، فإنه قام هنا بطرح الأسئلة التالية : كيف اختلفت عوامل الخطورة المرتبطة بالحمل والأمراض المزمنة حسب كل من هذه الأطر ؟ ما الخيارات التى قام النساء الحوامل بعمل الموازنات فيما بينها فى كل إطار ؟ وكيف أثرت رغبة النساء الحوامل فى إنجاب طفل سليم على ما قمن باتخاذه من قرارات ؟ وما الهيئة التى بدا عليها التعامل المشترك (بين الفريق الطبى والنساء الحوامل) فى كل إطار من خلال إستراتيجيات التحكم ؟ كيف اختلفت مخرجات الإستراتيجيات ؟ وبتحليل البيانات بطريقة منظمة من خلال هذا الأسلوب ، فإن تلك الأشياء التحليلية المحيرة التى تواجه عادة أى باحث تأخذ فى الانفتاح والتكشف مع بعضها البعض . **ومن هنا فإن البيانات قد تم الربط فيما بينها الآن ليس فقط على المستوى التحليلى الشامل ولكن أيضًا على مستوى الخواص والأبعاد التابعة لكل فئة من الفئات الرئيسية** . وعليه فقد تكونت لديك الآن أوليات أو بدائيات النظرية .

تجذير النظرية :

إن قيام الباحث بالتأكد من مصداقية نظريته من خلال البيانات يشكل العملية الختامية لتجذير النظرية . ويمكن للباحث أن يقوم بتنفيذ ذلك من خلال توضيح النظرية المدونة بالمذكرات إما بواسطة الرسوم البيانية أو من خلال أسلوب السرد القصصى . بعد ذلك ، يقوم بعملية تنمية وتطوير العبارات التى تربط بين الفئات فى أوضاع وأطر متنوعة ومن ثم التأكد من مصداقية ذلك من خلال البيانات . ومرة أخرى ، سنعطى أمثلة من دراسة النساء الحوامل لتوضيح هذه الإجراءات .

توضيح النظرية :

إذا أراد باحث ما أن يعرض نظرية «التحكم الوقائى» من خلال الأسلوب القصصى ، فستبدو تلك النظرية على النحو الآتى : (لاحظ أن معظم التفاصيل لن نقوم بذكرها هنا) .

التحكم الوقائى فى إطار الخطورة المنخفضة وكون الحمل والمرض على المسار :

تم تقويم الخطورة واعتبارها ذات مستوى منخفض ، كما اعتبر أن كلاً من الحمل والمرض يأخذان مسارهما نظراً لأن مسار كل من الحمل والخطورة ثابت . وتتضمن **القرائن الموضوعية والوقتية والتفاعلية والجسمية** التى دعت النساء الحوامل للقيام بعملية التقويم هذه الآتى : أعراض جسمية مرضية خفيفة وقليلة ، نتائج الفحوصات الطبية تقع ضمن الحدود العادية . ونمو الجنين ودقات قلبه طبيعية ، كما أن الجنين يقوم بالتحرك ، هنا شعر النساء أنهن على درجة لا بأس بها من الصحة ، كما اعتقدن أن ما يعانينه من مرض قد تم التحكم فيه وضبطه . معظم النساء الحوامل لا يزلن فى الفترة الأولى من الحمل . وكنتيجة لعملية التقويم هذه فقد انتهت النسوة إلى أن **المشكلة** التى يعانينها هى المحافظة والاستمرار فى احتواء الخطورة والإبقاء على المرض والحمل فى مسارهما .

أما فيما يتعلق **بالموازنة** ، فقد اعتقد النساء الحوامل أن **لديهن خيارات** فيما يتعلق

بالعلاج والتداوى . فبعضهن قمن بالتوقف والامتناع عن تعاطى أدوية قد يعرضن للخطورة من جراء تناولها ، بينما عمدت الأخريات إلى تخفيف كمية الجرعة المطلوبة . أما أنماط العلاج الأخرى المتصلة بالراحة والنظام الغذائى فقد تعاملن معها بشىء من المرونة . وعليه فقد فعل النساء ما اعتبرنه ضرورياً وذلك بحدود استطاعتهن وبحدود ما سمح بأدائه قيامهن بوظائفهن العائلية .

أما فيما يتصل بالتعامل المشترك فى هذا الصدد فمن الممكن أن يوصف على أنه الضبط الإضافى المتمثل فى المسئولية المشتركة بين النساء الحوامل والفريق الطبى المشرف على علاجهن . وقد اعتبرت النساء الحوامل أن دور الفريق الطبى يتمثل فى **التأييد والدعم المساعد** . فاستقرار الحالة الصحية للنساء الحوامل وكذلك ثقتهن فى قدرتهن على التعامل مع الحمل والأمراض المزمنة المصاحبة له يعتبر من بين أهم الأوضاع المعترضة التى أدت إلى فعالية ذلك النوع من التعامل والتحكم . أما إستراتيجيات التحكم الخاصة بالفريق الطبى فيمكن وصفها بأنها **ملاحظة الحالة الصحية للمرأة الحامل ولجنينها** . وغالباً ما تتم ملاحظة الفريق الصحى تلك **بشىء من القيود** نظراً لانشغال الأطباء طيلة الوقت ، ولأن هذه الأوضاع من الحمل - ذات الخطورة المنخفضة - لا تتطلب الكثير من وقت وطاقة الفريق الطبى . أما إستراتيجيات الضبط الخاصة بالنساء الحوامل فيمكن وصفها بأنها **عملية استثمار للخروج من الحمل بسلام والنجاح فى إنجاب طفل سليم** . وقد تم تنفيذ هذا النوع من الضبط من خلال العديد من التكتيكات كالتزام الحوامل الصارم بالنظام الغذائى الطبى بصورة أكبر مما كان الوضع عليه قبل الحمل . ونظراً لأن العديد من النسوة الحوامل يتعاطين العلاج منذ زمن لما يعانينه من أمراض ، فقد كن على درجة عالية من الحذر وذلك لتجنب تناول أى من المواد التى تسبب بعض التشوهات الخلقية والحمل كالقهوة وبعض المشروبات على سبيل المثال ، كما توقفن عن أخذ الأدوية المسكنة كالأسبرين مثلاً وآثرن الصبر على الصداع بدلاً من تعاطى الأسبرين ، كما قمن بتحسين ورفع جودة ما يتناولنه من أطعمة كالإكثار من أكل الخضر وزيادة البروتين فى الطعام . ومن الطبيعى أن يتطلب عمل كل ذلك بعضاً من التكيف فى المنزل ، ولكن النساء الحوامل قد وجدن من أفراد عوائلهن الكثير من التأييد والدعم والمساعدة ، كما أصبح النساء

على درجة عالية من المراقبة والملاحظة إذ يقمن غالبًا بمناقشة أطبائهن فى تخفيف الجرعات الدوائية ، وعن الراحة لفترات أطول ونحو ذلك إذا كان الطبيب يرى أهمية ذلك . أما إستراتيجية التحكم لدى الزوج بهذا الصدد فيمكن أن توصف بأنها **ملاحظة ومراقبة استثماراته** . وتتضمن التكتيكات التى يستخدمها الأزواج فى سبيل ذلك كتذكير الزوجة بالاستمرار فى النظام الطبى الغذائى المطلوب منها ، وامتداحهن على ما يقمن به من جهود ، واشتراك الأزواج فى جمع معلومات عن الحاجات الخاصة المصاحبة للحمل .

وقد تعرض النساء الحوامل لقليل من الخوف النفسى لديهن نتيجة **الاهتمامات المتلاحقة** حول النتائج ما دمن قد استمررن فى هذا الإطار المتميز بانخفاض مستوى الخطورة ويكون كل من الحمل والخطورة على المسار . وقد قمن بحضور الحلقات التدريبية الخاصة بالنساء الحوامل التى تعقد قبل الولادة ، كما قمن باختيار أسماء لأطفالهن وبتصور هيئة الطفل وشراء ملابس أو أشياء منزلية له . وحتى يتمكنَّ من تخفيف ما قد يطرأ عليهن من خوف متوقع فقد عمدن إلى القيام بالتخيل والتفكير الإيجابى .

وهناك أحيان من الوقت مرت **اختلف فيها تصور مستوى الخطورة** بين النساء الحوامل والفريق الطبى المشرف عليهن ، المتمثل فى تقويم النساء الحوامل للخطورة بكونها ذات مستوى أكثر أو أقل ارتفاعًا مما يتوقعه أعضاء الفريق الطبى فى هذا الصدد . وعندما يحدث هذا فإن كل طرف يقوم باستخدام إستراتيجيات لمحاولة إقناع الطرف الآخر . وأحيانًا ما ينجح هؤلاء فى ذلك ، ولكن أحيانًا أخرى لا ينجحون فى محاولاتهم (وذلك لأسباب معينة) . ومع هذا فإن رؤية الأطراف ذات العلاقة وتصورها لمدى خطورة المرض هى التى توجه أفعالهم سواء كان الطرف الآخر موافقًا أم لا .

وعندما تكون محاولات الضبط ناجحة ، فإن الخطورة تكون ـ أيضًا ـ محتواة ، كما يكون الحمل والمرض محافظًا عليه فى المسار . ويتمثل مردوده فيما قامت النساء الحوامل به من محاولات فى كل من احتواء الخطورة والنجاح فى ولادة طفل سليم وإنقاذ حياتهن بأنفسهن . كما أن الولادة كانت طبيعية وفق ما تمنينه ، كما أبدين

رغبتهن فى اغتنام الفرصة لإنجاب طفل آخر . وبعد الولادة مباشرة وخلال الأسابيع الستة اللاحقة ، أظهرت النساء ارتباطًا قويًا بأطفالهن .

هذا الإطار المتميز بانخفاض مستوى الخطورة وكون الحمل والخطورة على المسار يمثل شيئًا مختلفًا عن ذلك الإطار الذى سيناقش أدناه ليتبين ويتضح لنا بصورة تحليلية ما بينهما من فوارق .

إطار الخطورة غير الشديدة المتميز بكون الحمل والمرض خارج المسار :

تم تقويم الخطورة واعتبارها ذات مستوى عال ، كما أن كلاً من الحمل والمرض خارجان عن المسار ؛ وذلك لأن شيئًا ما حول المرض أو الحمل قد جرى بشكل خاطئ ، كما أن كلاً من الحمل والمرض لم يعد على حالة ثابتة . فالتعقيدات الطبية أو الولادية تشكل خطرًا على المخرجات (الجنين) ، ولكنها لم تصل إلى مستوى أو درجة الخطورة البالغة . وتتضمن القرائن التى آلت بالنساء الحوامل إلى هذا النوع من **التقويم** كلاً من : زيادة الأعراض الطبية كصعوبة التنفس وزيادة التعب إلى درجة أن الأنشطة العادية أصبح القيام بها يتم بصعوبة بالغة . أما القرائن الأخرى فتتضمن نمو وتطور تعقيدات الولادة كالطلق المبكر ونزيف الدم ونحو ذلك . أو أن المرأة الحامل قد تم إحاطتها بأن نمو جنينها ليس طبيعيًا ، حيث إن حجمه صغير مقارنة بعمره ، أو عندما وصل الحمل إلى الأسبوع السابع والثلاثين وقام الفريق الطبى بزيادة وتكثيف محاولات المراقبة بما فيها استخدام فحوص إضافية . ومع هذا ، فلا يزال هناك بعض المؤشرات الإيجابية التى تطمئن النساء الحوامل فى هذا الوضع ، على أنه لا يزال لديهن الفرصة فى ولادة طفل سليم . وذلك من مثل نبرات القلب القوية لدى الجنين ، وكذلك وجود قدر طبيعى من تحركاته . وتتمثل **المشكلة** كما يرينها الآن فى التحكم فى وضع المرض / الحمل وإعادة الحمل إلى أن يكون على المسار حتى يتم تحقيق احتواء الخطورة .

وقد ظهرت النساء وهن على درجة عالية من التحفز المترتبة على رغبتهن فى إنجاب طفل سليم . أما **الموازنة** فقد كانت إلى هذا الحد على درجة عالية من التعقيد لأنه لم يكن لدى النساء فى هذا الإطار إلا خيارات علاجية قليلة للاختيار والموازنة فيما بينها . وقد آل بهن هذا الوضع إلى قيامهن **بالمقايضة** والاختيار من بين أشياء مختلفة . وفى

بعض الأحيان ، فإن المحافظة على الحمل يعنى تعاطى علاج وأدوية ذات آثار جانبية عالية ، ولذا فإن الخيارات هنا لا تعدو أكثر من اختيار العلاج ذى الآثار الجانبية المنخفضة . كما أن ضرورة دخول المستشفى والمكوث فيه للعلاج غالبًا يعنى لهن أن ذلك يعرض وظائفهن المهنية للخطر وكذلك متابعة أبنائهن فى المدارس . وهنا أيضًا ، فإن النساء اضطررن لعمل خيارات بين ما فيه الصلاح والسعادة للطفل المتوقع وبين تلك الأمور المتعلقة بالعمل والعائلة . وعلى الرغم من أن الجنين يحظى بالأولوية فى الاعتبار ، فإن وضعه فى مقدمة الأولويات أمر صعب فى الغالب .

وفى ضوء هذه الظروف ، تمت تسمية التعامل والتحكم المشترك بمصطلح « **الضبط المفوض**» . فتدهور أو عدم استقرار الحمل والمرض وكذلك ثقة النساء الحوامل فى هذا الإطار فى قدرة الفريق الطبى على احتواء الخطورة شكلت الظروف المعترضة التى أتاحت هذا النوع من الضبط . وقد تمثلت استجابة الفريق الصحى للضبط المفوض فى **زيادة مساعيهم للضبط** من خلال عدد من التكتيكات المتمثلة فى تكرار وزيادة مرات ملاحظة الأطباء للنساء الحوامل ، ومناقشة الأطباء لوضعهن مع أطباء آخرين ، وزيادة الفحوصات الطبية والجنينية ، وتغير أساليب العلاج وتنويم النساء فى المستشفى وذلك ليتمكنوا من إحراز مزيد من الضبط والتحكم فى التعامل مع خطورة الحمل والمرض لدى أولئك النساء . وقد تمت تسمية إستراتيجيات الضبط لدى النساء حتى هذا الوقت بـ «**أخذ الإجراءات الضرورية**» . وقد قمن بزيادة مراقبتهن للأغراض ، وإخطار أطبائهن بأى تغيرات يلاحظنها ، كما قمن بتغيير أنشطتهن بما تستدعيه الضرورة ، حتى ولو كان ذلك يعنى تنويمًا مؤقتًا أو الانتقال للإقامة مع بعض أفراد العائلة الذين يمكنهم تزويدهم بالرعاية اللازمة . كما قمن أيضًا بالالتزام الصارم بالنظام الغذائى الطبى . أما الوضع المنزلى فقد وضع العديد من القيود على محاولات التعامل والتحكم لديهن . فإذا لم تستطع المرأة الحامل توفير من يعتنى بأطفالها الآخرين ، فإنها والحالة كذلك لا تنام فى المستشفى وعليها عندئذ أن تقوم بكل ما فى وسعها فى منزلها . ومن وجهة النظر الطبية ، فإن تنويم النساء الحوامل فى المستشفى ينظر إليه كأمر مرغوب ، ولكن التنويم فى ضوء هذه الأوضاع يشكل عائقًا للحياة العائلية ، ولاستمرار الاتصال بين النساء الحوامل والمستشفى الذى يتلقين فيه العلاج ، فقد ركنت السيدات الحوامل إلى استخدام الهاتف لمتابعة وضعهن مع الفريق الطبى ذى العلاقة .

وفى ثلاث حالات ، شعرت النساء أن ما يتناولنه من علاج فى المستشفى قد أدى فى الواقع إلى زيادة الخطورة على الطفل وعليهن كذلك . وعندما لم تؤد مناقشتهن مع أطبائهن إلى تغيير العلاج فقد لجأن إلى اتخاذ إستراتيجية «**استعادة الضبط المفوض**» ، وذلك من خلال ترك المستشفى للحفاظ على أطفالهن وعلى أنفسهن .

أما محاولات التعامل والتحكم الخاصة بالأزواج فى هذا الإطار المحدد ، فقد أطلق عليها مسمى «**مزود العناية المؤقتة**» . فلم يقم هؤلاء فقط بتقديم مزيد من الدعم لزوجاتهم الحوامل ولكنهم قاموا أيضًا بأداء المهام المنزلية التى هى من اختصاص النساء . أما عن **الاهتمامات المتتابعة** لدى النساء فقد بدت فى هذا الإطار أنها آخذة فى الازدياد . وقد أدى تخوفهن من عدم تمكنهن من إنجاب طفل سليم إلى اتخاذ إستراتيجية **وقائية** وذلك بتأجيل الاستعدادات اللازمة إلى ما بعد الولادة – مثل شراء ملابس للطفل ونحو ذلك – حتى يتم احتواء الخطورة .

وعندما نجحت محاولات التعامل والتحكم ، فإن الحمل والمرض قد تم إعادتهما فى المسار ، كما تم احتواء الخطورة ، الأمر الذى مكن النساء الحوامل من بلوغ **المخرجات** المرغوبة لديهن . وقد نُظِرَ إلى ميلاد طفل سليم **كمسكن سحرى** . وقد تمت الولادة لدى بعض النساء بشكل طبيعى والبعض الآخر عن طريق العمليات القيصرية . ومن بين الأطفال المواليد كان هناك طفلان صغيرا الحجم على غير المعتاد . وقد ترك بعض النساء خيارات الحمل المستقبلية مفتوحة أمامهن فى حين أغلق البعض الآخر أية خيارات مستقبلية للحمل نظراً للارتفاع الشديد فى مستويات الخطورة . وعلى الرغم من أن بعض النساء قمن بتأجيل أى استعدادات عاطفية أو حسية خلال الحمل للطفل المتوقع ، فإنهن جميعًا قد أظهرن روابط ومشاعر إيجابية نحو أطفالهن الجدد بعد الولادة .

صياغة العبارات المنطوية على علاقات والتأكد من مصداقيتها :

من خلال المظاهر المختلفة **للنظرية** كما **تم توضيحها حتى الآن فى شكل مفكرة** ما بأسلوب الرسم البيانى أو بأسلوب السرد القصصى ، فإن المحلل بهذا يكون **جاهزًا**

لصياغة عبارات تنطوى على علاقات ، وكذلك للتأكد من مصداقية تلك العبارات من خلال البيانات . ويفترض أن تشير هذه العبارات إلى علاقات بين كل واحدة من الفئات الموضحة أعلاه وحسب اختلاف كل منها حسب الإطار . ومن الممكن مقارنة تلك العلاقات من خلال البيانات وذلك للتأكد من مصداقية تلك العبارات ولتدعيم وجود الفوارق بين الأطر على المستوى البعدى .

وعلى سبيل المثال ، يستطيع الباحث صياغة العبارات الآتية : **عندما توجد** القرائن التفاعلية والموضوعية والوقتية والجسمية ، فإن النساء سيقوّمن حملهن بأنه مستوى منخفض من الخطورة وفى المسار . **وفى الظروف** التى تعتبر المرأة أن حملها ذو مستوى منخفض من الخطورة وفى المسار ، وإذا كانت متحفزة وراغبة فى إنجاب طفل سليم ، **فإنها عندئذ** ستستخدم ذلك النوع من التعامل والتحكم المشترك الموصوف بـ «التعامل والتحكم الإضافى» . **وإذا** كان التعامل والتحكم الإضافى ناجحًا ، وكانت الخطورة محتواة ، فإن النساء **عندئذ** سينجحن فى إنجاب طفل سليم .

كما يستطيع الباحث أيضًا أن يقوم بصياغة عبارات ، مثل : **عندما** تلاحظ النساء أن حملهن ذو مستوى منخفض من الخطورة وفى المسار ، فإنهن **عندئذ** سيقمن بعمل الاستعدادات اللازمة لولادة الطفل . أو **عندما** تلاحظ النساء الحوامل أن حملهن خارج المسار ولكنه ليس على درجة من الخطورة ، فإنهن **عندئذ** سيقمن بتأجيل عمل الاستعدادات اللازمة لولادة الطفل كتأمين الملابس والسرير اللازمين له ، وهكذا حتى يتم احتواء الخطورة .

ومثل هذه العبارات يتم تقسيمها عندئذ وفحصها بالنسبة لكل حالة من حالات الحمل وذلك للتأكد من مقارنتها ومطابقتها للبيانات . **ومرة أخرى ، فإن الباحث هنا يقوم بملاحظة ما إذا كانت تلك العبارات تطابق البيانات بشكل عام أو معظم البيانات وليس بالضرورة أن تطابق تمامًا كل حالة من الحالات بمفردها** . ومن الممكن الاستمرار فى تعديل وتغيير صياغة العبارات حتى تطابق البيانات على وجه العموم .

ماذا عن الحالة التى لا تطابق أو تقارب النظرية ؟

أحيانًا يصادف الباحث حالة نموذجية تطابق الحالة النظرية على وجه التمام . ومع هذا فإنه لا يوجد غالبًا مطابقة تامة . فالباحث يحاول وضع الحالات فى الإطار الأكثر مناسبة باستخدامه معيار المطابقة **الأفضل** (Perfect Fit) وليس المطابقة الكلية أو التامة . ولكنه لا يحاول الحصول على المطابقة بطريقة تعسفية جبرية . إذ يوجد هناك من الحالات ما يبدو أنها لا تنتمى لأى اتجاه ما ، وهناك أسباب لذلك ، منها :

بعض الحالات تمثل **وضعًا** انتقاليًا بوجود أو بظهور بعض التغير فى الأوضاع الأساسية المؤدية إلى الظاهرة المحورية . وهذا التغير فى الأوضاع يقود بالمقابل إلى التغير فى الخواص عبر الأبعاد الخاصة بها وكذلك فى الإطار المؤدى للفعل . وعندما تكون الحالات فى وضع تغير أو وضع انتقالى فإنهن والحالة كذلك يبدين مظاهر أو خصائص تنتمى لإطارين مختلفين ، فهما يقعان فى مكان متوسط من الإطارين بحيث لا تطابق تلك الحالات أيًا من الإطارين . ومن الطرق المستخدمة لأخذ تلك الفروق فى الاعتبار ما يتمثل فى إدخال مسألة العملية فى النظرية (وستتم مناقشة هذه النقطة فى الفصل العاشر) .

ومن الأسباب المؤدية إلى عدم مطابقة حالة غير محددة ، ما يعود إلى أن **الأوضاع المعترضة** غالبًا ما تكون ماثلة وموجودة . فعلى سبيل المثال من الممكن أن تشعر امرأة حامل أن جلوسها فى الفراش لمدة تسعة أشهر يمثل شيئًا أكثر مما يمكنها القيام به فى سبيل إنجاب طفل سليم . وربما تختار نوعًا من التحكم قد يكون أقل محافظة ووقاية لجنينها ، إلا أنه أكثر صيانة ومحافظة لاهتماماتها الأخرى . إن هذا لا يشكل بالضرورة نفيًا أو دحضًا لنظرية «التحكم الوقائى» ولا للعبارات الخاصة بالعلاقات بين الفئات ذات العلاقة ، وإنما يشير ذلك التعبير فحسب ، إن على المحلل والوضع كذلك ، **العودة مرة أخرى للميدان لتحديد الأوضاع المسئولة عن هذا الاختلاف المحدد** . وبعد التمكن من تحديدها يصبح من الممكن إلحاقها ودمجها بالنظرية .

وعلى سبيل المثال ، عند النظر فى المثال الموضح أعلاه والمتعلق بـ «إطار الخطورة المنخفض حيث يكون كل من الحمل والمرض فى المسار» . لاحظ أن هناك فئة مسماة بـ «**عندما تختلف وجهات النظر**» . ففى إطار الخطورة المرتفعة وكون الحمل والمرض

«خارج المسار» توجد فئة أخرى تسمى بـ «**استعادة الضبط**» . وقد تم وضع هاتين الفئتين فى النظرية لتفسير التباين والاختلاف فى التعامل والتحكم المشترك . ففى إطار الخطورة المنخفضة وحيث يكون الحمل والمرض فى المسار وعندما يعتبر النساء الحوامل أن مستويات الخطورة لديهن أقل مما يراه الفريق الطبى ، فإنهن عندئذ لا يقمن بالتقيد بالنظام الغذائى الطبى المحدد لهن . وعوضًا عن ذلك ، فقد قررن بمفردهن ما يجب وما لا يجب عمله بعيداً عن توصيات أطبائهن بهذا الصدد . أما فى إطار الخطورة العالية وحيث يكون الحمل والمرض خارج المسار ، فقد عمدت النساء الحوامل إلى استخدام نوع من التعامل والتحكم المشترك ـ الضبط المفوض ـ الذى يعنى أنهن قد قمن بترك جزء كبير من ذلك التعامل والتحكم المشترك للفريق الطبى الذى يشرف على علاجهن وذلك من خلال موافقتهن على التنويم فى المستشفى كنوع من العلاج . ومع هذا ، وعندما يعتقدن أن ما يتلقينه من علاج ذو أضرار بالغة على حملهن أو على أنفسهن ، فإنهن عندئذ يقمن باستعادة الضبط وذلك عادة من خلال ترك المستشفى البتة .

وهناك نقطة أخرى تتمثل فى أن تلك **الحالات الفردية التى لم تطابق النظرية ، لا بد من توزيعها إلى مجموعات خاصة بها** . ويمثل هذا شيئًا مهمًا فى الواقع خصوصًا عند ما يتم عمله تسلسلياً أو عبر الزمن . وكذلك حتى عندما يكون ذلك متغيراً أو موزعًا فيما بين مقابلات أو ملاحظات متعددة . وكمثال من دراسة الحمل فإنه ، نظراً لأن مستويات الخطورة أحيانًا تتغير تغيراً كبيراً حتى ولو خلال فترة قصيرة (بضعة أيام) وذلك كانعكاس لتغيرات فى وضع الحمل والمرض ، فإن مقابلةً ما ربما تحتوى على بيانات ذات صلة بإطارين أو أكثر من ذلك . أو فى لحظة ما ، من المتوقع أن تقوم إحدى الحوامل بالحديث عن الضبط المفوض بينما فى فترة لاحقة أخذت فى الربط بين ذلك وبين كيفية استعادتها للضبط ، فهى تقوم بالقفز مرة بالتحدث عن التحكم المفوض ومرة بالتحدث عن استعادة التحكم . وعلى المحلل – والحالة كذلك – أن يقوم بتنظيم هذه المجموعات الخاصة ، كما أن عليه الامتناع عن التعامل مع أى من هذه الحالات أو المقابلات كوحدة مستقلة ، وتذكر أننا نقوم بتحليل الحوادث والأحداث والتغيرات وليس كحالات خاصة .

تعبئة أو سد الفجوات فى الفئات :

إن الخطوة التالية لرضاء الباحث عن دقة إطاره النظرى واحتوائه وأخذه فى الاعتبار للعمليات والأوضاع المختلفة ، **تتمثل فى قيامه بعد ذلك بالعودة إلى الفئات وإضافة أية تفاصيل مفقودة** . وهذه الخطوة ضرورية لأنها تمنح النظرية عمقًا *تصوريًا* وتزيد من *دقتها التصورية* ، وغالبًا ما تستمر عملية سد الفجوات هذه حتى خلال مرحلة كتابة التقرير النهائى الخاص بنشر الدراسة ، وذلك لأن إعداد التقرير ذاته يكشف عن وجود فجوات قليلة فى الصياغة النظرية . (ولمزيد من الشرح المفصل لهذه النقطة راجع الفصل الثالث عشر) .

افترض - على سبيل المثال - فى دراسة الحمل أن الباحث بعد تصنيف البيانات فى أنماط محددة من أطر الخطورة وجد أن الخواص والأبعاد المتعلقة بإطار الخطورة المنخفضة - حيث يكون كل من الحمل والمرض فى المسار- قد تم تطويرهما بدرجة عالية . وبوضع تلك الحالة فى الاعتبار ، فإن الباحث يستطيع العودة إلى الميدان والقيام بجمع بيانات معينة لسد الثغرات فى الصياغة النظرية ومن الممكن القيام بعملية سد الفجوات هذه مع أية فئة لم يتم تطويرها بدرجة عالية .

إلى هذه النقطة نكون قد أنهينا مناقشتنا للترميز الانتقائى . ومع هذا فلا بد أن نذكر القارئ مرة أخرى أن الإجراءات الخمسة التى تم تنظيم هذا الفصل من خلالها لا يفترض استخدامها بهذا التنظيم التسلسلى . إذ يمكن تقديم أحدها أو تأخيره على البقية . وإن ما دعانا إلى الكتابة عن تلك الإجراءات وفقًا للتنظيم المتبع ، إنما هو الرغبة فى تيسير فهم تلك الإجراءات التحليلية لدى القارئ بشكل أوضح . وعندما يصبح الباحث متمرسًا فى استخدام تلك الإجراءات ، فإنه سيلاحظ كيف يمكن التحرك إلى الأمام أو الرجوع إلى الخلف فيما بين تلك الإجراءات .

الملخص :

إن الربط بين جميع ما قام به الباحث من أعمال تفسيرية خلال مشروعه البحثى ربما يشكل أصعب مهمة تواجه الباحث ، والأمر كذلك حتى بالنسبة للباحثين المتمرسين ، إذ من المتوقع أن يقوموا ببذل شيء من الجهد لتحقيق ذلك ، وإجراءات النظرية المجذرة تيسر من عملية الربط . وقد قمنا فى هذا الفصل باستعراض كل من الوظائف المترتبة على عرض القصة بوضوح ، وتطوير مجرى واضح للقصة ، ومن ثم ترجمة ذلك إلى قصة تحليلية . ويتمثل محور هذه الإجراءات فى اختيار الفئة المحورية وربطها بالفئات الرئيسية ، وكذلك الربط بين تلك الفئات الرئيسية ذاتها ، كما قمنا بتوضيح كيفية القيام بذلك من خلال عرض مفصل لدراسة حالة ما .

الفصل التاسع
العملية

تحديد المصطلحات :

العملية (Process) : الربط فيما بين نتائج الفعل والتفاعل .

الطارئ (Contingency) : أية حادثة غير متوقعة أو غير مخطط لها تؤدى إلى تغير فى الأوضاع .

إن أخذ العملية فى الاعتبار عند التحليل يشكل جزءًا مهمًا فى أية دراسة فى النظرية المجذرة . ويعنى مفهوم «العملية» الربط بين نتائج الفعل والتفاعل المتصلة إما بالتعامل والتحكم فى ظاهرة ما أو ضبطها أو ردة الفعل عليها . **ويتم تحقيق الربط بين تلك النتائج من خلال ملاحظة** : (أ) التغير فى الأوضاع الذى يؤثر فى الفعل والتفاعل عبر الزمن (ب) الانعكاس أو الاستجابة التفاعلية والفعلية لذلك التغير (ج) النتائج التى تترتب على تلك الاستجابة الفعلية والتفاعلية (د) وأخيرًا ، توضيح كيف أن هذه النتائج تصبح جزءًا من الأوضاع المؤثرة فى نتائج الفعل والتفاعل اللاحقة . ومن الممكن أن ينتج التغير إما عن أفعال وتفاعلات مخطط لها ، أو ربما يبدو التغير كنتيجة لطارئ ما ، أى حادثة غير متوقعة أو غير مخطط لها تؤدى إلى تغير الأوضاع .

وتعتبر «العملية» مصطلحًا غامضًا ليس من السهولة تفسيره . فليس من الضرورة أن تكون العملية مشارًا إليها أو مصورة كذلك فى البيانات ، كما أن اكتشاف العملية لا يتطلب مجموعة محددة من الإجراءات كتلك التى تمت مناقشتها فى الفصول من الخامس حتى الثامن . ومع هذا ، فالعملية موجودة ومحتواة فى البيانات بوضوح كجزء لا يتجزأ من أى واقع (إمبريقى) . فأى باحث يعلم بوجود العملية ويشعر بحضورها كأفعال وتفاعلات متغيرة حتى ولو لم يستطع رؤيتها .

وعلى الرغم من أن مفهوم العملية فكرة صعبة على فهم المحلل المبتدئ ، فإن العملية تمثل فكرة على قدر عال من القوة التحليلية . ويعود ذلك إلى أنها تعبر عن الأحداث المشار إليها من خلال مصطلح «العملية» - process - التى تفسر السبب وراء كل من فشل أنماط الفعل والتفاعل المعتادة ، وظهور المشكلات خلال مسار الحوادث الحياتية ، كما أن العملية توضح - عندما ينظر أحدنا إلى الوراء - ما يلاحظ من النمو والتطور والحراك أو خلاف ذلك من الجمود ، والتأخر والتخلف . (ويمثل الأخير فشلاً فى الاستجابة للتغير فى الوضع الذى يشكل فهمه هو الآخر أهمية خاصة ، كما هو الحال بالنسبة للاستجابة أو ردة الفعل المؤثرة) .

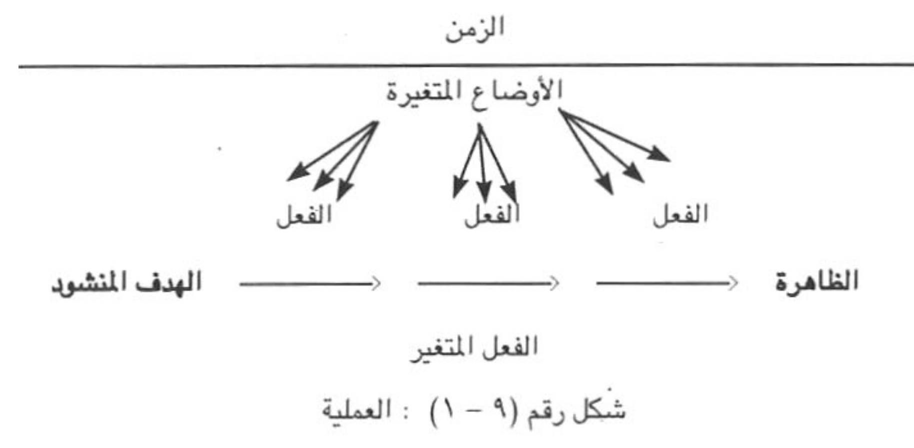
العملية فى النظرية المجذرة :

تعتبر النظرية المجذرة الناشئة من جراء شمول التحليل للعملية نظرية متحركة (ديناميكية) . فالعملية من الطرق التى تضفى الحيوية على البيانات من خلال أخذ أجزاء من الفعل والتفاعل وربطها ليتشكل عن ذلك الربط نتائج متعاقبة انظر (الشكل رقم ٩-١) .

ولنتمكن من استخدام العملية بصورة تحليلية ، فإن على الباحث أن يظهر الطبيعة الناشئة للحوادث من خلال ملاحظة الأسباب الكامنة وراء الأفعال والتفاعلات سواء كانت فى هيئة حوادث أو أفعال أو أحداث ، هل تتغير أو تبقى كما هى ، أو تتراجع ؟ وكيفية حدوث ذلك ؟ وكذلك ملاحظة الأسباب فى تتابع الأحداث والأسباب المؤدية إلى استمرارية خط الفعل والتفاعل على الرغم من الأوضاع المتغيرة والنتائج المترتبة على ذلك .

والسؤال الذى ربما يطرح نفسه عند قراءة ما سنذكره لاحقًا يتمثل فيما يلى : إذا قام أحد بتحليل فى النظرية المجذرة وفقًا للإجراءات الموضحة فى الفصول السابقة من تعقب للأوضاع والأفعال والنتائج ونحو ذلك -أليس من المفروض أن العملية ستبدو وتنبثق بشكل طبيعى ؟ والإجابة عن هذا السؤال تتمثل فى الآتى : من المفروض أن يحصل ذلك ! . ولكن العملية غالبًا ما يتم إهمالها أو التعامل معها بأسلوب محدود أو ضيق إلا إذا كان المحلل واعيًا بالحاجة إلى تحديد العملية وإدراجها ضمن تحليله .

فالمحللون ربما يتحدثون عن خطوات أو مراحل تبدو فى الظواهر ، بدون الأخذ فى الاعتبار أو تفسير الاختلاف فى معدل الحركة ، أو كيف أن التغير إلى أعلى ربما يأخذ الاتجاه المعاكس ، وكيف يمكن تفسيره ومعرفة النتائج المترتبة على ذلك .



شكل رقم (٩ - ١) : العملية

ولفهم ما نقصده من وراء مفهوم العملية إضافة إلى الأسلوب المعتاد للتعامل مع هذا المفهوم فى الدراسات ، دعنا نضع فى الاعتبار الأمثلة التالية :

القصة الأولى :

فى ظهر ذات يوم لم تكن فيه مشغولاً ، قررت متابعة قراءتك فى الدوريات . وفى هذه الأثناء صادفتك مقالة استحوذت على اهتمامك . يدور موضوع البحث فى تلك المقالة حول أنماط الإدارة . وتذكر المقالة أن هناك ثلاثة أنماط رئيسية من المديرين : المدير المؤثر ، والمدير المستقل ، والمدير المتحكم . كما تفصل الحديث حول الأوضاع التى من المتوقع أن تجد فيها كل نوع من الأنواع الثلاثة ، وتعطى وصفًا دقيقًا لإستراتيجيات التفاعل التى يستخدمها المديرون . كما تحصر بعض النتائج المترتبة لكل نمط من الإدارة على وضع العمل . وتستمر المقالة لتبين أن أنماط الإدارة ليست أنماطًا ثابتة . فغالبًا ما يقوم الناس بتغيير الأنماط واختيار النمط الأكثر مناسبة فى وقت ما .

التحليل : هذه المقالة تلمح إلى مفهوم العملية . فهى تحيطنا علمًا بأن المديرين يقومون بتغيير أنماطهم الإدارية ، إلا أنها تخفق فى مواصلة مناقشة المفهوم ، وذلك لأنها لا تفيدنا شيئًا بما يحدث عندما يتغير المدير المتحكم إلى مدير مؤثر أو ما الذى دعا المدير المؤثر ليصبح مديراً مستقلاً ؟ أو كيف يستطيع المدير المتحكم الاستمرار فى هذا النمط من الإدارة على الرغم من تغير أوضاع العمل . فعلى سبيل المثال ، عندما يقابل المدير المتحكم شخصًا ما ليس من الممكن التحكم فيه والسيطرة عليه إلا أن المدير فى حاجة ماسة إلى ذلك الشخص لأنه الشخص الوحيد فى العمل الذى يمتلك المهارات الضرورية لتحقيق وظيفة مهمة . وعليه فإن المدير لا يستطيع طرده من العمل والاستغناء عن خدماته ، وماذا بوسع المدير المتحكم أن يعمل فى ضوء هذه الأوضاع ؟ .

القصة الثانية :

فى هذه القصة تبدو وقد قابلت تقريراً آخر استحوذ على انتباهك . يحمل هذا التقرير عنوان «الارتقاء فى السلم الإدارى أو الانتقال إلى سلم أعلى فى التنظيم الإدارى» . ويفصل هذا التقرير الحديث الخطوات التى يتجاوزها المدير عند انتقاله من المستويات الإدارية المنخفضة إلى المستويات الإدارية المرتفعة داخل المنظمة . وكذلك توضيح كل من تلك الأوضاع الشخصية والتنظيمية التى أدت إلى ذلك التحرك والإستراتيجيات المستخدمة فيه وبعض النتائج المترتبة على ذلك .

التحليل : هذه المقالة أكثر تطوراً من المقالة التى سبق مناقشتها وذلك من خلال إحضارها للعملية فى الصورة التى تعرضها المقالة عن التحرك الإدارى والارتقاء فى سلم الإدارة . إذ تبين المقالة بدرجة واضحة عملية التحرك والتقدم كما تفسر العوامل التى أدت إلى ذلك ، إلا أنك تطرح السؤال التالى : ما الشىء المفقود هنا ؟ لتجيب بما يلى : إن استخدام العملية فى هذا التحليل لم يتم بشكل متكامل لأن المقالة قد أخفقت فى الأخذ فى الاعتبار بالتباين . إنها تتضمن - بدون أن تقصد ذلك - وجود انتظام للخطوات أو ثوابت كونية خاصة بالأوضاع ، الأمر الذى يدعو إلى تثبيت (بناء) ما كان يفترض أنه عملية . أو أن المقالة تتيح نمطًا للتقدم النموذجى بدون إيضاح كيفية تغير ذلك التقدم النموذجى حسب الإطار . فعلى سبيل المثال ، من الممكن أن يطرح شخص

سؤالاً ذا صلة بالقصة الثانية على النحو الآتى : هل ينتقل كل شخص إلى أعلى خلال تلك الخطوات بنفس السرعة ؟ هل يتم ذلك بشكل أقل سرعة بالنسبة للبعض ، أو بشكل أكثر سرعة بالنسبة للبعض الآخر ؟ ولماذا ؟ هل كل من يبتدئ عمله فى أول السلم الإدارى يتمكن من التحرك إلى أعلى السلم . وإذا كان الأمر خلاف ذلك فلماذا ؟ وفى أى درجة أو سلم يتوقفون أو ينحدرون أو يتراجعون ، ولماذا ؟ وما العوامل الحاسمة المؤدية إلى ذلك ؟ ومتى يمكن إعاقة أو إيقاف أو صد تطورها ؟ وكيف يؤثر تغير الإطار حسب المكان والزمان فى معدل ودرجة التطور ؟

القصة الثالثة :

فى هذه القصة تصادف مقالة ثالثة تدور حول العمل فى المنظمات ، وتقسيم العمل الخاص فى المنظمات . ونظراً لأنك تقوم بدراسة العمل ، فإنك تستمر فى قراءاتك . وقد أخذت المقالة فى تفسير الأنماط الكثيرة من العمل التى لا بد من القيام بها فى المنظمة محور الدراسة ، كما أخذت فى تفصيل الحديث حول أولئك المنوط بهم القيام بتلك الأعمال ، وتفسر كيفية قيام الأشخاص ذوى العلاقة بتنفيذ ما هو منوط بهم من أعمال والنتائج المترتبة على ذلك .

التحليل : تعرض هذه القصة صورة للعمل فى المنظمات أكثر ثباتًا وأقل (ديناميكية) من سابقتها ، ألا تعتقد ذلك ؟ ولبعث الحيوية فى تلك القصة وإحضار العملية فى هذه الصورة ، ماذا على الباحث أن يعرفه هنا ؟ هل الخطوط الفاصلة بين الأعمال فى تقسيم العمل خطوط صارمة وثابتة أم أنها متحركة ومرنة ؟ هل تختلط على الإطلاق خطوط العمل فيما بينها ؟ هل هناك من الأوضاع ما يمكن فى ظلها قيام شخص أو مجموعة من الأشخاص بالأعمال والمهام الخاصة أو المنوطة بشخص أو أشخاص آخرين ؟ وماذا يحدث كنتيجة لذلك ؟ وعلى سبيل المثال ، هل من الممكن لمرضة تعمل فى غرفة الطوارئ أو وحدة العناية المركزة القيام بأعمال خاصة أو منوطة بالأطباء فى ظل الأوضاع الطبية الأقل قوة وشدة ؟ وهل من الممكن لرئيسة المرضات أو المشرفة عليهن التى تقوم غالبًا بمهام إدارية القيام بالأعمال المنوطة بممرضة عادية خلال فترة الإضراب عن العمل ؟

العملية باعتبارها مسألة درجة :

إن تصورنا لمفهوم العملية يتمثل - كما يمكن أن يتبادر إلى ذهنك الآن - فى شىء أكثر من كونه صورة سطحية للتغير أو وصفًا بسيطًا للمظاهر والمراحل ، إذ يحتوى على فحص عميق ودمج وإلحاق للفعل والتفاعل المتغيرين بالتحليل كما هو الحال عند تغير ذلك عبر الزمن استجابة للتغيرات فى الأوضاع .

والآن نتساءل : ما الحجم المطلوب من العملية لتأخذه فى الاعتبار فى تحليلك ؟ وللإجابة عن ذلك نقول ، إنه يعتمد على كل من وضع البحث ، وما هو متوفر بحوزة كل باحث من الوقت والجهد والتجربة والخبرة . وفى الحقيقة ، فإنه يستحيل على الباحث أن يحيط بجميع ما يظهر من تغير وتطور فى الواقع المشهود . حيث يشكل ذلك أمرًا فى منتهى الصعوبة . ومن جانب آخر ، **فإنه لا بد من أخذ العملية فى الاعتبار بدرجة تكفى لإعطاء القارئ معنى لانسياب الحوادث التى تطرأ وتظهر مع مرور الزمن .**

التفكير الاستقرائى والاستدلالى :

كما هو الحال بالنسبة لأى مظهر من مظاهر التحليل المناقش فى هذا الكتاب ، فإن كلاً من التفكير الاستقرائى والاستدلالى يشكلان جزءًا من العملية التحليلية . وعلى سبيل المثال ، فإن المحلل فى بعض الأحيان قد لا يستطيع أن يجد دليلاً على العملية فى بياناته . إذ من الممكن أن تكون موجودة فى البيانات ، لكنه لم يتم النظر إليها من قبل الباحث كعملية ، أو أن ما لدى الباحث من بيانات غير كاف لتوضيحها والكشف عنها . وعندما يحدث ذلك ، فإن المحلل يستطيع الركون إلى التفكير الاستدلالى بصياغة فروض حول الأوضاع الكامنة والممكنة للتغير ، وعندئذ يستطيع العودة إلى البيانات مرة أخرى أو إلى الميدان للبحث عن دليل لتأييد ما قام بصياغته من فروض أو رفض أو تعديل تلك الفروض .

وبالعودة إلى مثالنا عن المديرين ، فإن الباحث القائم بتلك الدراسة ربما ينتهى به الأمر إلى فرضية تساعده على استنباط العملية من البيانات ، مثل : حتى يتمكن المدير المتحكم من الاستمرار فى فرض سيطرته على مرؤوسيه فى ظل أوضاع عملية مختلفة ،

فإن عليه أن ينوع أو يكثف ما يقوم به من أفعال وتفاعلات ، وإلا فإن سيطرته تلك سوف تتلاشى وتتبدد . وبعد ذلك سيقوم الباحث بإجراء مقابلات وملاحظة المديرين الممارسين لأسلوب التحكم والسيطرة ، فى ظل أوضاع مختلفة ليرى إذا كان ما يصدر عنهم من أفعال يتغير أو يتكيف وكيفية حدوث ذلك ، وعليه فإن تلك الفرضية عندئذ ربما يتم قبولها أو تعديلها أو إهمالها فى ضوء ما تكشف عنه الشواهد الميدانية تلك .

العملية كوجهة نظر للمحلل :

لا بد من توضيح نقطة أخيرة قبل التطرق إلى آليات البحث عن العملية فى البيانات ، **فالعملية تمثل طريقة المحلل فى أخذ التغير فى الاعتبار أو فى تفسيره له** . ومن غير المتوقع أن الباحث الذى يقوم بمقابلة شخص ما أو بملاحظته سيستمع إلى ذلك الشخص وهو يشير إلى العملية بهذا النمط . فليس من المتوقع أنك ستستمع إلى شىء من مثل : «فى المرحلة الأولى حدث هذا الشىء ، بعد ذلك قمت بالتحرك نحو المرحلة الثانية نظراً لحدوث (كيت وكيت) . بعد ذلك توقفت العملية نظراً لتلك الأحداث ، وعليه فإننى لم أستطع الانتقال إلى المرحلة الثالثة» .

وعوضاً عن ذلك ، فإنه من المحتمل إلى حد كبير أن نصادف شيئاً يشبه الكلمات الآتية الصادرة عن مدير مسئول عن أحد خطوط التجميع –Assembly line .

عندما يشرع الموظفون فى التصرف ببلاهة وحماقة وتأخذ الإنتاجية فى الهبوط والانحدار فإننا لا نتمكن من الحصول على المنتجات فى الوقت المحدد ، عندئذ يتعين على أن أمضى وأفرض مراقبة وسيطرة محكمة حتى يعود الوضع إلى مجراه الطبيعى . إننى بهذا الصدد أقوم بأشياء ، مثل : عدم السماح لأحد بمغادرة العمل مبكراً ، وتخفيض أجور الموظفين عند تأخرهم فى الدوام ، وإلغاء الإجازات ، وتأجيل النظر فى الطلبات الجديدة للالتحاق بالعمل أو لرفع الأجور . وعندما يظهر لى لاحقاً أن العاملين تحت إدارتى يستطيعون العمل بجدية والوفاء بالمواعيد ، فإننى أخفف من سيطرتى عليهم وأسمح لهم بشىء من المرونة .

التحليل : إن المحلل الحساس أو الواعى بفكرة العملية عندما ينظر إلى الفقرة الواردة آنفًا يلتقط مباشرة فكرة العملية ، أى تلك التى تدور حول التغير فى نمط الإدارة استجابة للأوضاع . فالباحث هنا يلاحظ أن التحول إلى نمط إدارى أكثر تحكمًا أمرٌ ضرورى من قبل المدير لتنفيذ العمل خلال الموعد المحدد . ومع هذا ، فعندما أظهر العاملون قدرتهم على تنفيذ العمل فى الوقت المحدد ، فإن المدير بعد ذلك قام بتخفيف سيطرته عليهم إلى حد ما مظهرًا شيئًا من المرونة فى إدارته .

آليات العملية :

نظرًا لأن التغير فى الأوضاع هو الذى يجعل العملية ذات طابع حركى ، فإنه من الضرورى لفهم آليات العملية التى تظهر وتبدو من خلال التحليل أن نعرف شيئًا عن التغير . ما هو التغير ؟ وما الأشكال التى يبدو من خلالها هذا التغير ؟ وكيف وأين يجد الباحث هذا التغير ؟ .

ما هو التغير ؟

يظهر التغير فى الحوادث والأحداث التى تشير إلى اختلاف فى شىء ما . ولكن السؤال هنا يتمثل فى : اختلافٌ فى ماذا ؟ وبالنسبة لنا كمهتمين بالنظرية المجذرة ، فإن الإجابة عن ذلك تتمثل فى : إنه **الاختلاف والتغير فى الأوضاع لدرجة تكفى لحدوث تغير مطابق فى إستراتيجيات الفعل والتفاعل** المستخدمة لتحقيق أهداف مرغوبة ذات صلة بالظواهر المدروسة . إن فكرة الأوضاع المتغيرة تدخل أو تستوعب عامل **الزمن والحركة** فى التحليل . وعوضًا عن تجميد أو تثبيت الفعل والتفاعل فى الزمان والمكان ، فإن الباحث يبين كيف أن تغير الفعل والتفاعل يتحرك ويستجيب للتغيرات فى الأوضاع التى تظهر لا محالة مع مرور الزمن . فالوقت الذى يمضى بين كل تغير فى الأوضاع وبين التغير المطابق فى الفعل والتفاعل الذى يشكل جزءًا من السلسلة ربما يكون لحظة أو أسبوعًا أو أطول من ذلك . إن كمية الوقت أو أمده الذى تخلل بين كل جزء من السلسلة ليس مهمًا كأهمية فهم وإدراك مروره أو حركته .

الشكل والهيئة التى يبدو فيها التغير :

يبدو التغير مثله مثل أى ظاهرة من الظواهر فى أشكال متعددة . فمن الممكن أن يكون التغير مخططًا له أو غير مخطط له ، تغيرًا كبيرًا أو طفيفًا ، ويمكن أن يحدث بشكل بطىء أو بشكل مفاجئ . وللتغير عدة خواص ، وهذه الخواص هى التى تعطى للتغير شكلاً وهيئةً وشخصيةً . وفيما يلى نقوم بحصر بعض خواص التغير وأصنافه البعدية التى من خلالها تتغير وتتنوع تلك الخواص :

الخواص	*الأصناف البعدية*	
المعدل	سريع	بطىء
الظهور	مخطط له	غير مخطط له
الشكل	منتظم	غير منتظم
	متطور	غير متطور
الاتجاه	متقدم	متراجع
	مرتفع	منخفض
المدى	واسع	ضيق
درجة التأثير	عظيمة	صغيرة
القدرة على الضبط	مرتفعة	منخفضة

وعليه فعندما تبحث عن التغير أو تلاحظه فى بياناتك ، فربما ترغب فى تحليله من خلال الخواص الموضحة أعلاه ، والخواص الأخرى التى ربما تطرأ على تفكيرك . وعلى سبيل المثال ، ربما نتساءل هل تأثير التغير كبير أم صغير ؟ وهل ظهر بمعدل سريع أم بطىء ؟ وما الفوارق والنتائج التى ترتبت على ذلك ؟ .

كيف وأين يجد الباحث التغير الذى يشير إلى العملية ؟

لفهم ومعرفة كيفية البحث عن التغير ومكان وجوده ، فلا بد لنا من العودة إلى النموذج الذى ناقشناه فى الفصل السابع ، وذلك لنتفحص مكان ظهور التغير فى الأوضاع عبر تلك السلسلة النموذجية ، وماذا يمكن أن يحصل كنتيجة لذلك التغير ، وذلك فيما يلى :

١ – فالتغير يمكن أن يظهر فى مجموعة *الأوضاع* التى تؤدى إلى وجود الظاهرة محور البحث ، وعندما يحدث هذا فإنه سيؤدى إلى إحداث ردة فعل دائرية ينشأ عنها تغير فى الإطار وتغير مطابق فى الفعل والتفاعل الموجه للتحكم والإدارة والضبط ، أو للتعامل مع الظاهرة فى ظل ذلك الإطار المتغير .

وكمثال على ذلك ، دعنا نعد إلى دراسة النساء الحوامل المصابات بأعراض مزمنة وفق ما تمت مناقشته فى الفصل الثامن . فعندما أصبح المرض (الوضع السببى للخطورة) غير مستقر خلال مسار الحمل ، تغيرت كذلك درجة الخطورة التى تعتبر مرتبطة بالحمل ، الأمر الذى أدى إلى تحول المرأة الحامل من إطار ذى مستوى منخفض من الخطورة إلى إطار من الخطورة المرتفعة . وعليه ، فإن ما صدر عن المرأة الحامل من أفعال وردود أفعال قد تغير بتغير رؤية مستوى الخطورة .

٢ – كما يمكن أن يكون هناك أيضاً تغير فى أى من الأوضاع المعترضة التى تؤثر على الفعل والتفاعل . هذه الحالة أيضاً من الممكن أن تؤدى إلى خلق الحاجة لتغيير أو تعديل الفعل حتى يمكن احتواء الخطورة المرتبطة بتلك الأفعال . فعلى سبيل المثال ، كلما كان لدى المرأة الحامل المصابة بمرض مزمن ثقةٌ أكثر فى قدرات الأطباء المشرفين على علاجها على احتواء الخطورة ، كانت أكثر رغبة فى تفويض مسئولية التعامل والتحكم وتركها بيد الأطباء ، وخصوصاً عندما يعتبر الحمل أو المرض المزمن خارج المسار . ومع ذلك ، وعند افتقاد تلك الثقة بسبب ما تم اعتباره خطأ فى التقويم الطبى الذى عرّض المرأة أو طفلها للخطورة ، فإن المرأة الحامل بعد ذلك تقوم – ولو مؤقتاً – باستعادة مسئولية التعامل والتحكم التى قامت بتفويض أمره للأطباء المشرفين عليها .

٣ – وعند ذلك أيضاً ، فإن *نتائج* الفعل والتفاعل السابقة فى سلسلة الحوادث تستطيع أن تؤدى بشكل ارتجاعى إلى (أ) **إضافة أوضاع جديدة** أو (ب) **تعديل التفاعل فى الأوضاع الموجودة حالياً** . ويعنى هذا ، أن ما يمكن أن يكون نتيجة لفعل فى سلسلة من الأفعال والتفاعلات ، من الممكن أن يصبح وضعاً مؤثراً فى الفعل والتفاعل المرتبطين والمتبعين أو المأخوذين فى الاعتبار فى الحلقة اللاحقة أو التى

ستجرى فى يوم لاحق . ومن الممكن ملاحظة ذلك بسهولة من خلال مثال عادى . افترض على سبيل المثال ، أن الظاهرة محور الدراسة تتمثل فى التعامل مع الأزمة . فإذا تمكن شخص ما من التعامل مع الأزمة لأول مرة بنجاح فائق فإنه من المتوقع عندئذ أن تلك التجربة التى تكونت لدى ذلك الشخص فى تعامله مع الأزمة الأولى ستؤثر على كيفية تعامله مع الأزمات المشابهة فى المستقبل .

وصف العملية :

هناك طرق متنوعة يستطيع المحلل من خلالها استخدام العملية بأسلوب تحليلى . وقد قمنا هنا بتحديد طريقتين أساسيتين لذلك ، وتستطيع كباحث أن تفكر فى طرق أخرى . أما الطريقة الأولى فتتمثل فى أن نقوم بالنظر إلى العملية كحركة متطورة تبدو فى مظاهر أو مراحل ، وتعتبر هذه هى الطريقة العامة ، أما الطريقة الأخرى فتتمثل فى النظر إلى العملية كحركة غير متطورة أى كتعديلات أو تغيرات فى الفعل والتفاعل استجابة للتغيرات فى الأوضاع ، ولكنها حركة ليس من الضرورى أن تظهر فى مراحل أو مظاهر ، وفيما يلى سنقدم أمثلة على كل من هاتين الطريقتين :

العملية باعتبارها مراحل أو مظاهر :

حتى يتمكن المحلل من توضيح التغير والحركة عبر الزمن ، فإنه يستطيع أن يعتبر أو يتصور البيانات كخطوات أو مظاهر أو مراحل . وربما تكون الحركة إما إلى الأمام أو إلى الخلف ، إلى الأعلى أو إلى الأدنى . ويعتبر التعامل مع العملية بهذا الأسلوب أمراً مفيداً وخاصة عندما يشترك الباحث فى الدراسات التى تعالج التحول والانتقال من مثل التنمية ، والتنشئة الاجتماعية ، والتحول ، والحراك الاجتماعى ، والهجرة ، والأحداث التاريخية .

وعندما يتعامل المحلل مع العملية بهذا الأسلوب فمن المتوقع أن يقوم بتوضيح الأوضاع والأفعال الموافقة لها والتى تدفع العملية إلى الأمام ، وبتحديد نقاط التحول ، وإظهار كيف أن المخرجات المترتبة على بلوغ أو عدم بلوغ نقاط التحول تلك تتحرك فى تلك الأوضاع لتؤثر فى المجموعة اللاحقة من الأفعال المتخذة لدفع العملية نحو الأمام .

وإضافة إلى هذا الوصف ، فإن الباحث قد يرغب فى أن يفسر تنوع واختلاف الحركة خلال تلك المراحل والمظاهر . أى ما السبب فى أن بعض الأشخاص أو الجماعات ونحو ذلك يتخلفون عن الآخرين ، بينما يتمكن الآخرون من تجاوز وتخطى المراحل بمعدل سريع ، فى حين أن البعض الآخر يتحركون إلى الأمام بسرعة فائقة ثم يستقرون بعد ذلك ؟ أو لماذا يوجد - بالنسبة لبعض الأشخاص أو الجماعات - حراك عكسى لا طردى ، أو عجز وفشل فى الشروع فى ذلك على الإطلاق ؟ .

وهنا علينا أن نتوقف لنلاحظ بحذر أنه على الرغم من أن الفئة المحورية عندما تعطى صيغة مصدرية لتعنى العملية والحركة ، مثل : «**التعامل مع مسار المرض**» خلافًا لتسمية ذلك ببساطة «مسار المرض» ، أو «**المحافظة** على استمرارية انسياب العمل» خلافًا لـ «انسياب العمل» ، أو «**التحكم** فى الوعى بالموت» خلافًا لـ «الوعى بالموت» - فإنه من الواجب التعامل معها مثل أى ظواهر محورية وتطويرها من خلال النموذج .

وكمثال *على ذلك* من الظواهر التى برزت فى دراستنا عن المرضى المصابين بأمراض مزمنة ما قمنا بتسميته بـ «العودة أو الرجوع» (Corbin & Strauss, 1988, 1991) . وقد تم تحديدها على أنها عملية العودة إلى طريقة مُرْضية للحياة ضمن القيود النفسية والجسمية التى فرضها مصطلح «الطريقة المُرْضية للحياة» . إن الذى نعنيه بـ «الطريقة المرضية للحياة» هو أن الشخص محور الظاهرة يتعلم : (أ) أن يقبل ويعيش مع ذلك الشىء ـ الإعاقة ـ الذى من غير الممكن تغيره و(ب) استغلال ما يمكن استغلاله مما تبقى هناك من أشياء مفيدة .

ولأغراض تخص هذا المثال ، فإن مصطلح «العودة» قد تم تحديده كالفئة المحورية . حيث تم النظر إلى كلمة «عد أو ارجع» ذاتها كمخرجة أو نتيجة نشأت عن القيام بعملية العودة . وقد تمثل الوضع السببى الذى أدى بالشخص إلى القيام بالعودة فى دراستنا المحددة فى وجود وضع من الإعاقة النفسية والجسمية الذى فرض العديد من القيود على قدرة ذلك الشخص للقيام بالمهارات الحياتية . وتحتوى الإعاقة على خواص عامة ، مثل : الدرجة ، والاستمرارية ، والمدى ، والوقت الذى ظهرت فيه الإعاقة فى حياة الشخص . وقد حددت هذه الخواص الأطر التى من خلالها يتم تحديد الكم الممكن من العودة (مخرجة العملية) ، أو إلى أى مدى يستطيع شخص ما العودة ، وما سرعة ذلك

ونحوه . ولكن هذه الخواص وحدها لا تحدد النتيجة أو المخرجة نظراً لجميع الأوضاع المعترضة التى من الممكن أيضًا أن تتفاعل وتؤثر على الانتقال والتحول ، وذلك من مثل طبيعة برنامج إعادة التأهيل وكذلك درجة التحفز والدعم المتوفرة لدى الشخص المعاق .

كما أن العودة كالظاهرة المحورية لها عدة خواص منها السرعة التى من الممكن أن تختلف وتتنوع من السرعة العادية إلى السرعة القصوى ، ومنها خاصة الدرجة التى من الممكن أيضًا أن تتنوع وفق مدى بعدى من جزئى إلى تام أو كامل . أما الخاصة الثالثة للسرعة فتتمثل فى أن لها مساراً يمكن صياغته بطريقة ليتنوع من حيث المراحل وذلك من خلال : (أ) اكتشاف القيود . (ب) الصعود إلى قطار العودة . (ج) وجود طرق جديدة . (د) تسلق الذروة . (هـ) التقويم .

ويشير المسار إلى المراحل التى يجب أن يمر بها المعاق حتى يتمكن من تحقيق «العودة» إلى طريقة مرضية للحياة . أما الخاصتان الأخريان (السرعة والمدى) فإنهما تتفاعلان لتحديد هيئة المسار ، كما أنهما ستتنوعان وتختلفان حسب مدى وسرعة ظهور التطور والتحول . (كما سبق ذكره ، فإن هاتين الخاصتين محددتان جزئيًا من خلال كل من طبيعة الإعاقة ومن خلال مدى واسع من الأوضاع المعترضة الممكنة ، مثل درجة التحفز لدى المعاق) . ووفقًا للتنوع فى المعدل والتطور ، فقد تم تحديد أربع جماعات (أطر) ، تتمثل فى كل من : المسار التام السريع ؛ المسار الجزئى السريع ؛ المسار التام ذى السرعة القصوى ، المسار الجزئى ذى السرعة القصوى . أما الاختلافات الأخرى الموجودة فى هذه الأنماط فتتمثل فى : (أ) التجاوز (تجاوز الحدود المقبولة والتعايش مع الإعاقة لتحقيق أعمال عقلية أو جسدية جديرة بالاهتمام) . (ب) الإخفاق فى الصعود (التراجع والتقهقر إلى حالة الإعاقة والعجز) .

وقد تم تحقيق الحراك خلال عملية العودة من خلال ثلاثة أنواع مختلفة - ولكن مترابطة - من الأفعال ، وقد تم تسمية هذه الأفعال بـ (أ) التحسن الجسمى من خلال القيام بالواجبات الطبية . (ب) التخفيف من القيود أو زيادة قدرة الأداء من خلال الإنجاز ، وذلك لتنفيذ المهام الخاصة بمعالجة الإعاقة (إعادة التأهيل) . (ج) إدخال أو ضم بعد الإعاقة فى مفهوم الذات لدى الشخص المعاق ، وذلك من خلال القيام بجميع المهام الاجتماعية والنفسية . وخلال كل مرحلة من مراحل العودة ، فإن كل نوع من

الأفعال الثلاثة يأخذ شكلاً وأهمية وتقسيم عمل يختلف . وعلى سبيل المثال : فى المرحلة الأولى من العملية فإن التحسن الجسمى ربما يحتل الأهمية القصوى ، وعليه فإن التركيز سيكون على تنفيذ المهام الطبية من قبل الشخص المريض والفريق الطبى الذى يقوم بعلاجه . وفى المرحلة الأخيرة عندما يصبح المريض صحيحًا جسميًا ، فإن التركيز ربما يتحول إلى إنهاء القيام بجميع المهام الاجتماعية والنفسية ، على الرغم من أن جميع الأنواع الثلاثة من الأفعال من الممكن أن تأخذ فى الاستمرار (أو تنفذ) بدرجات متفاوتة عند أى مرحلة من المراحل .

وهناك العديد من الأوضاع المعترضة المختلفة التى تبرز على الساحة فى كل مرحلة إما لتسهيل أو لإعاقة تنفيذ هذه الأنواع الثلاثة من الأفعال ، الأمر الذى يؤدى إلى التأثير على كمية وسرعة العودة ، أو ما إذا كان كل فرد تمكن من العودة قد وصل إلى حدود إمكاناته . وعندما تكون الأوضاع غير مواتية أو مفصلة إذا كان التطور (التحسن) سيحدث ، فإن الأشخاص المرضى ومن حولهم يتعين عليهم البحث عن طرق للتعامل مع هذه الأوضاع . فعلى سبيل المثال : إذا كان افتقاد التحفز يعوق التطور والتحسن لدى المريض فعلى الفريق المعالج أو عائلته استخدام تكتيكات تفاعلية لبعث الحوافز لديه ، وإذا لم ينجحوا فى ذلك ، فإن تحسن المريض عندئذ سيتم بشكل بطىء وربما يتوقف .

وقد تمثلت الأوضاع المعترضة الممكنة التى تبين أهميتها فى بياناتها فى كل من : (أ) تلك المظاهر المفقودة من الذات بسبب الإعاقة ، حيث اعتبرت - بوصفها سيرة ذاتية - على درجة عالية من الأهمية ، كما أن تلك المظاهر تستحق السعى المطلوب لتنفيذ الأفعال اللازمة للعودة . (ب) وجود أهداف حقيقية وواضحة لأعمال ممكنة متفق على زمان ومكان وكيفية تنفيذها . (ج) تحريك القوى لوضع الشخص المريض من أجل المحافظة على قطار - مسار - العودة . (د) محرك العودة ، أى أحد الأشخاص الذى قام بتحريك العملية وابتدائها . (هـ) منظم العودة ، أى أحد الأشخاص الذى أخذ على عاتقه مسئولية تنظيم مساعى الأطراف المتنوعة ذات العلاقة ، ويتمثل غالبًا فى إخصائى الخدمة الاجتماعية أو فى الزوجة . (و) اتفاق أو مطابقة أنيقة فيما بين خطة العودة والشخص العائد . (ز) كل عضو من أعضاء فريق العودة (الشخص المريض ، الفنيون ، العائلة) قام بما هو مطلوب منه من تقسيم العمل . (ح) المصادر المناسبة ، مثل :

الأمور المتخصصة والمالية والقوة العاملة وما إلى ذلك . (ط) القدرة على المرونة ، والتسوية ، والمزاح والإبداعية . (ى) وأهم من ذلك كله ، المؤشرات الدورية للنجاح .

وليس من الممكن ولا من المرغوب فيه تفصيل الحديث عن النتائج الموضحة أعلاه المتعلقة بالعودة فى هذا الفصل ، فإن ما نتمنى إيصاله إلى القارئ يتمثل فى إيضاح مدى تعقد ظاهرة التحول والمرور خلال المراحل والمظاهر ، وتوضيح كيف أن جميع عناصر النموذج يجب إحضارها لتفسير التحول والمرور وأنواعه . وفيما يأتى سنقوم بإعطاء مثال موجز حول كيفية وصف العملية واعتبارها حركة غير متطورة . وسيكون توضيحنا لذلك مختصراً . ولتدعيم فهمك لما سيرد أدناه ، فإننا نقترح عليك أن تقوم بفحص المقالات الخاصة بالبحث المشار إليها فى الوصف أدناه .

العملية باعتبارها حركة غير متطورة :

هناك بعض الظواهر التى ليس من الممكن اعتبارها أو النظر إليها كمظاهر أو مراحل تطورية منتظمة ، ومع هذا فإن العملية تشكل جزءًا لا يتجزأ من الظواهر ، ومن الأمثلة على ذلك المرض المزمن والتعامل معه . وعلى الرغم من أن مسار المرض المزمن يمكن تجزئته إلى مظاهر ، فإن الشخص المريض ليس من الضرورة أن يتحرك بين هذه المظاهر بأسلوب متطور منتظم . وفى الحقيقة ، فإن الهدف الكلى من التعامل مع أى مرض مزمن يتمثل فى المحافظة على أن يكون وضعه ثابتًا بقدر الإمكان ولتهدئة مسار تدهوره أو إيقافه أو القيام بعكس مساره . وتتطلب المحافظة على ثبات واستقرار المرض المزمن على الرغم من التغير المستمر فى الأوضاع الحياتية تكيفًا مستمراً (Corbin & Strauss, 1988) . إن تحقيق هذا التكيف المستمر (الأفعال) على الرغم من التغير المستمر فى الأوضاع الحياتية يدخل العملية ضمن التعامل والتحكم .

وهناك مثال آخر حول النظر إلى العملية بأسلوب غير تطورى (سكونى) مرن يوجد فى كتاب «*التنظيم الاجتماعى للعمل الطبى*» (Strauss et al., 1985) . وتتمثل الفئة المحورية فى هذه الدراسة فى «أنواع العمل» ، وقد اهتمت الدراسة بكيفية تنظيم العمل وتوضيحه فى المستشفيات . وقد أوضح مؤلفو الكتاب أن العمل فى المستشفيات يتعرض لأوضاع متغيرة ومختلفة بشدة ، حتى الأنشطة الروتينية الراسخة - إجراءات

العمل المعيارية ـ تتأثر يومياً بل كل ساعة من خلال الطوارئ غير المتوقعة . وعليه ، فإن انسياب العمل وجوهره فى المستشفيات ليس من الممكن وصفه أو تحليله بدقة بدون التفكير فيه من خلال العملية .

الملخص :

تتمثل العملية فى الربط بين سلاسل الفعل والتفاعل أثناء تطورها عبر الزمن . ويعتبر استخدام العملية فى التحليل مظهراً ضرورياً فى تحليل النظرية المجذرة . ولتحقيق ذلك ، فإن على المحلل البحث بوعى عن مؤشرات فى البيانات تعبر عن التغير فى الأوضاع . كما أن عليه القيام بتعقب التغيرات المطابقة فى الفعل والتفاعل التى تأتى بها . وبعد تحديد العملية ، فإن هناك طريقتين رئيسيتين يمكن من خلالهما صياغة بعد العملية فى النظرية المجذرة . إحداهما تتمثل فى النظر إلى العملية كمراحل أو مظاهر للتحول أو المرور ، إضافة إلى القيام بتفسير اتجاه ذلك التحول إلى الأمام أو توقفه أو انحداره . أما الطريقة الثانية فتتمثل فى النظر إلى العملية كحركة غير تطورية أى كأفعال وردود أفعال مرنة متشابهة حساسة وقادرة على التغير استجابة للأوضاع المتغيرة .

الفصل العاشر
المصفوفة الوضعية

تحديد المصطلحات :

نسق التعامل (Transactional System): هو نسق من التحليل يقوم على فحص الفعل والتفاعل فى علاقته بالأوضاع والنتائج .

التفاعل (Interaction) : هو ما يقوم الناس بعمله معًا أو ما يقومون به تجاه بعضهم وما يصاحب ذلك من عمليات الفعل والكلام والتفكير .

المصفوفة الوضعية (Conditional Matrix): هى أداة تحليلية - رسم بيانى - ذات فائدة عظيمة للأخذ فى الاعتبار بمدى واسع من الأوضاع والنتائج المرتبطة بالظاهرة تحت الدراسة . وهذه المصفوفة تمكن المحلل من التمييز - أو الربط - بين مستويات الأوضاع والنتائج .

الطريق أو المسار الوضعى (Conditional Path) : هو متابعة حدث أو حادثة ما ناشئة عن الفعل والتفاعل من خلال المستويات الوضعية والناشئة والعكس صحيح ، وذلك حتى يمكن مباشرة ربطها بالظاهرة .

تعتبر مناقشتنا فى هذا الفصل على درجة عالية من الصعوبة ، ولكن بتعلم الأدوات الموضحة فى الفصول السابقة فإنه من المفروض أن تكون قادرًا على متابعة ما يحتويه هذا الفصل من مناقشات . إن ما نفعله فى حقيقة الأمر فى هذا الفصل يتمثل فى تزويدك **بإطار عمل** يقوم على تلخيص وتوحيد جميع ما تم عرضه حتى الآن ، وفى الوقت نفسه نسعى إلى تزويدك بشرح مفصل عن كيف نستطيع بإحكام دمج كل من الأنواع المختلفة من الأوضاع (السببية والمعترضة والقرينية) والنتائج التى تناولناها لأول مرة فى الفصل السابع فى عملية التحليل . وهذا الدمج يتم تحقيقه من خلال الربط الهادف والمباشر بين تلك الأشياء وبين الفعل والتفاعل . وفى الواقع ، فقد

تحدثنا عن هذا الموضوع سابقًا وخاصة فى الفصول السابع والثامن والتاسع . إلا أننا فى هذا الفصل نود أن نجعل هذا الربط أكثر وضوحًا ، وأن نشد طريقتنا التحليلية بعضها إلى بعض ليتشكل عنها إطار عمل تفسيرى .

بعد قراءة هذا الفصل ربما تقرر أنك غير مستعد لفهم الأساليب الماهرة محور المناقشة . وإذا كانت هذه الدراسة الأولى أو حتى الثانية فى النظرية المجذرة فربما يكون من المتوقع أنك غير قادر على الشروع فى هذه الخطوة التى تسعى إلى الربط والدمج . ولكن وأنت تتعامل مع البيانات وتصبح على درجة أعلى من المهارة فى هذه الطريقة ، سترى كيف يتجمع التحليل معًا .

وتتمثل كل من التفاصيل الهادفة إلى عملية الربط والدمج والإجراءات والمنطق الإجرائى لتحقيق هذه السمة المميزة لدراسات النظرية المجذرة ، وتلك السمة التى تميز بين طريقة النظرية المجذرة والطرق الكيفية الأخرى الأقل تعقيداً . وعليه فإننا نحثك - عندما تكون مستعداً بطبيعة الحال - على قبول التحدى الهادف نحو أعلى مستوى من التحليل الممكن تحقيقه بواسطة هذه الطريقة (المنهجية) . إننا نؤكد أن ما سيترتب على تحليلك من مخرجات سيجعل محاولاتك ومساعيك جديرة بالاهتمام .

النظرية المجذرة كنسق تعامل :

إننا نرغب أن نفكر فى النظرية المجذرة كنسق تعامل (Transactional System) أى طريقة ما من التحليل التى تتيح للباحث فحص الطبيعة التفاعلية للأحداث . فمن بين جميع خصائص النموذج ، فإن الفعل والتفاعل يحتلان المركز أو مكان القلب فى النظرية المجذرة . إن الأسلوب الذى يتم من خلاله التعبير عن أية ظاهرة يتم من خلال سلاسل الفعل والتفاعل المرتبطة والهادفة . ويصدق ذلك على أية ظاهرة سواء تم تصورها من خلال مفهوم تجريدى مثل «السيطرة المهنية» أو من خلال مفهوم حسى (Concrete) مثل التفاعل مع المرض . فجميع الظواهر والفعل والتفاعل المرتبطة بها تعتبر جزءًا لا يتجزأ أو ملحقة بمجموعة من الأوضاع ، كما أن الفعل والتفاعل يؤديان إلى نتائج محددة ، وهذه النتائج بالمقابل ربما تصبح جزءًا من الأوضاع المعينة التى تؤثر فى سلسلة الفعل والتفاعل اللاحقة .

خواص نسق التعامل :

إن أى نسق تعامل يحتوى على خواص محددة ، وذلك على النحو الآتى :

١ - *فهو يتكون من مستويات مترابطة ومتفاعلة من الأوضاع* . وتتنوع هذه من حيث مدى الخصائص الأكثر اتساعًا أو عمومية على مستوى العالم بأكمله إلى الخصائص الأكثر تحديداً وقربًا من الظاهرة قيد البحث .

٢ - كما أن الأوضاع لدى أى مستوى ربما تتصل أو تتعلق بالظاهرة : (أ) كسبب يؤدى إلى تلك الظاهرة المعينة ، أو (ب) *كإطار* يحدث من خلاله الفعل والتفاعل ، أو (جـ) *كأوضاع* معترضة تقف فيما بين الإطار وبين الفعل والتفاعل حيث تؤدى إما إلى تسهيل أو إعاقة الفعل والتفاعل . (وقد تمت مناقشة هذه النقاط بشكل أكثر شمولاً فى الفصل السابع) .

٣ - يتمثل المحور الرئيسى لنسق التعامل والذى يقع ضمن مدى من الأوضاع فى *الفعل والتفاعل* .

٤ - يحدث أن يظهر الفعل والتفاعل فى سلاسل مترابطة تكون ذات طبيعة *عملية* متحركة .

٥ - تنشأ *النتائج* المتنوعة من الفعل والتفاعل . وربما تؤدى لاحقًا إلى التأثير الجوهرى فى الأوضاع على مستويات مختلفة . وعليه ، فالنتائج بالمقابل ربما تصبح فى بعض الأحيان أوضاعًا مهمة تؤثر فى سلسلة الفعل والتفاعل اللاحقة .

٦ - يعتبر *البعد الزمنى الآنى* أو المؤقت ملحقًا بهذه الأوضاع . ومع ذلك ، فعندما نقوم تحليليًا بإيقاف الفعل والتفاعل لفحصهما ، فإننا ننظر إليهما نظرة مستعرضة (نظرة لا تأخذ الزمن فى الحسبان) . إننا ننظر إليها نظرة غير حقيقية ، أى كقطعة من الزمن بدلاً من عبر الزمن فى الماضى والحاضر والمستقبل ذى العلاقة . وقد تم تفصيل الحديث عن هذه النقطة فى الفصل التاسع عند مناقشتنا لمفهوم العملية وأهميتها فى التحليل .

٧ - تؤدى الأوضاع إلى تسهيل أو إعاقة الفعل والتفاعل ، كما تقوم *الطوارئ* التى

تؤدى إلى تغير الأوضاع بفرض حالات غير متوقعة ومشكلة مما يوجب التعامل معها .

٨ – إننا نشير إلى نسق التعامل محور حديثنا هنا كا*لمصفوفة المؤقتة* . ويشير هذا المصطلح الأخير إلى علاقة معقدة بين كل من الأوضاع المترابطة ، والفعل والتفاعل ، والنتائج المتعلقة بظاهرة معينة .

مزايا استخدام المصفوفة :

قبل مناقشتنا بالتفصيل لهذه الوسيلة التحليلية ، فإننا سنقوم بحصر استخدامات هذه الوسيلة على النحو التالى :

١ – مساعدتك لتكون ذا **حساسية نظرية لمدى من الأوضاع** التى من المتوقع أن تؤثر فى الظواهر تحت الدراسة .

٢ – تمكنك لتكون ذا حساسية نظرية **لمدى من النتائج المنبثقة** المتسببة عن الفعل والتفاعل .

٣ – تساعدك على **ربط كل من الأوضاع والفعل والتفاعل والنتائج بالظاهرة** .

المصفوفة الوضعية :

من الممكن تمثيل المصفوفة الوضعية كمجموعة من الدوائر المتداخلة ، وكل دائرة (مستوى) تتطابق مع المظاهر المختلفة للعالم المحيط بنا . ففى الدوائر الخارجية توجد تلك الخصائص الوضعية *الأكثر* بعداً عن الفعل والتفاعل ؛ بينما تتصل الدوائر الداخلية بالخصائص الوضعية التى تؤثر عن كثب فى سلسلة الفعل والتفاعل .

وتعتبر الأوضاع على أى مستوى من المستويات ذات علاقة بأية دراسة ، حتى عند دراسة ظاهرة ما تقع بوضوح فى الجزء الداخلى من المصفوفة ـ على مستوى الفعل والتفاعل ـ فإن المستويات الأكثر اتساعاً من الأوضاع ـ الدوائر الأوسع ـ ستكون ذات علاقة بالظاهرة المدروسة . وعلى سبيل المثال ، فإن المشاركين فى أى تفاعلات يأتون

ومعهم مواقف واتجاهات وقيم من ثقافاتهم الإقليمية والوطنية إضافة إلى تجاربهم الماضية .

ولزيادة القدرة التعميمية لهذه المصفوفة كوسيلة تحليلية إلى الحد الأعلى ، فإن كل مستوى يتم تمثيله فى صورته الأكثر تجريداً . **والباحث هنا لا يحتاج إلا أن يقوم بملء الخصائص الوضعية المحددة لكل مستوى والتى تتصل بالموضع المختار للبحث** . وعليه ، فإن الفقرات التى سيتم إضافتها ستتوقف على نوع ومدى الظاهرة قيد البحث . ومن المتوقع أن يقوم الباحث ذاته بتحديد الأوضاع ، أو ربما يتم تحديد الأوضاع من خلال التراث الفكرى والتجارب . عندها سيتم اعتبارها أشياء مؤقتة حتى تشير البيانات إلى علاقتها بالظاهرة .

وكما سبق أن لاحظنا ، فإن كل وضع خلال المصفوفة يحتوى على خواص للزمن (خلال البعد الزمنى الآنى) وللمكان (الموقع من المصفوفة) . وعلى سبيل المثال ، ربما يقوم أحد الباحثين بدراسة ظواهر ، مثل : الجوع فى العالم ، الجوع فى المجتمع المحلى ، صنع القرار التنظيمى ، المفاوضات بين البلدان ، الأمراض المزمنة لدى الأفراد ، مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) كمشكلة وطنية ، المهنة لدى المرضات (كجماعة) ، والعلاقة فيما بين قضايا النقاش والحوار فى المجتمع المحلى . **والنقطة التى يجب دائماً أن نتذكرها تتمثل فى** : أن تلك الظاهرة بغض النظر عن المستوى الذى تقع فيه من المصفوفة ، ستقف فى علاقة وضعية للمستويات الأعلى والأدنى منها ، وكذلك للظواهر الواقعة على نفس المستوى الذى تقع عليه الظاهرة .

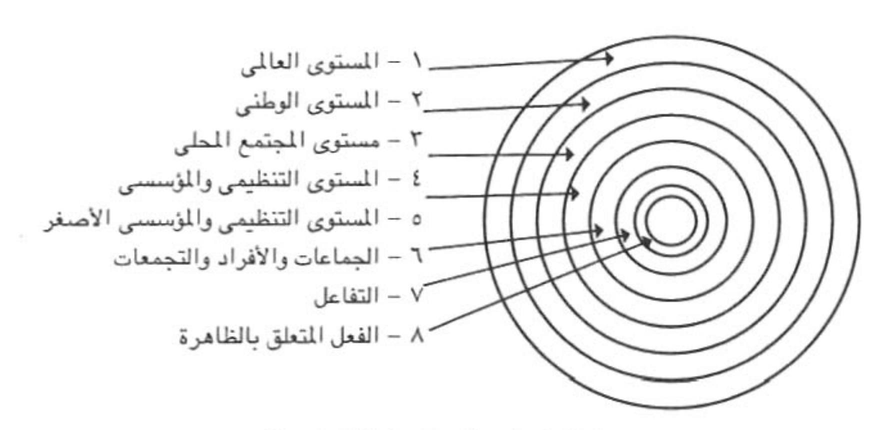
السمات العامة لمستويات المصفوفة :

من الممكن النظر إلى المستوى الخارجى (الدائرة الكبرى) **كالمستوى العالمى** . ويتضمن هذا المستوى موضوعات ، مثل : السياسات الدولية ، والتنظيمات الحكومية ، والثقافة ، والقيم ، والفلسفات ، والاقتصاد ، والتاريخ ، والمشكلات والقضايا الدولية كمشكلات البيئة .

أما المستوى الثانى فيمكن النظر إليه أو اعتباره المستوى **الوطنى** . وتتضمن سماته

كلاً من السياسة الوطنية ، والتنظيمات الحكومية ، والثقافة ، والتاريخ ، والقيم ، والاقتصاد ، والقضايا والمشكلات .

يأتى بعد ذلك ، مستوى **المجتمع المحلى** الذى يتضمن جميع الموضوعات المذكورة أعلاه ولكن من خلال علاقتها بالمجتمع المحلى . ومن المعلوم أن لكل مجتمع محلى سماته الديموغرافية التى تعطيه وضعًا مستقلاً أو منفرداً .



شكل (١٠ - ١) : المصفوفة الوضعية

وإذا تحركنا إلى الأسفل من المصفوفة الوضعية فسنجد المستويات **المؤسسية والتنظيمية** . ولكل مستوى من هذه المستويات بناؤه الخاص ، ودوره ، ومشكلاته ، وخلفياته التاريخية .

وهناك دائرة (مستوى آخر) تمثل المستوى **المؤسسى الفرعى أو التنظيمى الفرعى** . ومن الممكن أن يتضمن هذا المستوى تلك الخصائص المميزة لجزء من المدينة ، أو لجناح بمستشفى ، أو لموقع فرعى داخل موقع أكبر حيث تجرى الدراسة .

بعد ذلك نصل إلى المستوى الخاص **بالفرد والجماعة والتجمع** . ويتضمن هذا المستوى السير الذاتية ، والفلسفات ، والمعرفة ، وخبرات الأشخاص والأسر ، وكذلك الجماعات الأخرى المتنوعة (كجماعات المصالح الخاصة ، أو الجماعات العلمية والمهنية) .

بعد ذلك نصل إلى المستوى **التفاعلى** . ونقصد بالتفاعل هنا ما يقوم به الأشخاص من أشياء مع بعضهم أو بعضهم تجاه بعض مما له صلة بظاهرة ما (Becker, 1986) ، وكذلك كل ما صاحب القيام بتلك الأشياء من عمليات فكرية أو كلامية أو فعلية . وحتى الأشياء التى يعملها الأشخاص بمفردهم مثل التعامل مع المرضى ، فإنها تتطلب تفاعلاً فى شكل انطباعات الذات والاتصال بالآخرين للحصول على الإمدادات أو الاستشارات أو الدعم الطبى . ويمكن تحقيق التفاعل من خلال عمليات تفاعلية ، مثل : المفاوضات ، والمناقشات ، والسيطرة ، والتدريس ، والتعليم ، والشرح ، والمحاورة ، والانطباعات أو الانعكاسات الذاتية .

وأخيرًا نصل إلى محور المصفوفة حيث نجد الفعل بنوعيه : الإستراتيجى والروتينى الاعتيادى . ويمثل هذا المستوى صورة الأداء الفعال والتعبيرى للذات وللتفاعلات الأخرى المنجزة أو المنفذة للتعامل مع ظاهرة ما أو للاستجابة لها ونحو ذلك . ويتم تنفيذ الفعل من خلال **عمليات الفعل** . *وهذه العمليات الفعلية يتم ضمها أو توحيدها بالعمليات التفاعلية لإتمام صورة الفعل والتفاعل* . وعلى سبيل المثال ، فإن مصطلح «تقسيم العمل» الذى يشير إلى عملية فعلية خاصة بتنفيذ أو إنجاز ظاهرة العمل يتضمن شيئًا أكثر من أناس مختلفين يقومون بأشياء مختلفة لتحقيق أهداف ما (Strauss, 1985) . كما أن هذه العملية تحتوى على كل من المناظرات والمناقشات والمداولات ، وتشريع الحدود ونحو ذلك مما يحدث أو يتم الوصول إلى - أو المحافظة على - تقسيم العمل وتحقيق المهام المرتبطة به .

أمثلة عملية للمصفوفة :

سيتبين لك الآن كيف أن المصفوفة الوضعية ستفتح أمام تحليلك مدى واسعًا من الأوضاع الممكنة التى تؤثر فى ظاهرة ما ، وكيف يمكن للمصفوفة أن تساعدك على الربط بين هذه الظاهرة بصورة محددة لهذه الأوضاع . والمثال هنا مأخوذ من كتاب عن المفاوضات (Strauss, 1978, Negotiations, pp : 77-103) . وفى هذا الكتاب يؤكد الباحث أن معظم الكتابات التى تناولت موضوع المفاوضات عجزت عن تفصيل الحديث حول الأوضاع البنائية التى فى ظلها تحدث المفاوضات ، أو عندما تناقش تلك

الأوضاع فى هذه الكتابات ، فإن استعراضها لا يتم إلا كخلفية مرجعية وصفية . وعليه ، فإن الشىء المفقود فى تلك الكتابات عن المفاوضات يتمثل فى الربط المحدد لهذه الأوضاع بالفعل والتفاعل .

ولمعالجة المشكلة التحليلية هذه ، فقد اقترح (ستراوس) استخدام ما أسماه بـ «نموذج المفاوضات» . وهذا النموذج يقدم وسائل للربط المباشر بين جميع المستويات المتنوعة للأوضاع وبين التفاعل التفاوضى . وقد قام (ستراوس) بتصنيف أوضاعه تلك إلى نوعين أساسيين من الأطر الوضعية ، هما : الإطار البنائى ، والإطار التفاوضى .

ويشير الإطار البنائى إلى الأوضاع التى يحدث من خلالها التفاوض بالمعنى الشامل . وتمثل هذه الأوضاع الدوائر الكبرى الخارجية للمصفوفة . وفى كل حالة من دراسات المفاوضات فإن كل هذه الأوضاع ستكون مختلفة عن بعضها . وكمثال عند دراسة المفاوضات السرية التى اشترك فيها قضاة مرتشون ، فمن المتوقع أن يتضمن ذلك خصائص ، مثل : النظام القضائى الأمريكى والأسواق التجارية الأمريكية . وعلى النقيض من ذلك ، فإن دراسة عن المفاوضات بين المنظمات من المتوقع أن تضعهم فى إطار المنافسة الدولية والوطنية والتنظيمات الحكومية وما إلى ذلك (انظر : Strauss, 1982, pp : 350-367) .

أما الإطار التفاوضى فيتمثل فى المستويات (الدوائر) الداخلية من المصفوفة ، وهذه الفقرات الوضعية تتصل على وجه التحديد بظاهرة الترابط على مستوى الفعل والتفاعل ، وتتضمن ما يلى :

١ – عدد المفاوضين وخبرتهم فى التفاوض .
٢ – خصائص المفاوضات ذاتها ، مثل : حدوث هذه المفاوضات مرة واحدة أم باستمرار ، وفى مرحلة واحدة أم فى مراحل متعددة .
٣ – الموازنة فى القوة التى تبديها الأطراف ذات العلاقة .
٤ – المصالح الخاصة بالأطراف المعنية .
٥ – عدد القضايا الداخلة فى المفاوضات وطبيعة تعقدها .
٦ – وضع القضايا الداخلة فى المفاوضات ومدى استقلاليتها .
٧ – الخيارات البديلة للفعل كما يراها المفاوضون .

وبضم الإطارين (الإطار البنائى والإطار التفاوضى) إلى بعضهما ، فإن المحلل يستطيع تقديم تفسير أكثر تكاملاً للسبب الذى أدى بأى مجموعة من المفاوضات للخروج بالهيئة أو بالشكل الذى خرجت عليه ، إذ يستطيع تحديد طبيعة أية مجموعة من المفاوضات ، وكذلك تحديد الأوضاع الخاصة التى أدت إلى ظهورها ، وكيف أن مخرجات المناقشات السابقة تؤثر فى المفاوضات الحالية ، وكذلك تحديد كيف ستؤثر نتائج المفاوضات الحالية على المفاوضات التى ستجرى مستقبلاً وذلك بواسطة التغذية المرتدة عبر المستويات الوضعية وتغيير المستويات .

وبالتعامل مع الأوضاع والنتائج بهذه الطريقة ، فقد تمكن (ستراوس) بأسلوب أكثر تعقيداً من دمج الأوضاع المعترضة والأطرية والسببية التى تحدثنا عنها سابقًا . فجميع هذه الأوضاع ماثلة هنا إلا أنها غير منفصلة عن بعضها على النحو المشار إليه .

تعقب الطرق أو المسارات الوضعية :

تم تحديد المصفوفة الوضعية إجرائيًا بتعقب ومتابعة الطرق الوضعية ، وتضمن تعقب تلك الطرق اقتفاء ومتابعة الحادثة أو الحدث ابتداءً من مستوى الفعل والتفاعل ومرورًا بالمستويات الوضعية المختلفة والعكس صحيح ، وذلك لتحديد الكيفية التى ترتبط بها . ويتم عمل هذا لتحقيق الربط المباشر للأوضاع والنتائج بالفعل والتفاعل .

لماذا يعتبر تعقب الطرق الوضعية أمرا مهما ؟

عادة ما يبتدئ أو ينتهى عرض أية دراسة بحصر وصفى للأوضاع المتصلة بالظاهرة قيد البحث . أى أن المؤلف يحدد مكان الظاهرة فى مجموعة من الأطر والحوادث التاريخية ، أو يقوم بتفسير الأوضاع المرتبطة بالظاهرة بشكل عام . فهذا الوصف يقدم لنا خلفية مرجعية لفهم بعض الشىء عن الإطار الذى تقع فيه الظاهرة أو لفهم الأسباب وراء ظهورها . وغالبًا ، فإننا نظل مع هذا التصور بالغ العمومية لعدم وجود أية محاولة للربط بين الأوضاع المحددة والظاهرة محور البحث من خلال تأثير تلك الأوضاع فى الفعل والتفاعل ، كما أن المؤلف لا يقوم بشكل منظم بالعودة لربط النتائج بسلسلة الفعل والتفاعل اللاحقة .

إن الهدف من وراء منهجية النظرية المجذرة يتمثل فى تطوير النظرية وليس مجرد وصف ظاهرة . وحتى يصبح ما نقوم به (نظرية) ، فلا بد من أن نقوم بطريقة منظمة بالربط بين المفاهيم ، لأنه لا يكفى ببساطة أن نقول إن أوضاعًا معينة فى حكم الموجودة ، ونطلب من القراء تخمين ما قد يكون هناك من علاقات بين هذه الأوضاع والظاهرة . فعلى سبيل المثال ، ليس من المعتاد أن نقرأ شيئًا يشبه الآتى : «أدت التقنية إلى تجريد الرعاية الصحية من الشخصانية» . فهذه العبارة يكتنفها الغموض ولا معنى لها ، إلا إذا كان الباحث - مع هذا - يستطيع بشكل محدد توضيح كيفية وزمن ومكان حدوث ذلك ، ونتائج ذلك ، ونوعية التقنية التى أسفرت عن تجريد الرعاية الصحية من الشخصانية ، وكذلك الإستراتيجيات المستخدمة لمواجهة عملية تجريد الرعاية الصحية من الشخصانية هذه . فكل شخص يعرف أن التقنية من الممكن أن تؤدى إلى تلك النتيجة «اللاشخصانية» ، ولكن ماذا يعنى تجريد الشخصانية (Depersonalized) فى علاقته بما نقوم بدراسته ؟ ولوضع ذلك فى مصطلحات تحليلية ، فإنه لا بد من التحديد الدقيق للأوضاع وذلك بتحديدها كأوضاع سببية أو أطرية أو معترضة لنتمكن من إعطائها المعانى والمدلولات فى علاقتها بالظاهرة المدروسة . ويترك للباحث أمر الصيغة النهائية المعقدة التى من خلالها يتم إلحاق تلك الأوضاع وربطها بالنظرية . وفى مناقشتنا للمفاوضات قمنا بتقديم طريقة واحدة فقط من الطرق المستخدمة لعمل ذلك .

كما يساعد تعقب الطرق الوضعية على الاهتمام بالأبعاد والمعالم المهمة المحيطة بالدراسة . فمن الممكن ببساطة أن يخرج الباحث عن فلك ومدار الدراسة من خلال تعقب تلك الأوضاع التى ليس لها صلة حقيقية بالدراسة . **ومن خلال التتبع المنظم لطريق وضعى ابتداءً من دائرة الفعل والتفاعل ومرورًا بالدوائر (المستويات) الوضعية التالية والعكس صحيح ، فإنه من غير المتوقع أن الأوضاع غير المتصلة بالدراسة ستتم متابعتها وتعقبها** . ومن المفروض على الباحث أن يتعقب فقط الأوضاع ذات العلاقة نظرًا لتأثيرها المباشر على الظاهرة من خلال الفعل والتفاعل .

وعند قيامك بتحليل البيانات ، يجب عليك أن تقوم إما بملاحظة تأثير الأوضاع على الظاهرة من خلال الفعل والتفاعل والنتائج المترتبة على تلك الأوضاع ، أو تقوم

باستنتاج ذلك التأثير من خلال التراث الفكرى أو من تجاربك الخاصة ، **ولكن عندئذ يتحتم عليك أن تبحث عن دليل يؤيد ذلك الاستنتاج** . وأى شىء لم يظهر بوضوح فى البيانات لا بد من الاحتفاظ به مؤقتًا حتى يفصح أو لا يفصح عن نفسه من خلال البيانات . وحتى يكون أى وضع أو نتيجة ذات صلة وأهمية ، فلا بد من إعطاء تلك الأوضاع والنتائج المعانى والمدلولات ذات الصلة بما تقوم به فى دراستك ، أى لا بد من التحقق الميدانى من خلال البيانات أن تلك الأشياء (الأوضاع والنتائج) ذات تأثير **مباشر** أو **غير مباشر** على الظاهرة .

كيفية القيام بتعقب طريقٍ أو مسارٍ ما :

لمتابعة طريق وضعى ما ، فلا بد من أن تبدأ بحادثة أو حدث ومن ثم تحاول تحديد ، لماذا ظهر ذلك الحدث أو تلك الحادثة ؟ . وما الأوضاع المؤدية إلى ظهورها ؟ . وكيف كشفت هذه الأوضاع عن نفسها أو عن طبيعتها ؟ . وما النتائج التى أدت إليها تلك الأوضاع ؟ . وتستطيع تحديد الإجابات عن هذه الأسئلة من خلال التعقب المنتظم لآثار هذه الأوضاع خلال المصفوفة الوضعية مركزًا على المستويات التى تخللتها تلك الأوضاع والنتائج التى تركتها .

هذا الإجراء الرامى إلى تعقب الطرق الوضعية يمكن توضيحه من خلال المثال الآتى : عندما كان الباحث يومًا ما يقوم بملاحظة رئيسة الممرضات وهى تعمل فى وحدة طبية ، لاحظ الباحث الحادثة الآتية : قدمت طبيبة ما إلى الوحدة ذاتها لتدور على المرضى ، وأثناء قيام الطبيبة بذلك رغبت فى فحص قولون أحد المرضى . سألت قائدة الفريق – وهى ممرضة تصاحب الطبيبة فى دورانها على المرضى – الحصول على قفاز معقم مقاس (٦) الذى يعتبر مقاسًا صغيرًا . وهنا قامت الممرضة بالبحث فى مستودع الوحدة عن قفاز بهذا المقاس إلا أنها لم تجد إلا قفازًا من مقاس (٧) . وقد قامت بتقديم هذا القفاز الكبير للطبيبة التى لم تتقبل هذا القفاز لكبره . وشكّل ذلك مشكلة للممرضة قائدة الفريق . وقد اضطرت – لعدم معرفتها بماذا يمكن أن تقوم به – إلى الركون إلى كبيرة الممرضات التى قامت بدورها بإخبار الطبيبة بعدم وجود قفاز معقم من مقاس (٦) فى الوحدة ، مقترحة بذلك أن المقاس الذى يليه (قفاز من مقاس ٧) لا بد

من استخدامه . ومرة أخرى ، استمرت الطبيبة فى رفض استخدامه لكبره ، وهنا واجهت كبيرة المرضات مشكلة تأمين قفاز معقم من مقاس (٦) . ولذا فقد قامت بالاتصال بوحدة التزويد المركزية التى أخبرت بدورها كبيرة المرضات أن القفاز من هذا الحجم ليس متوفراً بوحدة التزويد مؤقتًا ؛ بسبب الحاجة الكبرى للقفازات التى خلفتها مشكلة مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) . لذلك فإن القفازات قد خضعت للمراقبة المباشرة من قبل شخص متخصص يقوم فى الوقت الحاضر بحضور اجتماع ما . ولذا فقد اضطرت كبيرة المرضات للانتظار حتى انتهاء الاجتماع للحصول على القفاز . وفى الوقت نفسه ، طال صبر الطبيبة وضاقت ذرعًا لطول الانتظار . ونتيجة لذلك ، أخذت كبيرة المرضات فى الاتصال بوحدات أخرى بالمستشفى وتمكنت فى نهاية المطاف من معرفة وجود قفازات معقمة من المقاس المطلوب فى غرفة الإنعاش ولذا ذهبت لإحضارها . وبذلك أصبحت الطبيبة أخيراً قادرة على مواصلة القيام بالإجراء الطبى المرغوب ، وقد أخذت جميع هذه التفاعلات ثلاثين دقيقة من الوقت الثمين لكبيرة المرضات .

ومن خلال تحليل هذه الحادثة ، لاحظ الباحث أن العمل بالوحدة قد **تعثر بسبب عدم توفر وسيلة مطلوبة (فى شكل أجهزة ووسائل)** . وللمحافظة على استمرارية انسياب العمل ، فقد تعين على كبيرة المرضات أن تبحث عن تلك الوسيلة النافدة من الوحدة (القفازات من مقاس ٦) ، ولكن الباحث قد وجد من الضرورة أن يتساءل : لماذا شكّل البحث عن هذه القفازات المحددة صعوبة بالغة ؟ فالقفازات عمومًا ليست مواد مضبوطة أو متحكمًا فيها ؛ كالعقاقير والأدوية حتى يتعين وضعها فى أدراج أو صناديق مغلقة . فما الذى يحدث فى المستشفى فى هذا الوقت لينتج عن ذلك نقص فى القفازات المعقمة من هذا المقاس ؟ وبمتابعة وتعقب هذه الأسئلة ، فإن الباحث - ابتداءً بالفعل المتعثر - قام بتعقب الطريق الوضعى اللاحق (تتمثل الظاهرة محور البحث فى «انسياب العمل» وارتباطه بالعناية بالمرضى على المستوى التنظيمى) .

(أ) نبدأ **بالفعل** الذى قد تعرض للتغير نظراً لأن الوسيلة الطبية المحتاج إليها لم تكن متوفرة . (ب) ننتقل بعده إلى **المستوى التفاعلى للمصفوفة الوضعية** . حيث حاولت كبيرة المرضات إقناع الطبيبة باستخدام القفاز المعقم الكبير من مقاس (٧) ولكن

محاولتها هذه باءت بالفشل . لقد كانت الطبيبة متصلبة ومتشددة فى رفضها لاستخدام ذلك القفاز . بعد ذلك قامت بمحاولة الإقناع ولكن محاولتها هذه أيضًا باءت بالفشل . وأخيرًا تمكنت بنجاح من إقناع إحدى الممرضات العاملات فى الوحدات الأخرى (غرفة الإنعاش) بإعارتها بعضًا مما لديها من القفازات المعقمة ذات المقاس المطلوب . (ج) ننتقل بعده إلى المستوى **الفردى** من المصفوفة الوضعية . فربما لو تعرضت طبيبة أو طبيب آخر لهذا الموقف لتقبل أو تقبلت استخدام تلك القفازات الكبيرة ، ولكن هذه الطبيبة رفضت ذلك . إن يديها صغيرتان ، وعليه فإن حجم اليد له علاقة - ولو جزئيًا - برفضها . (د) ننتقل بعد ذلك إلى المستوى **التنظيمى الفرعى** المتعلق بجناح المستشفى حيث حدث العمل . فالوحدة أو الجناح يعانى نقصًا فى المخزون من القفازات ، حيث لا توجد إلا كمية محدودة من القفازات المعقمة . لماذا هذا الوضع ؟ . إنه يعود إلى الاستخدامات الكثيرة لهذه القفازات ، لماذا ؟ إنه يعود – أيضًا – إلى التعليمات الوطنية المنشورة حديثًا والمتعلقة بضبط العدوى من الأمراض . فحتى يحمى الأطباء أنفسهم والآخرين من المرض ، فإن المركز الوطنى للأمراض المعدية قد طالب العاملين فى القطاع الصحى بلبس القفازات المعقمة عند فحص المرضى بطريقة قد تتضمن الاحتكاك أو ملامسة الأطباء لما يصدر عن أجسام المرضى من سوائل (نظرًا لأنه ربما يكون المرضى مصابين بمرض نقص المناعة المكتسبة - الإيدز - أو أى مرض معد آخر) . (هـ) وباستمرار التحليل على المستوى **التنظيمى** ، فإننا نجد القفازات المعقمة بالمستشفى ليست كافية . وللتأكيد على حصول كل وحدة على قدر كاف من القفازات المناسبة لنوع العمل الخاص بها (جراحة ، إنعاش ، ... إلى آخره) ، فإن القفازات لا بد من الاحتفاظ بها فى مستودعات مؤمنة ولا يتم صرفها إلا حسب الحاجة . (و) بعد ذلك ننتقل إلى مستوى **المجتمع المحلى** لنجد أيضًا أن كمية القفازات المعقمة محدودة نظرًا لأن العديد من المستشفيات ودور العجزة والمسنين فى هذا المجتمع المحلى يأخذون فى الاعتبار تلك التعليمات الوطنية نفسها . هذه النقطة توصلنا إلى كل من إنتاج وتوزيع وتزويد القفازات المعقمة داخل المجتمع المحلى . ومن الواضح أن الموزعين المحليين واجهوا مشكلة عدم استعدادهم لزيادة الطلب مبكرًا على تلك القفازات المعقمة . (ز) والآن ننتقل إلى المستوى **الوطنى** حيث نشأت تلك التعليمات الجديدة لنتساءل عن أسباب ذلك ، وهنا فإنه من الممكن أن نقوم بتعقب هذا الوضع من

أوله إلى حين الوصول إلى التصور الحالى لمرض نقص المناعة المكتسبة . وعليه ، فإننا نستطيع أن نبين العلاقة بين مرض نقص المناعة المكتسبة وبين العمل فى وحدة من وحدات المستشفى من خلال التعقب التصاعدى خلال كل مستوى من المستويات الوضعية . فكل مستوى يتم إبعاده من المشكلة محور الاهتمام ، ومع هذا فكل مستوى من تلك المستويات يساهم فى فهم تلك المشكلة بمعنى عام .

وبمتابعة ما يتصل بالنتائج فى هذا المثال فإننا نلاحظ أن عمل كل من كبيرة المرضات والطبيبة قد تعرض للتغير بسبب الوسيلة المحتاج إليها . ويبدو أن الطبيبة لم تتذمر من ذلك ولكن ربما تذمرت من فقدانها لجزء من الوقت المخصص للعمل لدى إدارة المستشفى ، وعلى الرغم من أن الباحث لم يقم بمتابعة البحث إلى أبعد من ذلك ، فإنه من المعقول أن نستنتج أن زيادة الطلب على القفازات التى تمخضت عنها التعليمات الوطنية ، قد أدت إلى الضغط على الشركات المصنعة للقفازات على مستوى المجتمع المحلى والمستوى الوطنى ، كما أدت إلى زيادة إنتاج وتوزيع هذه الوسائل ؛ وذلك نظراً لأنه تبين مؤخراً بعد عدة شهور أن الحصول على قفازات معقمة لم يعد يمثل أية مشكلة فى المستشفى .

إن متابعة الأوضاع بهذا الأسلوب أمر مختلف تماماً عن مجرد القول إن مرض نقص المناعة المكتسبة ذو تأثير على عمل المستشفى ، ولكن مع ترك الأمر للقارئ ليخمن ويفكر فى كيفية حدوث ذلك . ونظراً لأننا نقوم بدراسة كيفية قيام كبيرة المرضات بالمحافظة على انسياب العمل ، فإننا سنهتم بتوضيح كيف أن الوسائل المتاحة (فى شكل المعدات والتجهيزات ونحو ذلك) ذات تأثير جوهرى فى قدرتهن على المحافظة على استمرارية انسياب العمل . وفى هذه الحالة ، فإن القفازات المعقمة بالمستشفى لم تكن كافية ؛ نظراً لزيادة الطلب منها بسبب التعليمات الوظيفية التى تم اقتراحها استجابة للتصورات الخاصة بمرض نقص المناعة المكتسبة المعدى .

والآن فإن هذا المثال يشير إلى حادثة جانبية ذات طريق أو مسار وضعى يمكن تغطيته بسهولة . وبطبيعة الحال ، فإن أى باحث لا يرغب فى متابعة مسار كل أو أى حادثة لاحظها خلال مشروعه البحثى . بل من المتوقع أن يختار الباحث فقط تلك الحوادث التى يبدو أنها مرتبطة بالظاهرة المحورية قيد البحث . وعليه ، فإنه من الممكن

للباحث ـ فى دراسته لانسياب العمل التى ترتكز على المستوى التنظيمى ـ أن يقوم فقط بتعقب تلك الأوضاع والنتائج المتصلة بالمشكلات المتكررة التى تؤدى إلى تعثر انسياب العمل أو تأخيره ، أو على النقيض من ذلك ، أن يقوم بتعقب تلك الأوضاع والنتائج التى تؤدى إلى المحافظة على مرونة انسياب العمل .

دراسة الظواهر على مستويات مختلفة من المصفوفة :

فى الجزء اللاحق سنتحدث باختصار وبشكل عام عن كيفية القيام بدراسة ظاهرة من الظواهر المتصلة بمستويات **مختلفة** من المصفوفة الوضعية ، والنقاط الرئيسية التى يجب أن تتذكرها هنا تتمثل فى الآتى :

١ - إن جميع المستويات يتم تطبيقها ، إلا أنه يمكن استخدامها وإبرازها - فقط - فى التحليل من خلال إيضاح صلتها بالظواهر محور التركيز ، ومن الممكن تحقيق هذا من خلال تعقب الطرق الوضعية . بعد ذلك ، فالأوضاع والنتائج يتم إدخالها فى التحليل من خلال النموذج الذى سبق تناوله فى الفصل السابع .

٢ - لا بد من الأخذ فى الاعتبار بالعملية فى التحليل ، وذلك فى هيئة الفعل المتغير الذى يحدث استجابة للأوضاع المتغيرة .

٣ - إن البعد الزمنى الآنى (Temporality) فى هيئة الماضى والحاضر والمستقبل يمثل فى حد ذاته وضعًا على كل مستوى من مستويات المصفوفة . فلكل تفاعل ومنظمة ووطن وجماعة مصالح خاصة وتاريخ خاص بها . وهذا التاريخ ذو علاقة بالفعل والتفاعل الحاضر ، بينما يصبح كل من الماضى والحاضر مع بعض جزءًا من المستقبل .

٤ - كما أن هناك أيضًا سمات خاصة محددة لا بد من وضعها فى الاعتبار ، وفيما يلى تتم مناقشة هذه السمات :

التفاعل :

عند دراسة التفاعل ، فإن الباحث يرغب فى الإحاطة بالطبيعة المتطورة للأحداث والتعرف على الأسباب المؤدية إلى المحافظة على استمرارية التفاعل أو تعثره .

والخطوة الإجرائية الأولى تتمثل فى تحديد موضع التفاعل فى المجموعة المباشرة من الأوضاع ذات الصلة به من خلال طرح تساؤل ، مثل : ماذا يتضمن ذلك ؟ وما الهدف منه ؟ وما الشكل أو الهيئة التى يظهر عليها ؟ . وماذا يفعل الناس ؟ وماذا يقولون ؟ وبماذا يفكرون حوله ؟ وماذا يحدث خلال التفاعل ؟ ، هل المتفاعلون على درجة واحدة فى التفاعل ، وهل كل منهم حساس تجاه الآخر ؟ ، هل أفعالهم وأقوالهم متطابقة أم أن هناك اختلافًا وعدم تطابق ؟ ، ما هى المخرجات الخاصة بكل سلسلة ؟ وكيف تؤثر المخرجات الخاصة بسلسلة واحدة فى السلسلة اللاحقة لها ؟

بعد ذلك ، فإنك تود أيضًا أن تأخذ فى الاعتبار فى تحليلك بمدى أوسع من الأوضاع ، ومن النقاط المهمة التى يحسن تذكرها ما يتمثل فى أن استجابة المتفاعلين - خلال السلسلة التفاعلية - تتأثر ليس فقط بما يحدث خلال التفاعل ذاته ، ولكن تلك الاستجابات تتأثر أيضًا بعلاقة الأوضاع الشاملة بالوضع الحالى . فليس كافيًا أن نقول ببساطة إن الأوضاع الأكثر اتساعًا وشمولاً (مثل : الوضع الاجتماعى ، أو الجنس ، أو الدين والقيم) تؤثر تأثيرًا قويًا فى التفاعل . إن عليك أن توضح كيف تؤثر مثل تلك الأوضاع على وجه التحديد على الاستجابات والأفعال خلال التفاعل الحالى . وفى الحقيقة ، فإنك تقوم هنا بوضع الإطار التفاعلى الأضيق فى الإطار البنائى الأوسع ومن ثم ربطه بذلك .

المنظمات :

عند دراسة ظاهرة مرتبطة بالمستوى التنظيمى ، فإن أية ظاهرة تحت الدراسة لا بد من تحديد موقعها فى منتصف المصفوفة على اعتبار أن الأوضاع تؤثر فى الظاهرة من الأعلى ومن الأسفل . وحتى عندما يقوم باحث بدراسة أفكار تجريدية ، مثل : انسياب المعلومات وصنع القرارات فى المنظمات ، فإن على الباحث أن يحدد مواقع الظاهرتين فى مستوى الفعل والتفاعل . ويعود هذا إلى أن الظاهرتين تمثلان الأشكال أو الهيئات التعبيرية التى تظهر من خلالها المعلومات والقرارات ونحو ذلك . فعلى سبيل المثال ، إذا قام باحث بدراسة صنع القرارات ، فإنه يحتاج إلى معرفة القرارات التى تم اتخاذها ومن قام بصنعها ، وأى فعل أو تفاعل جاءت تلك القرارات استجابة له ، وما

النتائج الواقعية والمحتملة المترتبة على ذلك ؟ . كما أن الباحث سيكون محتاجًا لمعرفة شيء ما عن صنع القرارات فى المنظمة فى الماضى من خلال من قام بصنع تلك القرارات ، ومتى تم ذلك ؟ ، وما المخرجات التى تترتب على صنع القرارات ؟ ، وبعدئذ فإن على الباحث ألا ينسى دور الأفراد داخل المنظمات الذين يقومون بصنع تلك القرارات والتى تصبح مهنهم وهويتهم مرهونة بالقرارات التى يقومون بصنعها . كما سيكون الباحث أيضًا محتاجًا لتحديد تأثير الأوضاع الأكثر اتساعًا وشمولاً فى عملية صنع القرارات ، مثل : الاعتبارات الاقتصادية والسياسية ، والمنافسة الوطنية والدولية ، والتنظيمات الحكومية والفيدرالية ونحو ذلك . وإذا لم يتم توجيه الاهتمام والاعتبار لبعض هذه الأوضاع على الأقل على مستوى كل مصفوفة ، فإنه يصعب الحصول على صورة دقيقة عن عملية صنع القرارات على المستوى التنظيمى .

العمليات التاريخية والسير الذاتية :

تعتبر المصفوفة الوضعية ذات صلة جوهرية أيضًا بالسير الذاتية للأفراد ، وكذلك بتواريخ الأمم والمنظمات . ومرة أخرى ، فإن الباحث سيكون محتاجًا لتحديد موقع العمليات التاريخية والسير الذاتية فى مستوى الفعل والتفاعل فى كل من الماضى والحاضر . وبعد ذلك سيكون فى حاجة إلى توضيح كيف أن الأوضاع الجارية فى وقت ما قد أثرت على ذلك الفعل والتفاعل ، وكذلك المراحل الوضعية الحاسمة التى يسرت أو أعاقت حركة الفعل والتفاعل ، أو تغيرهما عبر الزمن .

النظرية الجوهرية فى مقابل النظرية الصورية :

يحدث الخلط وعدم الوضوح فى بعض الأحيان بين مستويات وأنواع النظرية . وعليه فإن علينا أن نوضح الفروق بين هذين الأمرين هنا . ومن الممكن أن يكون لدى الباحث نظرية عن ظاهرة ما تم تحديدها على أى مستوى من المصفوفة : مثلاً ، كظاهرة على المستوى التنظيمى أو السيرة الذاتية (الشخصية) . ولكن هذا المستوى أو الموقع داخل المصفوفة ليس هو الذى يقوم بتشخيص النظرية كنظرية ذات طابع تجريدى (عام) عالٍ أم منخفض . فأى نظرية حول ظاهرة واقعة فى أحد المستويات

الخارجية من المصفوفة يمكن مع ذلك اعتبارها نظرية جوهرية ؟ . وعلى سبيل المثال : إذا كنت ترغب فى دراسة المكانة ، فمن الممكن أن تقوم بدراسة مكانة المديرين داخل منظمة . وفى هذه الحالة ، فإن الظاهرة تقع فى المستوى التنظيمى من المصفوفة . وعلى الرغم من أنها تقع فى المنتصف بين المستويات الواسعة والمستويات الضيقة ، فإنها من الممكن أن تكون مع ذلك دراسة لنوع واحد من حالات المكانة : أى بالنسبة للمديرين فى منظمة . لاحظ أن أى نظرية جوهرية تنشأ من الدراسة لظاهرة واقعة فى **إطار وضعى محدد واحد** .

أما *النظرية الصورية* من جانب آخر ، فتنشأ من دراسة ظاهرة تم فحصها فى ظل **عدة أنماط مختلفة من الأوضاع** . فعلى سبيل المثال ، عند تطوير نظرية صورية فمن الممكن دراسة المكانة فى أنواع متعددة من الأحوال ، مثل : مكانة السياسيين على المستوى الوطنى ، ومكانة الأشخاص داخل الأسر ، ومكانة الاشتراكيين فى أى مدينة ما ، ومكانة الوظائف أو المستويات المهنية المتنوعة داخل المنظمات الأكاديمية . لاحظ أنه إذا كنت ستختار عينة بطريقة واسعة ، مثل : مكانة المديرين فى المنظمات المختارة عشوائيًا من مناطق مختلفة من الدولة ، فإنه لا يزال لديك نظرية جوهرية . ومع هذا ، فإنك تستطيع أن تعمم النتائج المتعلقة بمكانة المديرين على كل الدولة ، بدرجة من الاطمئنان أكبر مما لو قمت بدراسة مكانة المديرين فى منظمة واحدة ، وفى إقليم واحد من أقاليم الدولة .

والخطأ الذى يقع فيه الباحثون أحيانًا يتمثل فيما يعتقدونه من أنهم يستطيعون القفز أو التحول السريع فيما بين النظرية الصورية والنظرية الجوهرية لأنهم يقومون بالتعميم لأنواع مختلفة من الحالات بدلاً من دراسة الظاهرة فى حالة واحدة فقط . ومهما اقترح الباحث بحذر واحتراس قابلية نظريته الجوهرية للتطبيق الواسع ، فإن ذلك من غير الممكن بالتأكيد ، إلا إذا كانت تلك الحالات الأخرى قد تمت دراستها أيضًا . ويمثل هذا فى الواقع الكيفية التى يمكن خلالها تطوير النظرية الجوهرية إلى نظرية صورية (Glaser, 1978, pp : 142-157; Glaser & Strauss, 1967, Strauss, 1987, pp : 240-248) . وباختصار فإن ما يميز النظريات الجوهرية من النظرية الصورية ليس هو مستوى الأوضاع ، بل الأحوال المدروسة المختلفة .

الملخص :

المصفوفة الوضعية التى تناولناها فى هذا الفصل تعد أداة تحليلية قوية للإحاطة بالعديد من الأوضاع والنتائج المرتبطة بظاهرة من الظواهر . ومن خلال متابعة وتعقب الطرق أو المسارات الوضعية والطرق الناتجة عنها خلال المستويات المختلفة من المصفوفة ، فإن الباحث يستطيع تحديد المستويات ذات الصلة الحقيقية ، وبعد ذلك يقوم بربط تلك المستويات ذات الصلة بالظاهرة من خلال تأثير تلك المستويات بالفعل والتفاعل .

الفصل الحادى عشر
الاختيار النظرى

تحديد المصطلحات :

الاختيار النظرى (Theoretical Sampling): هو ذلك الاختيار الذى يتم وفقًا لتلك المفاهيم التى ثبتت صلتها النظرية الحقيقية بالنظرية الآخذة فى التطور .

الصلة النظرية الحقيقية (Proven Theoretical Relevance) : يشير ذلك إلى أن المفاهيم تعتبر ذات أهمية نظرًا لأنها حاضرة وماثلة باستمرار أو غائبة باستمرار عند مقارنة الحوادث حادثة بحادثة ، كما أن تلك المفاهيم ذات أهمية كافية لإعطائها مكانة الفئات .

الاختيار المفتوح (Open Sampling) : هو ذلك الاختيار المرتبط بالترميز المفتوح ، فالانفتاح والعمومية لا التحديد والخصوصية يوجهان الخيارات البديلة لعملية الاختيار النظرى . ويمكن القيام بتنفيذ الاختيار المفتوح ، إما بأسلوب هادف ومنظم أو عن طريق المصادفة . ويشمل ذلك الاختيار النظرى الذى يتم أثناء جمع البيانات .

الاختيار المتنوع والمترابط (Relational and Variational Sampling) : هو ذلك الاختيار المرتبط بالترميز المحورى ، والهدف من هذا النوع هو زيادة النتائج المتصلة بالفروق والاختلافات على المستوى البعدى ، ويمكن القيام بتنفيذ الاختيار المتنوع والمترابط بأسلوب مقصود أو منتظم .

الاختيار التميزى (Discriminate Sampling) : هو ذلك الاختيار المرتبط بالترميز الانتقائى ، والهدف من هذا النوع هو زيادة فرص تنويع مسار القصة والعلاقات فيما بين الفئات ، وسد الفجوات فى الفئات المحتاجة إلى التطوير .

فى هذا الفصل نقوم بتوضيح المعنى المقصود من الاختيار النظرى الذى يعتبر أمرًا يثير الارتباك لدى الأشخاص الذين يقرؤون دراسات النظرية المجذرة . وتتمثل الأسئلة

التى نطرحها فى هذا الفصل فيما يلى : ما المقصود بالاختيار النظرى ؟ لماذا نستخدم الاختيار النظرى بدلاً من أشكال أخرى ؟ كيف يقوم الباحث بتنفيذ ذلك ؟ وكيف يستطيع المحافظة على الاختيار النظرى منتظماً ومتوافقًا بدون أن يكون صلبًا وجافًا ؟ ما مقدار الاختيار النظرى الواجب على الباحث القيام به ؟ ومتى يقوم بذلك ؟ ومتى يعلم الباحث أن ما قام به من اختيار نظرى فيه الكفاية ؟ وكيف يختلف الاختيار النظرى عن أنماط الاختيار التقليدية ؟ .

نظرة عامة :

تذكر أن المفاهيم تمثل أساس التحليل فى بحوث النظرية المجذرة . فجميع إجراءات النظرية المجذرة تهدف إلى تحديد المفاهيم وتطويرها والربط بينها . وعندما تقول إن باحثًا يقوم بالاختيار ، أو يختار نظريًا ، فإنه يعنى الاختيار النظرى وفقًا للمفاهيم التى ثبتت صلتها النظرية بالنظرية الآخذة فى التطور . أما **مصطلح «الصلة النظرية الحقيقية»** فيعنى أن مفاهيم معينة تعتبر على درجة كافية من الأهمية نظراً للآتى : (١) **وجودها المتكرر** أو **غيابها الملاحظ** عند مقارنة الحوادث بحادثة حادثة ، و (٢) كما أن تلك المفاهيم تكتسب – خلال الترميز المفتوح – **صبغة أو مكانة الفئات** (انظر الفصل الأول لمناقشة الفئات) . حيث يتمثل الهدف من الاختيار النظرى فى اختيار الحوادث والأحداث ونحو ذلك ، مما تشير إلى الفئات بما لها من خواص وأبعاد حتى يستطيع الباحث تطوير هذه الفئات والربط بينها .

لاحظ أننا قلنا **إننا نختار الحوادث** ولم نقل الأشخاص فى حد ذاتهم ، وهدفنا يتمثل فى جمع معلومات حول ما يقوم به وما لا يقوم به الأشخاص من فعل وتفاعل ، وكذلك الأنواع المختلفة من الأوضاع التى تؤدى إلى ذلك الفعل والتفاعل والاختلافات فى ذلك ، وكيف تتغير الأوضاع أو تأخذ فى الاستمرار على حالتها عبر الزمن وما يترتب على ذلك من تأثير ، كذلك النتائج الناجمة عن الفعل والتفاعل الحقيقى أو التى لم تظهر أو النتائج الناجمة عن الإستراتيجيات التى لم يتم تطبيقها .

كما أن الأسئلة والمقارنات الناشئة أثناء التحليل التى تساعد الباحث على اكتشاف الفئات والربط بين ما هو مهم منها وبين خواصها وأبعادها ، تقوم بمهمة توجيه عملية

الاختيار النظرى . كما تقوم عملية طرح التساؤلات وعقد المقارنات بتحقيق أغراض مختلفة لكل أسلوب من الأساليب الثلاثة للاختيار - كما سيتم مناقشة ذلك لاحقًا - كما أن للاختيار النظرى خصائص مختلفة تبعًا لاختلاف أنواع الترميز .

كما يعتبر الاختيار النظرى **ذا طبيعة تراكمية** ، وذلك نظرًا لأن المفاهيم والعلاقات فيما بينها تتراكم من خلال التفاعل بين عملية جمع البيانات وعملية التحليل . وإضافة إلى ذلك ، فإن الاختيار النظرى يزداد من حيث **العمق والتركيز** . ومع بداية الاختيار يكون اهتمام الباحث منصبًا على توليد أو صياغة أكبر قدر ممكن من المفاهيم ، وعليه فإنه يقوم بجمع معلومات عن مدى واسع من المواضيع ذات الصلة ، أما لاحقًا فإن التركيز والاهتمام يتحولان إلى تنمية الفئات وجعلها أكثر عمقًا وتشبعًا ، وهنا فإن جمع البيانات يصبح أكثر تركيزًا على مواضيع محددة . كما أن **التماسك** أمر مهم فى الاختيار النظرى ، والمقصود بالتماسك هنا الجمع المنظم للبيانات عن كل فئة .

كما أن الاختيار النظرى يؤكد على عملية ملاحظة **التنوع والاختلاف والعملية والعمق** أيضًا . وللسبب نفسه فإن الباحث يحتاج إلى درجة معينة من **المرونة** ؛ لأنه لا بد أن يستجيب للأحوال ذات الصلة التى ربما تنشأ عندما يكون فى الميدان لجمع البيانات ، وأن يقوم فى الوقت نفسه بالاستغلال الأمثل للبيانات ذات الصلة . والمقصود بالمرونة قدرة الباحث على بحث ومتابعة مواضيع للبحث من تلك التى لم تكن متوقعة أو لم يخطط لها ، إلا أنها مع هذا تظهر موضحة أو مضيفة فكرة جديدة للموضوع الذى يعمل فيه الباحث ، كما أن المرونة ذات أهمية عند اكتشاف مواضيع جديدة أو غير مخطط لها ، وذلك لأنها تتيح للباحث انتقاء سبل الاختيار النظرى ذلك الذى يؤدى إلى العائد النظرى العظيم .

وفى معظم الأحيان ، فإنه لا بد أن يكون الاختيار النظرى **مخططًا له** ، لا أن يتم بالمصادفة ، ومع ذلك **يجب الاحتفاظ بدرجة ما من المرونة فى نفس الوقت** . فالشدة والصرامة فى الاختيار النظرى تعوق توليد أو صياغة النظرية التى تمثل عامة الهدف الرئيس من النظرية المجذرة ، كما لا بد من القيام بالاختيار النظرى والتحليل بشكل ترادفى على أن يقوم التحليل بتوجيه عملية جمع البيانات ، وإلا فإن الباحث يكون قد انتهك أحد أهم القوانين الرئيسية فى طريقة النظرية المجذرة الذى يتمثل **فى الاختيار النظرى حسب الصلة النظرية للمفاهيم الناشئة والمتطورة** .

اعتبارات عامة :

عند الشروع فى القيام بدراسة فى النظرية المجذرة ، فلا بد للباحث أن يفكر فى عدد من الأمور المتعلقة بالاختيار النظرى . وهذه الاعتبارات المبدئية المتعلقة بالاختيار النظرى ربما تتعرض للتغير عندما تبدأ المشروع البحثى ، ومع هذا فإنها تحدد للباحث الوجهة والمكان الذى يمكنه من البدء فى الدراسة . وأى شىء يحدث عندما تبدأ عملية جمع البيانات فى الواقع أمر يعود إلى مدى مطابقة هذه الاعتبارات الأولية الخاصة بالاختيار النظرى لواقع وحقيقة البيانات ، وهذه الاعتبارات ، هى :

١ - لا بد من تعيين أو اختيار مكان ما أو جماعة ما تدور حولها الدراسة ، وبطبيعة الحال ، فإن اختيار وتعيين ذلك أمر يعود إلى السؤال الرئيسى لدراستك . وعلى سبيل المثال ، عندما يكون الباحث راغبًا فى دراسة صنع القرارات من قبل المديرين ، فإنه يجب عليه الذهاب لتلك الأماكن حيث يقوم المديرون بصنع القرارات وذلك ليرى ما يقومون به ، وللحصول على الإذن من الجهات المعنية لاستخدام المكان .

٢ - لا بد أن يتم تقرير أنواع البيانات التى سيتم استخدامها . فهل ترغب كباحث أن تستخدم الملاحظات ، أو المقابلات ، أو الوثائق ، أو أشرطة الفيديو ، أو الأشرطة المسجلة ، أو مزيجًا من جميع هذه الأنواع ؟ . ويتم تحديد الخيار هنا تبعًا لمعيار المصداقية والمناسبة ، أى تحديد طريقة جمع البيانات القادرة والكفيلة على جمع وتأمين أنواع البيانات المطلوبة .

٣ - عند قيام الباحث بدراسة عملية ناشئة أو تطورية ، فإنه يحتاج إلى تقرير ما إذا كان يحتاج إلى متابعة الأشخاص المبحوثين أنفسهم عبر الزمن أم يكتفى بمتابعة أشخاص مختلفين فى أوقات مختلفة .

وفى البداية ، فإن الاعتبارات الخاصة بعدد الأماكن وبالملاحظات أو بالمقابلات تعتمد أيضًا على كلٍ منْ إمكانية الوصول إلى تلك الأماكن ، والإمكانات المتاحة ، وأهداف البحث ، بالإضافة إلى ما هو متاح لدى الباحث من وقت وطاقة . ولاحقًا ، فإن هذه الاعتبارات يمكن تعديلها وفقًا للنظرية الناشئة .

أدلة الملاحظة والمقابلة :

عندما يتم الحسم أو التوصل إلى تلك الاعتبارات الأولية ، فإن الباحث يصبح جاهزًا للقيام بإعداد قائمة تضم أسئلة المقابلة أو مواضيع الملاحظة . (وفى الغالب فإن تلك القائمة أو المواضيع لا بد من عملها للوفاء بالشروط التى تتطلبها اللجان الإنسانية المنوط بها حماية حقوق الأفراد) . وتعتمد الأسئلة المبدئية للمقابلة أو المواضيع المحددة للملاحظة على تلك المفاهيم التى تم التوصل إليها من خلال التراث الفكرى أو من خلال تجارب الباحث نفسه . ونظرًا لأن هذه المفاهيم – حسب ما تعرف – لم تثبت أو تتبين حتى الآن صلتها النظرية بالنظرية الناشئة ، فإنه يتعين النظر إلى تلك المفاهيم كمفاهيم مؤقتة . وعلى الرغم من ذلك ، فإن تلك المفاهيم تعطى **رؤية مبدئية** – نقطة بداية – أو مكانًا ينطلق منه الباحث .

وعند ابتداء عملية جمع البيانات ، فإن الأدلة المبدئية للمقابلة والملاحظة يجب أن تكون كذلك على هذه الشاكلة : أدلة مبدئية فقط . ويؤدى الالتزام الصارم بتلك الأدلة المبدئية خلال الدراسة البحثية إلى كل من **منع** الإمكانات المتأصلة فى الحالة المبحوثة من الظهور فى البيانات ، وتقييد كمية ونوعية البيانات المجموعة ، وإعاقة الباحث من تحقيق تلك الكثافة والتنوع فى المفاهيم الضرورية لتطوير نظرية مجذرة . **إن عليك أن تتذكر أن الاكتشاف يمثل الهدف من وراء النظرية المجذرة ، وعليه فإن كلاً من جمع البيانات والاختيار النظرى المرتبط به يجب أن يبنى ويعد بطريقة تسمح بذلك** .

إجراءات الاختيار النظرى :

يتم توجيه الاختيار النظرى فى النظرية المجذرة بواسطة الهدف والمنطق من وراء *الأنواع الرئيسية الثلاثة لإجراءات الترميز* كما سنرى أدناه . إضافة إلى ذلك فالاختيار النظرى مرتبط عن كثب بالحساسية النظرية بصرف النظر عن نوع الترميز . فكلما كان الباحث أكثر حساسية للصلة النظرية الحقيقية لمفاهيم معينة ، كان من المحتمل أن يضع فى اعتباره المؤشرات الدالة عليها فى الميدان والبيانات . وغالبًا فإن هذه الحساسية تنمو خلال فترة سريان المشروع البحثى ، وتساعد الباحث على تحديد

المفاهيم التى سيبحث عنها ، وعن الأماكن التى سيجد فيها أدلة ، وكيف يستطيع النظر إليها كمؤشرات دالة عليها .

ونظراً لأن الحساسية النظرية تتزايد مع مرور الزمن ، فإن من الخصائص المتعة لبحوث النظرية المجذرة ما يتعلق بكون الباحث **يستطيع القيام بالاختيار النظرى من البيانات التى تم جمعها سابقًا ، وكذلك من تلك البيانات التى سيتم جمعها لاحقًا** . وليس من النادر فى المراحل الأولى من المشروع البحثى أن يفوت على الباحثين أو يعجزوا عن الانتباه إلى أهمية معانى حوادث أو سلسلة من الأحداث المعينة ، وذلك بسبب الافتقار إلى الحساسية النظرية . وعندما يتم لاحقًا تطوير أفكار جديدة ، فإن الباحث يستطيع بطريقة نظامية العودة إلى البيانات القديمة **وترميزها فى ضوء المعرفة الإضافية الجديدة** .

الاختيار النظرى فى الترميز المفتوح :

يتمثل الهدف من الترميز المفتوح بطبيعة الحال فى كل من اكتشاف الظواهر وتسميتها ووضعها فى فئات : وكذلك فى تطوير فئات من خلال ما لها من خواص وأبعاد . كما **أن الهدف من الاختيار النظرى هنا** يتمثل فى اكتشاف أكبر قدر ممكن من الفئات ذات الصلة النظرية المكنة إضافة إلى ما يتبعها من خواص وأبعاد . ونتيجة لذلك ، فإن الاختيار النظرى خلال هذه المرحلة من المشروع البحثى مفتوح أيضاً . فالاختيار مفتوح لأولئك الأشخاص وتلك الأماكن والأحوال التى ستتيح **الفرصة الكبرى لجمع المعلومات ذات الصلة القوية** بالظاهرة قيد الدراسة .

وفى *الاختيار المفتوح* ، فإن تحديد من ستجرى معهم المقابلة أو أماكن الملاحظة أمر متجانس ، بمعنى أن الباحث يستطيع أن يحدد الشخص الثالث الذى يدخل الباب أو يستطيع بانتظام أن يقوم بعملية الاختيار هذه من قائمة من الأسماء . ونظراً لأننا غير متأكدين من المفاهيم ذات الصلة بالنظرية ، فإننا قد لا نعرف عند هذا الحد الأماكن أو الأشخاص أو الوثائق التى تسمح بفرصة أكبر للبحث عن أدلة لما لدينا من مفاهيم . ففى البداية ، نكون مستوعبين لجميع الاحتمالات . **هذه هى الانفتاحية – وليس الانغلاق – التى توجه خيارات أو بدائل الاختيار النظرى المبدئى** .

وخلال كل مقابلة أو ملاحظة أو قراءة وثائق فإنك ترغب فى استيعاب واكتشاف البيانات ذات الصلة المحتملة . وبناء على ذلك ، فإنه من الأفضل أن تقوم بتنظيم ملاحظاتك أو مقابلاتك أو قراءاتك للوثائق بطريقة محكمة الإغلاق . وعوضًا عن ذلك ، فإنك فى حاجة لأن تسمح بمكان كاف لظهور مفاهيم أخرى ذات صلة ممكنة فى ذات الوقت الذى تقوم فيه بالتفكير تجاه المواضيع التصورية التى قدمتها للبحث أو تلك التى اكتشفتها خلال عملية البحث .

ويتطلب الاختيار المفتوح مهارات عالية فى إجراء المقابلات والملاحظات كما يتطلب باحثًا قادرًا على الشعور بالارتياح أثناء انتظاره لحدوث شىء ما أو لشخص يقول شيئًا فى غاية الأهمية . كما أن هذا الاختيار يحتاج إلى باحث يعرف كيف يسبر غور الآخرين بدون أن يثير حفيظة المبحوثين ، كأن يطلب منهم إعادة سلوك أو كلام معين أو أن يطلب منهم التصرف كما هو متوقع .

ومن المهم فى الاختيار المفتوح المحافظة على الموازنة بين **التماسك** (المتمثل فى الجمع المنظم للبيانات ذات الصلة بالفئات) وبين **التوصل إلى الاكتشافات** (المتمثل فى اكتشاف فئات جديدة أو خواص وأبعاد جديدة) .

إن معرفة **الوصول** إلى المبحوثين وكيفية **طرح التساؤلات** عليهم ، وكيفية **القيام بملاحظتهم** ، وكيفية **قراءة الوثائق واستعراض** الأشرطة السمعية والبصرية ، تعتبر جميعها أمورًا على درجة عالية من الأهمية فى عمليات البحث ، وتشكل جزءًا من خصائص الباحث التى تؤدى إلى تلك الموازنة المهمة وتسمح بها . وحتى تتمكن من جمع البيانات من خلال الاختيار النظرى ، فمن الواضح أن كل باحث (سواء كان بمفرده أو كان عضوًا فى فريق بحثى) لا بد أن تكون لديه مهارات عالية (وأن يتلقى تدريبات لازمة) كفيلة بالقيام بالمقابلات والملاحظات وأحيانًا القيام بالدراسات الوثائقية . فليس من الممكن القيام ببحث فى النظرية المجذرة باستخدام بيانات مقابلات أو بيانات حقلية يفتقر القائمون بها إلى الخبرة والدراية فى إجرائها (كما هو الحال غالبًا فى البحوث المسحية) . وإذا كنت فى حاجة إلى معلومات عن وسائل المقابلة والملاحظة ، فمن الممكن أن تستفيد من الكتب الآتية :

(Burgess, 1982; Hammersley & Atkinson, 1983; Johnson, 1975; Schatzman & Strauss, 1973)

عملية الاختيار المفتوح :

يلى عملية الجمع الأولى للبيانات مباشرة جلسة تحليلية تقوم فيها بفحص تلك البيانات وفقًا للإجراءات الموضحة فى الفصلين الخامس والسادس .

وعليك أن تتذكر - وأنت تواصل ترميزك المفتوح - أن عليك القيام بعقد المقارنات وإثارة التساؤلات . فتلك الأسئلة وما نتج عن المقارنات من نتائج انبثقت (الفئات والفئات الفرعية) ، وسوف يتم بعد ذلك إضافتها إلى القائمة الأساسية الخاصة بأسئلة المقابلة ومواضيع الملاحظة . كما أن المقابلات والملاحظات المنتهية والمنفذة لا بد من تحليلها مباشرة كلما كان الأمر معقولاً . وكنتيجة لذلك ، فإن بعض المفاهيم التى أتيت بها معك لميدان جمع البيانات سوف يتضح لك عدم أهميتها وعدم صلتها ، وعليه يتعين إهمالها وصرف النظر عنها أو تعديلها أو استبدالها بتلك المفاهيم التى نشأت وبزغت أثناء البحث .

أما فيما يتعلق بالاختيار ، فإن الجوانب المهمة فيه تتمثل فى عقد المقارنات التى تعطى الباحث القدرة على القيام بعملية الاختيار فى المكان **الذى تجمع فيه البيانات** .

وعندما تقوم بالمقابلة أو الملاحظة **فإن عليك أن تكيف ما تقوم به من ملاحظات ومقابلات** بالطريقة التى تمكنك من أن تقرر مباشرة ماذا ستركز عليه ؟ ، وماذا ستسأل عنه ؟ ، وأين ستبحث فيه ؟ . ونلاحظ أن بعض تلك الأسئلة أو الأشياء التى قررت التركيز عليها والتى قدمت بها معك لمكان الملاحظة أو المقابلة ستقوم بتجاهلها بسرعة . فتلك الحساسية ـ الموازية للاختيار النظرى فى مكان جمع البيانات ـ التى تجرى خلال فترة المقابلة والملاحظة سوف تؤدى إلى المحافظة على كثير من الوقت لاحقًا . ولن تحتاج للقيام بمقابلات أو ملاحظات مرة أخرى حتى تسترجع المعلومات المهمة المفقودة . وعلى الرغم من ذلك ، فمن الأهمية بمكان أن تدع الباب مفتوحًا كى تتمكن من العودة إلى الميدان عندما يكون من الضرورى عمل ذلك .

وستتمكن من الوصول إلى بعض الفئات التى تقوم بعملية الاختيار النظرى بصددها بطريقة استقرائية (على نحو ما تم توضيحه فى الفصل الخامس) فى حين أن البعض الآخر سيحدث نتيجة للتفكير الاستدلالى للباحث من خلال التحليل . ومن المهم

دائمًا أن تتذكر فى كل وقت أن عليك أن تتحدى تلك المفاهيم ووجهات النظر التى قدمت بها معك إلى ميدان البحث ، أى أن تقوم بتحدى تلك المفاهيم بمقابلتها بواقع الحالة المعيش ، وذلك كلما قمت بمواجهتها وتفهمها .

التنوع فى وسائل الاختيار :

من الممكن القيام بالاختيار المفتوح من خلال طرق متنوعة . ونظراً لأن لكل طريقة مميزاتها وعيوبها الخاصة بها ، فإن الجمع بين أكثر من وسيلة ربما يشكل أكثر الطرق فائدة للاستخدام من مثل :

١ - إنك تستطيع **بأسلوب هادف** البحث عن البيانات ذات العلاقة بالفئات وما يتبعها من خواص وأبعاد . أى أنك تقوم بطريقة مدروسة باختيار الأماكن والأشخاص والوثائق . وعلى سبيل المثال عند القيام بدراسة حول العمل الطبى بالمستشفيات فقد تمكنت إحدى الفرق البحثية من اكتشاف أن الآلات الموجودة بالمستشفى لها خواص متعددة (Strauss, 1985) ، وتتضمن هذه الخواص كلاً من : الحجم ، والمكانة ، وعندهما قام الفريق البحثى بالاستمرار فى طريقة مدروسة ومحكمة لاختيار الحوادث والأحداث المرتبطة بالآلات وفقًا للأبعاد المختلفة عن تلك الخواص وخواص أخرى عند قيامهم بمقارنة أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها . ومن أنواع الآلات التى تم اختيارها ما يتمثل فى الفاحص (البيانى الإشعاعى المحورى الآلى) من نوع (ACT) . وذلك نظراً لأن أبعاده المحددة (مثل : كبر حجمه ، وارتفاع ثمنه ، ومكانته المرتفعة) تضاعف الفرص من اكتشاف الفوارق أو الآثار المترتبة على مثل هذه الآلة بالنسبة للعناية بالمرضى أو بالنسبة لعمل أعضاء الفريق الطبى .

٢ - الطريقة الأخرى للاختيار المفتوح تتمثل فى أن تستمر **بأسلوب منتظم** منطلقًا من شخص أو مكان إلى شخص أو مكان أخر من خلال قائمة تحتوى على الأشخاص أو الأماكن (أو منطلقًا من أى شخص دخل من الباب أو وافق على المشاركة فى الدراسة) ، وذلك لتقوم بالبحث عن دليل لتلك الحوادث أو الأحداث ، ونحو ذلك مما تشير إلى كل فئة وتتيح المقارنة فيما بين الفئات . فبدلاً من زيادة فرص اكتشاف

أوجه الشبه وأوجه الاختلاف ، فإن هذا الإجراء يتيح للباحث اكتشاف الفوارق الأكثر دقة مما هو شديد الوضوح ، كما هو الحال عند مقارنة الأضداد القطبية على سبيل المثال . كما يتيح ذلك المحافظة على درجة عالية من التماسك فى جمع البيانات ، وقد استخدمنا هذا الإجراء عند دراستنا لدور كبيرة المرضات فى المحافظة على استمرارية انسياب العمل فى المستشفى . ونظراً لأننا لا نعرف فى البداية إلا القليل عن المستشفيات المحددة التى تمت زيارتها وعن كبيرة المرضات ، فقد بدأنا من وحدة إلى وحدة مركزين على كبيرة المرضات بكل وحدة ممن لديهن الرغبة فى المشاركة فى الدراسة . وفى النهاية ، وجدنا أن كل وحدة من الوحدات بالمستشفى تختلف عن الوحدات الأخرى من حيث البناء التنظيمى ، الأمر الذى قدم لنا أساساً سليماً لمقارنة أعمال المرضات .

٣ – بعدئذ ، فإن البيانات ذات الصلة بالاختيار المفتوح كذلك ، تنزع أو تظهر أحياناً وحتى غالباً **بالمصادفة** إلى حد كبير . إذ نصادف هذه البيانات أو نجدها خلال الملاحظات الحقلية أو أثناء المقابلات وقراءة الوثائق ، ومن المهم أن تضع فى الاعتبار الأهمية التحليلية للحادثة أو للحدث الذى يأتى من كون الباحث ذا عقلية مفتوحة وفاحصة وواعية على الدوام بالبيانات المهمة . وعندما ترى شيئًا جديداً أو مختلفًا ، فإن عليك أن تتوقف لتسأل نفسك : ما هذا ؟ وماذا يمكن أن يعنى ؟ وبذلك تكون الحساسية النظرية لديك قد ارتبطت خلال الترميز المفتوح بالاختيار النظرى .

الاختيار النظرى فى الترميز المحورى .

الاختيار النظرى المتنوع والمترابط :

بطبيعة الحال فإن الترميز المفتوح يتم اتباعه وموازنته بالترميز المحورى . إذ لا يزال الاختيار النظرى هنا ينشأ وينبثق فى ضوء المفاهيم ذات الصلة النظرية (الفئات) . ولكن التركيز هنا يتغير . تذكر أن الهدف فى الترميز المحورى ينصب على الربط المحدد بين الفئات والفئات الفرعية التى تم اكتشافها خلال الاختيار المفتوح ، كما ينصب على وجود دليل على التنوع والاختلاف والعملية المتصلة بتلك الفئات والفئات الفرعية .

فأنت تقوم بربط الفئات من خلال النموذج المتكون من الأوضاع ، والإطار ، والفعل والتفاعل والنتائج . وعليه فالاختيار هنا يركز على **اكتشاف هذه العلاقات والتحقق من صحتها** . الباحث هنا يقوم باقتراح عبارات تنطوى على علاقات ، وعندما يكون فى الميدان بعد ذلك ، فإنه يقوم بتحديد ما إذا كانت تلك العلاقات صحيحة ومدعمة أم لا .

إضافة إلى ذلك ، تذكر أنك فى حاجة لاكتشاف شواهد أخرى للأحداث والحوادث التى تشير إلى الفوارق والتغير فى الأوضاع والأطر والأفعال والتفاعلات والنتائج . وأنت تعمل ذلك لاكتشاف الاختلاف والتنوع والعملية وجعل الفئات أكثر عمقًا . ويعنى هذا أنك عندما تكون فى الميدان فإنك تحتاج إلى **تعقب** فئة ما . ومرة أخرى ، فإن إثارة **التساؤلات وعقد المقارنات تعتبر أدلة مهمة للاسترشاد بها** . وعليك أن تثير أسئلة مثل : هل يوجد دليل فى هذه الحالة على مدى الصلة النظرية لهذه الفئة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما هى الهيئة أو المعنى الذى تبدو فيه تلك الفئة هنا ؟ هل الظاهرة هى نفسها أم إنها مختلفة عن الحالات السابقة ؟ وما هى الخواص التابعة لها هنا ؟ ما هى الأوضاع التى أدت إلى وجودها ؟ ما الإطار المحدد الذى تبدو فيه ؟ ما الأوضاع المعترضة التى تفاعلت مع بعضها لينبثق عنها هذا التنوع ؟ ما هو نمط الفعل والتفاعل ؟ وكيف تتغير هذه الأفعال والتفاعلات عبر الزمن ؟ وماذا حدث نتيجة لذلك ؟ فاختيارك النظرى لا بد أن يكون ذا صلة بتلك الأسئلة .

عملية الاختيار المتنوع والمترابط :

فى الاختيار المتنوع والمترابط الذى يقوم به الباحث خلال الترميز المحورى ، **يحاول الباحث أن يجد أكبر عدد ممكن من الفوارق على المستوى البعدى فى البيانات** . وهنا كما هو الحال فى الاختيار المفتوح توجد طرق مختلفة للشروع فى هذا النوع من الاختيار . فمرة أخرى ، تستطيع أن تعمل كما فى الاختيار المفتوح **بأسلوب منظم** منطلقًا من حالة إلى حالة لجمع بيانات عن الفئات ذات الصلة النظرية . أما الطريقة الأخرى فتتمثل فى أن تقوم **بطريقة هادفة** باختيار الأشخاص والأماكن أو الوثائق التى تمنح فرصًا أكثر لاستخراج تلك البيانات المتصلة بالاختلاف والتنوع عبر أبعاد الفئات

وتلك التى توضح ماذا يحدث عندما يظهر التغير . ومع ذلك ، فإن الإجراء الآخير هذا ربما تكمن صعوبته إذا كنت لا تعرف مكانًا أو شخصًا أو وثيقة معرفة كافية قبل الملاحظة فالمقابلة تمكنك من صنع ذلك الخيار . كما أن هذا الإجراء يمكن أن يكون صعبًا إذا كنت لا تستطيع الوصول إلى الأماكن أو الأشخاص أو الوثائق ، وعليه يجب عليك أن تقوم فى الواقع بالاختيار فى ضوء تلك الأشياء التى تستطيع الوصول إليها أو تصادفها .

وعندما تتوفر لديك الفرصة لاختيار (من وماذا ومتى) للمعاينة ، فربما بعد ذلك تقوم فى الشروع **بطريقة استنتاجية** فى صياغة الفروض حول العلاقات والفرق المتوقع فى ظهورها إذا كنت تقوم بتنويع الأبعاد التابعة لخواص الظاهرة . وعلى سبيل المثال ، إذا كان الوقت من اليوم يبدو ذا علاقة بالظاهرة محور الاهتمام ، فإنك تحتاج عندئذ أن تجمع بطريقة مدروسة بيانات فى أوقات مختلفة من اليوم حتى تتمكن بدقة أكثر من تحديد تلك العلاقة أو الفوارق .

ومرة ثانية فإن الشىء المهم والجدير بالانتباه فى الاختيار المتنوع المترابط يتمثل فى الآتى : إن البحث عن أماكن مختلفة ، أو موضوعات ، أو وثائق لا يشكل القضية الحقيقية ، **فأنت مهتم بالاختيار فى ضوء المفاهيم ذات الصلة النظرية** ، سواء قمت بالاختيار وفقًا لما هو ممكن ومتاح ، أو تمكنت بطريقة مدروسة من اختيار الأماكن التى ستذهب إليها لجمع البيانات . وعندما يحين الوقت للتعامل مع الحوادث والأحداث والظواهر المرتبطة بها ، فستجد أن من النادر جدًا أن حادثتين أو حدثين أو أكثر متطابقة فى صلاتها الوضعية والأطرية والفعلية والتفاعلية ، وكذلك مدى صلة وأهمية ما يترتب على تلك الأحداث والحوادث من نتائج . فإذا كنت قد قمت بالاختيار فى ضوء المفاهيم ذات الصلة بالنظرية ، فأنت تقوم فعلاً بالاختيار النظرى بصرف النظر عن الكيفية التى شرعت فيها بالاختيار وما انبثق عن ذلك . ومن المتوقع أن اكتشاف التغير والعملية وتحقيق العمق المطلوب تتطلب وقتًا أطول عند السعى فى الاختيار عن **طريق الصدفة** (أى ذلك هو الشىء الممكن) بدلاً من السعى فى الاختيار عن **طريق الانتقاء والاختيار** . ومع هذا فإن الانتقاء والاختيار من الممكن عمله بدرجة عالية من النجاح .

ومع هذا فإن الاختيار الانتقائى العالى يصبح ذا أهمية معينة عند قيام الباحث بالترميز الانتقائى ، أما لماذا يكون هذا الاختيار ذا أهمية معينة ، فسيتم توضيحه وبيانه فى الفقرة اللاحقة .

الاختيار فى الترميز الانتقائى .

الاختيار التميزى :

يتمثل الهدف من الترميز الانتقائى فى ربط الفئات عبر المستوى البعدى لبناء وصياغة نظرية ، وللتأكد من صحة العبارات المنطوية على علاقات ولسد الفجوة فى تلك الفئات التى لا تزال فى حاجة إلى مزيد من النمو والتطوير . وعليه فالاختيار لا بد أن يصبح **موجهًا ومدروسًا** بدرجة كبيرة ، إضافة إلى الخيارات المدركة الخاصة بمن سيتم من بينهم الخيار وكيف سيتم ذلك ، وذلك لنتمكن من الحصول على البيانات اللازمة .

عملية الاختيار التميزى :

فى الاختيار التميزى يقوم الباحث باختيار تلك الأماكن والأشخاص والوثائق التى تؤدى إلى مضاعفة الفرص للتنويع فى كل من : مجرى القصة ، والعلاقات بين الفئات ، وسد الفجوات فى الفئات المحتاجة لمزيد من التنمية والتطوير . وربما يعنى هذا العودة إلى تلك الأماكن والأشخاص والوثائق التى سبق استخدامها أو استخدام أماكن وأشخاص ووثائق جديدة يعلم الباحث أن البيانات الضرورية يمكن جمعها عنها . وكمثال من دراسة كبيرة المرضات ، قام الباحثون - بعد الانتهاء من جمع المعلومات فى مستشفى واحد - بالتخطيط للعودة لوحداته المختلفة للتأكد من نظريتهم . إضافة إلى ذلك فقد تم اتخاذ خطط أخرى لجمع بيانات عن مستشفيات أخرى ذات بناء تنظيمى مختلف ، وذلك حتى يتمكن الباحثون من تحديد مدى مصداقية نظريتهم فى تلك المستشفيات الأخرى .

أهمية امتحان النظرية :

يعتبر **امتحان النظرية** للتأكد من صحتها جزءًا مهمًا ومكملاً للنظرية المجذرة . **إذ إن كل خطوة من عملية بناء النظرية المجذرة تنطوى على الامتحان والتحقق** ، وعلى الرغم من أن الامتحان والتمحيص لا يتم وفقًا للمعنى الإحصائى للاختبار ، فإننا فى النظرية المجذرة نقوم باستمرار بامتحان الفروض ومقارنتها من خلال الواقع (البيانات) وبتعديلها إذا دعا الأمر إلى ذلك ، وبعدئذ امتحان تلك الفروض مرة أخرى . وما يتم الانتهاء إليه ووجوده بتكرار من النتائج الثابتة ميدانيًا فقط فسيتم إلحاقه ودمجه مع النظرية . تذكر أيضًا أن الحالات الشاذة ـ أى تلك التى لم تتفق مع النظرية ـ تعتبر أيضًا مهمة للغاية . فإن تلك الحالات ، بالنسبة لنا ، لا تشير بالضرورة إلى خطأ فى تفكيرنا وإنما تشير إلى **اختلاف وتنوع ممكن** . وعندما تبدو حالة سلبية شاذة من الفعل والتفاعل ، فإن الأمر يصبح ضروريًا لتعقب مجموعة من الأوضاع أدت إلى تلك الحالة ، وذلك حتى نتمكن من تحديد ما إذا كان هذا إخفاقًا أو تغيرًا فى الفعل والتفاعل . هل يعنى ذلك أن تفكيرنا الأساسى خاطئ ؟ أم هل هذه الحالة الشاذة – السلبية – تعبر عن تغير وتنوع ؟ وفى جميع هذه الحالات – كما يمكن أن تلاحظ – فإن الاختيار التميزى يقوم بدور مهم خلال الترميز الانتقائى .

التشبع النظرى :

إلى هذا الحد ، ربما تتساءل بدهشة إلى أى مدى يجب الاستمرار فى القيام بالاختيار ؟ . **والقاعدة العامة** فى النظرية المجذرة تتمثل فى القيام **بالاختيار إلى أن تصل إلى التشبع النظرى لكل فئة**. (Glaser, 1978, pp: 124-126; Glaser & Strauss, 1967, pp: 61-62, 111-112) ويعنى هذا أن على الباحث الاستمرار فى القيام بعملية الاختيار كالآتى : (١) ألا يبدو أن هناك مزيداً من البيانات الجديدة أو وثيقة الصلة بالفئات ستظهر من خلال مواصلة الاختيار . (٢) أن يتم تنمية الفئة وتطويرها بدقة وحتى يتم الأخذ فى الاعتبار بعناصر النموذج وكذلك بالتغير والعملية . (٣) أن تصبح العلاقات بين الفئات على درجة عالية من التأسيس والمصداقية . إن التشبع النظرى يعتبر ذا أهمية عظيمة . **وإذا لم يجتهد الباحث فى الحصول عليه ، فإن نظريته لم يتم بناؤها بطريقة ملائمة** .

بعض الأجوبة عن أسئلة مهمة :

١ - هل من الممكن أن أقوم بالاختيار (بأخذ عينة) من البيانات الموجودة فى المكتبة ؟ وكيف ؟

- إن بعض البحوث تتطلب دراسة الوثائق والصحف اليومية أو الكتب كمصادر للبيانات . ولكن كيف يقوم الباحث بذلك ؟ وللإجابة عن ذلك نقول : إن على الباحث أن يقوم بأخذ عينة تماماً كما يفعل فى بيانات المقابلة والملاحظة ، وبعدئذ تأتى مرحلة التفاعل بين عملية الترميز والاختيار النظرى . وإذا كنت تستخدم مخزناً للمواد المسجلة فإن ذلك يعادل مجموع المقابلات والملاحظات الحقلية (Glaser & Strauss, 1967, pp : 61-62, 111-112) . ومع هذا فإن البيانات الوثائقية لا يمكن وجودها فى مكان واحد بل إنها تنتشر وتتوزع فى أماكن متعددة من المكتبة أو فى عدد من المكتبات والوكالات أو المنظمات الأخرى . بعد ذلك يجب أن تفكر وتتأمل ، كما تفعل مع الأنواع الأخرى من البيانات ، حول مكان وجود الحوادث والأحداث ذات الصلة وكيفية الاختيار فيما بينها ، وهل ستوجد هذه البيانات فى كتب عن المنظمات المحددة والسكان والمناطق ؟ وتستطيع الإجابة عن هذا من خلال تحديد أماكن وجود هذه المواد باستخدام وسائل البحث الببليوغرافية المعتادة التى تشمل تصفح الكتب الموجودة فى مخزون المكتبة بطريقة هادفة .

وهناك نوع خاص من الوثائق يتألف من بيانات المقابلات والملاحظات الحقلية التى قام بجمعها باحث آخر . ومن المعتاد أن نطلق على هذا النوع من تحليل البيانات مصطلح (التحليل الثانوى) (Glaser, 1963) . فالمنظر فى النظرية المجذرة يستطيع ترميز هذه المواد أيضاً باستخدام الاختيار النظرى إضافة إلى إجراءات الترميز العادية .

٢ - كيف يستطيع باحث واحد ضمن فريق بحثى القيام بالاختيار النظرى والاستمرار مع ذلك فى المحافظة على التماسك ؟

- عند العمل مع فريق بحثى ، كما سبق ذكر ذلك ، فإن كل عضو فى الفريق يتعين عليه حضور الحلقات التحليلية . كما لا بد أيضاً من تسليم كل عضو عدة نسخ من

المفكرات التى تمت كتابتها وإعدادها . ولا بد أيضًا من إعادة البيانات التى تم جمعها إلى أعضاء الفريق للاشتراك فى تحليلها . والنقطة المهمة هنا تتمثل فى أن كل باحث على معرفة بالفئات المبحوثة ؛ وذلك حتى يستطيع كل عضو فى الفريق جمع بيانات عن تلك الفئات خلال العمل الحقلى لكل عضو . وبنفس الدرجة من الأهمية فإن على أعضاء الفريق الاجتماع مع بعضهم باستمرار وبانتظام لتحليل أجزاء البيانات . وبالعمل بهذه الطريقة كوحدة **تحليلية** ، فإن أعضاء الفريق جميعًا يظلون متمسكين بنفس إطار العمل التصورى . وبطبيعة الحال ، فإنهم يشتركون مع بعضهم البعض فى صنع القرارات الهامة المتعلقة بالاختيار النظرى . وعندما تتراكم وتكثر البيانات المجموعة ، فإن الأمر يصبح إما مستحيلاً أو غير ممكن بالنسبة لأعضاء الفريق لقراءة كل عضو لما قام به عضو آخر من مقابلات أو ملاحظات حقلية . وعليه فإن كل عضو فى الفريق بطبيعة الحال تقع عليه مسئولية ترميز ما قام بجمعه من بيانات . إن على كل عضو أن **يقرأ جميع المفكرات الناتجة عن أعضاء الفريق** ، وإلا فإن المصادر والإمكانات الفنية للفريق لن تتضح صلتها بالبيانات ، كما أن التماسك التحليلى لن يتم إحرازه بسهولة .

٣ - هل من الممكن اختبار ما انتهيت إليه من نظرية من قبل الآخرين ؟

- إنه من الممكن بطبيعة الحال اختبار النظرية ثانية من قبل الآخرين إضافة إلى ما قمت به من اختبار لها فى دراستك . (انظر المناقشات السابقة المتعلقة بالاختبار ، وكذلك المناقشات التى سترد فى الفصل الرابع عشر) . وعلى الرغم من أن الباحث عادة لا يقوم بتفسير الافتراضات عند الكتابة عن نظرية مجذرة بعينها (إذ هى محتواة ومتضمنة فى المناقشة) ، فإن تلك العلاقات المتوقعة والتى تم التحقق من مصداقيتها ، فيما بين الفئات الرئيسية تمثل تلك الافتراضات تمامًا . ومن الممكن أن تفسر تلك الافتراضات وأن تمتحن أكثر من مرة بشكل مستقل عند الرغبة فى ذلك . ومن المهم أن نتذكر عندما نقوم بعمل هذا أنه لا بد من توضيح الأوضاع التى تقع الظاهرة فى ضوئها فى النظرية (أو من المفترض أن توضح ذلك) . وإذا كنت أو أى باحث آخر ينوى امتحان افتراض معين تحت أوضاع مختلفة ، فلا بد عندئذ من تعديل الافتراض ليطابق تلك الأوضاع . **تذكر أن النظرية ليست إلا نظرية فقط** . وعندما نجد من خلال

الامتحان المتكرر للافتراض عدم ثباته ومصداقيته ، فإن هذا لا يشير بالضرورة إلى خطأ فى النظرية ؛ ولكن يعنى أن افتراضات النظرية لا بد من تعديلها أو توسيعها لتشمل الأوضاع المحددة والإضافية .

٤ - كيف يختلف أخذ عينة فى دراسة النظرية المجذرة عنه فى الأشكال التقليدية لسحب العينة ؟

- يعتمد سحب العينة فى البحوث الكمية على اختيار جزء من مجتمع البحث ليمثل جميع مجتمع البحث الذى سيعمم الباحث على مستواه . وعليه فإن الاعتبار المهم هنا يتمثل فى قدرة تلك العينة على التمثيل أو إلى أى مدى تشبه تلك العينة مجتمع البحث من خلال خصائص محددة . وفى الواقع ، فإن أى واحد لن يكون متأكداً على الإطلاق من أن العينة ممثلة تماماً لمجتمع البحث . ومع هذا ، فإنه يوجد فى البحوث الكمية إجراءات معينة للتقليل ولضبط هذه المشكلة ، مثل : العشوائية وبعض الأساليب الإحصائية .

وفى النظرية المجذرة ، فإن هذه القضايا تؤخذ فى الاعتبار ويتم التعامل معها ، ولكن بطريقة مختلفة . فاهتمامنا ينصب على قدرة المفاهيم *بأشكالها المختلفة على التمثيل الفعلى للواقع* . وفى كل حالة من حالات جمع البيانات ، فإننا نبحث عن دليل للوجود المعنوى أو الغياب المعنوى لتلك المفاهيم ، ونسأل لماذا ؟ لماذا توجد ولماذا لا توجد ؟ وما الهيئة أو الأشكال التى تبدو عليها ؟ ونظراً لأننا نبحث عن الحوادث والأحداث التى تشير إلى الظواهر وليست لتعداد الأشخاص والأماكن بحد ذاتها ، فإن كل ملاحظة ومقابلة أو وثيقة من المتوقع أن تشير إلى أمثلة متعددة من هذه الحوادث . فعلى سبيل المثال ، ومن خلال تعقب الباحث لكبيرة المرضات خلال فترة يوم واحد ، فمن المتوقع أن يلاحظ الباحث عشرات الأمثلة على استخدام كبيرة المرضات للوقت ومدى تأثيرها .

وبطبيعة الحال ، كلما تم الحصول على مقابلات وملاحظات ووثائق أكثر ، فإن ذلك سيؤدى إلى تراكم تعدد الأدلة ، وإلى وجود عدد أكبر من التنوع والاختلاف ، وإلى

الحصول على أكبر قدر من الكثافة والعمق . وعليه فإن ذلك سيؤدى إلى توسيع مدى قابلية النظرية للتطبيق نظراً لأنه تم اكتشاف مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأوضاع التى تؤثر على الظاهرة . وإذا كانت الأرقام مهمة لتحقيق الرضا الذاتى للباحث أو لرضاء اللجنة المقومة للبحث ، فإن أمثلة وحالات من حدوث الظواهر من الممكن عدها وحصرها .

أما فيما يتعلق بمسألة تعميم النتائج للمجتمع الأكبر الذى سحبت منه العينة ، فإننا **لا نحاول التعميم بهذا النمط وإنما نسعى إلى التحديد والدقة** . إذ نقوم بتحديد لكل من الأوضاع التى توجد ظواهرها تحتها ، والأفعال والتفاعلات المرتبطة بحدوث تلك الظواهر والمخرجات والنتائج المرتبطة بتلك الظواهر . إن هذا يعنى أن صياغتنا النظرية تنطبق على تلك الحالات والظروف **فقط** . وعندما تتغير الأوضاع ، فإن الصياغة النظرية لا بد أن تتغير لمقابلة هذه الأوضاع الجديدة . فالهدف من النظرية المجذرة لا بد أن يعطى الأولوية دائماً . وليس من الممكن أن نقيم النظرية المجذرة باستخدام المعايير العادية . كما أن الاختيار فى النظرية المجذرة لا يمكن توجيهه من خلال المنطق الخاص بالأنواع الأخرى من البحوث ، نظراً لأن أهداف منهجية النظرية المجذرة ومنطقها الذى تعتمد عليه ، وقوانينها وإجراءاتها تختلف إلى حد ما عما يكون عليه الوضع فى البحوث الكمية (انظر الفصل الرابع عشر لمزيد من المناقشة حول تلك النقطة) .

وفيما يخص هذه النقطة ، فإننا نلاحظ أن أحد الانتقادات النموذجية الموجهة للبحوث الكيفية من قبل الباحثين المستخدمين للبحوث الكمية انتقاد خاطئ لأن تطبيق معايير البحوث الكمية ليس أمراً مناسباً هنا . وتتمثل انتقاداتهم بهذا الخصوص فى أن عملية جمع البيانات الكمية تتمخض عن بيانات غير قابلة للمقارنة نظراً لأن الأشخاص الذين تمت مقابلتهم لم توجه إليهم نفس الأسئلة . فسواء كانت البيانات بيانات مقابلة أو ملاحظة أو وثائق ، فإن البيانات قابلة للمقارنة لأنه تم اختيار تلك البيانات بواسطة مقدرتها على تمثيل المفاهيم .

٥ – هل من الممكن أن أجمع بين الطرق الكمية والطرق الكيفية فى نفس الدراسة ؟

– نعم ، تستطيع ذلك ، ولكن عليك أن تكون واضحًا فيما يتعلق بالهدف من المقاييس الكمية ، فلا بد من دمج أو توحيد تلك المقاييس بالنظرية ، كلما قام الباحث بالتحقق من الأوضاع والأفعال والتفاعلات والنتائج ونحو ذلك . وبعبارة أخرى ، فإذا لم يقم الباحث بضم وتوحيد النتائج الكمية بالنظرية واعتبارها جزءًا من النظرية نفسها خلال النموذج ، فستكون تلك النتائج مجرد نتائج هامشية .

ومن الأخطاء الشائعة ما يتمثل فيما يفعله بعض الباحثين الذين يذكرون فى دراساتهم أنهم قاموا بدراسة نظرية مجذرة ، عندما يكونون فى الواقع قد قاموا بدمج الطرق البحثية بأسلوب غير مناسب . فمثل هؤلاء الباحثين يقومون بجمع بيانات قليلة ويتوصلون إلى اكتشاف فئات وخواص محدودة ، ثم يقومون بتطوير عبارات تحتوى على علاقات فيما بين تلك الفئات ، ومن ثم يقومون بالتحقق من افتراضاتهم بواسطة الأدوات البحثية المسحية والمعيارية . وبالتأكيد ، فإن هذا الدمج يعتبر مناسبًا فيما يتعلق بالبحث بشكل عام ، ولكن ذلك لا يشكل دراسة فى النظرية المجذرة . وحتى تنطبق معايير بناء نظرية مجذرة ، فإن على الباحث أن يستخدم الإجراءات المحددة الخاصة بالنظرية المجذرة . وعند تحقيق ذلك ، فإن الافتراضات الناتجة عن استخدام تلك الإجراءات العامة والمحددة للنظرية المجذرة من الممكن إخضاعها للاختيار : لأن الافتراضات فى النهاية تكون – أو من المفروض أن تكون – على درجة عالية من التعقيد (ولمزيد من الشرح المفصل للمعايير المستخدمة لتقويم النظرية المجذرة ، انظر الفصل الرابع عشر) .

٦ – متى يكون الاختيار النظرى تامًا وكاملاً ؟ وإلى أى حدٍ يتعين عليك الاستمرار ؟

– إنك لن تبدأ فى حقيقة الأمر فى كتابة ما تسعى إليه من رسالة أو بحث أو كتاب حتى تنتهى من القيام بكل ما يلزمك من الترميز الانتقائى والاختيار التميزى والربط بين الفئات . وعلى الرغم من ذلك فإن الاختيار التميزى غالبًا ما يستمر حتى مرحلة

كتابة وإعداد التقرير . وبعدئذ فإنه يقوم بمهمة سد الفجوات والثغرات فى تلك الفئات التى لا تزال فى حاجة إلى التطوير ، كما سبق توضيحه . وكنتيجة لهذا النوع من الاختيار ، فربما تجد نفسك قائماً بإعادة اختيار البيانات ، وربما أيضاً بجمع بيانات إضافية أخرى ، على أن تكون متعلقة بتفاصيل محددة للمفاهيم التى تحتاج إلى الاختيار أو إلى سد ما قد يكون بها من فجوات أو ثغرات .

٧ – هل تعلم أن الاختيار النظرى أمر صعب التعلم ؟

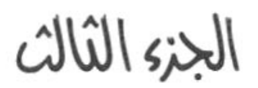
– إنه من السهولة بمكان تعلم وفهم المنطق الإجرائى للاختيار النظرى . ومع ذلك ، فإن الاختيار النظرى ـ كما هو الحال تماماً مع الإجراءات الأخرى للنظرية المجذرة ـ لا بد من التدريب عليه بجهد واجتهاد خاصة فى الدراسات البحثية الحقيقية ، وذلك حتى نتمكن من القيام بتلك الإجراءات بشكل عفوى واعتيادى أو طبيعى .

٨ – ماذا عن تصميم البحث ، وما علاقته بالاختيار النظرى ؟

– كما هو الحال مع سحب العينة أو المعاينة فى البحوث الكمية ، فإن الاختيار النظرى لا يمكن تعميمه قبل الشروع فى دراسة النظرية المجذرة . فالقرارات والاعتبارات الخاصة بالاختيار تنشأ وتتطور خلال العملية البحثية ذاتها . وبطبيعة الحال ، تستطيع أن تبرر أن الظاهرة التى تشكل محور الاهتمام الأول لديك يتوقع إلى حد كبير وجودها فى أماكن محددة ، ومنظمات معينة ، ومجتمعات بحثية بأكملها . وعند التصرف وفقاً لتلك الاعتبارات ، فإنه من الممكن النظر إلى تلك الاعتبارات كنوع من تصميم البحث . وبكل واقعية ، فإن الباحثين عندما يقومون بتقديم وعرض مخططاتهم البحثية فإنهم فى حاجة إلى الوفاء بتوقعات الهيئات الممولة للبحوث ، وكذلك – فى الغالب – بتوقعات اللجان المعنية بالموافقة على تطبيق الأبحاث على الإنسان . وللوفاء بتلك التوقعات بطريقة معقولة وصحيحة ، فإن عليك أن تقوم بحذر بالشرح المفصل للطبيعة الوقتية للإجراءات والمنطق الخاص باختيارك النظرى الأولى . وعليك أن تلحق ذلك الشرح دائماً بأمثلة مما تقوم به من اختيار نظرى فى بحثك التمهيدى .

الملخص :

يقوم الباحث فى النظرية المجذرة بالاختيار ما بين الحوادث والأحداث المعبرة عن المفاهيم ذات الصلة النظرية الحقيقية . ويمكن الحصول على بيانات عن تلك المفاهيم من خلال الأشخاص والأماكن والوثائق . وتختلف إجراءات الاختيار تبعًا لنوع الترميز الذى يستخدمه الباحث . ففى الترميز المفتوح يستخدم الباحث الاختيار المفتوح ، بينما فى الترميز المحورى يقوم الباحث باستخدام الترميز المتنوع والمترابط ، أما فى الترميز الانتقائى فإن الباحث يستخدم الترميز التميزى . ويستمر الاختيار النظرى حتى يتم تحقيق التشبع النظرى للفئات .



الإجراءات الإضافية

يشكل هذا الجزءُ القسْمَ الأخيرَ من الكتاب . ويعتبر سهل القراءة مقارنة بالفصول التى انتهينا تقريبًا من استعراضها وقراءتها . ومع ذلك فهو جزء على درجة عالية من الأهمية للتطوير والنمو الكلى لنظريتك . إن المفكرات والرسوم البيانية ضرورية للغاية لأنه بدونها لن يكون لدى الباحث أية سجلات مكتوبة لما يعمله أو يقوم به من تحليل . فمن المستحيل أن يستطيع الباحث حفظ النتائج التى تم التوصل إليها باستخدام إجراءات معقدة فى ذهنه . كما أنه من المهم أيضًا أن تعرف كيف تقوم بكتابة الدراسات وعرضها عند الانتهاء منها . فنتائج الأبحاث لا قيمة لها إلا إذا تم إخراجها فى صيغة لا تسمح للآخرين بالتفكير حولها وانتقادها ومن ثَمَّ استخدامها . وأخيرًا ، فإن أى باحث يجب أن يعرف كيفية تقويم ما يقوم به هو ويقوم به الآخرون من دراسات فى النظرية المجذرة ، ليس فقط بتقويمها فيما يتعلق بمصداقية وثبات النتائج ، ولكن فيما يتعلق أيضًا بنمو الباحث أو الباحثين أنفسهم وتطورهم .

إن لغة الفقرة الموضحة أعلاه مباشرة واضحة تمامًا كما لو كانت الإجراءات الإضافية التى ستناقش فى الفصول اللاحقة سيتم تعلمها ومن ثم استخدامها مباشرة . إننا نحتاج أن نذكرك أنه لا البحوث الحيوية ولا البحوث الإبداعية تكون بسيطة . فخلال العملية البحثية ، ليس التبصر والتحليل هو ما يؤدى إلى نمو وتطور الباحث ، بل إن التجربة التراكمية للباحث غالبًا ما تؤدى إلى بعض التغيرات والتطورات فى الباحث ذاته . وفى الخطوات النهائية من الكتابة والتحرى وإعادة الكتابة ، فإنك تتحمل وتتعرض إلى تجارب بعضها مدهش ومثير ولكن بعضها الآخر للأسف مثير للقلق والإزعاج ومليء بالصعوبة . وقد عبر الفيلسوف جون ديوى (John Dewey) فى كتابته عن الفنون والآداب ـ وإن كان يعتقد أن ذلك يصدق أيضًا على العلم ـ عن هذا الوضع بأسلوب فصيح مجازى بارز ، فقال :

إن العمل التعبيرى الذى يشكل العمل الأدبى والفنى بناء فى الزمن وليس انطلاقة فورية .. إن هذا يعنى أن التعبير عن الذات من خلال ذلك الوسيط ، الذى يشكل العمل الفنى ، يمثل فى حد ذاته تفاعلاً طويلاً لشيء مبتدئ من الذات مع أوضاع موضوعية . تلك العملية التى تتطلب من الأدوات والأوضاع الموضوعية شكلاً وتنظيمًا لم تكن تحوز عليهما من قبل (John Dewey: *Art as Experience,* 1934, p: 65) .

الفصل الثانى عشر
المفكرات والرسوم البيانية

تحديد المصطلحات :

المفكرات ***(Memos)*** : هى سجلات التحليل المكتوبة والمرتبطة بصياغة النظرية .

ملاحظات الترميز ***(Code Notes)***: هى تلك المفكرات المحتوية على النتائج الحقيقية للأنواع الثلاثة من الترميز مثل : الأوصاف (النعوت) المفاهيمية ، وخصائص النموذج ، ومؤشرات العملية .

الملاحظات النظرية ***(Theoretical Notes)*** : هى تلك المفكرات التلخيصية ذات الحساسية النظرية ، وتشتمل هذه الملاحظات على ما يترتب على التفكير الاستقرائى والاستدلالى من النتائج ذات العلاقة بكل من الفئات ذات الصلة النظرية ، وما لها من خواص وأبعاد العلاقات والعمليات والمصفوفة الوضعية .

الملاحظات الإجرائية ***(Operational Notes)*** : تلك المفكرات المحتوية على التوجيهات الخاصة بالبحث وفريق البحث والمتعلقة بالاختيار ، وطرح التساؤلات ، والمقارنات الممكنة ، والإرشادات التى سيقوم الباحث بالتقيد بها .

الرسوم البيانية ***(Diagrams)***: هى العروض البصرية لعلاقات المفاهيم بعضها ببعض .

الرسوم البيانية المنطقية ***(Logic Diagrams)*** : هى العروض البصرية للتفكير التحليلى الذى يظهر تطور العلاقات المنطقية بين الفئات الكلية وبين فئاتها الفرعية من خلال الخصائص النموذجية على نحو ما تم توضيحه فى الفصل السابع . أى تلك العملية التصنيفية البصرية المنطقية التى تساعد الباحث على تحديد كيفية ارتباط الفئات بعضها ببعض .

الرسوم البيانية الترابطية (Integrative Diagrams) : هى الأشكال البصرية للتفكير التحليلى المستخدم لإظهار الروابط بين المفاهيم ، أما شكل هذه الرسوم فليس مرتبطًا بالنموذج بل متروك للخيال .

عندما يتأمل معظم الناس فى المفكرات ، فإنهم يفكرون فى تلك النماذج المكتوبة أو المطبوعة من الاتصالات التى يتم تداولها بين الأعضاء فى المنظمات (أو الأسر) ، بهدف التذكير أو اتخاذها كمصادر للمعلومات . ولكننا عندما نتكلم عن المفكرات والرسوم البيانية ، فإننا نشير إلى أشكال خاصة من السجلات المكتوبة ، تلك السجلات المحتوية على نتائج التحليل . فالمفكرات تمثل الأشكال المكتوبة لتفكيرنا المجرد فى البيانات . أما الرسوم البيانية فى الجانب الآخر ، فتمثل العروض أو الأشكال البيانية أو التخيلات البصرية لما بين المفاهيم من علاقات .

ومن الممكن أن تأخذ المفكرات والرسوم البيانية أشكالاً مختلفة ، كملاحظات الترميز ، والملاحظات النظرية ، والملاحظات الإجرائية ، وقد تأخذ أشكالاً أخرى متفرعة من هذه الأشكال . وفى الحقيقة ، فإن أى مفكرة تمت كتابتها فى أى وضع ربما تحتوى على عنصر أو أكثر من تلك الأشكال . إن من الأهمية بمكان – مع ذلك – المحافظة على الفوارق بين تلك الأشكال ، وإلا فإن الملاحظات الإجرائية ربما تصبح إلى حد كبير مغمورة تحت ملاحظات الترميز ، أو مفقودة فى ثنايا الملاحظات النظرية . والشىء نفسه يصدق على الرسوم البيانية . فمن الممكن أن تأخذ الرسوم البيانية أشكالاً متنوعة كالأشكال المنطقية والأشكال الترابطية .

ومن الجدير بالذكر أن المفكرات والرسوم البيانية تتطور وتتبدل ، إذ تتطور،كمفهوم من حيث التعقد ، والعمق ، والوضوح ، والدقة ، مع تطور ونمو البحث والتحليل . فالمفكرات والرسوم البيانية المتأخرة ربما تقوم بنفى ، أو تعديل ، أو دعم ، أو توسيع ، أو توضيح المفكرات والرسوم البيانية السابقة . ومن المدهش حقيقة أن ترى قاعدة بياناتنا تتراكم وتنمو نظريًا فى الوقت الذى تظل مجذرة ومتصلة بالواقع (الأمبريقى) .

إن عمل المفكرات والرسوم البيانية يشكل عناصر مهمة للتحليل من *المفروض* عدم إسقاطها أو الاستغناء عنها بصرف النظر عن ضغوط عامل الزمن على المحلل . **وتبدأ**

عملية إعداد المفكرات والرسوم البيانية بعد بداية مشروع البحث وتستمر حتى كتابة التقرير النهائى له . ومن النادر أن تنشر المفكرات والرسوم البيانية الأولية ، ولكن إذا كانت هذه المفكرات والرسوم البيانية ضئيلة العدد فإن نشرها سيجعل نتائج الدراسة على درجة عالية من الوضوح فى المحصلة النهائية للبحث ، فالنظرية التى تفتقر مفاهيمها إلى العمق نظرية تفتقر مفاهيمها إلى الربط والإحكام .

كما أن المفكرات والرسوم البيانية تساعد الباحث فى الحصول على البعد أو المسافة التحليلية عن البيانات ، فهى تساعده على تحركه من البيانات إلى التفكير التجريدى ، ثم بعد ذلك تساعده عند الرجوع إلى البيانات على تجذير ما توصل إليه من أفكار تجريدية فى العالم الواقعى . وعلى الرغم من أن الكثير من المعلومات حول المفكرات والرسوم البيانية قد سبق نشره ، فإن المفكرات والرسوم البيانية على درجة كبيرة من الأهمية ، الأمر الذى يجعل الكثير من الخصائص المميزة للمفكرات والرسوم البيانية يستحق التكرار والتوسع فيه . (إننا نقترح عليك أن ترجع أيضًا إلى : Glaser, 1978, pp: 83-92, 116-127; Glaser & Strauss, 1967, pp:108, 112; Schatzman & Strauss, 1973, pp: 94-107; Strauss, 1987, pp : 109-128, 170-182, 184-214) .

بعض الخصائص المحددة والعامة للمفكرات والرسوم البيانية .

هناك العديد من الخصائص المحددة والعامة للمفكرات والرسوم البيانية التى من المفروض أن تكون مألوفة لديك ، وفيما يأتى سنتعرض لهذه الخصائص :

الخصائص العامة :

١ - تختلف المفكرات والرسوم البيانية فى محتوياتها وطولها باختلاف المظهر والهدف ونوع الترميز .

٢ - فى المراحل الأولى من التحليل تبدو المفكرات والرسوم البيانية بشكل بسيط وغير ملائم ، ولا يشكل ذلك قلقًا واهتمامًا ، إذ عليك أن تتذكر أن مفكراتك ورسومك البيانية الأولية لن يراها أحد سواك .

٣ – على الرغم من أنه من الممكن أن تشرع مباشرة فى وثائقك ، فإن هذه عادة سيئة باستثناء - ربما - فى المراحل الأولية من الترميز المفتوح . إننا نقول ذلك لعدة أسباب . أولاً : من الصعوبة أن تقوم بكتابة مفكرات مهما كان طولها أو تقوم بعمل رسوم بيانية مباشرة بعد جمع البيانات الحقلية ؛ نظراً لعنصر المساحة المتاحة فى الوثائق ذاتها . ثانيًا : بعض أو جميع الأفكار والأوصاف التى تم التوصل إليها فى حلقة تحليلية ، من الممكن أن تكون مضللة أو مربكة عند ترميز وثيقة لاحقًا (وهو ما يحدث غالبًا مع نمو الحساسية النظرية) . ثالثًا : من الصعوبة استرجاع المعلومات - أو بعبارة أخرى ضم تلك البيانات وتصنيفها - إذا كانت لم تكتب إلا فى الهوامش (وتوجد هناك برامج حاسوب خاصة لمساعدة المحلل على تصنيف واسترجاع بياناته ، انظر : Pfaffenberger (1988) and Tech (1989) لمزيد من المعلومات حول استعمال الحاسوب فى تحليل البيانات) .

٤ – يتعين على كل محلل أن يقوم بتطوير أسلوب خاص به لإعداد المفكرات والرسوم البيانية . وربما يختار بعض الباحثين البرامج الحاسوبية ، كما قد يختار آخرون البطاقات الملونة ، بينما قد يختار البعض الآخر وضع الصفحات المنسوخة بالآلة الكاتبة فى ملفات أو فى دفاتر الملحوظات . والطريقة التى تختارها هنا لا تشكل أهمية معينة ما دامت تفى باحتياجاتك . والمهم ، أن ما قمت بعمله من مفكرات ورسوم بيانية قد تم تنفيذه بأسلوب منظم ومتطور وسهل الاسترجاع عند التصنيف والارتباط المرجعى (Cross Reference) .

٥ – بينما تمثل المفكرات والرسوم البيانية أداة مهمة لمساعدة الباحث لتسجيل جميع مظاهر التطور المتنوعة لنظريته ، فإنها تؤدى أيضًا وظائف أخرى ، من بينها أنها تساعد على تفرغ المحلل للبحث فى الأفكار باستخدام نوع من الارتباط الحر ، المتمثل فى أن كل فكرة تقود إلى فكرة أخرى من دون الاضطرار للتخوف حول مدى منطقية الدراسة ، أو الاضطرار للمقاربة الشديدة للواقع **على الأقل فى الوقت الحاضر** . أما فى المراحل اللاحقة ، فإن منطقية الدراسة وتجذيرها فى البيانات تشكل بطبيعة الحال مسألة مهمة . ولكن حتى تصبح قادراً على رؤية ما تحتوى عليه البيانات ، فلا بد أن تكون قادراً على التفكير الإبداعى . وتعتبر عملية

إعداد المفكرات والرسوم البيانية من الأمور التى تساعد على استثارة هذه الملكة الإبداعية .

٦ - من وظائف المفكرات والرسوم البيانية ما يقوم بتحديد أماكن ونقاط الفجوات فى تفكير الباحث ، فالفئات التى لم يتم تطويرها من خلال الخصائص النموذجية ، أو تلك الفئات التى لم يتم بعد تأسيس العلاقات التى تربط بينها بشكل راسخ ، ستصبح واضحة عندما يحاول الباحث عمل المفكرات التلخيصية والرسوم البيانية المنطقية .

٧ - إضافة إلى ذلك ، فإن المفكرات والرسوم البيانية توفر رصيداً (Glaser, 1978, p: 82) أو مستودعًا لتلك الأفكار التحليلية التى من الممكن فرزها وتنظيمها وإعادة تنظيمها وفقًا للحاجة والمخطط التنظيمى . إنها وسائل مهمة فى الظروف البحثية الآتية : عندما تكون مستعداً لكتابة موضوع ما ، أو عندما ترغب فى ربط أو إيجاد الارتباط المرجعى للفئات ، أو عندما تريد ببساطة تقويم ما أحرزته من تقدم - أى المدى الذى وصلت إليه فى التحليل - وكذلك لاقتراح ما هو فى حاجة إلى مزيد من التطوير والتفصيل لتلك المواقع من البحث التى تحتاج إلى مزيد من الامتحان والتأكد من مصداقيتها . وفى المشاريع البحثية التى تأخذ وقتًا طويلاً يصبح من السهولة عدم الوعى والإحاطة بوضع التحليل . (انظر لمزيد من المناقشة حول هذه النقطة : نهاية هذا الفصل) .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن هناك نقاطًا عامة أخرى . فليس من الضرورة أن يقوم الباحث بالترميز بعد كل حلقة تحليلية . ومع هذا ، فعندما تبرز فكرة ما للباحث ، فإن عليه التوقف عن هذا العمل لتسجيل تلك الفكرة فى مفكرة حتى لو لم يقم حينها بكتابة الفكرة مطولة . وإذا لم يتم عمل ذلك ، فمن السهولة فقدان الأفكار الرئيسية . وبمقدور الباحث أن يعود لاحقًا إلى تلك الفكرة التى توقف لتسجيلها فى المفكرة ، وذلك للتوسع فيها إذا كان الأمر يتطلب ذلك . كما أن المفكرات يمكن أن تكتب من مفكرات أخرى ، وذلك عندما تؤدى كتابات الباحث وقراءاته إلى لفت نظره إلى مزيد من الأفكار حول الفكرة ذاتها أو فكرة أخرى مرتبطة بها . أو من الممكن أن يقوم بإعداد مفكرة موجزة تجمع عدة مفكرات مع بعضها . أو يمكن للباحث أن يعمل رسمًا بيانيًا متكاملاً

لدمج الأفكار الخاصة برسوم بيانية فرعية أو صغيرة . كما أن المفكرات والرسوم البيانية من الممكن اشتقاقها من الأدبيات النظرية أو المتخصصة وكذلك من البيانات الحقيقية . وأى أفكار تمت صياغتها من الأدبيات النظرية أو المتخصصة لا بد - بطبيعة الحال - من اعتبارها ذات طابع وقتى ، إذ لا بد من الحصول على تأييد لها لاحقًا من خلال البيانات الحقيقية .

الخصائص المحددة :

١ - **لا بد من تحديد التاريخ** الذى تم فيه عمل كل مفكرة أو رسم بيانى . ومن المفروض **أيضًا أن يتضمن ذلك** الإشارة إلى الوثائق التى أخذت منها المفكرة أو الرسم البيانى . كما يجب أن تحتوى تلك الإشارة على الرمز الخاص بالمقابلة أو الملاحظة أو الوثيقة ، وعلى التاريخ الذى جمعت فيه تلك البيانات ، وكذلك الصفحة (ورقم السطر لمستخدمى برامج الحاسب الآلى) ، وكذلك أى وسائل أخرى لتحديد المعلومات التى أخذت المفكرات والرسوم البيانية منها مما قد يفيد فى الرجوع إلى البيانات مؤخرًا .

٢ - لا بد لكل مفكرة أو رسم بيانى أن **يشتمل على عنوان** يشير إلى المفاهيم أو الفئات المتصلة به . كما يتعين فى تلك المفكرات والرسوم البيانية التى تضم أو تربط بين فئتين أو أكثر أو تربط الفئات الفرعية بالفئة الرئيسية ، أن يتم حصر تلك الفئات الرئيسية منها والفرعية فى العنوان الخاص بالمفكرة أو الرسم البيانى .

٣ - من الممكن أن تتضمن المفكرات **اقتباسات أو عبارات قصيرة** . إذ يشكل مثل ذلك مذكرات بسيطة للبيانات التى أدت إلى بروز مفهوم محدد أو فكرة ما . وعند الكتابة لاحقًا ، من الممكن استخدام تلك العبارات أو الاقتباسات المختصرة كأمثلة توضيحية .

٤ - كما يفترض **أن توزع المفكرات والرسوم البيانية إلى أنواعها وأنماطها المختلفة** (انظر تحديد المصطلحات فى مقدمة هذا الفصل) وأن تُعطَى مسميات على ذلك النحو لتسهيل الإشارة إليها . ومن المهم أن نميز بين البيانات المحققة من تلك البيانات المؤقتة .

٥ – عند كتابة المفكرات ، **فإن على الباحث أن يقوم بوضع خط ، أو استخدام الحروف المائلة** للأسانيد أو الإشارات الخاصة بالمراجع أو العلاقات النموذجية وذلك للاستعراض السريع .

٦ – كما **يتعين القيام بإشارة مرجعية** لأية ملاحظة نظرية نشأت عن ملاحظة ترميزية ، مع الإشارة إلى الملاحظة الترميزية التى استثارت تلك الملاحظة النظرية .

٧ – عندما تكون حادثة أو حدث ما ذات صلة بفئتين مختلفتين ، **فإنه من الأفضل أن ترمز تلك الحادثة أو الحدث فى فئة واحدة** حتى تتمكن من فصل وعزل الفئات عن بعضها وجعل كل منها فئة مميزة . وإذا كنت فى شك من الأمر ، فما عليك إلا أن تقوم بالارتباط المرجعى (Reference – Cross) لتلك الفقرات فى مفكرة أخرى . وعندما تجمع عدداً أكبر من البيانات وعندما تصبح الفئات أكثر تحديداً ودقة ، فمن الممكن عندها أن توضع تلك الفقرة تحت المسمى اللائق بها .

٨ – **لا تقلق من إجراء تعديل** على المفكرات والرسوم البيانية ، فكلما تقدم وتطور التحليل أدت البيانات الجديدة إلى مزيد من التبصر ؛ والمفكرات والرسوم البيانية لا بد أن تعكس دقة ووضوح التفكير حول الفئات والعلاقات فيما بينها كلما تقدمت وتطورت الدراسة .

٩ – **احتفظ بقائمة للرموز الجديدة التى قد تطرأ** . ففى المراحل المتأخرة من الترميز عليك أن تقوم بمراجعة تلك القائمة بحثًا عن تلك الفئات الممكنة أو العلاقات فيما بينها ، مما تكون قد نسيتها أو لم تتمكن من التوسع فيها وتطويرها .

١٠ – إذا وجدت بين العديد من المفكرات ذات الرموز المختلفة ما يبدو أنها متشابهة ، فإن عليك أن **تقوم بمقارنة** الرموز أو الأبعاد الخاصة بها بحثًا عن تلك الفروق التى فقدت فيما بين الرمزين . وإذا كان الرمزان لا يزالان متشابهين فإن عليك **أن تدمجهما** فى رمز واحد ، أى ربما فى رمز ذى مستوى عال أو فى مفهوم ذى طابع عالى التجريد .

١١ – كما **أن عليك الاحتفاظ بعدد من النسخ** لمفكراتك لتستخدمها لاحقًا لأهداف التنظيم والتصنيف . وفى حالة فقدان نسخة واحدة ، فإن هناك غالبًا ما يعوض

عن ذلك من النسخ الأخرى . وتصدق هذه الوصية على وجه الخصوص على نسخ الحاسوب ، وذلك كما هو معروف لأى شخص تعرض لفقدان معلومات مهمة بسبب عطل آلى أو لسبب يعود إلى قصور استخدام للحاسوب نفسه .

١٢ - أشر فى مفكراتك عندما تعتقد أن الفئة **قد تم تشبعها** نظريًا أى تم التفاعل معها وصياغتها بشىء من التفصيل التصورى .

١٣ - عندما تكون لديك **فكرتان متوقدتان** أو أكثر لمفكرة أو رسم بيانى فما عليك إلا أن تقوم بتدوينهما خشية أن يأتى عليهما النسيان ، بعد ذلك قم بكتابة المفكرة أو الرسم البيانى لكل واحدة منهما للمحافظة على استقلال تلك الأفكار عن بعضها ووضوحها .

١٤ - **كن مرنًا ومسترخيًا** عند قيامك بتدوين المفكرات والرسوم البيانية ، فالتعلق أو التشبث التام بالشكل أو بالدقة يعرقل الإبداعية ويجمد الفكر .

١٥ - أخيرًا ، وأهم مما تقدم جميعًا من النقاط ، **فإن عليك أن تظل محافظًا على المفهوم - Concept - فى مفكراتك** . فهذه المفكرات لا تدور حول الأشخاص ولا حتى حول الأحداث والحوادث بوضعها هكذا ، ولكنها **تتصل بتلك المفاهيم التى تمثل التعابير التجريدية للأحداث والحوادث** . وكما تعلم ، فالمفاهيم هى التى تنقل التحليل إلى ما هو أبعد من الوصف ، حيث تضفى على التحليل الطابع النظرى التفسيرى .

المفكرات والرسوم البيانية فى الأنواع الثلاثة من الترميز :

تتنوع أنماط المفكرات والرسوم البيانية تبعًا لاختلاف أنواع الترميز ، وذلك نظرًا لاختلاف الأهداف الخاصة بكل نوع من أنواع الترميز . وتبعًا لتطور التحليل من حيث الكثافة والتعقيد حسب تقدم البحث نفسه ، فإن المفكرات والرسوم البيانية هى الأخرى تأخذ فى النمو والتطور .

وعليه ، فالسؤال الذى يطرح نفسه هنا يتمثل فى الآتى : ما هى الأنماط التى تبدو عليها المفكرات خلال المراحل المختلفة من مسيرة البحث ؟ ومن الصعوبة - فى كتاب

صغير الحجم كهذا - إعطاء أمثلة لكل نمط من تلك الأنماط التى تتخذها المفكرات والرسوم البيانية خلال كل مرحلة من مراحل المشروع البحثى . وضرب أمثلة على ذلك لن يأخذ فقط حيزاً كبيراً من الكتاب ، بل سوف يؤدى إلى تعقيد العملية البحثية ذاتها . لذا فإنه يتعين على الباحث أن يقوم بتطوير أسلوب وأدوات خاصة به ، وحتى نقدم بعضاً من الإرشادات والتوجيهات بهذا الخصوص ، فإننا سنتعرض لبعض الأمثلة ، كما نقوم بإحالة القارئ إلى تلك الكتب السابقة حول النظرية المجذرة التى يجد القارئ فيها أمثلة أخرى .

الترميز المفتوح :

الترميز المفتوح يشبه الشروع فى التعامل مع لغز ما . وهنا يتعين على الشخص أن ينظم نفسه ، وأن يضيف القطع حسب الألوان مما ينطوى أحياناً على ملاحظة الفوارق الدقيقة فى مدى تظليل اللون ، وذلك حتى يتمكن لاحقاً شيئاً فشيئاً من وضع القطع مع بعضها فى وضعها الطبيعى .

وتعتبر الصفحات الأولى من الملاحظات الحقلية أشبه ما تكون بالألغاز ، فالباحث هنا لا يعرف من أين يبدأ ؟ أو ماذا يبحث عنه على وجه التحديد ؟ وعما إذا كان يستطيع التعرف عليه إذا ما رآه . إنها تمثل جميعاً كتلة هائلة متجانسة ، تترك آثارها على مفكراتك الأولية بطبيعة الحال . وهذا هو المكان الذى يتعين فيه على الباحث أن يفصح عن انطباعاته الأولية وعما لديه من أفكار وتوجيهات اتخذها لنفسه وبدون أن يأبه لما يمكن أن يعتقده الآخرون من صحة أو خطأ مثل هذا الإجراء . وسيكون الباحث على درجة عالية من الاطمئنان فى هذه المراحل الأولى ، وما عليك إلا أن تذكر نفسك بحقيقة مفادها أنك - أو سواك - إذا كنت تعرف جميع الإجابات ، فليس هناك داع للقيام بهذا البحث بعينه .

ملاحظات الترميز :

ربما تبدو لك ملاحظات الترميز أنها بصورة متفرقة . فخلال قراءاتك المبدئية لما قمت بجمعه من ملاحظات حقلية ، ربما تجد من المناسب أن تقرأ وتتصفح تلك

الملاحظات بسرعة لتصل إلى بعض المسميات التصورية (المفاهيمية) على أن تكون تلك المسميات ذات معانٍ محدودة لما تدور حوله فعليًا . ومع مرور الوقت ومن خلال عقد المقارنات وإثارة التساؤلات ، فإن ملاحظات الترميز تبدأ نوعًا ما فى اتخاذ شكل لها . ربما يكون لديك فئة ، وتحت هذه الفئة تتدرج بعض الخواص والأبعاد . وبطبيعة الحال ، فإن الخواص لن تفصح لك عن نفسها بالضرورة من خلال البيانات . وعوضًا عن ذلك ، ومن المحتمل إلى حد كبير ، أن تصادف بعدًا لخاصة ما ، وعندئذ يتعين عليك العودة إلى البيانات لتتساءل عن الخاصة التى ينتمى لها ذلك البعد .

انظر على سبيل المثال الجملة المقتبسة الآتية : «إن الألم الذى أشعر به فى يدى نتيجة إصابتى بمرض التهاب المفاصل يشتد فى المناخ البارد الرطب ، إذ يلازمنى هذا الألم الشديد منذ الصباح الباكر ويستمر معى طيلة اليوم . أما الوقت الوحيد الذى أشعر خلاله بخفة أو سكون الألم فيتمثل فى المساء عندما أكون دافئًا ملتحفًا بأغطية الفراش» . إننا نرى هنا بوضوح أن مرض التهاب المفاصل له خاصة الألم . ولكن خواص ذلك المرض ليست موضحة بالتفصيل . حيث تم إبرازها هنا فى صيغتها البعدية بدلاً من إبرازها كخواص عامة للمرض على وجه التحديد . وهنا يتعين على المحلل أن يسأل نفسه عن الخواص العامة التى تشير إليها أو تتعلق بها تلك الأبعاد ، وكذلك عن **الموقع البعدى** لتلك **الحادثة المرضية المحددة** .

وعليه ، فما هى تلك الأبعاد ؟ . وما هى تلك الخواص العامة التى تشير إليها ؟ هناك أولاً : البعد الخاص بـ «الألم الشديد» ، من الممكن أن يقوم الباحث باعتبار هذا البعد متصلاً بخاصة **درجة الكثافة** . فالألم من الممكن أن يختلف عبر درجة متصلة من الألم الشديد (بالغ الشدة) إلى الألم غير الشديد (الألم الضعيف) . وهناك ثانيًا : البعد المتعلق **بموقع الألم من الجسم** : فالألم يقع فى اليد ولكنه من الممكن أن يوجد فى أى مكان من الجسم . كما أن الألم ، ثالثًا : يستمر من الصباح الباكر حتى نهاية اليوم ، الأمر الذى يشير إلى خاصة **الوقت** (Duration) : وهذه الخاصة من الممكن أن تتنوع حسب متصل من الطول حتى القصر . كما أن هناك أيضًا خاصة التنوع : أى أن كثافة الألم تتنوع وفقًا لعوامل مختلفة . فهى تتنوع وفقًا للمناخ ، ووفقًا للفترة ونحو ذلك . وأخيرًا فإن هناك الخاصة المتعلقة باستمرارية الألم ، من حيث كون المرض مستمرًا أو

منقطعًا أو مؤقتًا . وفى هذه الحالة من الممكن القول إن المرض ذو طبيعة متقطعة .

وفى ضوء ذلك فإن ملاحظتك الرمزية ربما تبدو على النحو الآتى :

١٠/٧/١٩٨٩م انظر الملاحظات الحقلية (٥) # صفحة (٦) المؤرخة فى ١٠/١/١٩٨٩م .

الملاحظة الرمزية : الألم ؛ خواصه وأبعاده (العنوان)

(فى هذا الموضع ربما تضع الاقتباس الذى مهد لظهور التحليل) .

للألم خواص محددة من الممكن أن تتنوع وتتوزع على متصل بعدى . ومن هذه الخواص :

الخواص العامة	*الأبعاد المحتملة*	
المدة	طويلة	قصيرة
درجة الكثافة	شديدة	متوسطة
درجة التنوع	متزايدة	متناقصة
موقع الألم من الجسم	من الرأس	إلى أصبع القدم
درجة الاستمرارية	مستمرة	متقطعة مؤقتة

[من الممكن أيضًا أن تشير فى الملاحظات الترميزية الخاصة بك إلى المكان الذى تقع فيه تلك الحادثة المحددة من خلال الأبعاد من المتصل البعدى ، وبواسطة ذلك تستطيع أن تصنف هذه الحادثة من خلال خواصها المحددة وموقعها عبر المتصل البعدى . كما يمكن أن ترغب هنا فى تعيين تلك الأوضاع التى مهدت لظهور تلك الخواص المحددة (أى لماذا تبدو تلك الخواص على تلك الشاكلة عبر المتصل البعدى) . إن هذا الإجراء سيبدأ فى إحاطتك ببعض الأمور الدقيقة التى ستحتاج إليها مؤخرًا ابتداءً بالترميز المحورى ، وبدرجة أكبر عندما تقوم بربط الفئات من خلال خواصها المحددة أو موقعها البعدى] . وعلى سبيل المثال : فإن مرض التهاب المفاصل يمثل سبب الألم فى هذه الحادثة المرضية .

فى تلك *الأوضاع* التى يكون فيها المناخ باردًا ورطبًا ، فإن الألم يزداد من حيث الكثافة .

وفى *تلك الأوضاع* التى يكون فيها المناخ دافئًا ، فإن الألم يتناقص من حيث الكثافة .

فى *الأوضاع* الصباحية يبدأ الألم فى الظهور ، أما فى *الأوضاع* المسائية ، فإن الألم يأخذ فى الهدوء شيئًا ما . الفئة الأخرى الممكنة : تسكين الألم . (اكتب مفكرة أخرى حول هذه الفئة الجديدة) .

إن هذا يعتبر مثالاً لملاحظة الترميز البسيطة . لاحظ أن هذه العلاقات المؤقتة تمت كتابتها كفروض مما يشير إلى أنه لم يتم قبولها كفروض تم التحقق منها ، ولكنها فروض سيتم التأكد منها من خلال بيانات أخرى لتحدد ما إذا كانت فروضًا صادقة أو أنها فى حاجة إلى إعادة صياغة . لاحظ أيضًا ، أننا فى حقيقة الأمر قد ابتدأنا – من خلال ذلك – فى الترميز المحورى ، مما يبين الصعوبة البالغة عند القيام بعملية الترميز الحقيقية فى عزل الترميز المفتوح عن المحورى . ومع مرور الزمن ، نستطيع الاستمرار فى إضافة خواص أخرى إلى الفئات وفى التوسع فى خواص الألم وأبعاده بقدر ما تستطيعه أو ترمى إليه من التفصيل والتحديد . وفى ختام هذه الملاحظة الترميزية فمن المتوقع أن تصل إلى ملاحظة أو أكثر من الملاحظات النظرية .

الملاحظات النظرية :

تبدأ الملاحظات النظرية من حيث انتهت الملاحظات الترميزية . ففى ملاحظة نظرية ما ، ربما تسأل نفسك عن الخواص الأخرى للألم وما يتبعها من أبعاد ، ومن ثم قم بحصرها . وبطبيعة الحال ، فإن تلك الخواص وما لها من أبعاد ستكون مؤقتة ويتعين التحقق منها من خلال البيانات . وعلى سبيل المثال ، من الممكن أن تكتب فى ملاحظة نظرية تبدأ من حيث انتهت إليه الملاحظة الترميزية السابقة شيئًا ، مثل :

١٠/٧/١٩٨٩م *ملاحظة نظرية* مستنتجة من الملاحظة الترميزية الخاصة بالألم : خواصه وأبعاده فى ١٠/٧/١٩٨٩م .

الخواص والأبعاد الأخرى للألم :

إن مرض التهاب المفاصل ليس بطبيعة الحال السبب الوحيد للشعور بالألم ، فمن الممكن أن يشعر الإنسان بالألم من خلال إصابة ما كتمزق العضلات أو حروق طفيفة . وباستخدام تجربتى الخاصة مع كل من هذه الحالات ، ماذا يمكن إضافة إلى ذلك أن أتعلمه من الألم ؟ إن تمزق العضلات والحروق الطفيفة تنتج غالبًا من التعرض للإصابات ، الأمر الذى يجعلها ذات طبيعة مؤقتة لا دائمة . إن الخاصة التى تشير إليها تلك الأبعاد ربما يمكن صياغتها أو اعتبارها **حالة الألم** . كيف أستطيع وصف الألم المترتب على كل واحد منهما (تمزق العضلات والحروق الطفيفة) ؟ إن الألم الناتج عن تمزق العضلات يشتد من حيث الكثافة عندما أحاول تحريك ذلك الجزء المصاب من الجسم (هذا الوضع أيضًا يصدق على مرض التهاب المفاصل) . هذه الحالة تقدم لى وضعًا آخر من الأوضاع المؤدية إلى تكثيف الألم . وفى *الأوضاع* التى يتحرك منها المصاب ، فإن الألم الناتج عن تمزق العضلات وعن مرض التهاب مفاصل الأعضاء تشتد كثافته . ماذا عن الحروق الطفيفة ؟ هذه الحالة تختلف عن سابقتها . فالألم الناجم عن الحروق من الممكن اعتباره ذا طبيعة مستمرة من حيث الحرقان الذى يشير هنا إلى خاصة أخرى ، أى إلى **نوع الألم** . فالألم يتنوع ويختلف حسب النوع ؛ أى من ألم ذى طبيعة حارقة إلى ألم حاد ونحو ذلك . ومن خواصه أيضًا أن الألم **ذو مسار أو مجرى** . ففى *الأوضاع* التى ينشأ فيها الألم : فإن الألم ذا الطبيعة الحارقة المتوسطة أشد كثافة ، وفى *الأوضاع* التى يمضى بها الوقت ، فإن الألم يأخذ فى التلاشى ، ونحو ذلك .

ومن الممكن أيضًا أن تكتب ملاحظة نظرية من مقالة عن الألم قمت بقراءتها ، أو تقوم بتحليل لتقرير بحث ما حول الألم ، أو تقوم بعقد المقارنات أو تقوم بتحليل معمق أو بإثارة تساؤلات حول الألم . هذه الملاحظة النظرية تمت كتابتها لزيادة الحساسية النظرية ولتحديد الاتجاه لمزيد من الاختيار النظرى ، فعلى سبيل المثال :

١٠/٧/١٩٨٩م ملاحظة نظرية (من الملاحظة الترميزية ١٠/٧/١٩٨٩م ، المتعلقة بـ : الألم ؛ بعض الخواص والأبعاد . كذلك من الملاحظة النظرية التى تحمل التاريخ ذاته) .

أسئلة حول الألم :

ما هى بعض الأسباب المؤدية إلى الألم إلى جانب مرض التهاب المفاصل ؟ هناك العديد من الأسباب المختلفة المؤدية للألم ، على سبيل المثال : السرطان ، والجروح ، والعمليات الجراحية ، وتسوس الأسنان ، وبتر الأعضاء ، والولادة .

ماذا عن تجربة *الألم* فى كل حالة من هذه الحالات ؟ هل كان الألم متوقعًا أم غير متوقع ؟ هل توقع الألم المترتب على أى من هذه الأسباب يؤثر فى تجربة الألم ؟ وفى حالة كون الألم متوقعًا ، هل تم أخذ أية خطوات للحيلولة دون الشعور بالألم أو للتقليل منه ؟ وإذا كان الأمر بالإيجاب ، كيف تم هذا ؟ وما هى الخطوات التى تم اتخاذها بهذا الصدد ؟ وإذا كان الأمر بالنفى ، فلماذا لم يتم اتخاذ أى خطوات من ذلك القبيل ؟ . ماذا يمكن أن يكون هناك من الأسباب التى حالت دون اتخاذ أى إجراء للحيلولة دون الشعور بالألم أو لتقليله ؟ هل بعض الآلام أكثر كثافة من البعض الآخر ؟ هل تختلف كثافة الألم حسب الزمن ؟ وإذا اعتبرنا الولادة أو السرطان من الأسباب المؤدية للألم ، فهل الألم فى هذه الحالات أكثر كثافة فى بداية مسار المرض أم فى نهايته ؟ ولماذا ؟ وما الخطوات التى يتم اتخاذها فى هذا الصدد ؟ كيف يتم *التعامل* مع الألم ؟ كيف يستطيع شخص ما أن يقنع شخصًا آخر بشعوره بالألم ؟ هل تؤثر عوامل مثل : الثقافة ، والعمر ، وطول فترة المعاناة من الألم ، وكثافة الألم ، ونحو ذلك فى تجربة الإنسان وتعامله مع الألم ؟ .

الملاحظات الإجرائية :

غالبًا ما تحدد الملاحظات النظرية اتجاه كل من المعاينة أو الاختيار النظرى ، والأشياء التى يرغب الباحث الوقوف عليها والبحث عنها ، والأسئلة التى يرغب فى طرحها فى مقابلاته وملاحظاته اللاحقة . وهذه الملاحظات النظرية يتم لاحقًا كتابتها كملاحظات إجرائية ، والفقرة اللاحقة مثال على ذلك .

١٠/٧/١٩٨٩م ملاحظة إجرائية .

اختيار البيانات الخاصة بالألم :

وفقًا لمذكراتي النظرية التي تحمل التاريخ ذاته ، يبدو أن لدى أماكن كثيرة ومتنوعة لأجمع منها بيانات عن الألم . هذه البيانات ستؤدى إلى مزيد من استخراج خواص الألم وتعطى معلومات عن الأبعاد المختلفة لتلك الخواص ، وعن الأوضاع التي تؤدى إلى تنوع واختلاف الخواص وفقًا لتلك الأبعاد . ولعل الولادة تشكل موضوعًا جيداً لنبدأ به في جمع بيانات عن الألم . كما يمكن أيضًا أن نتحدث إلى الأشخاص المصابين بمرض السرطان لجمع بيانات عن تجربتهم مع الألم . وعند الحديث مع هؤلاء الأشخاص أو ملاحظة هذه الجماعات لا بد أن أفعل ذلك فيما له صلة بتلك الخواص والأبعاد التي سبق لي تحديدها ، وكذلك أبحث عن خواص وأبعاد أخرى مما لم أتمكن حتى الآن من اكتشافه . وعلى سبيل المثال ، إنني أرغب في النظر إلى الألم من خلال وضعه ، ونوعه ، وكثافته ، ومساره ، واستمراره ، ودرجته ونحوه . كما أرغب أيضًا في ملاحظة الأوضاع التي تؤدى إلى تنوع تلك الخواص عبر الأبعاد المختلفة . وبعبارة أخرى ، ما الأوضاع التي تؤدى إلى الألم الذى تم وصفه بالشدة في وقت ما من قبل شخص ما ، ولم يتم وصفه كذلك في وقت آخر من قبل شخص آخر ؟ أو ما الذى يؤدى إلى اختلاف وتنوع شدة الألم ؟ ، هل يعود ذلك فقط إلى مصدر الألم الذى نتج عنه هذا الاختلاف ؟ ، أم هل الأشخاص الآخرون ذوو تجارب مختلفة مع الألم ؟ ولماذا يلاحظ استمرار بعض الآلام في حين أن البعض الآخر منها متقطع ؟ .

وليس هناك في الواقع أية قيود للأنواع المختلفة من المفكرات التي من الممكن كتابتها خلال الترميز المفتوح . فمن الممكن كتابة مفكرات توجيهية مبدئية ، ومفكرات نظرية أو إرشادية ، ومفكرات قادرة على فتح مداركك على ظواهر جديدة ، ومفكرات حول فئات جيدة بما في ذلك الخواص والأبعاد التابعة لها ، ومفكرات من الممكن أن تميز بين اثنتين أو أكثر من الفئات ، ومفكرات تلخص الخلفية التي تأتي منها والاتجاه الذى تقصده .

إن المفكرات الموضحة أعلاه تمثل تلك الأنوا ع المعمولة فى المراحل الأولى من البحث وتتميز بدرجة عالية من البساطة ، وقد تم إعدادها لمساعدة الباحث على الشروع فى صياغة المفاهيم . وفيما يأتى ، سنجد ملاحظات نظرية أكثر تعقيداً مما سبق تم تأمينها من مشروع بحثى عن كبيرة الممرضات . وسيقدم لك ذلك فكرة عن شكل الترميز المفتوح فى المراحل المتأخرة فى أى مشروع بحثى . لاحظ هنا أن مفكرة الترميز المفتوح هذه لا تزال ذات طابع استكشافى : أى إنها تفتح الأذهان على فئتين معروفتين ، وكذلك الأفكار التى لا بد من اكتشافها فى الملاحظات المستقبلية . وهذه المذكرة نعرضها هنا على النحو الذى كتبت عليه تماماً .

أس/ ج س ٥/٣١/٨٨ المعرفة المحلية/ العمل الروتينى ، المعرفة المحلية معرفة محددة .

١- المعرفة المحلية المأخوذة على *علاتها* فيما يتعلق بالتجارب السابقة ، وتشمل على سبيل المثال :
- الآلات .
- الإجراءات .
- الممارسات .
- الأماكن والمساحات .
- الجداول ، التوقيت ، التحكم فى السرعة ونحو ذلك .
- الأشخاص .
- العلاقات : العملية والعاطفية .
- المناخ والأوضاع النفسية .
- الحوادث .

٢ - إننى أعتقد أن هذه الفقرات من الممكن التعبير عنها بمصطلحات سبق لنا استخدامها ، فلقد تحدثنا عن *الأنظمة* ، وعليه فإن هناك عدة نظم ، كالآتى :
- النظام التفاعلى .
- النظام التقنى .
- النظام المكانى .
- النظام الوقتى .
- النظام العاطفى .

(وربما أيضًا النظام المؤسسى - فيما يتعلق بالقواعد التنظيمية) . انظر كيف تتطابق هذه المصطلحات تقريبًا مع المصطلحات الموضحة أعلاه ؟

٣ - إن هذه المعارف المحددة مزودة بطبيعة الحال ، بمعرفة *أكثر* عمومية *مأخوذة على علاتها* . ويشمل ذلك : أيام الأسبوع ، والأعياد ، وطبيعة العمل فى المستشفى ، والمعرفة الطبية والتمريضية للمواضيع المختلفة ، وكذلك المعرفة الثقافية الأكثر عمومية والمأخوذة على علاتها .

٤ - عندما يتم توظيف شخص جديد مع طاقم العمل ، فإن عليه (أو عليها) :

- أن يدرس على وجه التحديد فقرات المعارف المحلية الموضحة أعلاه ولكل نوع من الأنظمة (أين توضع الأشياء وأين يبحث عن هذه الوسيلة أو الأداة ، وكيف يقوم بتنفيذ هذا الإجراء هنا أو كيف يقوم بعمل هذا الإجراء الذى لا نعرف القيام به حتى الآن ؟ وما إلى ذلك) .
- أن يعرف كيف يتعلمه (أو تتعلمه) بنفسه أو بنفسها . فالإنسان يستطيع أن يقوم بذلك «أثناء العمل» من خلال ملاحظته للآخرين وسؤالهم عن ذلك خلال العمل . أو من الممكن أن يقوم بذلك بعيدًا عن العمل المعتاد ؛ وذلك من خلال الجلوس معهم وسؤالهم عن ذلك حتى ولو خلال أوقات تناول القهوة . أو من الممكن أن يحصل على ذلك بطريقة غير مباشرة من خلال الأحاديث التى تتم بين العاملين أثناء وجودهم داخل جناح المستشفى أو خارجه .

٥ - فى الواقع ليس هناك طريقة ممكنة لتدريس شخص جديد جميع فقرات المعرفة المحلية . *فمعظم ذلك لا بد أن يتم استيعابه خلال أنشطة العمل ، مما يأخذ الكثير من الوقت* . وسيأخذ الأمر وقتًا أكثر إذا لم يكن هناك من أعضاء الفريق من يقوم بتلقين الشخص الجديد تلك المعرفة المحلية أو يقوم بمحاولة منظمة لتدريسه ذلك . أو إذا كان ذلك الشخص الجديد ليس دقيق الملاحظة أو كان على درجة عالية من الخجل أو الكسل مما يحول بينه وبين إثارة الأسئلة عن تلك الأشياء التى يجهلها .

٦ - إن من الأهمية بمكان أن تلاحظ أن جزءًا ليس باليسير مما نطلق عليه *الأفعال الروتينية* يعتمد *على المعرفة المحلية* ، وما على الإنسان إلا أن يراقب الناس وهم يقومون بأعمالهم الروتينية ليدرك أنه لا يتعين عليهم التفكير حول أين يضعون الأشياء ، ولا متى يتعين عمل هذه الأشياء مما لم يتجاوز الجدول المحدد ، ولا كيف يتصرفون عند دخول الغرفة ، ونحو ذلك . فرأس الإنسان وجسمه يعرفان ما يتعين القيام به . وحسب ما يعتقد (جون ديوى) ، فإنه عندما تكون هناك مشكلة ولو صغيرة ، فإن الأعمال الروتينية تأخذ فى التعثر على الأقل ، عندها يجد الموظف الضرورة لأن يبتدع على الأقل قصة صغيرة . أو يقوم بالاعتماد على تجربته السابقة فى التعامل مع تلك المشكلة . كما أن الخيار الأخير ربما يكون جزءًا من المعرفة المحلية للموظف ، أو ربما تكون معرفة خاصة به . ولكن عليك أن تلاحظ أنه فى التعامل مع المشكلات بطرق جديدة ، فإن المعرفة المحلية من الممكن الاعتماد عليها كعنصر فى فعل جديد .

٧ - فى بعض الأوقات ، كما ذكرنا ذلك من قبل ، فإن طريقة جديدة من الفعل ربما يتم النظر إليها بشىء مؤسسى (إما فى جناح المستشفى وإما على مستوى تنظيمى أعلى) . وفى هذه الحالة ، فإنها تصبح جزءًا من المعرفة المحلية المحددة فى جناح المستشفى .

وهناك أمثلة أخرى على المفكرات يمكن وجودها فى *كتاب التحليل الكيفى لإخصائى البحوث الاجتماعية* (Strauss, 1987 ، انظر على وجه الخصوص ص ص : ١١١-١٢٧) .

الرسوم البيانية *(Diagrams)* :

عندما يقوم الباحث بالترميز المفتوح ، فليس لديه إلا شىء يسير لا يكفى لعمل رسوم بيانية ، وذلك لوجود عدد محدد من العلاقات التى تم تأسيسها . وربما يكون الأكثر فائدة فى هذا الوقت ما يتمثل فيما يمكن أن يسمى بعمل القوائم عوضًا عن الرسوم التوضيحية . وبعمل قائمة لكل فئة من الممكن أن يقوم المحلل بتوضيح الخواص والأبعاد مع بعضها . ومن الممكن التوسع فى هذه القائمة مع تقدم ونمو التحليل ، فذلك سيقدم الأساس الذى يقود إلى الرسوم التوضيحية المنطقية المنفذة خلال الترميز المحورى .

الترميز المحورى :

يتم فى الترميز المحورى الشروع فى وضع قطع أو أجزاء اللعبة مع بعضها البعض . فكل قطعة أو جزء (الفئات ، والفئات الفرعية على سبيل المثال) لها مكان محدد فى النظرية المفسرة العامة ، ولا بد أن تتطابق مع بقية القطع والأجزاء الأخرى فى النظرية لينشأ عن ذلك كل متكامل . وكما نقوم بحل اللغز ، فإننا نلتقط قطعة من اللعبة ونتساءل : هل هذه القطعة تقع فى هذا المكان من اللعبة ؟ وغالبًا ما تكون محاولاتنا المبدئية لحل اللغز من قبيل التعلم عن طريق المحاولة والخطأ . ولكن لاحقًا عندما نصبح أكثر حساسية نظرية ، فإن وضع القطع أو الأجزاء فى الأماكن المناسبة لها يصبح أمرًا سهلاً .

المفكرات :

يتمثل الهدف من الترميز المحورى - كما تعرف - فى الاقتراح والتأكد من العلاقات فيما بين الفئات وفئاتها الفرعية من خلال النموذج ، وكذلك فى الاستمرار فى البحث عن الاختلاف فى الخواص من خلال أبعاد تلك الفئات . وعليه ، فإن المفكرات تعكس محاولاتك الناجحة أو المخفقة أحيانًا - فى ربطك للأجزاء مع بعضها ؛ أى سعيك للحصول على الارتباط الصحيح . فالمفكرات ستحاول مواجهة أسئلة من مثل : ما الأوضاع ذات الصلة بالظاهرة ؟ (سواء كانت سببية ، أو قرينية ، أو وسيطة) ما الأفعال والتفاعلات الإستراتيجية الروتينية التى حدثت هنا ؟ وما النتائج التى ترتبت عليها ؟ ماذا يحدث عندما تتغير الأوضاع ؟ ومرة أخرى ، فإن عليك أن تلاحظ هنا - كما سبق الإشارة إلى ذلك - أن مظاهر النموذج والعلاقات التى ينطوى عليها لا يحملن علمًا ملونًا يلوح لك من صفحات ملاحظاتك الحقلية . إن عليك أن تبحث عن تلك المظاهر والعلاقات وأن تميزها حسب ما تعنيه . وأحيانًا ما يكون ذلك صعبًا ، وعليه فإن المفكرات الأولية تظهر تلك الصعوبة والغموض والأفكار الخاطئة والمحاولات غير الفعالة . ومع هذا فإن عليك أن تكون واثقًا أن البيانات مع مرور الزمن ستصبح أكثر وضوحًا فى معانيها . وعليه ، فإن مفكراتك ستزداد تحسنًا وتطورًا . ولإعطائك تصورًا عن شكل الملاحظات الترميزية الأولية فى الترميز المحورى ، فإننا نقدم لك المثال التالى :

سنبدأ أولاً بمقتطفات من ملاحظات حقلية حتى تستطيع إدراك البيانات التى تتعامل معها . وتتمثل الظاهرة محور الدراسة فى الألم وطريقة التحكم فيه . وفى هذا المثال سنحذو حذو الملاحظة الإجرائية فى القسم السابق التى توجهنا للنظر فى الأسباب الأخرى للألم غير المرضى . إن الألم الذى يمثل محور الدراسة هنا يتمثل فى الولادة . كما أن ما قمنا به كان مع إحدى الأمهات حول تجربتها مع الألم خلال عملية الولادة :

إنك تسألنى لأخبرك عن تجربتى مع الألم خلال عملية الولادة . لقد مضى على عدد لا بأس به من السنوات منذ أن أنجبت طفلاً . إن الشىء العجيب فى الألم - بقطع النظر عن مصدره - يتمثل فى أنه عندما يتلاشى ، فإنك نوعًا ما تقوم بدفنه أو بوضعه فى عالم اللاشعور الخاص بك . إنك تستطيع القول إن ذلك كان تجربة مرعبة أو تجربة ليست على درجة عالية من الرعب ، ولكن هذا التعبير هو تعبير مصوغ بشىء من الضبابية . إذ إنك لا تستطيع فى واقع الأمر أن تشعر به فى أى مكان ، وكل ما لديك نحوه لا يعدو مجرد تأملات حول ما تعتقد أنه مشابه له . هل تعرف ماذا أعنى بذلك ؟

إن عملية الولادة أمر مثير للغرابة ، إذ ينتاب المرء نوع من الخوف منها لأنك تسمع الكثير عن ألم الولادة من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فالمرأة الحامل تتطلع وتستشرف للولادة لما لحق بها من الملل المترتب على طول فترة الحمل ولتشوقها لرؤية المولود . فالألم ، بناء على ذلك ، ينظر إليه كالطريق الوحيد لتحقيق ذلك ، والمرأة الحامل تتوقع أن تعطى ما يخفف من شدة الألم . فالألم أمر متوقع ، والمرأة الحامل تفكر فيه دائمًا ، وتخاف منه ، وتستعد له بذهابها إلى الحلقات الدراسية الخاصة به وبتعلمها كيفية ضبطه والتحكم فيه ، والتسامح فى تحمله والصبر عليه . والألم فى بداية الحمل ليس ألمًا شديداً ، أما فى مراحل الحمل الأخيرة ، فإن الألم يزداد شدة وتأخذ قوته فى التحكم المستمر فى المرأة الحامل . ومع هذا فإن هناك لحظات قصيرة تشعر المرأة الحامل فيها بزوال الألم . وفى هذه الأثناء ، فإن المرأة الحامل تعرف تمام المعرفة أن الألم آيل للنهاية لا محالة ، وذلك عندما تتم ولادة الجنين . كما أن المرأة الحامل تعلم أن الفريق الطبى المشرف على عملية الوضع سيقدمون لها من الأدوية ما يخفف من وطأة الألم . إننى كنت سعيدة الحظ ، فقد كانت فترة المخاض التى مررت بها أثناء إنجابى لطفلى قصيرة ، وعليه فلم أكن فى حاجة لأى نوع من الأدوية ، ولم ألجأ قط إلا

إلى استخدام تمارين التنفس والاسترخاء الخاصة بالولادة ، ومع هذا فإننى أستطيع أن أدرك أن استمرار الألم لساعات طويلة يؤدى بالمرأة الحامل إلى الملل ويجعلها فى حاجة ماسة للحصول على ما يسكن الألم .

١٠/١٠/١٩٨٩م الملاحظة الترميزية

التحليل المتعلق بالملاحظة الحقلية ذات الرمز (٤٥) ، ص (٢) ، تاريخ ٩/١٠/١٩٨٨م ، الألم ، وأوضاع التعامل مع الألم ، وإستراتيجيات الفعل والتفاعل ، والنتائج المترتبة على التعامل مع ألم المخاض .

إننا نتحدث هنا عن نوع محدد من الألم ، أى ذلك المرتبط بالمخاض . فهذا الارتباط يحدد لتجربة الألم خواصها المعينة أو موقعها عبر المتصل البعدى الخاص بها . فألم المخاض *أمر* متوقع (درجة التوقع) ، ممكن *التحكم* فيه (درجة الضبط والتحكم فى الألم) ، يزداد شدة مع تطور المخاض (درجة كثافة الألم تشير كذلك إلى تعدد المظاهر أو الأطوار التى يمر بها الألم) ، كما أن للألم بداية ونهاية معروفة ، ومن هذه الخواص أيضًا إنجاب الطفل (تقدّم *المسار*) ، كما أن الألم متقطع إذ تتخلله فترات خالية من الألم (درجة *الاستمرارية*) . ومن الغريب أن ألم المخاض ذو خاصة غريبة أخرى من الصعب توضيحها . فالألم جزء من عملية المخاض التى تؤدى فى حد ذاتها إلى إنهاء الحمل وذلك بإنجاب المولود المتوقع . كيف أستطيع وصف هذه العملية ؟ فالألم فى حد ذاته لا هدف له ، ولكنه فى الوقت نفسه مرتبط بعملية المخاض الهادفة . (إننى سوف ألاحظ هذا ، ولكننى لست متأكدًا من كيفية التعامل معه . إن ذلك لا يعنى بالضرورة القبول ـ على الرغم من أنه قد يعنى ذلك لدى البعض ـ أو التسامح ، ولكن ربما يعطى الألم درجة محددة من التنبؤ ، إن هذا لا يدل بما فيه الكفاية على هذه الظاهرة) .

إن هذه الخواص المحددة لألم المخاض تخلق الإطار الذى يظهر فيه التعامل مع الألم من وجهة نظر المرأة .

ومن هذه الملاحظة الحقلية ، فإننى أستطيع أن أنتهى أو أصل إلى *العلاقات الممكنة الآتية* : فى الأوضاع التى يكون فيها الألم الناجم عن المخاض معروفًا مسبقًا ، فإن المرأة الحامل تستطيع الاستعداد والتهيؤ .. عندما يكون الألم منقطعًا لا مستمراً .. عندما تختلف درجة كثافته خلال المسار من متوسط الكثافة عند بداية الألم إلى شديد الكثافة لاحقًا .. عندما يكون المخاض قصير الأجل أو يسير على الأقل مساراً متوقعاً .. وعندما يكون هناك أساليب معروفة للتحكم فى كثافة ممكنة التعلم أو ممكنة المناقشة مع الفريق الطبى . عندها فإن المرأة الحامل تستطيع القيام بفعل تتمكن من خلاله من ضبط كثافة الألم خلال فترة المخاض ، وذلك بواسطة أساليب التحكم فى الألم كاستخدام أساليب الاسترخاء والتنفس ، والعقاقير المهدئة ، أو المخدرة . إن *النتائج* أو مخرجات استخدام أساليب التعامل هذه ربما لا تكون تحكمًا محكمًا ولكنه تحكم لدرجة كافية تساعد الحامل على تخطى مراحل المخاض .

ومن الممكن أن تدخل الحامل فترة المخاض ولديها فكرة محددة *سلفًا* عن أساليب التعامل مع الألم التى تتوقع استخدامها كأساليب التنفس والاسترخاء ، وعندما يتغير إطار التعامل مع الألم بسبب بعض العوارض مثل : طول فترة المخاض المترتبة على مضاعفات الحمل ، فإن المرأة الحامل عند ذلك تجد من الضرورى تغيير تلك اللحظة المحددة سلفًا للتعامل مع الألم ، وذلك باستخدامها *لأساليب إضافية أو أساليب أخرى* بدلاً من الأساليب الأولى (التنفس ، والاسترخاء) .

ومن الفئات الممكنة الأخرى والخواص الناتجة عن هذه الملاحظة الحقلية مما يمكن تطويره بشكل أكثر ، ما يلى :

الوعى بالألم أو تذكره : ويبدو هذا الوعى بالألم أو تذكره فى البداية شديداً ولكن مع مرور الوقت يأخذ فى الفتور . ومظاهر مسار الألم : وهذا يستحق الفحص والامتحان . والتنبؤ بالألم وكيف يعمل كشرط للتعلم .

إن هذه الملاحظة الحقلية تقترح – ولكنها لا تتناول – الأشياء الآتية : ماذا عن التوقيت وكمية العلاج ، والإبر المسكنة للألم ؟ ماذا عن آثارها ومخاطرها الممكنة ؟

إن أى *ملاحظة نظرية* ناجمة عن الملاحظة الترميزية أعلاه (المرتبطة وإن لم يكن بشكل مباشر بالملاحظة الحقلية) يمكن أن تأخذ اتجاهات مختلفة . فمن الممكن أن تؤدى إلى اكتشاف مزيد من الأسئلة المثارة فى الملاحظة الترميزية ، وأن تقترح إستراتيجيات للتعامل مع آلام المخاض ، أو الألم الناجم عن أسباب أخرى مثل الجراحة . ومن الممكن أن تنظر فى الأوضاع الممكنة الأخرى التى من الممكن أن تؤثر فى الإستراتيجيات المختارة للتعامل مع الألم فى المخاض ، وكيفية تنفيذ هذه الإستراتيجيات . ومن الممكن أن تقوم بفحص النتائج المترتبة على استخدام إستراتيجيات متنوعة من خلال قدرتها على ضبط مستوى الألم المعانَى . كما يمكن أن تستخرج عدداً من المذكرات المتصلة بالألم والتعامل معه فى مفكرات تلخيصية .

كما أن أى *ملاحظة إجرائية* من الممكن أن تأخذ اتجاهات عديدة مختلفة ، فربما نقترح مزيداً من المعاينة (الاختيار النظرى) أو وضع عدد من الفروض يتم التأكد من صحتها فى المقابلات اللاحقة . أو ربما تذكرنا بالفئات أو الفئات الفرعية التى ربما تحتاج إلى التركيز عليها فى الجلسة التحليلية اللاحقة .

ولمزيد من الأمثلة على المفكرات التى توضح الترميز المحورى ، انظر الأمثلة التالية :

فى هذه الحالة ، مثال على مفكرة أخذت من دراستنا لكبيرة الممرضات تصور الترميز المحورى . فقد أخذنا نفكر بشكل تحليلى حول ظاهرة ثلاث مناوبات عملن فى المستشفيات حيث تتطلب استمرارية العمل مدة أربع وعشرين ساعة يومياً .

أس/ج س ، جون ٢٥/١٩٨٩م ملخص للملاحظات الترميزية المتعلقة بثلاث مناوبات عملن فى المستشفى ، صدرت الملاحظات الحقلية فى ٢٠ يونية ، ١٩٨٩م ، ذات الرمز (٢٠) # ص ص (١-٤٥) ، مفكرة رقم (٣١) .

١ - الأوضاع الخاصة بكل مناوبة :

أ - الأوضاع كمعالم ومصادر لكل مناوبة .

ب - الأوضاع المولدة للطوارئ .

كالأعمال العادية (الروتينية التنظيمية أو الخاصة بالجناح أو بالمناوبة) إضافة إلى إستراتيجيات التحكم فى هذه الطوارئ الداخلية للمناوبة سواء كانت طوارئ مهمة أو عادية .

٢ - الشىء نفسه بالنسبة لانسياب العمل بين المناوبات (الأعمال العادية الروتينية إضافة إلى إستراتيجيات التحكم فى الأمور التى تجرى بين المناوبات) علماً بأن المناوبات الصباحية تعتبر أكثر أهمية .

٣ - الإستراتيجيات التقليدية لمضاعفة الأعمال الروتينية وتخفيض الطوارئ وانسياب المعلومات من خلال أ ، ب ، س ، د ، ن ...... إلخ .

أنواع المصادر (القوة العاملة ، التجهيزات ، التقنية ، الخبرات ، التوقيت ، الطاقة ، البواعث ، من خلال أ ، ب ، س ، د ، ن لكل نوع من المصادر) .

أ - الأعمال الروتينية .

ب - الحيلولة دون وقوع الطوارئ غير المتوقعة .

٤ - الأعمال الروتينية والإستراتيجية ستكون - مع هذا أيضاً - خاصة بالأوضاع المتعلقة بجناح معين .

٥ - النجاح أو الإخفاق النسبى المرتبط بالأعمال الروتينية المناسبة وبالإستراتيجيات الخاصة بكل جناح .

٦ - لاحظ أن الأعمال الروتينية ربما تولد الطوارئ (المؤقتة أو المتكررة)

٧ - والشىء نفسه ينطبق أيضاً على الإستراتيجيات .

٨ - الدور المركزى لكبيرة المرضات وما يصدر عنها من آراء وأحكام وما تقوم به من إشراف وتقويم ومناقشات . إلخ ، وبعبارة أخرى ، فكبيرة الممرضات تمثل مجموعة من الأوضاع البنائية المؤثرة على العمل فى كل مناوبة .

ملاحظة بخصوص مسألة ظاهرة مناوبات العمل الثلاث :

إن جميع ما قمنا بصياغته من مفاهيم لا بد أن ينطبق هنا ، مثل : المعرفة المحلية ، الأعمال الروتينية ، المصادر ، القوة ، المناخ ، المزاج ، النواحى العقائدية (د/١) ، ونحو ذلك .

وفيما يلى مفكرة أخرى مأخوذة من المصدر ذاته . وتمثل هذه ملاحظة نظرية . وعليك هنا أن تلاحظ الفروض وكيف تم بناؤها فى المفكرة .

أس/ج سى ٧-٢٢-٨٨ (هاتف)

مذكرة مهمة : المبتذل/الجديد

لقد طرحت قضية قمت بملاحظتها منذ أمد بعيد تتمثل فى أن المرضات يواجهن مشكلات عادية غالبًا ما تؤدى إلى إضاعة الوقت والجهد ، والوجدان . *ولكنهن لا يقمن بتغيير الإجراءات والقواعد التنظيمية لمنع وقوع هذه المشكلات ، وعلى خلاف ذلك ، فإنهن يتابعن القيام بالأعمال الروتينية المنوطة بهن* . (على سبيل المثال : المرضى المشكوك فى موتهم ...) وعلى خلاف ذلك ، فإنهن يصنفن المريض كالمرضى الذين قمن بالإشراف عليهم من قبل . ولكن فيما بعد ، ليس هناك أى تغير تنظيمى . هذه الحالات تعود - كما اعتقدت فى ذلك منذ زمن بعيد - إلى الطرق التى من خلالها تتمكن المنظمات من القيام بأعمالها ، وإلى ما تصنعه من أولويات ، وربما تعود إلى الضغوط البنائية التى تولد الأزمات الطفيفة ، إلا أن هناك مجموعة من الأجوبة المفصلة والمفضلة ، هى كالآتى :

١ - عندما *يتوقف العمل* فعندئذ يكون *هناك تغير فى الإجراء* .

٢ - *إذا لم يقمن بتغيير الإجراءات ، فذلك يعود إلى أن العمل المرتبط بالمشكلة ليس بعمل ذى أولوية* . فالمرضات مشغولات فى الأعمال ذات الأهمية القصوى ، أما ما عداها من الأعمال فليس لديهن الوقت والجهد الذى يكفى القيام بها . وفى حقيقة الأمر ، فإنهن سيقمن باستدعاء ذوى الاختصاص ؛ كإخصائى الخدمة الاجتماعية ، أو الواعظ الدينى أو المحلل النفسى عندما تكون مشكلة ، مثل المريض المثالى ، مشكلة صعبة ؛ وذلك لأن ما يخصهن من أعمال لا بد أن

يستمر بدون انقطاع . أو أنهن سيقمن بتجاهل المريض ، مما يجعل المشكلة أكثر شدة ، ولكن :

٣ - *إذا كان العمل المتأثر بانقطاع انسياب العمل ذا أولوية (مثل : التأثير على فعالية العمل ، أو سلامة المريض) ، فإنه يتعين عليهن أن يفكرن فيما من شأنه منع تلك المشكلة من الظهور مرة أخرى .*

أ - *إذا كان التغير يتم بسهولة* ، فإنه عندئذ قد تم من خلال عمليات تفاعلية كالمناقشة ، والتشجيع وحتى من خلال الجبر والإكراه .

ب - *إذا كان التغير سيكون صعبًا من الناحية التنظيمية* ، فإن هذا يعنى بالضرورة أن أعمالاً إضافية كثيرة لا بد من تنفيذها ـ ولكن يجب أن تنفذ ـ وذلك مثل : التأمل والتفكر فيما يجب عمله ، والتخطيط لصنع القرار ، والتشجيع ، والإغراء ، والمناقشة ، والبحث عن مصادر جديدة ، والعمل على رفع المعنويات ، وأعمال إشرافية إضافية عندما يتم إقرار الأنشطة الروتينية الجيدة ونحو ذلك . وكذلك بطبيعة الحال ، الأعباء الإضافية الأخرى على العملية المترابطة النهائية حتى يعود كل شيء إلى مجراه الطبيعى مرة أخرى .

٤ - وعليه ، فإن ما ذكرناه هنا يتمثل فى أن هذه هى الأوضاع الموجهة للأفعال والآليات التى من خلالها يتم تعيين تلك الأفعال ، لاستبدال الأعمال الروتينية بإجراءات قانونية جديدة . *لاحظ* أنه يجب أن ننظر عن كثب لمعنى الإجراءات الروتينية . وعلى المستوى الأدنى ، فإن ذلك يعنى كيفية تنفيذ الواجبات ، ولكن ذلك يمكن عمله باتفاق طاقم العمل وكذلك بواسطة القوانين الإدارية .

الرسوم البيانية *Diagrams* :

تبدأ الرسوم التوضيحية فى الترميز المحورى فى اتخاذ الشكل أو المظهر الخاص بها . فالرسوم المنطقية الأولية (كتلك التى سبق عرضها فى الفصل السابع) من الممكن أن تكون مفيدة لفرز وتحديد العلاقات السابقة . وربما ترغب فى القيام برسوم بيانية تكاملية للمساعدة فى اكتشاف العلاقات بين الفئات وفئاتها الفرعية أو بين فئات متعددة مثل الرسمين البيانيين الموضحين أدناه . وبطبيعة الحال ، فإن هذه الرسوم

الأولية المبدئية لا تعدو أن تكون رسومًا بيانية مبدئية بسيطة . ولكن ستكون أكثر تعقيداً مع مرور الزمن . (فمثلاً للتغيرات التى تحدث عبر الزمن فى الرسوم البيانية التكاملية ، انظر : Strauss, 1987, pp : 174-178) .

وتعتبر الأشكال (١٢ – ١ ، ١٢ – ٢ ، ١٢ – ٣) أمثلة لأنواع مختلفة من الرسوم البيانية التى من الممكن أن تساهم فى اكتشاف العلاقات فى البيانات .

شكل رقم (١٢ – ١) المرضى المتجانسون وغير المتجانسين X العمل السهل والصعب

المرضى المتجانسون	المرضى غير المتجانسين
العمل السهل	
العمل الصعب	

شكل رقم (١٢ – ٢) مسار المرض : البعد الزمنى ـ الآلى

مراحل المرض	عدد الآلات		التكرار			الفترة	
	قليلة	كثيرة	نادر	متقطع	غالب	قصيرة	مستمرة
مبكر متوسط متأخر							

النتائج الخاصة بـ : شكل رقم (١٢ – ٣) مصفوفة متوازنة

مهام الألم	مسار المرض	الحياة والموت	الاستمرارية والمواصلة	التفاعل	عمل الجناح	النظام التعاطفى	الهوية الشخصية
التشخيص							
الوقـــاية							
التـــقليل							
الإلحـــاق							
التـخـفيف							
الاستمرار							
التـعـبـير							

الترميز الانتقائى :

يشير الترميز الانتقائى إلى الخطوة النهائية فى التحليل المتمثلة فى دمج المفاهيم التى تدور حول فئة محورية واحدة ، وكذلك فى إضافة الفئات المحتاجة إلى مزيد من النمو والتنقية . وفى هذا الوقت ، فإن المفكرات والرسوم البيانية تظهر مدى عمق وتعقد الفكرة التى تمثل مرآة للنظرية الناشئة .

الملاحظة الترميزية :

يتميز الترميز الانتقائى بقلة الملاحظات الترميزية ، فى حين تركز الجهود فى الترميز الانتقائى على الملاحظات النظرية . وتتعلق الملاحظات الترميزية فى الغالب بإضافة التفاصيل الخاصة بالفئات .

الملاحظات النظرية :

تتمثل فى ذلك الشكل من الملاحظات التى نقوم بها عند كتابة الترجمة الوصفية المبدئية لما يدور حوله البحث ، وتؤدى المفكرات النظرية مهمة قياس الأفكار للقصة التحليلية المعنية (على سبيل المثال ، تلك الأشياء المقصودة ، راجع الفصل الثامن من هذا الكتاب) ومن خلال تلك المذكرات القصصية ، فإننا نقوم بتحديد الفئة المحورية (الظاهرة محور التركيز) ، وكذلك نقوم بربطها بالفئات الأخرى التى تدور حول الفئة المحورية . كما أننا أيضًا نستطيع أن نوضح تلك العلاقات كفروض فى الملاحظات النظرية .

الملاحظات الإجرائية :

تميل الملاحظات الإجرائية فى الترميز الانتقائى إلى أن تكون أكثر دقة وتحديداً . «اذهب إلى هنا أو هناك . قم بفحص هذا أو ذاك . اعمل هذا أو ذاك» ، وحتى الآن ، فإننا نقارب الانتهاء من عملنا بدرجة كبيرة من الثقة ، إننا لم نعد نقوم بمزيد من الاكتشاف ، بل نستخدم وقتنا فى التحقق من مصداقية ما انتهينا إليه من نتائج وفى تنقية ما توصلنا إليه من نظرية .

الرسوم البيانية :

تبين الرسوم البيانية فى الترميز الاختيارى كثافة وتعقد النظرية ، وغالبًا ما يكون الأمر صعبًا لهذا السبب لتحويل النظرية من الكلمات إلى شكل بيانى دقيق وموجز . علاوة على ذلك ، فإن عمل الرسوم البيانية سيساعد الباحث لتصنيف وتنظيم العلاقات الموجودة بين الفئات وبين الفئة المحورية . وفى النهاية ، فإنه من الأهمية بمكان أن يكون لدى الباحث هذه النسخة البيانية الخفيفة من النظرية لمساعدة الآخرين فى فهم وإدراك ما توصل إليه من نظرية ، وكذلك لمساعدة الباحث نفسه فى المحافظة على وضوح العلاقات عند كتابة النظرية . والشكل رقم (١٢ - ٤) يضم مثالاً لرسم بيانى مترابط مأخوذ من دراستنا عن «المسار» . وقد مر هذا الرسم البيانى بالعديد من التعديلات قبل وصول المؤلفين إلى النسخة النهائية منه .

وهناك نقطة أخرى تتمثل فى أن الرسوم البيانية المترابطة من الممكن أن تتطابق مع أجزاء مختلفة من نظرية الباحث . ومن الممكن - على سبيل المثال - أن يكون لديك رسم بيانى يتعلق على وجه التحديد بفئة أساسية واحدة وبجميع فئاتها الفرعية ، كما هو الشأن في الرسم البيانى رقم (١٢ - ٥) .

فرز المفكرات والرسوم البيانية :

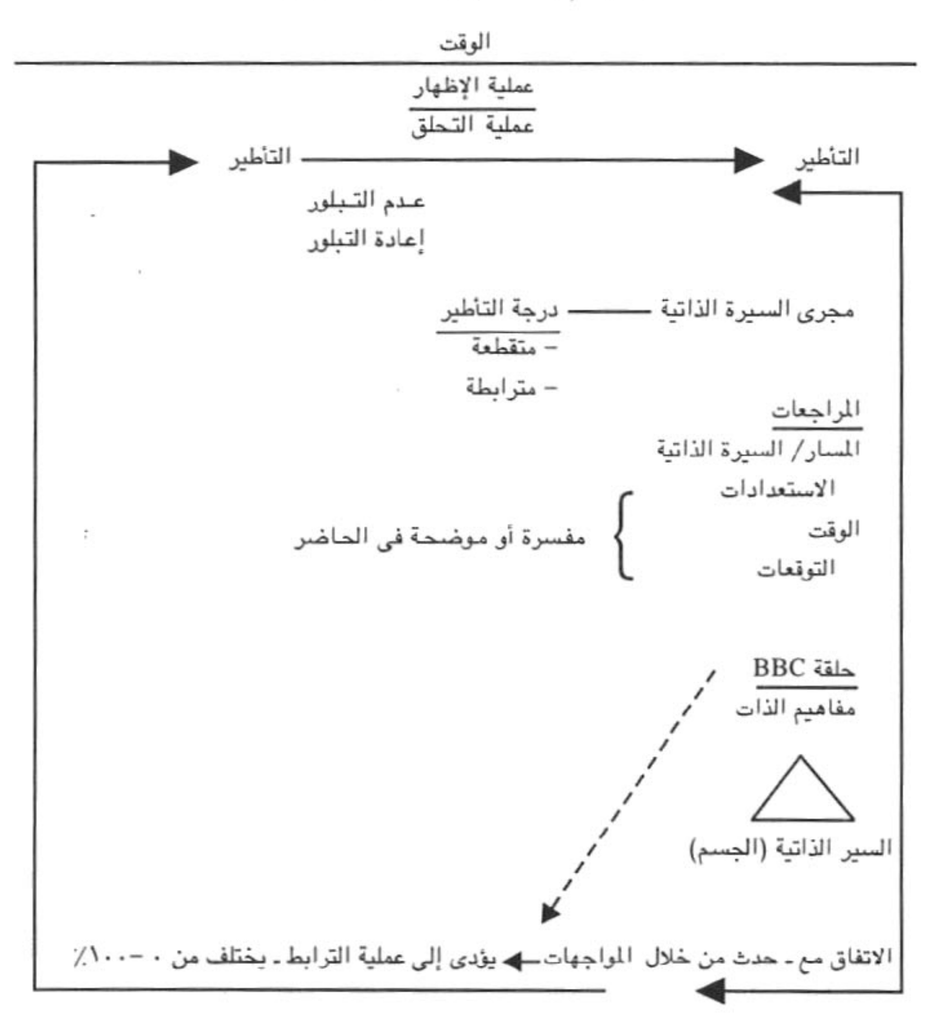
عندما نفكر فى عملية الفرز ، تتبادر إلى أذهاننا صورة ذلك المنظر للنظرية المجذرة الذى يقف وفى يديه أكوام كبيرة من المذكرات ثم يتركها تسقط واحدة تلو الأخرى فى المكان الذى ستئول إليه . وما ينشأ عن ذلك من ركام يمثل فرزًا تصادفيًا للمفاهيم . وفى كثير من الأحيان ، عندما نشعر جميعًا بهذه الطريقة ، خاصة خلال تلك الأيام المظلمة عندما نكون غارقين فى البيانات والأفكار بحيث لا نستطيع فهم كيفية صياغتها مع بعضها . والحالة هذه تعرف أن هناك نظامًا لها ، ولكنه يبدو وراء فهمنا وإدراكنا ؛ أى أن الأمر يبدو أن ما نقوم بصياغته من نظرية من الممكن أن يذهب إلى هذا الاتجاه أو ذاك .

وعلاوة على ذلك ، فإن هؤلاء المنظرين المجذرين يعرفون فى حقيقة الأمر أن هناك نظامًا ما ، وأن ما قمنا به من مفكرات ورسوم بيانية يمسك بالمفتاح الخاص بذلك النظام . وبواسطة **قراءتنا المتكررة** لتلك المفكرات والرسوم البيانية ، ومن خلال فرزنا لها بعد ذلك ، فإننا نستطيع الشروع فى اكتشاف كيف تتمحور هذه الفئات مع بعضها حول الفئة الرئيسية . ومن خلال قراءاتنا العامة للمذكرات ، فإننا نقوم بكتابة قصة وصفية . وبعد ذلك وباستخدام الفئات (المصطلحات التحليلية) فالمنطق والنظام موجودان جميعًا هناك (أو من المفروض أن يكونا موجودين هناك ، إذا اتبعت الإجراءات الموضحة فى هذا الكتاب) .

وفى الواقع ، فإنه عندما يكون لدينا بعض الأفكار حول كيفية ارتباط فئاتنا بعضها ببعض ، وكذلك خطة تنظيمية ما (تم عملها من خلال كتابة القصص الوصفية والتحليلية والأشكال البيانية التكاملية) ، فإننا عند ذلك نستطيع أن نقوم بجمع المذكرات وفقًا لتلك الخطة . **إن عملية الفرز أمر مهم لأنها تساعدنا على إنهاء ما نقوم به فى عملية الربط** . وبواسطة عملية الإنهاء هذه ، فإننا نستطيع بعد ذلك أن نجرى خطتنا فى بعض المواضيع التى نقوم بدراستها على بعض زملائنا ، أو أعضاء اللجان ، والأصدقاء ، والزوجات ، والأصحاب . إن عملية الإنهاء هذه تساعدنا على الكتابة فى كل موضوع من تلك المواضيع بشىء من التفصيل . وكذلك على إخراج الموضوع الكلى بشكل متكامل .

إن القيام بعملية الفرز منذ البداية يساهم فى عملية مفيدة أخرى ، فمن خلال مراجعة المفكرات والرسوم البيانية وتصنيفها وفرزها فى مجموعات ، فإننا نستطيع أن نصرح بما نعرفه عن موضوع ما ، كما نعرف أين نحتاج إلى معلومات توضيحية أخرى . إن هذا الإجراء يقدم نوعًا من التقرير الوضعى المؤقت .

شكل رقم (١٢ - ٤) ربط حلقات المذكرات



مع :	الناشئة عن :	يحدث من خلال :	من/ إلى :
- الأزمان	- التغيرات / المسار	- الإخراج	- عدم الموافقة (الرفض)
- المحدوديات	- التغيرات الخاصة بالسير الذاتية	- المواساة	- الموافقة
- الموت	- التفاعل	- إعادة البناء	- الموافقة المطلقة
	- النشاط/ السلوك		

شكل رقم (١٢ - ٥) الجسم ، السيرة الذاتية ، المسار

أكثر أو أقل (١-١٠٠)

الجسم
المباشر
الطاقة ، المحرك ، (الدوخان)
العوارض الأخرى (أجزاء ، أنظمة)
الحواس (الاستماع ، الإبصار)
غير المباشر
المدرك / المشاعر
انطباع الذات
الجسم الكلى
أجزاء الجسم
وظيفة الجسم
المستوى ـ التوقيت
التصورات
المريض
الزوجة
فريق العمل
الآخرون
الثقافى
الأيديولوجى
الشخصى
مراجعة السير الذاتية
تصور المسار
تصور السير الذاتية

أبعاد السير الذاتية
الجمال ، الفعالية ، الوضوح ، التدخل ، الوصمة ، الأمومة ، الجنس ، النوع ، تكامل الهوية ، المهنة ، الانعزال ، المؤقت ـ المستمر ، ... إلخ

الملخص :

تعتبر المفكرات والرسوم البيانية إجراءات ضرورية فى التحليل ، وإن كان ذلك يختلف حسب أنواع الترميز الثلاثة . إنها تساعد المحلل على المحافظة على التسجيل المستمر لعملية التحليل . فالمفكرات تحتوى على نتائج الترميز الفعلى ، إضافة إلى الملاحظات التلخيصية والملاحظات المؤدية للحساسية النظرية ، كما أنها توجه عملية المعاينة والاختيار . أما الرسوم البيانية فتعتبر عروضاً بصرية للعلاقات بين المفاهيم ، وكل من المفكرات والرسوم البيانية ستدخل فى الخطوة اللاحقة لعملك ، والمتمثلة فى كتابة التقرير للنشر وإلقاء المحاضرات حول مشروعك البحثى .

الفصل الثالث عشر
كتابة الأطروحات والدراسات وتقديم البحوث

أخيراً ، هناك عدد من الأسئلة الضرورية المتعلقة بالكتابة الخاصة بالنشر والتى ترتبط مع كل المشاريع البحثية . وتتمثل هذه الأسئلة فيما يلى :

١ - متى يجب أن أبدأ كتابة البحث لإعداده للنشر ؟
٢ - ما الأشياء التى سوف أكتب حولها ؟
٣ - ما أنماط الكتابة التى يجب استخدامها فى إخراج البحث : مقالة ، رسالة علمية أم شىء ما خلاف ذلك ؟
٤ - هل تختلف كتابة المقالات العلمية عن كتابة الدراسات العلمية أو الأطروحات ؟
٥ - ماذا عن إلقاء المحاضرات حول البحث ؟
٦ - هل يجب أن أسعى لأنشر ؟ وأين يجب أن أنشر ؟
٧ - من هو الجمهور المقصود بالكتابة (ويتضمن متى أكتب الأطروحة) ؟
٨ - ما هو المظهر الذى يجب أن تبدو عليه الكتابة ؟
٩ - كيف أقوم بالبدء فى الكتابة الحقيقية ، أو إعداد مخططها ؟
١٠ - كيف أتأكد أن ما قمت بكتابته عمل متقن وكاف لإحالته للطبع ؟

فى هذا الفصل ، سنحاول أن نقدم الأجوبة المفيدة عن تلك الأسئلة ، وسيتم تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام ؛ أما الأول منها فينصب على المحاضرات والاستعراضات اللفظية للبحوث ، والقسم الثانى يتعلق بالدراسات العلمية ، والقسم الثالث يتعلق بأنواع مختلفة من المقالات العلمية . [راجع القراءات المشابهة لهذا الفصل لدى جلاسير ، ١٩٧٨م ، ص ص (١٢٨-١٤١) ، وستراوس ، ١٩٨٧م ، ص ص (٢٤٩-٢٦٤)] .

ملاحظات تقديمية

من التحليل إلى الكتابة :

قبل أن تستغرق فى قراءة الصفحات القادمة ، فإننا نقترح إعادة قراءة الفصل الثامن الذى يتعلق بالتكامل مع هذا الموضوع ، والفصل الثانى عشر الخاص بالمفكرات والرسوم البيانية أو على الأقل الاطلاع السريع عليهما . ومن خلال تلك القراءات سيتم تذكيرك بأنه عندما تهم فى الواقع بالجلوس لتكتب عن بحثك - أو حتى لتعد مخططًا أو تقدم محاضرة تمهيدية ، أو تكتب مقالة علمية - فإن العديد من الأدوات المساعدة العظيمة قد تم استيعابها فيما سبق أن قمت به من عمل . وجميع الجهود السابقة التى تم بذلها خلال الشهور العديدة الماضية الخاصة بالتحليل ستعطى ثمارها . ومن ضمن الأدوات التحليلية المساعدة ما يتمثل فى المفكرات ، والرسوم البيانية الإجرائية والتكاملية ، وكذلك تتبع العلاقات فيما بين الفئات الرئيسية والفرعية ، ولكن هناك أيضًا قصتك التحليلية الشاملة . فعلى هذه المواد سيتم بناء وتأسيس ما ستقوم به من عروض لنتائج البحث (مقالة علمية ، رسالة ، أطروحة ... إلخ) . وعلاوة على ذلك ، فإن المواد ليس من الممكن أن توضع بين صفحتى غلاف وتنشر كما هى . إن المشكلة تتمثل فى كيفية ترجمة هذه المواد التحليلية بوضوح وفعالية حتى يستطيع الآخرون الاستفادة منها . فتحقيق هذه الترجمة سيؤدى إلى مزيد من التوضيح لما قمت به من التحليلات .

لماذا ننشر ؟

لا بد أن نذكر مزيداً من العبارات التمهيدية حول السؤال السابق : لماذا ننشر مطلقًا ؟ فباستثناء رسائل الدكتوراه والماجستير (كنوعين من أنصاف المطبوعات غير المنشورة) ، إذا لم تنشر ، فإن ما قمت به من تحليلات ستظل مجهولة ، إلا إذا استثنينا ما يقوم به الباحث من محادثات حولها مع أصدقائه ، أو من خلال المحاضرات العامة الموجهة للجمهور . إن هناك عدداً من الأسباب الداعية للنشر . ويعود واحد أو أكثر من هذه الأسباب ربما إلى الجهد الجدير بالاعتبار الذى يتطلبه كتابة بحث وتحريره ومن ثم الحصول على موافقة بنشره من قبل محررى الدوريات

العلمية أو شركات النشر . وبدون مراجعة العديد من البواعث (مثل : الاعتزاز بالنفس وتطوير المهنة ، والرغبة فى المساهمة فى الإصلاح ، أو لتسليط الضوء على حياة الأشخاص المبحوثين) فإن هناك الالتزام العظيم المتمثل فى الاتصال بزملاء التخصص . كما ليس من الممكن أن يكون هناك تراكم معرفى ذو طابع تنظيمى أو مهنى ، أو أن تكون مضامين ذلك فى ميادين النظرية والتطبيق ظاهرة بشكل نافع بدون التقيد بالتزام النشر . إن الباحثين المتمرسين عموماً لديهم ذلك الالتزام مغروساً فى ذواتهم . أما الباحثون محدودو الخبرة وخاصة طلاب الدراسات العليا الذين يقومون بدراسات علمية للمرة الأولى فربما تنقصهم الحوافز الدافعة للنشر ، ولكن أيضاً هناك العديد منهم يقللون من قيمة بحوثهم . وإذا اعتقد الباحث ذلك وكذلك اعتقده أصدقاؤه أو من يقوم بدعمه مالياً ، فإن الرغبة فى عدم النشر - والأمر كذلك - لها ما يبررها . أما إذا كان الأمر غير ذلك ، فإن التزامات الزملاء يجب الوفاء بها .

العروض اللفظية للبحوث :

يقوم الباحثون غالباً بعرض البحوث شفوياً كاختبار لما قاموا به ، وذلك حتى يروا ردود أفعال جمهور معين على تلك التقديمات والعروض . وفى الواقع ، إن أولئك المبحوثين الذين قام الباحث بدراستهم مباشرة أو بشكل غير مباشر سيضغطون على الباحث ويواجهونه بالسؤال : «ماذا عن نتائج بحثك ؟» «ألا يمكن أن تطلعنا على الأقل على النتائج المبدئية لبحثك أو تفسير لها ؟» ورغبة فى إشباع فضولهم أو للحصول على تغذية استرجاعية أو لأسباب أخرى ، فإن العديد من الباحثين يجدون من المفيد القيام بالعروض الشفوية لأبحاثهم . إنهم يقومون بذلك حتى فى مرحلة مبكرة إلى حد ما فى مشاريعهم البحثية . فدراسات النظرية المجذرة تلزم نفسها نسبياً بالتقرير المبكر ؛ لأن التحليلات تبدأ مع بداية المشاريع البحثية . وليس من الضرورى على الإطلاق أن تنتظر حتى تحصل على تحليل دقيق لتحقق رضا المستمعين ، سواء كانوا من محبى الاستطلاع ، أو المتشوقين للنتائج ، أو من المشككين ، أو من الراغبين فى اختبار الباحث فحسب .

ويتعين عليك بالطبيعة أن تحاول - بسبب ما قمت به من مقابلات - تخمين طبيعة الموضوعات التى ربما يكون معظم المستمعين مهتمين بها ، وكذلك أسلوب العرض

الذى سوف يكون معظمهم متجاوبين معه . إن جمهور المستمعين من زملاء الباحث يمكن أن يستوعبوا قدراً عظيماً من المناقشات المصوغة على مستوى عال من التجريد ، وكذلك المناقشات الموجهة للإستراتيجيات والتجارب البحثية . أما الجمهور الآخر فربما يستجيب جيداً فقط إلى المناقشات المتعلقة بالمفاهيم والعلاقات فيما بين المفاهيم إذا مزجت بمواد قصصية أو حقيقية أو مع أمثلة واضحة ، مثل : الاقتباسات الحقيقية من الأشخاص المبحوثين . كما أنك أيضاً فى حاجة إلى أن تختار بعناية المستوى الملائم من المفردات لكل جمهور إذا كان الأمر ممكناً . فالخيار السيئ يمكن أن يحبط جمهور المستمعين ، فى حين أن الخيار الجيد يمكن أن يؤثر فى استيعابهم للأفكار . وإذا كان هناك وقت للمناقشة أو للأسئلة والأجوبة بعد انتهائك من إلقاء المحاضرة ، فإن هذا الوقت الإضافى يمكن - بصرف النظر عن كونك متقدماً أو متأخراً فى مسيرة مشروعك البحثى - أن تحوله إلى مقابلة جماعية غير رسمية تضاف إلى بياناتك ، كما أن الجمهور أيضاً من غير قصد سيقومون بتعزيز صياغاتك النظرية أو يعطونك الثقة فى الاعتراف بأهليتها .

من العبارات السابقة يجب أن يكون الأمر واضحاً **بأن تصور الجمهور مهم جداً** لعرض لفظى ناجح . وليس أقل أهمية من أن لديك شيئاً ما لتقوله لجمهور معين من المستمعين . فإذا كانت التحليلات مؤسسة أو مجذرة بإتقان فى البيانات ، فإن المسألة فى صالحك أيضاً ، وإذا كانت المحاضرة ملقاة على الأهالى أنفسهم ، فإن المناقشة الناجحة بالإضافة إلى ذلك أمر محتمل . ومن ناحية أخرى ، إذا كان جمهورك من زملائك ، فإن الحساسية النظرية أو التطبيقية الجيدة ، بطبيعة الحال ، ستحسن من فرصك فى الحصول على جمهور محترم من المستمعين .

ربما تعتقد أن جميع هذه النصائح نصائح عامة على الرغم من أنها تدعو إلى تجديد وتكريس اطمئنان الباحث إلى حد ما . ولكن ماذا عن السؤال العملى المتمثل فى كيف يقوم الباحث فى الواقع باختيار موضع المناقشة أو المحاضرة ؟ ففى دراسات النظرية المجذرة المتميزة بتعدد الفئات المتولدة من خلال عملية الترميز ، كيف يستطيع أى باحث على الإطلاق اختيار فئة واحدة ليدير حولها حديثه أو محاضرته ؟ وماذا عن تلك الظروف والإستراتيجيات والنتائج المصاحبة ؟ ، دع عنك الإطار النظرى الأكبر نفسه .

إذا وضعنا في الاعتبار أن محتوى المحاضرة أو المناقشة يجب أن يكون مناسبًا بقدر الإمكان للجمهور ، فإننا نقترح الإجابات التالية . من الأفضل كثيرًا في البداية وبصفة عامة ، ألا تقدم أو تعرض الإطار النظرى الشامل . فهذا أمر صعب الاستيعاب من لدن معظم جمهور المستمعين وحتى بالنسبة للمتمرسين نظريًا . إن ذلك يتطلب قدرًا عاليًا من المهارات لتقديم وعرض العديد من الفئات والارتباطات فيما بينها بطريقة واضحة بما فيه الكفاية حتى يتمكن المستمعون من فهمها واستيعابها . ومن الممكن طبعًا أن تضع مخططًا للقصة الوصفية الرئيسية ، ومن ثم تقوم بعد ذلك بتحويلها - إلى حد ما - إلى قصة تحليلية قبل الشروع في التوسع في واحدة أو أكثر من خصائصها المهمة . وعلى أية حال ، فإننا نعتقد أن العرض أو التقديم اللفظى سيكون أكثر تأثيرًا وفعالية ، وبالتأكيد أفضل استيعابًا وتذكرًا إذا تم تركيزه على مناقشة **فئة أو فئتين فقط** .

وعلى سبيل المثال ، افترض أنك اكتشفت أن عمل المرضى الموجودين بالمستشفى يخفى فعليًا على الممرضات والأطباء . فهذه الفئة من **عمل المرضى** يمكن أن تناقش من خلال أسئلة مثل : لماذا ، ومتى ، وكيف حدث ذلك ؟ وغير ذلك من الأسئلة التى تمس الأوضاع المختلفة ذات الصلة ، وما يترتب أيضًا على ذلك من نتائج تتعلق بعمل الموظفين والعناية بالمرضى ، وسمعة المستشفى ونحو ذلك . أما الأنواع الصغرى المختلفة من الأعمال التى يشتغل بها المرضى ، فمن الممكن أن تضع لها مخططًا على انفراد . كما أن الأوضاع المختلفة التى يتم من خلالها الاعتراف أو عدم الاعتراف بعمل المرضى من قبل الموظفين ، وتقدير ذلك العمل واحترامه أو خلاف ذلك ، من الممكن أيضًا مناقشته . إن المتحدث ربما ينهى حديثه بملاحظة منمقة بلاغية ، مع مراعاة تنويعها حسب طبيعة جمهور المستمعين ، أى حسب كونهم من المتهنين للوظائف الصحية (يجب أن يعرفوا هذا لكى يحسنوا من العناية بالمرضى) أو من العامة (يجب أن تصروا على أن هذا العمل شىء قيم ويجب أن يأخذ حقه من الاعتراف بوضوح من قبل المحترفين) . إن التركيز على فئة أو فئتين يمكنك مع ذلك من حبك وصياغة الفئات الفرعية مثل ، **العمل المريح** ، أو **العمل الوقائى** ، وبدون أن تشوش على محاضرتك .

إن تطوير عرض أو محاضرة حول واحدة أو اثنتين من الفئات يشمل كتابة مخطط واضح للقصة الرئيسية الخاصة بهما ، كما يتطلب تزويد بعض الفئات الفرعية ، وبعض الفقرات النموذجية ذات الصلة . ويجب أن تكون قادراً على إلقاء محاضرة عن قصة مثيرة وواضحة حتى بالنسبة لجمهور بسيط نسبياً . إن الوحدة الكاملة للنظرية المجذرة التى تكونت أو نشأت حتى الآن تظل فى المؤخرة ، لكنها تقدم نقطة الانطلاق التى تتألف منها المحاضرة . ومن ناحية أخرى ، فالمحاضرة لا تعرض إلا جزءاً يسيراً من التحليل النهائى .

كتابة الرسائل العلمية والأطروحات

الموارد والعوائق :

عندما تكتب رسالة علمية أو أطروحة ، فإنك تبدأ باعتماد خاص على عدة وسائل . والباحث نفسه يمثل أهم هذه الوسائل على الإطلاق . وخلال مسيرة المشروع البحثى ، يكون قد تكون لديك مزيد من الحساسية النظرية على الأوجه المتعددة للظواهر المدروسة . كما أنك أيضاً قد تعلمت بشكل حقيقى قدراً عظيماً من الظواهر . وكل ذلك سيظهر للعيان عندما تشرع فى الكتابة وتذكرك بالبيانات الموجودة فى ذهنك الآن وكذلك بأماكن وجود البيانات فى الملاحظات الحقلية والمقابلات إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وبطبيعة الحال ، فإن لديك مهارات أخرى - وإن كانت ضمنية أيضاً - ستقوم بتعزيز الكتابة ، مثل : بعض الحس حول كيفية القيام ببناء الجمل وربطها مع بعضها البعض وبدون الوقوع فى أخطاء نحوية كثيرة ، وهكذا دواليك . ولسوء الحظ من الممكن أن تكون - كما يقول المثل - (أسوأ عدو لك) عندما تأتى مرحلة الكتابة ، وإلى جانب مهارات الكتابة المتدنية ، فربما يكون لديك جميع العوائق العادية للكتابة الموصوفة فى الكتب المصممة لمساعدة الأشخاص على الكتابة (انظر : Becker, 1986b) .

ولحسن الحظ فقد تعلمت إجراءات تحليلية ضرورية ، وستساعدك تلك الإجراءات على وضعك فى المراحل الأولى للكتابة . كما أنك أيضاً ستستعملها فى جميع مراحل الكتابة المتتالية ، وربما تستمر فى مرحلة إعادة كتابتك للمسودة النهائية لبحثك . إن هذه الكتابة تتطلب ما يلى :

١ – قصة تحليلية واضحة .

٢ – الكتابة بمستوى تجريدى فى المقام الأول ، مع إعطاء عملية الوصف منزلة ثانوية .

٣ – التحديد الواضح للعلاقات بين الفئات ، مع المحافظة على وضوح مستويات التصور .

٤ – تحديد كل من الاختلافات والأوضاع المرتبطة بها ، والنتائج المترتبة عليها ، شاملاً تلك الاختلافات والأوضاع والنتائج الأكثر شمولاً .

وما دامت تلك المتطلبات تشبه الإجراءات التحليلية التى تمت مناقشتها فى هذا الكتاب ، فإنك تستطيع أن تدرك أن هذه التحليلات الجيدة يجب أن تساعد كثيراً على الكتابة الفعلية .

الإجراءات :

عندما تبدأ التفكير فى الكتابة ، يجب عليك أن تراجع آخر الرسوم البيانية التكاملية وكذلك فرز المفكرات حتى لا يبقى هناك أى تساؤل حول ماهية القصة الرئيسية التحليلية التى ترغب فى الحديث عنها . هذه المراجعة تتبع بمزيد كاف من الفرز للمفكرات ليعطى ذلك الثقة بأن مخططًا جيداً ـ وإن كان مؤقتًا ـ من الممكن كتابته . إن هذا الفرز ربما يثير بعض الشك حول مدى دقة قصتك التحليلية . وإذا كان هذا هو الوضع يجب عليك ألا تصاب بالإحباط . فأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن القصة التحليلية تصبح أكثر تأهيلاً وتطويراً . وعلى أية حال ، فلا بد من تحويل القصة إلى خطوط عامة . وبعض الناس لا يستطيع العمل بإتقان بواسطة مخططات مفصلة . ومع ذلك ، وبسبب خبراتنا وخبرات طلابنا ، فإننا نقدم النصيحة التالية : إن عليك على الأقل أن **ترسم مخططًا منطقيًا شاملاً** .

من خلال ترجمة أو تحويل التحليل إلى مخطط ، فإن هناك مزيداً من الإجراءات الإضافية التى يمكن أن تساعدك على الكتابة . أما الأول منها فيتمثل فى التفكير بتركيز حول المنطق التحليلى الذى يكوّن القصة . وكل الدراسات العلمية ، وكل البحوث فى الواقع سيكون لها ذلك المنطق . فكل منها له جملة أو فقرة رئيسية تشير إلى المنطق

الوجيز الضمنى للمؤلف (جلاسير ، ١٩٧٨م ، ص ص ١٢٩-١٣٠) ، على الرغم من أن المؤلفين أحيانًا قد لا يكونون على وعى بذلك . وهذه الإشارة لما هو محورى لأى منشور (أو أطروحة) غالبًا ما توجد فى الفقرات أو الصفحات الأولى وكذلك فى الصفحة أو الصفحات الختامية . وفيما يتعلق بمخططاتك ، أو حتى بالنسبة للمسودة الأولى منها ، لا بد أن تكون قصتها التحليلية معروضة بوضوح . فالدراسة العلمية أو الأطروحة ، تمثل إلى حد ما توضيحًا لهذه القصة التحليلية .

أما الإجراء الثانى لتحويل التحليل إلى الكتابة فيتمثل فى أن تقوم ببناء مخطط ، يشتمل على جدول وتنظيم مؤقت للفصول . أما المخططات المنطقية التى تربط كل قسم مع الأقسام الأخرى والتى تضع كل قسم فى المكان الخاص له ، فمن الممكن تأخير كتابتها لكل فصل على حدة إذا كان يبدو أن هذا سيساعد تفكيرك - كما هو الحال فى الغالب . أما مخططات الفصول فيمكن وضعها وتنظيمها من خلال التفكير حول الأقسام والأقسام الصغرى ، ولا بد أن يتم هذا دائمًا من خلال علاقة ذلك بالفصل النهائى . ومن الضرورى لتلك القرارات القيام بتصنيف المفكرات التى تبدو مناسبة ، حتى عندما تقوم أخيرًا بكتابة فصل مكتمل الأقسام ، فستجد نفسك تقوم بالاطلاع السريع وإعادة القراءة للمذكرات وثيقة الصلة بالموضوع .

وفى المقدمة أو افتتاحية المخطوطة ، فإنه يجب أن تعطى عبارة ملخصة وواضحة للمخطط الرئيسى . وهذه المقدمة أو الملخص يمكن فيما بعد أن تقوم بتعديلها حسب الضرورة . إذ يمكن أن تكتب تلك العبارة الافتتاحية وقتما تهتدى إلى المخطط أو بعد ذلك بقليل ، ولكن من الممكن أن تعمل ذلك بعد الانتهاء من المسودة الأولى من البحث وذلك عندما يكون لديك حس أفضل لما قمت بإنجازه . «وهناك بعض الأشخاص الذين يفضلون - منذ البداية - المحافظة على زمام محكم لما يرغبون الكتابة حوله . إن ذلك يلزمهم أن يكونوا على مقربة مما قاموا به من تصنيفات . فى حين أن آخرين يفضلون تأجيل عمل ذلك ريثما يتصدون لعملية تنقيح مسودات أبحاثهم (Glaser, 1978, p : 132) .

أما الإجراء الثالث فيشمل «**التخيل البصرى لأسلوب بناء**» مخططك الرئيسى . فتصور هذا البناء يعادل نوعًا من الاستعارة المكانية . ومن الممكن أن نوضح ذلك من خلال قصة واحدة وثلاثة أمثلة من تلك الاستعارات . فذات مرة قام أحد الزملاء

بتمييز دراستين بطرق مختلفة ، حيث قال إن قراءة الوعى بالموت (Glaser & Strauss, 1965) ، تشبه المشى ببطء حول تمثال لدراسته والتأمل فيه من خلال وجهات نظر متداخلة ومتنوعة . (فالمحافظة على سر الموت عن شخص متوقع موته تمثل الظاهرة) . ومن ناحية أخرى ، فقراءة دراسة «توقيت *الموت* (Glaser & Strauss, 1968) ، التى ناقشت الخطوات المتتالية فى الموت بالمستشفى تشبه الهبوط من منحدر خطوة خطوة . إن ترتيب الفصول فى كل دراسة هو الذى قام قبل كل شىء بإيصال الشعور أو الحس المتعلق بأبنيتها الخاصة . إن بناء الكتاب الذى قمنا بنشره حديثًا (Corbin & Strauss, 1988) كان أمرًا متصورًا من خلال استعارة أخرى وذلك حتى قبل شروعنا فى وضع مخطط لمسودة الكتاب . تخيل الدخول إلى بيت ما ، فنقول أولاً : يدخل الزائر ويعبر من خلال الرواق ، أو الشرفة ، بعد ذلك يدخل البهو ، بعدها سيدخل غرفة واسعة ذات جزأين بارزين ، بعد ذلك سيغادر المنزل من خلال الباب الخلفى . بعد ذلك سيطوف ببطء حول البيت بكامله ممعنًا النظر داخل الغرفة الرئيسية من خلال العديد من النوافذ المختلفة ، ولكنه الآن يلاحظ بعناية علاقات الأشياء المختلفة فى الغرفة . وعندما يتم الانتهاء من المخطوطة ، فإن الشكل الخاص بها يتطابق مع هذه الاستعارة المكانية . وهناك المقدمة ، فالفصل التمهيدى ، فالقسم النظرى الواسع المكون من ثلاثة فصول ، بعده يأتى قسم طويل آخر يتألف من فصول عديدة مهمتها التوسع واستنتاج المعانى الضمنية من الصياغات النظرية التى تم عرضها فى وقت مبكر .

وإذا واجهتك مهمة كتابة أطروحة ، فربما تجد هذا الإجراء الثالث (إجراء التصور) صعب الاستخدام . وفوق كل شىء ، فإن الأطروحات فى معظم الأقسام العلمية الجامعية تتطلب صيغًا قياسيةً حتى عند عرض البحوث النوعية . حيث تميل هذه إلى الابتداء بفصل تمهيدى ، يتبعه مراجعة للأدبيات السابقة ، بعدها يأتى عرض النتائج (فى فصلين أو ثلاثة) وأخيرًا تأتى الاستنتاجات ، فالملخص ، فالمعانى الضمنية . ولكل هذا ، فإن كاتب الأطروحة ربما يكون قادرًا على التفكير بطريقة معمارية فى الفصول المتوسطة (فصول المحتوى) . وعلى أية حال ، فإن الباحث عندما يقوم بتصميم أطروحة تعتمد على مدخل النظرية المجذرة ، فإنه يجب أن يكثر الاعتماد على الإجراءين الأولين اللذين تعرضنا لهما أعلاه : (١) تطوير قصة تحليلية من خلال الرسوم البيانية ،

والتصنيف ، وبطبيعة الحال ، التفكير المتواصل . (٢) إنجاز مخطط رئيسى بصورة مؤقتة مما سيساعد على دمج جميع العناصر المهمة لتلك القصة .

ماذا تكتب ؟

على أية حال ، عند كتابة أطروحة باستخدام مدخل النظرية المجذرة ، فإنه من الممكن مصادفة مشكلة واحدة على وجه الخصوص . وتتمثل فى التحليل بالغ التعقيد الناتج عن العملية البحثية بأكملها . والسؤال المهم الذى يطرح نفسه بعد ذلك يتمثل فى الآتى : ما الذى ستكتبه من كل هذا التحليل ؟ وقبل كل شىء ، فإن الشكل القياسى لكتابة الأطروحات لا يترك المكان أو الفراغ الكثير للكتابة ، وعليه كيف تتمكن من اختصار معظم الأشياء التى عرفتها الآن ؟ وباختصار ، ما مدى العمق الذى يود الباحث تحقيقه عندما يكتب تقريرًا عن البحث ؟ والجواب يتمثل أولاً فى أنه يجب أن تعرف ماذا ستدور حوله رسالتك التحليلية الرئيسية . بعد ذلك ، يجب أن تعطى تفصيلاً تصوريًا كافيًا لإيصال ذلك إلى القراء . إن الشكل الحقيقى لفصولك المحورية يجب أن يكون منسجمًا مع الرسالة التحليلية وعناصرها .

هذا الجواب مع ذلك لم يستطع - سواء بالنسبة لكتابة أطروحة أو دراسة علمية - تحديد كيفية اختيار أى جزئية تصورية خاصة من بين جميع التفاصيل الأخرى . وبينما لا أحد غريب على الدراسة يستطيع تحديد ذلك سلفًا ، يجب عليك أولاً أن تقوم على الأقل بعرض وتقديم قصتك التحليلية .

وسيشمل هذا بطبيعة الحال الفئة المحورية . وبعد ذلك ربما تتبع خطة (بارنى جلاسير) المتمثلة فى :

بداية تتم مناقشة خواص الفئة المحورية العامة والمجذرة والأكثر أهمية لتعطى المعنى الأكثر شمولاً لهذا النوع . ثم قم بعد ذلك بالاختيار من هذه الخواص تلك الخاصة التى سيتم تطويرها فى الفصل التمهيدى النظرى لعلاقتها بمشكلة البحث . وبالتالى ، فإن الباحث عادة يناقش فى فصل أو صفحة واحدة (من أطروحة أو دراسة) العديد من الخواص للفئة المحورية (Glaser, 1978, p : 131) .

مسائل خاصة لكتّاب الأطروحة :

إن كتابة أطروحة وفق طريقة النظرية المجذرة على الوجه الصحيح ، تعتبر فيما يبدو أمراً أكثر صعوبة مقارنة بكتابة الأنواع العادية من البحوث النوعية . ومع ذلك ، فإن تلك الإجراءات المختلفة التى تمت مناقشتها فى الفصول السابقة ، إضافة إلى الإجراءات التى تمت مناقشتها أعلاه يجب أن تعمل جميعًا على جعل مهمتك أكثر سهولة إلى حد بعيد .

إضافة إلى ما سبق ، هناك مسألتان تتعلقان بكتابة الأطروحات والدراسات العلمية وفق طريقة النظرية المجذرة . وما دمت لم يسبق لك أن قمت بكتابة أى من ذلك ، **فما عليك إلا أن تتعلم اثنتين من المهارات فى وقت واحد** . إحداهما تتمثل فى كيفية استعراض التحليلات المختلفة المتولدة من خلال هذه العملية البحثية المعقدة بشكل مكتوب ، وكذلك كيفية الربط بين هذه التحليلات فى نموذج مكتوب . وبطبيعة الحال ، فقد قمت بعمل الكثير من هذا فى مذكراتك المتراكمة . وبالرغم من أن أقسامًا من تلك المذكرات يمكن أن تدمج فعليًا كما هى فى المخطوطة ، فإن هذه المذكرات مع ذلك لم تكن معدة للقراء ، حتى لو كنت قد تعلمت التفكير بطرق تحليلية معقدة فإن عليك أن تطور مهارات اتصالية مناسبة لنقل معنى ومغزى تحليلاتك . إن التفكير والكتابة لا بد أن تتعاقب فى مخيلتك وفى الصفحة التى تقوم بكتابتها . وعند قيامك بذلك ، خلال كتابتك لفصل أو اثنين ، فإنه يجب أن تتحسن بشكل أكثر فى تلك المهارات المتخصصة . ومن المعلوم فى المراحل الأولية للكتابة أنه من الواجب عليك أن تكون صبوراً خلال عملك الشاق لتطوير تلك المهارات المتداخلة ، وعندما تجد الاستمرار فى الكتابة صعبًا عند إعدادك للفصول الأولى ، فإنك بعدئذ - على الأقل - تستطيع أن تتطلع إلى أسابيع قادمة تكون كتابة الفصول الباقية فيها أكثر سهولة . ولمزيد من الحث والدعم ، فإنه من الممكن أن تقنع نفسك وبشىء من الحقيقة أن المقالات والدراسات العلمية القادمة ستكون كتابتها وإعدادها عموماً بدرجة أقل صعوبة .

مسألة الثقة فى النفس :

إن السهولة المتزايدة فى إنجاز الكتابة المتخصصة أمر مرتبط بمدى ثقة الباحث فى قدراته التحليلية والتأليفية . وفى هذا الصدد سنقوم بالاقتباس من أحد كتبنا نظراً لأن الاقتباس يعبر على الأرجح باختصار عما ستواجهه وتكتشفه كباحث قليل الخبرة خصوصاً فى دراسات النظرية المجذرة . والاقتباس يشير إلى التحليل أكثر من الكتابة ، ولكن فى الكتابة نفسها فإن المهارتين مترابطتان بإحكام كما سبق ملاحظة ذلك .

ربما يجد الباحثون أنفسهم وقد أصبحوا معاقين عند بداية الكتابة ، ناهيك خلال الكتابة ذاتها ، إذا كانت تنقصهم الثقة فى تحليلهم ، ومن هنا يأخذ هؤلاء فى إثارة تساؤلات مثل : هل قمت بالتحليل بطريقة صحيحة ؟ هل أغفلت شيئًا ضرورياً ؟ هل حصلت فعلاً فى تحليلك على الفئة الرئيسية ؟ وإذا كان الأمر بالإيجاب ، هل قمت بتفصيل ذلك بما فيه الكفاية (الكثافة التصورية) ؟ .

إن الجواب ربما يكون بالإيجاب أو النفى ، أو ربما يكون بإمكانية ذلك ، ولكن المسألة هنا ليست فى كون التحليل قد تم تنفيذه بدقة وبشكل كاف أم لا ، ولكن المسألة فى الثقة بأن الباحث حقًا يعرف الأجوبة عن تلك الأسئلة . حتى الباحثين المتمرسين ، ليسوا دائماً متأكدين قبل أن ينفقوا وقتًا كبيراً فى التفكير (قبل أن يقرضوا أقلامهم الرصاص المتوقفة عن الكتابة بوقت كاف) ليتعرفوا بدقة على الثغرات والخلل فى دراستهم ، أو التأكد من أنهم بعد المراجعة يعرفون عدم وجود الخلل فى تحليلهم . وسواء كان الباحث خبيراً أو قليل الخبرة ، فإن الوسيلة العامة للتخلص من الشك تتمثل فى «المحاولة أو التجربة» ، فحاول القيام بذلك أو تطبيقه على الناس أو الأفراد أو الجماعات الأخرى بطريقة رسمية أو غير رسمية (من أجل الحصول على التغذية المرجعية) .

إن الحلقات النقاشية من الممكن أن تمنح أولئك الذين يحاضرون فيها الثقة فى تحليلاتهم ، سواء فى شكلها الأولى أو النهائى ، وكذلك الثقة فى التحليلات المتضمنة فى كتابتهم . فالخطب الملقاة فى المؤتمرات ، إذا قوبلت بالاستحسان من الجمهور ، من الممكن أن تضيف مزيداً من المصداقية للتحليل وانعكاسه المؤثر فى الكلام المقروء .

ومع اقتراب مرحلة الكتابة أو حتى خلال هذه المرحلة ، فإن هناك قدراً كبيراً من القلق على وتيرة واحدة حول إمكانية إنجاز هذا بفعالية أو أنه قد تم إنجازه فعلاً . ومع ذلك ، فإن بعض الأشخاص ينزعون نحو الكمال ، ولا يمكن أن يرضوا بشيء أقل من الأداء المثالى . إن ذلك يمكن أن يعنى بالنسبة لهم ، بطبيعة الحال ، عدم وجود أداء على الإطلاق ، أو وجود أداء مؤجل إلى حد كبير . أما البعض الآخر فيعوزه مقدار ما من الثقة ، وهذا هو ما يؤدى إلى إثارة التساؤلات حول قدرة الباحث على إنجاز هذا النوع الخاص من المهمة .

هذا القلق والكرب من الممكن أن يخفف إلى حد كبير بواسطة كتابة مقالة علمية أو اثنتين قبل الشروع - بجدية على الأقل - فى المهمة الطويلة للكتابة الرئيسية ، فالحصول على موافقة لنشر مقالة علمية أو اثنتين يمكن أن يمنح دفعة وتشجيعاً قوياً لثقة ضعيفة ، أو تأخيراً للشكوك حول القدرة البحثية للباحث (وكتابة البحث بطريقة فعالة) ، (Strauss, 1987, pp : 259-260) .

العمل على إنهاء المخطوطة :

بعد الانتهاء من تحرير ما يفترض أنه المسودة الأولى ، فإن الباحث يمكن أن تواجهه صعوبة فى مسألة «إطلاق السراح» فيما يتعلق بالمخطوطة . وتعود هذه المشكلة كثيراً لا إلى نقص الثقة بالنفس ، ولو أنه يمكن أن يكون ذلك ، ولكن إلى الفقدان المؤقت للأعصاب ، مما يجعل المرء يتساءل : «هل حقًا تمكنت من القيام بالتفاصيل النهائية ؟ وهل قمت بها على الوجه الصحيح ؟» . وتعزز وتستثار تلك الشكوك تقريباً من خلال الاكتشاف المحتم للتفاصيل الإضافية التصورية والتحريرية ، وكذلك من خلال عملية تغير أماكن الجمل وإعادة صياغتها ، تلك التى تحدث خلال إعادة كتابة كل مسودة . ومن جوانب النضج المتزايد لكاتب البحث أن يفهم أنه لا يوجد هناك مخطوطة كاملة قط (أى فى غير حاجة إلى تحرير وتعديل) . وإذا كان الباحث محظوظاً بما فيه الكفاية فى ألا يكون لديه موعد أو التزام نهائى شخصى أو إدارى أو التزام لدار نشر ، فربما عند ذلك يستفيد من تأجيل النظر فى تلك المسودة لعدة أسابيع أو أشهر حتى يتمكن من الحصول على شيء من المسافة التحليلية والتحريرية التى تبعده عن المسودة .

كما أن زميلاً أو زميلين ربما يقرأن المخطوطة بكاملها أو جزءًا منها عادة ما يحسنان من جودتها . (وعلى أية حال ، فإن عليك أن تحذر من حكم أو تقويم قاسٍ أو من درجة ما من سوء الفهم ، ولكن إذا واجهك شيء من سوء الفهم يجب عندئذ أن تتساءل : لماذا حدث سوء الفهم هذا ؟) . وأخيرًا فإن عليك أن تطلق ، طبيعيًا ونفسيًا ، سراح المخطوطة ، وذلك بإقناع نفسك بأن المخطوطة قد اكتملت ، إلا إذا كانت تلك هى أطروحتك التى تعمل بالتأكيد على إخراجها بشكل أفضل إذا رأيت تحويلها إلى كتاب .

إن المنطق الذى يقف وراء إطلاق السراح فى الكتابة يتمثل فى أن صياغاتك النظرية لا تشكل إلا مجرى تراكميًا لمثل هذه الصياغات التى ربما تعود مؤخرًا لنقد أو دمج بعض تلك الصياغات فى أعمالك اللاحقة تمامًا ، كما تفعل حيال صياغات الآخرين وانتقاداتهم . **إن سيكولوجية عملية إطلاق السراح** تشكل على أية حال عملية صعبة . حيث تتمثل جوهريًا فى تجنب مصيدة الحكم فى الحصول على مخطوطة متكاملة ، وكذلك فى إتاحة الفرصة لك للتفكير فى مشاريع وأفكار وبيانات جديدة . وهنا ربما تحتج متأففًا ولسان حالك يقول : «ولكن ربما أعمل عملاً غير متقن إذا لم أتريث فى تنفيذه !» . إن التريث أمر مطلوب ، ولكن عليك أن توازن بين تنقيح مفيد للمسودات وبين التحرر منها . وإن فهم كيفية إتمام ذلك لأمر غير ممكن الاستيعاب بشكل تجريدى . وبطبيعة الحال ، فإن الباحث الخبير الذى يعرف فى الواقع عملك ربما يساعدك على تخطى هذه المشكلة ، ولكن فى النهاية يجب عليك أن تعتمد على الحس الداخلى النابع من صحتك السيكولوجية .

وإذا كنت تكتب أطروحة للدكتوراه وكنت محظوظًا بما فيه الكفاية فى التحاقك بقسم يسمح للأطروحة أن تكون أقل تكلفة ورسمية ، فمن الممكن عند ذلك أن تكتب لجمهور أوسع من اللجنة المشرفة على الرسالة أو من أعضاء هيئة التدريس بالقسم الذى تنتمى إليه . وعلاوة على ذلك ، فمعظم الناشرين عادة يرفضون نشر الأطروحات المرسلة لهم كمطبوعات ممكنة . لذا ، إذا كان مسموحًا لك أن تكتب أطروحة بأسلوب يقترب إلى أسلوب الدراسة العملية ، فإن تحويل تلك الدراسة إلى مطبوع يمكن أن يعتبر عوضًا عن ذلك وفى غاية السهولة .

الجمهور :

هناك أيضًا السؤال الخاص بتصور الكاتب للجمهور المقصود بالأطروحة . وربما تكون هذه المسألة أقل تعقيداً من الأشكال الأخرى للمطبوع (مما سوف نناقشها أدناه) والمحاضرات العامة تمثل واحدة من المسائل المزعجة للعديد من الطلاب . وفوق ذلك ، فإن القراء المباشرين يتمثلون فى كل من المشرف الرئيسى على الأطروحة والأعضاء الآخرين للجنة الإشراف على الرسالة . وإذا لم يوافق هؤلاء على الرسالة فإن المشروع بكامله عند ذلك يصبح كارثة شخصية . وعندما تتكون لجنة رسالة الدكتوراه من هيئة أساتذة يختلفون بشدة مع بعضهم حول معايير العمل الصحيح ، عندها فإن الطلاب يعرفون أنه من الممكن أن يعانوا من قبل تلك التناقضات المنهجية . وإذا كان الطلاب محظوظين أو فطنين ، فإنهم سيختارون أعضاء لجان الإشراف على رسائلهم من بين أولئك المعروفين بالاتفاق فى وجهات نظرهم أو من أولئك الأعضاء المعجبين بمسودة الأطروحة المعروضة عليهم ، أو من غير المتحيزين جداً أو غير الحاذقين جداً فى المجال الأساسى للأطروحة لكى يوافقوا على الأطروحة . وليس هناك قواعد حقيقية ومجربة لاقتراح ، كيف يمكن التعامل مع هذا الموقف المتغير ، وأفضل مشورة يمكن تقديمها لك هى أن تختار مشرفًا مسانداً - إذا أمكنك ذلك - ولكن يتمتع بقدرة نقدية ، وأن تكتب بقدر المستطاع مخطوطة جيدة . وإذا تمكنت من عمل بحث محكم فإنك على الأرجح ستحصل على درجتك المنشودة ، ما لم يقم أحد أعضاء اللجنة بعدم تأييد البحث النوعى . وإذا كان من الممكن أن يحدث ذلك ، فإنه يجب عليك أن تبذل الجهد لتبقى العدد المحتمل من النقاد المناوئين فى لجنة الحكم على رسالتك إلى أدنى حد ممكن .

هناك بعض الاختلافات الكبيرة بين الدراسات العلمية والأطروحات ، على الرغم من أننا - فى الصفحات أعلاه - قمنا بالإشارة إلى ذلك بشكل منفصل ومشترك . ومن الاختلافات الرئيسية بينهما ما يتمثل فى أن المناقشة فى الدراسة العلمية يجب أن تتم تجريدياً وبشكل متكامل وبكثير من العمق والتفصيل . وما دام هناك المزيد من المساحة كما أن القيود التى تفرض على الأطروحة ليست موجودة ، فإن المؤلف حر فى تطوير رسالة تحليلية . علاوة على ذلك ، فالدراسة العلمية يمكن أن تكون أكثر تعقيداً ليس فقط من حيث الإسهاب الموسع للفئات وعلاقاتها ببعضها ، ولكن فى تقديم كمية كبيرة

من المادة الأساسية . وربما يتضمن هذا الأخير دراسات الحالة ، وحتى الاقتباسات الطويلة من المقابلات ، والملاحظات الحقلية ، والوثائق . إن المؤلف ربما يختار مخالفة الآخرين أحيانًا ، فيناقش قضايا ومسائل صغيرة وجانبية ، ما دامت تلك المسائل متفقة مع الموضوع الرئيسى للدراسة العلمية . ومن الأرجح أيضًا استكشاف وإلقاء مزيد من الضوء على بعض القضايا التى أسقطت من الأطروحة (للقيود المفروضة على شكل إخراجها) ، من بين تلك القضايا التى لم تدرس بما فيه الكفاية خلال بحث الأطروحة . فالتناقضات التى لحقت بالكتابة العاجلة للأطروحة يجب تصحيحها فى تلك الدراسات العلمية . إن لجان تقويم الأطروحات تنزع إلى النظر إلى النتائج ، فى حين أن قراء الدراسات العلمية على الأرجح أكثر ميلاً للتقدير أو للموافقة - على الأقل - على البرهان المعتمد على التحليل ، وعلى المناقشة المفصلة لبيانات البحث .

إن مؤلف الدراسة العلمية لديه أيضًا حرية أكثر فى اختيار أسلوب التقديم والعرض ويعتمد اختيار الأسلوب أحيانًا على الرسالة التى يود المؤلف إيصالها إلى الجمهور ، وفى بعض الأحيان على فهم الجمهور للرسالة ، بمعنى : هل الدراسة محصورة فى الزملاء المحترفين أو الممارسين لنفس المهنة أو من هم على شاكلتهم ؟ . أو هل المؤلف يأمل أن يكون قراؤه من حقول علمية عديدة بما فى ذلك الممارسون فى تلك الحقول ؟ وما إذا كان الكاتب قد وضع فى حسبانه أن يكون قراؤه من الطبقة العادية ؟ وحتى تكون الدراسة مؤثرة إلى الحد الأقصى فلا بد لمؤلفها أن يتساءل : «ماذا أرغب فى قوله لكل فريق من هذا الجمهور ؟ وفى حالة كونهم متعددين ومتنوعين ، كيف أتمكن من الوصول إلى كل منهم ؟ كيف أعمل على دمج الأساليب فى أسلوب متكامل واحد ؟ وباختصار ، فإن أسلوب وشكل التقديم والعرض يجب أن يكون حساسًا للجمهور المستهدف ويعكس كذلك طبيعة ذلك الجمهور .

افترض أنك تخاطب فى دراستك كلاً من زملاء المهنة وقراء من المنتمين أصلاً إلى الموضوع الجوهرى الذى تقوم بدراسته ، فالوصول إلى كل نوع منهما يستدعى كمًا هائلاً من التفكير والمهارة الفائقة فى استخدام المفردات ، والمصطلحات ، وبيانات الحالة ، والحالة النفسية العامة وغير ذلك من مظاهر أسلوب الكتابة . إن الكثير من الدراسات التى نشرها المتخصصون فى علم الاجتماع قصد بها النوعان من القراء

(الزملاء المتخصصون ، والقراء المنتمون أصلاً إلى الموضوع الجوهرى المدروس) .
(ومن بين دراسات النظرية المجذرة من هذا النوع ، انظر : Biernacki, 1986; Fagerhaugh & Strauss , 1977; Fagerhaugh, Strauss, Suczek & Weiner, 1987; Glaser, 1976; Glaser & Strauss 1965, 1968; Strauss, Fagerhaugh, Suczek, & Weiner, 1985).
وأحيانًا ، فإن القراء الأصليين المتوقعين ، سيتمثلون فى الأشخاص العاديين – على سبيل المثال – المرضى وعوائلهم فى كتاب عن المصابين بالصرع (Shneider & Conrad, 1983) . وأحيانًا ما تكتب الدراسة العلمية أيضًا للناس العاديين كما هى للزملاء وللمتخصصين . عند ذلك ، فإن هذه الدراسات العلمية يتم نشرها كالطبعات التجارية ، كما فى كتاب (الزواج للمرة الثانية بعد الطلاق ـ Cauhape, 1983) .

وتمثل الكتابة لجمهور متعدد عمومًا مهمة أكثر تعقيدًا من مجرد الكتابة لزملاء التخصص أو التخصصات القريبة منه . ومع ذلك فالعديد من الباحثين تواقون ـ أو ملزمون ضميريًا ـ للكتابة لقراء آخرين إضافة إلى القراء المحترفين أو العلميين . كما أنهم أحيانًا يستعملون بحوثهم كخطة لإعداد كتب لا دراسات علمية . ومن الممكن هنا أن يتناول المكتوب قضايا السياسة ، وهذا ما يعنى تقديم حجة أو برهان متكون من البحث الذى قام به الباحث ، وربما أيضًا من المعرفة التجريبية التى تجمعت لدى الباحث أو تكونت لديه من خلال البحث نفسه . انظر على سبيل المثال ، كتاب المؤلفين عن سياسة الصحة (Strauss & Corbin, 1988) . أو أن من الممكن إعداد الكتب للممارسين ما دامت تحتوى على معلومات كثيرة مستندة على البحث . (ومثال من دراسات النظرية المجذرة ، انظر: Strauss et al., 1984 عن التعامل مع المرض المزمن) . وبطبيعة الحال ، لا شىء من ذلك يمنع من نشر دراسة علمية صريحة كتبت أساسًا لقراء من زملاء التخصص أوالمهنة ، فمعظم الدراسات البحثية النوعية قد كتبت سلفًا لتلك الجماهير المحددة .

تحويل الأطروحات إلى دراسات علمية :

كيف يتم تحويل الأطروحة (Thesis) إلى دراسة علمية (Monograph) ؟ . لقد تم ضمنًا اقتراح عدد من الإرشادات المتصلة بكيفية القيام بذلك فى الصفحات السابقة . وعلى أية حال ، فإن السؤال السابق الذى يواجه مؤلف الأطروحة يتمثل فيما إذا كان

من الواجب كتابة الأطروحة فيما بعد فى شكل الدراسة العلمية . **ومن المفروض أن نفكر بعناية فى عدد من الأسئلة المرتبطة بتلك القرارات** التى من الأفضل تناولها حسب الترتيب التالى :

١ – هل تعتبر البيانات الأساسية والنتائج والصياغات النظرية المشتملة عليها الأطروحة مهمة بما فيه الكفاية وتستحق الوقت والجهد الذى يبذل لنشرها لجماهير أوسع ؟ . إن بعض الأطروحات مرشحة ، بطبيعة الحال لذلك (وكأمثلة على ذلك انظر : دراسة وايت عن عصابة ناصية الطريق (Whyte, 1955) ، وكتاب دافيس عن الشفاء من شلل الأطفال (Davis, 1963) : ودراسة شيبوتانى عن الإشاعة (Shibutani, 1966) ، وكتاب برودهيد عن طلبة الطب (Broadhead, 1983) ، وكتاب كاوهاوبى عن الزواج ثانية بعد الطلاق (Cauhaupe, 1983) ، وكتاب روسينباوم عن النساء المدمنات للمخدرات (Rosenbaum, 1981) ، وكتاب وينر عن ساحات أو ميادين المشروبات (Wiener, 1981) ، ودراسة ستار عن العقل والجسم ، والخلاف حول تمركز الدماغ (Star, 1989) . أما الأطروحات الأخرى ، بقطع النظر عن مدى أهميتها لبعض الزملاء ، فليست أطروحات مرشحة للنشر ولكنها تحوى أقساماً ممكنة النشر ، على الأرجح فى شكل مقالات علمية ، وربما يستشهد بها كثيراً فيما بعد .

٢ – وإذا كانت الأطروحة على درجة كافية من الأهمية ، فما هى المواضيع والتصورات الأكثر صلة وأهمية تلك القابلة للنشر فى دراسة علمية ؟ .

٣ – هل يتوفر لدىّ الوقت والطاقة الكافية لتحويل هذه الأطروحة إلى دراسة علمية ؟ هل لا أزال حقًا مهتمًا بهذا الموضوع ؟ هل أنا مشبع ، أو لحق بى الملل من هذا الموضوع ؟ هل نفد صبرى من هذا الموضوع ؟ هل هو حقًا يشكل مرتكز القوة بالنسبة لى ، أو يجب أن أتحرك إلى مواضيع أو مجالات أكثر إثارة وأهمية ؟ وبطبيعة الحال فإن الاهتمام الكافى فى القيام به بنجاح من الممكن أن يقود إلى الرضا الشخصى العظيم جداً . إن جزءاً من الالتزام والرضا الناتج ربما يشتق من حس بالتزام نحو الجمهور الخارجى الذى يجب أن يعرف ما تمكن الباحث من اكتشافه خلال بحثه .

٤ - لا يزال هناك سؤال آخر يأخذه عدد من المؤلفين فى الاعتبار ويتمثل فيما يلى: إذا وضع فى الحسبان مستوى معين من المنفعة الذاتية ووجود الوقت والطاقة الكافية ، فهل كتابة هذه الدراسة العلمية ، تستحق التقدير والاحترام لأغراض المهنة ؟ ففى بعض الحقول التخصصية ، ليس كتابة دراسة علمية أو أى نوع آخر من البحوث التى تنشر فى كتب أمراً مهماً على وجه الخصوص ، فالمقالات العلمية المنشورة فى الدوريات المشهورة تعود على أصحابها بشهرة أكثر . ومن ناحية ثانية ، فالزملاء فى مجالات أخرى من العلوم الاجتماعية عندما يقومون بدراسة طلبات المرشحين لوظيفة عضو هيئة تدريس ، أو عندما يتقدمون هم أنفسهم لطلب الترقية ، فإنهم يعرفون حق المعرفة أن الدراسات غالباً تعطى وزناً أكثر ثقلاً فى التقويم من المقالات العلمية .

وبعد الأخذ فى الاعتبار لكل واحد من هذه الأسئلة ، وربما أسئلة أخرى ، وبالمساعدات بدون شك ، وكذلك بالمعوقات من جانب المشرفين على الأطروحة من أعضاء هيئة التدريس أو الزملاء أو الممولين للأطروحة أو الأصدقاء المخلصين - بعد ذلك فإنك تواجه بالسؤال الإضافى المتمثل فى : كيف تقوم بتحويل أطروحتك إلى رسالة علمية ؟ . وفى الحقيقة ، إن محاولة الإجابة عن هذا السؤال من الأرجح جداً أن تؤثر فى قرارك فى الإقدام على الكتابة أم لا ، وذلك ما دمت تقدر الوقت والجهد المطلوب إذا أنت أقدمت على كتابة الدراسة العلمية «بهذه الطريقة» أو بتلك .

إن التحويل الحقيقى للأطروحة من الممكن أن يكون موجهاً بعناية من خلال الاعتبارات المتعرض لها فى الصفحات السابقة . وعليك أن تفكر جيداً حول أى نوع من الجمهور ترغب أن تصل إليه . إن هذا يعنى بالتساوى التفكير المتأنى حول المواضيع والمفاهيم ، أو الصياغات النظرية ، التى ستكون ذات قيمة أو منفعة عظيمة لكل الجماهير . وتلك الاعتبارات تقود إلى مسألة الأسلوب . وعلى سبيل المثال ، ما الصيغة التى يجب استعمالها ؟ هل يجب أن تحتل الصياغات النظرية محور التركيز الرئيسى فى الدراسة العلمية ، فى حين تترك البيانات الأساسية لتحتل منزلة ثانوية ؟ أم هل يجب المحافظة على التوازن فيما بينهما ؟ هل يجب عليك أن تظهر الخلاف بصراحة مع الصياغات النظرية القائمة ؟ ، أم يجب عليك أن تبقى على مجادلتك

بأسلوب بسيط أو حتى ضمنى ؟ فالاعتبارات الخاصة بالأسلوب بطبيعة الحال تستلزم أيضًا قرارات حول نوع ومستوى الكلمات المستعملة ، وطرق تقديم وعرض ما قمت باختياره من بياناتك ، والحالة العامة للدراسة العلمية ، وهكذا .

ومن الاعتبارات الأخرى التى سبق التعرض لها ما يتمثل فى أن الإسهاب التصورى يجب أن يضاف إلى التقديم أو العرض الأصلى فى الأطروحة . ومن الممكن أن تعمل ذلك من خلال تضمين مواد نظرية من تلك التى سبق لك تطويرها فى مذكراتك ولكنها أسقطت من الأطروحة ، ومن خلال التفكير فى مظاهر من صياغاتك التى تركت لأنها غير واضحة أو مبهمة أو ناقصة ، أو حتى متناقضة . كذلك فى الدراسة العلمية ، ربما سترغب فى المناقشة المفصلة لمضامين محددة لبحثك فيما له صلة بالأدبيات النظرية ، وكذلك مضامين البحث لبحوث المستقبل ، وربما للممارسين أو صناع القرارات السياسية .

إن احتمالاً واحداً من هذه الاحتمالات أو الضرورات أو هى جميعًا تتطلب الوقت والجهد وإعادة التفكير الجاد أيضًا فى تحليلاتك السابقة ، والتعبيرات المكتوبة عن تلك التحليلات . لقد وجد عدد كبير من الباحثين أن تجربة إعادة الكتابة من أجل نشر دراسة علمية هى تجربة مكافئة حقًا . كما أن آخرين قاموا بتحويل أطروحاتهم إلى دراسات علمية من أجل الترقى فى المهنة أساسًا أو من أجل السمعة الشخصية ، مستفيدين واقعيًا من هذا الاستثمار .

المطبوعات المشتركة :

عندما يشترك اثنان أو أكثر من الباحثين فى تنفيذ مشروع بحثى ، فهناك دائمًا السؤال المتمثل فى كيفية كتابتهم للمشروع . والإجابة تعتمد على العلاقات بين أعضاء الفريق ، وقدراتهم ومصالحهم الخاصة المدركة ، ومسؤولياتهم ، وكمية الوقت المتاح لكل منهم ، إلى غير ذلك . وبعض المطبوعات يقوم بكتابتها الباحث الرئيسى للمشروع ، مع كميات مختلفة من المعلومات والمساهمات المقدمة من أعضاء الفريق الآخرين . والبعض الآخر منها يشتمل فى الحقيقة على كثير من الكتابة الجماعية ، بدلاً من مجرد بحث مشترك . ومن المفترض أن تكون مجموعات التعاون (أو غير التعاون) عديدة ، ونفس الشىء ينطبق على المقالات العلمية المعتمدة على فريق بحثى .

إعداد المقالات العلمية للنشر :

هذا الصنف الرابع من البحوث القائمة على النشر نادراً ما يكون متجانسًا ، إن التنوع العظيم للخيارات من بين أنواع المقالات من الممكن اقتراحه أو تمثيله بيانيًا من خلال ثلاث مجموعات مصنفة لتلك الإمكانيات ، كالآتى :

١ - للزملاء : المقالات العلمية ذات التركيز الكبير التى هى بعبارة أخرى ؛ نظرية ، أساسية ، خلافية ، منهجية .

٢ - للممارسين : إطار نظرى للفهم الجيد للعملاء ، أساسية ، اقتراحات عملية لإجراءات أفضل ، إصلاح الممارسات الموجودة ، اقتراحات سياسية واسعة .

٣ - للقراء العاديين : أساسية ، إصلاح الممارسات أو السياسات الحالية ، موجهات أو أدلة إرشادية لكيفية إدارة أفضل أو للحصول على خدمات أفضل من الممارسين أو المؤسسات ، إقناع القراء بأن الآخرين يشاركونهم تجاربهم (كما فى حالة التعايش مع الطلاق أو حالة تبنى طفل) .

هذا التنوع فى الخيارات الخاصة بالمقالات يشير إلى اختلافات فى الأغراض والتركيز والأساليب ، وبطبيعة الحال فى أماكن مختلفة للنشر .

ومع ذلك ، فإن بحثك يوفر أساسًا ثابتًا لكتابة جميع تلك الأنواع من المقالات . إنك ستكتب مقالات بطرق مختلفة جداً ، إذا لم تكن لديك نزعة «البحث المنفذ بمشقة» . إن بحوث النظرية المجذرة توفر كلاً من : التحليلات النظرية ، والمحتوى الأساسى ، والثقة بالنفس أيضًا . وبينما البحث نفسه لا يخبرك مباشرة بالمقالات التى تكتبها ، ولأى هدف تكتبها ، ولمن ، وكيف يتم ذلك ، فالبحث مع ذلك يجب أن يكون قد قدم لك حساسية كبيرة للقضايا والجماهير ومدى قوة وضعف العاملين والمنظمات . وستقوم بالاعتماد على هذه المعرفة عندما تتخذ القرارات المتعلقة بماذا تكتب ، ولمن تكتب ، وكيف يتم ذلك .

إن القرارات الخاصة بتلك القضايا تعتمد على الاستدلال والإجراءات التى لا تختلف لحسن الحظ عن تلك التى تمت مناقشتها خلال هذا الفصل . إن **الاختلافات**

المهمة القليلة يمكن أن تحدد باختصار ومن الممكن فهمها بسهولة . وتبرز بعض الشروط التى ربما تؤثر مباشرة فى كيفية كتابة المقالات ، ولمن تكتب ، وما إذا كانت هناك مقالات محددة سيتم كتابتها ، وهى على النحو التالى :

١ - مثلما تمت ملاحظته سابقًا ، فالباحثون ربما يقررون نشر المقالات حتى ولو نسبيًا فى بداية العملية البحثية . وهم يفعلون ذلك ربما لأسباب مختلفة ، على سبيل المثال : لتقديم وعرض النتائج الأولية ، أو ليرضوا الجهات الممولة للبحث أو لترك انطباع قوى لديها ، أو لأن لديهم مواد مهمة تتعلق بقضايا جانبية من تلك التى من الممكن بسهولة كتابتها حاليًا وليس من الممكن كتابتها فى وقت ضيق ومتأخر .

٢ - وأحيانًا يقوم الباحثون بكتابة المقالات لأنهم يشعرون بأن عليهم التزامات مهنية للنشر فى موضوع معين ، أو لأنه يلح عليهم أن ينشروا من قبل الآخرين . وبطبيعة الحال ، فإن هذا الإلحاح على النشر سوف يؤثر فيما يكتبه الباحث وكيفية ذلك .

٣ - كما أن الباحثين ربما يدعون لكتابة مقالات حول قضايا تنشر فى دوريات علمية أو كتب محررة (Edited) لأنهم معروفون فى الحقل التخصصى ببحوثهم فى مجالات معينة . كما أنهم ربما تمت مناشدتهم أو إغراؤهم لتحويل التقديمات والعروض الشفوية كالمحاضرات أو الخطب إلى مقالات ، لأن المستمعين قد استجابوا جيدًا إلى محاضراتهم أو خطبهم .

٤ - ومن الأوضاع الأخرى التى يمكن أن تؤثر فى كتابة المقالة وجود موعد نهائى لتسليمها لمحرر الدورية أو الكتاب المحرر . ويمكن أن يشكل هذا الموعد المحدد بالنسبة لبعض الباحثين حافزًا على تنفيذ المقالة ، بينما يمكن أن يكون أمرًا مخيفًا ومزعجًا بالنسبة للآخرين .

٥ - كما أن عدد الصفحات المسموح بها للمقالة من قبل المحرر تؤثر فيما إذا كانت المقالة ستكتب خاصة لذلك المطبوع المحدد أم لا ، وكذلك فيما يكتب فيها وكيفية كتابته .

٦ – وما لم يطلب المحرر باحثًا عن كتابة مقالة ما ، فسيظل هناك قرار مهم لا بد للكاتب من اتخاذه وهو ما يتعلق باختيار دورية محددة كمكان ممكن لنشر المقالة فيه . إذ لا بد من المواءمة بين الدوريات والمقالات التى تنشر فيها ، وإلا سيواجه الباحث بضياع وقته وجهده إذا تعرضت مقالته للرفض ، وأسوأ من ذلك عندما تقبل المقالة للنشر ولكن لجمهور غير مناسب أو غير مقدر بما فيه الكفاية للمقالة . إن اختيار دورية ملائمة ربما تكون مهمة سهلة إذا كان الباحث يعرف تلك الدورية جيدًا ، وإلا فإن أعداد الدورية يجب تفحصها بعناية . إن ذلك يساعد على الحصول على المشورة المناسبة ، وكذلك مشورة الأشخاص من ذوى الخبرة فى الدوريات المحددة . إن هذا صحيح على وجه الخصوص عند مخاطبة الجماهير من خارج تخصص الباحث ، كما هو الحال عندما يكتب عالم الاجتماع لدورية فى الخدمة الاجتماعية أو دورية طبية .

وبعد أن لاحظت هذه الأوضاع المعوقة أحيانًا والمحفزة أحيانًا أخرى ، فإننا يمكن أن نناقش الآن الأشياء الأخرى المختلفة عند كتابة المقالات .

إن أكثر الاعتبارات المهمة هى تلك الاعتبارات الخاصة بالتداخل بين **الهدف والجمهور** . فإذا وضعنا فى الاعتبار الأنواع المختلفة من الأغراض والجماهير الموضحة أعلاه ، فإنه من الممكن أن تدرك أن هذه هى القضية الأساسية التى تواجه أى باحث يقوم بكتابة مقالة . (وهذا صحيح أيضًا عندما يدعى الباحث لكتابة مقالة) . «ماذا أقول لهم» ، فمواضيع بعض المقالات تبرز بالأحرى خلال العملية البحثية . وعلى سبيل المثال فى دراستنا عن المرضى المصابين بأمراض مزمنة وزوجاتهم ، شد أنظارنا تلك الاختلافات بين الأزواج المتعاونين كثيرًا وبين الازواج المختلفين مع بعض فى التعامل مع تلك الأمراض . لذا ، قمنا بكتابة مقالة عن الموضوع منذ بداية البحث نسبيًا (Corbin & Strauss, 1984) . أما المقالات الأخرى فربما يفكر فيها فى أوائل أو وسط المشروع البحثى ، ولكن كتابتها تتم مؤخرًا ؛ أو تؤخر لأجل غير مسمى حتى يتم إلحاقها فى الدراسة العلمية . إن بعض الأفكار المناسبة للمقالات تستغرق فترات أطول من حيث الصياغة . وربما يعود هذا إلى أنها تتطلب فهمًا أكثر عمقًا لبعض الظواهر التى سيكتب حولها ، أو تتطلب مزيدًا من التعقيد النظرى حتى تشعر الباحث بالارتياح

للكتابة حولها . أما كتابة المقالات التى تدعو للإصلاحات ، فربما تؤجل لأن الباحثين غير قادرين على إلزام أنفسهم بدور الإصلاح حتى ينتابهم الضيق بما فيه الكفاية من تلك الأشياء التى يقومون بملاحظتها ، أو ربما لأن الاتجاهات التى بواسطتها يمكن تحديد بدائل الإصلاح ليست حتى الآن واضحة لديهم .

وبعد انتهاء الباحث من الصياغات النظرية بشكل واضح ، فإن هناك ما يغريه لتقديم الإطار الكلى فى مقالة طويلة واحدة ، وهذا يشكل مهمة صعبة بالنسبة للباحث الذى يستخدم منهجية النظرية المجذرة ، نظراً لأن الإطار سيكون صعباً للغاية ، وبالغ العمق من حيث التصور . ونصيحتنا بهذا الخصوص بعدم الإقدام على هذه المهمة (كما هو الحال مع النصيحة السابقة بخصوص الخطب والمحاضرات) . أما إذا اخترت القيام بتلك المهمة ، فما عليك عند ذلك إلا أن تقدم نسخة مجردة صريحة مع إحالة القراء إلى دراستك العلمية القادمة ، ومن الأفضل أن تختار فئة أو فئتين رئيسيتين وتناقش ما لهما من خواص وربما أيضاً العلاقات المتبادلة مع فئتين أو ثلاث فئات أخرى على الأكثر . وفى المقالات الإضافية ، يمكنك أن تبرز فئة أخرى أو فئتين .

وعلى سبيل المثال ، قام أحد المؤلفين وزملاؤه بكتابة مقالة عن عمل المرضى المودعين بالمستشفى وقام بربط عملهم بنوعين أخرين من العمل مثل «عمل السلامة» و«عمل الراحة» (Strauss et al., 1985) . وفى مقالة أخرى ، قام هذا الفريق البحثى بالكتابة عن عمل الموظفين فى وحدات العناية المركزة ، مركزين أساساً على عمل السلامة لديهم ، خصوصاً فى علاقة ذلك بعملهم المستمر مع المعدات الطبية التى كانت إمكانية خطورتها مرتفعة جداً ، والتى كانت قدرتها على الإبقاء على الأطفال الرضع أحياء ومساندتهم مرتفعة أيضاً (Wiener, Fagerhaugh, Strauss & Suczek, 1979) .

ومن الممكن كتابة مقالات أخرى حول قضايا منهجية أو قضايا سياسية . وعند ذلك فإن المواد النظرية ستتخذ مكاناً ثانوياً فى المقالة ، ولكن مع إضفاء بعض الألوان منها على الخطوط الرئيسة لمناقشتك . وعلى سبيل المثال ، فإن التركيز المنهجى ربما يحتاج إلى كل من التوضيح النظرى والمادى المركز لإقناع القارئ . أما المناقشات والمجادلات السياسية فليس من الممكن تدعيمها بالبيانات ، ولكن يمكن أن تكون مدعمة بإطار نظرى ظاهرياً أو ضمنياً .

وعلى سبيل المثال ، قام المؤلفان فى مقالة ما بتقديم براهين واقتراحات لإصلاح نظام العناية الصحية الأمريكى (Corbin & Strauss, 1988) . وقد كانت تلك البراهين والمقترحات معتمدة على انتقاد توجه العناية الشديد والمهيمن للمحترفين والمؤسسات فى المجال الصحى ، على الرغم من شيوع المرض المزمن هذه الأيام ، ذلك النوع من المرض ذى المظاهر المتعددة التى يتطلب كل منها نوعًا مختلفًا من العناية .

وللعودة إلى اقتراحنا الخاص بأن المقالة ذات التوجه النظرى لا بد من تقييدها من حيث عدد الفئات أو الأفكار التى تناقشها ، فإن السؤال غالبًا يتمثل فى كيف يتم تطوير تلك المناقشة ؟ إن الجواب ذاته هو الخاص بكتابة فصول الدراسة العلمية يمكن أن يستخدم للإجابة عن ذلك التساؤل ولكن بعد تعديله ليتمشى مع أغراض كتابة المقالة ولا بد أن تحدد فى البداية ما ترغب التركيز عليه . ما هى قصتك النظرية ؟ إن هذا القرار ربما ينشأ من خلال سير البحث ، أو ربما تم تحفيزه فى الواقع أو التشجيع عليه من خلال التفكير فى رسمك البيانى التكاملى الأخير ، أو من خلال التصنيف السابق للمذكرات . وعليك أن تقوم بعمل التفاصيل الخاصة بالعلاقات التصورية خلال نفس عمليات التصنيف والتفكير حول ما لديك من مواد (أساسية ونظرية) . كما أن عليك أن تضع مخططًا للمقالة ، إما قبل الإنجاز الفعلى للتفاصيل أو بعد أن تقوم بتنفيذ معظم ذلك . وكما هو الحال مع مخطط الدراسة العلمية ، ربما ترغب فى الابتعاد بعض الشىء عن هذا المخطط من خلال الانتظار لعدة أيام أو أسابيع قبل إعادة النظر فى المخطط لفحصه . وعندما تكتب أجزاء المقالة ، فإن المراجعة والتصنيف سيساعدان على إثارة ذاكرتك وتزويدك بالتفاصيل الإضافية .

هناك خطر واحد ، على أية حال ، يجب أن تتجنبه ، ويتمثل ذلك فى السماح بالكثير من التفاصيل التى تعوق تفكيرك . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن محاولاتك لإدراج الكثير من التفاصيل فى المقالة ربما تعوقك أو على الأقل تؤدى إلى عدم وضوح ما تكتبه من شروح أو تفسيرات . إن دليل العمل الذى يتبع هنا لتحديد محتويات مقالاتك وتحديد ما يجب تركه - حتى ولو تم ذلك على مضض أو قسوة - يتمثل فى شكل سؤال ثنائى هو : هل أحتاج إلى هذا التفصيل لكى أزيد إلى أقصى حد من وضوح المناقشة التحليلية ، أو لتحقيق مستوى عال من الفهم الحقيقى ؟ إن الجزء الأول من السؤال يتعلق بالتحليل نفسه ، أما جزء السؤال الثانى فيخص فى الغالب تضمين البيانات فى شكل اقتباسات ومواد الحالة المدروسة .

وكما هو الحال مع الدراسات العلمية والأطروحات ، فإن مسودات المقالات من الممكن تحكيمها من قبل الأصدقاء والزملاء أو حتى من قبل الممارسين الجاملين أو الأشخاص العاديين إذا كانت المواد العلمية لها صلة بهم . ومن ناحية ثانية ، فربما ترغب فى فحص المسودات بواسطة جماعة التأليف أو جماعة البحث الطلابية إذا كان الباحث ينتمى لجماعة من هذه الجماعات ، كما أنك فى حاجة لدمج الأدبيات ذات الصلة فى مسودة المقالة . إذا كانت مقالة نظرية ، ربما ترغب فى التفكير فى مضامينها لتوصيات حول السياسات المتغيرة أو الممارسات فى المجال الذى تقوم بدراسته .

وبعد ذلك ، وعند الانتهاء أخيراً من إعداد المقالة ونشرها ، يجب أن تتأهب للتفكير حول وضع مخطط آخر والمبادرة فى كتابة المطبوعات القادمة .

الملخص :

إن تقديم عروض للبحث ونشر نتائجه يمثل تحدياً للباحث . ومع توفر كثير من البيانات المعقدة جداً ، يواجه الباحث بسؤال يتمثل فى كيفية قيامه بصنع الخيارات حول ماذا يقدم أو يعرض فى دراسته أو مقالته أو أطروحته ، وكذلك لمن يعمل ذلك ، وكيفية القيام به ؟ وعموماً ، فى التقديمات أو العروض اللفظية (الخطب والمحاضرات) أو فى المقالات ، من المفضل أن تقدم بشىء من العمق (فئةً) مفهوماً رئيسياً واحداً مع مفهوم آخر أو مفهومين مرتبطين به كخصائص متعلقة بالمفهوم الرئيسى . أما فى الدراسة العلمية ، فإن لدى الباحث سلسلة واسعة من الاحتمالات ، ولكن حتى هنا فإن الكاتب يجب أن يفكر بعناية فى التنظيم المنطقى للمادة قبل عمل مخطط مفصل . أما الأطروحات فإنها تمثل مشكلات خاصة بها نظراً لوجود شكل معيارى لا بد من اتباعه فى كتابتها . ومرة أخرى ، فإن على الكاتب أن يفكر بعناية فى كمية التفاصيل التى يكتبها ، وكيف يتم تقسيم المادة العلمية حتى يتمكن من التقديم الأفضل لمخططه التصورى فى الوقت الذى يحافظ فيه على الانسياب والاستمرارية . إن هذا الفصل يقترح الإجراءات المساعدة فى القيام بتلك التقديمات .

الفصل الرابع عشر
معايير تقويم دراسة النظرية المجذرة

من الممكن تقويم الدراسة النوعية بدقة إذا كانت إجراءاتها واضحة بما فيه الكفاية حتى يستطيع قراء المطبوع الناتج عن البحث تقويم مدى ملاءمته وصلاحيته . كما أن القوانين العلمية (معايير البحث) التى أخذها الباحث فى الاعتبار يجب أن تكون **ملائمة** للدراسة . والسؤال الآن يتمثل فى : ماذا عليك أن تعرف لتتمكن من تقويم هذه المسائل ؟ .

القوانين العلمية والبحث النوعى :

يؤكد بعض المتخصصين فى البحوث النوعية أن المعايير أو المقاييس التى من خلالها يتم تقويم الدراسات النوعية غير مناسبة لهذه الدراسات (انظر : Agar, 1986; Guba, 1981; Kirk & Miller, 1986) . ومن المحتمل أن معظم الباحثين النوعيين يعتقدون أن تلك القوانين لا بد من تعديلها لتلائم البحث النوعى . ويشترك المتخصصون فى النظرية المجذرة معهم فى الاعتقاد بأن القوانين العادية «للعلم الجيد» يجب الاحتفاظ بها عند التقويم ، **ولكنها تتطلب إعادة التعريف حتى تلائم واقع البحث النوعى وتعقيدات الظاهرة الاجتماعية** التى نسعى لفهمها . وتشمل القوانين العلمية العادية كلاً من : الأهمية ، والنظرية ، والملاحظة ، والاتفاق ، وقابلية التعميم ، والاتساق ، وقابلية الحصول على نفس النتائج ، والدقة والإثبات . (هناك استعراض أو نظرة شاملة وجيزة لهذه القوانين فى Gortner & Schultz, 1988, P: 204) . وهذه القوانين كثيراً ما تؤخذ على علاتها من قبل المتخصصين فى العلوم الطبيعية ، إلى حد أن فلاسفة العلم لا يقومون بمناقشة معظم تلك القوانين بوضوح إلا من أجل التثبت والصحة . ومن ناحية أخرى ، فالقوانين الأخرى ؛ كالدقة ، والاتساق ، ووثاقة الصلة بالموضوع يتم أخذها ضمنياً فى الاعتبار (Popper, 1959) .

إن الأخطار التى يجب أن يحترس منها الباحثون النوعيون هى ما يصادفونه عند استخدامهم لمصطلحات تحظى بالقبول فى مضامينها الأكثر وضعية ، وكذلك المصطلحات المأخوذة من القراءة الحرفية فى أدبيات العلوم البيولوجية والطبيعية . وليس هناك أى سبب لتحديد أو استعمال تلك المصطلحات وفقًا لتعريفات واستعمالات المشتغلين بالبحوث الاجتماعية الكمية . إن كل طريقة للاكتشاف والاختراع تطور المقياس الخاص بها ، وكذلك **الإجراءات** الخاصة لبلوغه وتحقيقه . (لمناقشة جيدة لهذه النقطة انظر:Diesing, 1971) والأمر الأكثر أهمية هنا هو العمل على جعل جميع تلك المعايير واضحة .

خذ على سبيل المثال ، قانون إعادة الحصول على نفس النتائج . فهو يعنى عادة أن أية دراسة ـ كالتجربة الطبيعية مثلاً ـ قادرة على أن تكون نتائجها قابلة لإعادة الإنتاج (مسألة الثبات) ، لذا إذا كانت نتائج الدراسة الأصلية قد تم التوصل إليها فى الدراسات اللاحقة ، عندها تكون هذه النتائج – إضافة لما سبق – موثوقًا بها . وعلى أية حال ، فليس من المحتمل أن تكون هناك نظرية تتعلق بالظاهرة النفسية والاجتماعية تكون نتائجها قابلة فعلاً لإعادة الإنتاج ، مادام الحصول على حالات جديدة أو حالات أخرى تتطابق أوضاعها تمامًا مع أوضاع الدراسة الأصلية أمرًا غير ممكن ، حتى ولو كان الكثير من الأوضاع الأساسية متشابهًا . وعلى الخلاف من دراسة الظاهرة الطبيعية ، فمن الصعوبة بمكان أن تصمم دراسة تجريبية أو غيرها من التصاميم التى من الممكن أن يقوم الباحث خلالها بإعادة جميع الأوضاع الأصلية وضبط جميع المتغيرات الخارجية التى ربما تؤثر فى الظاهرة النفسية أو الاجتماعية قيد الدراسة .

وهناك طريقة أخرى للدلالة على قابلية إعادة النتائج تتضح فيما يلى : فعلى افتراض الاعتماد على نفس الإطار النظرى للباحث الأصلى واتباع نفس القواعد العامة فى جمع البيانات وتحليلها ، إضافة إلى مجموعة مشابهة من الأوضاع ، فإن أى باحث آخر يجب أن يكون قادرًا على الحصول على نفس التفسير النظرى للظاهرة المدروسة . ومهما كان هناك من التناقضات التى تنشأ ، فمن الممكن التعامل معها من خلال إعادة فحص البيانات وتعيين الأوضاع المختلفة المؤثرة على كل حالة .

وللاستمرار فى التوضيحات الخاصة بكيفية إعادة تحديد وتعريف القوانين العادية

للبحث النوعى ، فما عليك إلا أن تأخذ فى الاعتبار القانون الخاص بقابلية التعميم . إن الغرض من النظرية المجذرة يتمثل فى **تحديد** الأوضاع التى تؤدى إلى مجموعة محددة من الأفعال والتفاعلات المرتبطة بالظاهرة والنتائج المترتبة عليها . إنها قابلة للتعميم على تلك الحالات المحددة فقط . ومن الطبيعى أنه كلما كان الإختيار النظرى واسعًا ومنتظمًا ، ارتفع عدد الأوضاع وزادت كمية التباين التى ستكتشف وتلحق بالنظرية ، وعظمت بناء على ذلك قابلية النظرية للتعميم (وكذلك من حيث الدقة ، والقدرة على التنبؤ) . أما إذا لم تتمكن النظرية الأصلية من تفسير التباين المكتشف من خلال البحث الإضافى فإن هذه التفصيلات الجديدة يمكن أن تضاف كتعديلات إلى الصياغة الأصلية للنظرية .

لقد قمنا فقط بتوضيح ضرورة إعادة تحديد القوانين العادية مع اثنين من هذه القوانين التى تعرضنا لها آنفًا (قابلية الحصول على نفس النتائج ، وقابلية التعميم) ، ما دمنا قد قمنا فى مكان آخر بمناقشة القوانين المهمة الأخرى بالتفصيل فى سياق حديثنا عن النظرية المجذرة (Corbin & Strauss, 1990) .

معايير تقويم النظرية المجذرة :

سنناقش بعض معايير التقويم المهمة للحكم على البحث . ما هو البحث ؟ ويتمثل الجواب عن هذا السؤال فى : هو كل ما تقوم به من بحوث وكذلك بحوث الآخرين عندما يدعون استخدام طرق النظرية المجذرة . هذه المعايير يجب أيضًا أن تقود إلى الاقتراحات (مخططات المشاريع البحثية) المكتوبة لوكالات التمويل ودعم البحوث . وكما هو الحال مع الباحثين الآخرين ، فإن باحثى النظرية المجذرة لا بد لهم أن يقوموا بمناقشة المسائل المتعلقة بالعينة ، والإجراءات التحليلية ، وقضايا الصدق ونحو ذلك . (على افتراض أن ممثلى وكالات تمويل البحوث يمكن أن يستخدموا أيضًا الخطوط العريضة المنهجية المقدمة فى هذا الفصل للحكم على المشاريع المقترحة للبحث التى تنوى استخدام طرق النظرية المجذرة) . إن نجاح المشروع البحثى هو - بعد كل شىء - أمر معتمد أو محكوم عليه بنتائجه . ما عدا فى حالات غير عادية عندما تعرض أو تقدم البحوث شفهيًا ، فالنتائج ، والصياغات النظرية ، والخلاصة ، وكذلك

تصميم الدراسة وإجراءاتها ، يتم الحكم عليها من خلال المطبوعات الناتجة عن البحوث . وبعد ذلك تتبقى مسألة كيفية تقويم هذه الأشياء ، ومن خلال أى المعايير ؟

عند الحكم على منشور بحثى يدعى مؤلفوه أنهم قاموا بإنتاج أو تفصيل وتوسيع أو «اختبار» نظرية ، فإنه يجب عليك أن تميز بوضوح بين تلك القضايا العلمية . وبداية ، عليك أن تُقوِّم كلاً من قضايا صحة وثبات ومصداقية البيانات (Guba, 1981; Kidder, 1981; Kirk & Miller, 1986; Le Compte &Goez, 1982; Miles & Huberman, 1984; Sandelowski, 1986) . ثانيًا ، عليك أن تُقوِّم مدى كفاية العملية البحثية التى من خلالها تم الوصول إلى النظرية . كما عليك - ثالثًا - أن تُقوِّم **الأساس** التجريبى لنتائج البحث .

لقد تعرضت معايير تقويم البيانات للمناقشة كثيرًا فى الأدبيات المنهجية (انظر إلى جانب الاقتباسات المشار إليها أعلاه أى كتاب حول البحوث الحقلية) . وسنقوم هنا بالاهتمام بمناقشة مدى كفاية العملية البحثية للدراسة ، والأساس الذى بنيت عليه النتائج .

العملية البحثية :

لا بد لمن يقرأ منشورًا فى النظرية المجذَّرة أن يكون قادرًا على تقويم بعض عناصر العملية البحثية التى أدت إلى ذلك العمل المطبوع . وعلى أية حال ، حتى فى الدراسة العلمية ، التى تتكون أساسًا من الصياغات النظرية والبيانات المحللة ، ليس هناك أى طريقة يمكن للقراء بدقة أن يقوِّموا الكيفية التى نفذ بها الباحث التحليل . فهم ليسوا هناك فى الواقع خلال الجلسات التحليلية الحقيقية ، كما أن الدراسة العلمية لا تساعدهم بالضرورة على تخيل تلك الجلسات وتتابعها . ولمعالجة ذلك ، سيكون مفيدًا للقراء أن تقدم لهم أنواعًا محددة من المعلومات المتصلة بالمعايير الموضحة أدناه . وليس من الضرورى أن تكون كثيرة فى الدراسة العلمية ، وإنما تكون التفاصيل كافية إلى حد ما لإعطاء بعض الأسس الجيدة المعقولة للحكم على مدى كفاية العملية البحثية على هذه الحالة . إن أنواع المعلومات المحتاج إليها موضحة أدناه فى شكل أسئلة ، وتشير الإجابة عنها إلى كيف يمكن أن تفيد كمعايير تقويمية .

معيار (١) كيف تم اختيار العينة الأصلية ؟ وما الأسس التى بنى عليها الاختيار ؟

معيار (٢) ما هى الفئات الرئيسية التى تكونت أو برزت ؟ .

معيار (٣) ما هى بعض تلك الأحداث والحوادث والأفعال ونحو ذلك (من المؤشرات) التى أشارت إلى بعض تلك الفئات الرئيسية ؟

معيار (٤) على أى أساس من الفئات انبثق أو نشأ الاختيار النظرى ؟ وبعبارة أخرى ، كيف وجهت الصياغات النظرية عملية جمع بعض البيانات ؟ وبعد أن تمت عملية الاختيار النظرى ، ما مدى القدرة التمثيلية لهذه الفئات ؟ .

معيار (٥) ما هى بعض الفرضيات المتصلة بالعلاقات بين المفاهيم (أى التى بين الفئات) ، وعلى أى أساس تمت صياغتها واختبارها ؟ .

معيار (٦) هل هناك بعض الحالات التى تبين فيها عدم مصداقية الفرضيات ؟ وكيف تم أخذ هذه التناقضات فى الاعتبار ؟ وكيف أثرت هذه التناقضات على الفرضيات ؟ .

معيار (٧) كيف ولماذا تم اختيار الفئة المحورية ؟ هل تم هذا الاختيار بشكل مفاجئ أم تدريجى ؟ بصعوبة أم بسهولة ؟ وعلى أى الأسس تم عمل القرارات التحليلية النهائية ؟ .

نحن ندرك أن عدداً من هذه المعايير تعتبر معايير غير تقليدية (على سبيل المثال : المعاينة النظرية بدلاً من العينة الإحصائية ، أو النصيحة الخاصة بالوضوح حول تفسير التناقضات) من قبل معظم الباحثين الكميين وحتى من قبل العديد من الباحثين النوعيين . ومع ذلك ، فهى معايير ضرورية لتقويم دراسات النظرية المجذَّرة . فإذا قام باحث النظرية المجذَّرة بتوفير هذه المعلومات ، فإن القراء يمكن أن يستعملوا تلك المعايير ليقوّموا كفاية إجراء التجذير والترميز المعقد الذى استخدمه الباحث . إن التفاصيل المتاحة بهذه الطريقة ستزود بالقرائن التى من الممكن – على الأقل فى المطبوعات المطولة – قراءتها كما لو كانت تشير إلى التعقب التام والحذر للمؤشرات والمعاينة النظرية التخيلية الواعية ، وهكذا .

بعد ذلك نعطى سلسلة من الأسئلة المكافئة لمجموعة من المعايير المتعلقة بالتجذير التجريبى للدراسة .

الأساس (التجذير) التجريبى للدراسة :

معيار (١) : هل تمت صياغة المفاهيم ؟

نظرًا لأن قوالب البناء الأساسية لأى نظرية مجذَّرة (نظرية علمية حقًا) هى مجموعة المفاهيم المجذَّرة فى البيانات ، فإن السؤال الأول المطروح بالنسبة لأى مطبوع يتمثل فى : هل ينتج أو يصوغ (عبر الترميز) أو على الأقل يستخدم المفاهيم ؟ وما هى مصادر هذه المفاهيم ؟ وإذا كانت المفاهيم مشتقة من الاستعمال العمومى (مثل - الغموض) ولكن ليست موضوعة للاستخدام التقنى ، فإنها عندئذ ليست مفاهيم بمعنى كونها جزءًا من نظرية مجذَّرة ، لأن هذه المفاهيم ليست فى الواقع مجذَّرة فى البيانات ذاتها . ففى أى دراسة علمية تدعى أنها تقدم تفسيرات نظرية لبيانات مستندة على تحليل منهجية النظرية المجذَّرة ، فإن الباحث يمكنه أن يقوم بتقويم سريع ولو كان بسيطًا لمفاهيمها فحسب ، وذلك من خلال فحص فهرس المفاهيم وتحديد ما إذا كانت هذه المفاهيم تبدو مفاهيم تقنية أو مفاهيم عادية ، وما إذا كان هناك الكثير من هذه المفاهيم ، ولتقويم أشمل لهذه النقاط ، فإن على القارئ أن يلقى نظْرة سريعة على الكتاب على الأقل .

معيار (٢) : هل المفاهيم مترابطة بشكل منظم ؟

إن سمة اللعبة (المهنة) العلمية تتمثل فى صياغة المفاهيم بشكل منظم من خلال الربط بينها . لذا فإن السؤال الذى يطرح هنا حيال مطبوع قائم على منهجية النظرية المجذَّرة يتمثل فيما إذا كانت تلك الارتباطات قد تمت ، وما إذا كانت تبدو مؤسسة أو مجذَّرة فى البيانات ؟ وعلاوة على ذلك ، هل نفذت تلك الارتباطات بشكل منظم ؟ وكما هو الحال فى أى كتابة نوعية أخرى ، فإنه من غير المحتمل أن تقدم أو تعرض الارتباطات فى هيئة قائمة من الفروض أو مصطلحات صورية أو متناسبة ، ولكنها ستحاك وتصاغ من خلال النص المطبوع .

معيار (٣) : هل هناك ارتباطات متعددة بين المفاهيم ؟ وهل الفئات على قدر كبير من التطوير ؟ وهل تتميز الفئات بالكثافة المفاهيمية ؟

لا بد أن تكون النظرية المجذَّرة مترابطة بإحكام ، وذلك من خلال الربط بين الفئات الرئيسية وفئاتها الفرعية ، وكذلك الربط بين الفئات المتعددة للتكامل أو للتوحيد النهائى للنظرية . ويتم عمل هذا الربط بطبيعة الحال من خلال خصائص النموذج - الأوضاع ، والإطار ، والفعل والتفاعل (بما فى ذلك الإستراتيجيات) ، والنتائج . ويجب أيضًا أن تكون الفئات ذات كثافة نظرية (أى لها العديد من الخواص الموزعة على أبعاد) . إنها الارتباطات المحكمة بواسطة خصائص النموذج وكثافة الفئات التى تمنح وتعطى النظرية قوتها التفسيرية . وبدون ذلك ، تصبح النظرية غير مرضية .

معيار (٤) : هل تحتوى النظرية على الكثير من التباين ؟

تقتصر بعض الدراسات النوعية على أن تصف ظاهرة واحدة وتعين عددًا محدودًا من الأفعال والتفاعلات التى تميزها ، وعددًا أو مدى محدودًا من النتائج . ومن قبيل المقارنة يمكن القول إن الدراسة العلمية القائمة على منهجية النظرية المجذَّرة يجب أن تقوّم على أساس مدى تباينها والدقة التى يتم بها تفسير تلك التباينات من خلال البيانات التى تشكل مصدر تلك التباينات . أما فى مقالة منشورة ، فإن مدى التباين الذى تتطرق له المقالة يجب أن يكون محدودًا ، وعلى صاحب المقالة على الأقل أن يشير فيها إلى أن الدراسة الكاملة (الدراسة العلمية) تحتوى على المواصفات والتحديدات الخاصة بتلك البيانات .

معيار (٥) : هل الأوضاع الواسعة التى تؤثر فى الظاهرة المدروسة مستوعبة فى تفسيرات النظرية ؟

إن طريقة البحث الخاصة بالنظرية المجذَّرة تتطلب إدخال أو تضمين الأوضاع التفسيرية فى التحليل ، وألا يكون التحليل مقصورًا فقط على تلك الأوضاع التى تبدو ذات تأثير مباشر على الظاهرة المدروسة . أى أن التحليل يجب ألا يكون تحليلاً مجهريًا (بالغ الصغر) إلى الحد الذى يؤدى إلى تجاهل الأوضاع المشتقة من المصادر

الكبيرة والواضحة جداً للعيان ، مثل : الأوضاع الاقتصادية ، والحركات الاجتماعية ، والاتجاهات والقيم الثقافية ، ونحو ذلك .

ويجب ألا تكون هذه الأوضاع مقيدة أو موضوعة فى قائمة كمعلومات عن الخلفية الاجتماعية للظاهرة ، **بل لا بد من ربطها بالظاهرة** من خلال تأثير تلك الأوضاع على الأفعال والتفاعلات ، وكذلك ربط هذه الأوضاع بالنتائج . إذن ، فأى منشور قائم على منهجية النظرية المجذَّرة لم يأخذ فى الاعتبار هذه الأوضاع الواسعة أو لم ينجح فى توضيح ارتباطاتها المحددة النوعية بالظاهرة تحت البحث ، يكون قد أخفق فى الأساس أو التجذير التجريبى له . وبعبارة أخرى ، **فسواء قام المؤلف مباشرة بذكر المصفوفة الخاصة بالأوضاع أم لا** (راجع الفصل العاشر) ، **فإنه يجب فى الواقع أن تكون تلك المصفوفة سارية المفعول ومؤثرة فى التحليل** .

معيار (٦) : هل أخذت العملية فى الاعتبار ؟

إن تحديد وتعيين التغيير أو الحركات داخل إطار العملية يمثل جزءاً مهماً فى بحوث النظرية المجذَّرة . فأى تغير يجب أن يربط بالأوضاع المسببة له ، وعليك أن تتذكر من خلال ما تمت مناقشته فى الفصل التاسع ، أن العملية يمكن النظر إليها كمراحل أو مظاهر ، وكذلك كمرونة أو حركة للفعل والتفاعل عبر مرور الوقت وكردة فعل للأوضاع السائدة .

معيار (٧) : هل تبدو النتائج النظرية مهمة ، وما مدى أهمية ذلك ؟

من الممكن بكل ما تعنيه الكلمة من معنى أن تنتهى من إعداد دراسة فى النظرية المجذَّرة أو أى دراسة من نوع آخر ، ومع ذلك لا تؤدى تلك الدراسة إلى نتائج مهمة . فإذا قام الباحث ببساطة بمتابعة إجراءات النظرية المجذَّرة وقوانينها بدون التخيل والتبصر فيما تعكسه أو تصوره البيانات - لأنه أخفق فى رؤية ما تقوله تلك البيانات حقًا باستثناء ما له صلة بالظواهر المعروفة جداً أو التافهة - فإن النتائج المطبوعة يمكن الحكم عليها بالفشل وفقًا لهذا المعيار .

إن عليك أن تتذكر أن هناك تفاعلاً بين الباحث والبيانات ، وأنه لا توجد أية طريقة ، وعلى وجه الخصوص طريقة النظرية المجذَّرة ، يمكن أن تضمن أن ذلك التفاعل سيكون شيئًا مبدعًا . إذ يعتمد هذا الإبداع على ثلاث خصائص للباحث هى كل من : القدرة التحليلية ، والحساسية النظرية ، والحساسية للحذاقة فى الفعل والتفاعل (بالإضافة إلى القدرة على الكتابة التأليفية الكافية لتوصيل النتائج إلى الجمهور المقصود بالبحث) . وبطبيعة الحال ، فإن التفاعل المبدع يعتمد أيضًا على القطب الآخر للباحث المتمثل فى نوعية البيانات التى قام الباحث بجمعها واستخدامها . إن التحليل الذى يعوزه التخيل ربما بالمعنى التقنى يكون مجذَّرًا بشكل كاف فى البيانات ، ولكنه فى الواقع غير مجذر بالنسبة للأغراض النظرية للباحث . ويعود ذلك إلى أن الباحث لم يقم باستخدام المصادر الواسعة للبيانات أو أنه فشل فى دفع عملية جمع البيانات إلى الأمام بما فيه الكفاية .

هذه المجموعة المضاعفة من المعايير الخاصة بالعملية البحثية وبالأساس أو التجذير النظرى للنتائج تتصل مباشرة بالقضايا المتعلقة بأى مدى تم تمحيص الدراسة القائمة على النظرية المجذَّرة وكيف يتم التحقق من ذلك ؟ . وعندما تنشر الدراسة وتكون عناصر العملية البحثية معروضة ومقدمة بوضوح ، وتكون ثمة قرائن كافية فى المطبوع ذاته ، فإن النظرية الحالية أو الصياغات النظرية من الممكن أن تقوَّم من خلال درجات الإقناع والصدق الظاهرى . فنحن نستطيع أن نقدر تحت أى الأوضاع يمكن أن تتطابق النظرية مع الواقع وتساعد على الفهم وتكون ذات فائدة نظريًا وتطبيقيًا .

ملاحظة ختامية :

يجب أن تضع فى الاعتبار ملاحظتين إضافيتين تتعلقان بالمعايير التقويمية : أولى هاتين الملاحظتين تتمثل فى أن تلك المعايير لا يجب أن تقرأ أو ينظر إليها كقواعد تقويمية سريعة وصعبة ، سواء بالنسبة لك كباحث أو كقارئ يقوم بتقويم منشورات الآخرين البحثية . فقد قصد بتلك المعاير أن تكون بمنزلة **أدلة أو خطوط عريضة** للاسترشاد بها . فالمجالات الجديدة من البحوث ربما تتطلب ضرورة تعديل الإجراءات والمعايير التقويمية لتلائم الظروف المحيطة بالبحث . فالباحثون التخيليون الحريصون

على الاستخدام المبدع والنادر للمواد والبيانات سيتركون - فى أوقات ما - التقيد بما يمكن تسميته «الأدلة الرسمية للإجراءات» . ولذلك ، **فإننا نناشدك بقوة الحرص على التقيد والالتزام بتلك المعايير الرئيسية ما لم يكن هناك أسباب واقعية جدًا تحول دون التقيد بتلك المعايير** . وفى هذه الحالات غير العادية ، يجب عليك أن تعرف بدقة كيف انحرفت عن المعايير ولماذا فعلت ذلك ؟ وأن تذكر ذلك فيما تكتبه ، ودع الأمر للقراء للحكم على مصداقية نظريتك .

أما الملاحظة الثانية ، فإننا نقترح أن تقوم **بالإشارة إلى عملياتك الإجرائية التى استخدمتها - ولو باختصار** - وعلى وجه الخصوص فى المطبوعات المطولة . وستشتمل على قائمة بكل الإجراءات الخاصة أو على الخطوات الإجرائية المتبعة بالإضافة إلى ما تمت مناقشته فى هذا الكتاب . إن ذلك سيساعد القراء على الحكم على الكفاية الكلية لبحثك . كما أنه سيجعل القراء أكثر وعيًا لكيفية اختلاف هذا البحث الخاص عن البحوث المنفذة باستخدام الطرق الأخرى للبحث النوعى . وبعمل ذلك ، فإنك ستصبح على وجه التحديد أكثر وعيًا لمستوى عملياتك البحثية وبقصوره المحتمل . أى أنك - بعبارة أخرى - قادر على تحديد وتوصيل جوانب القصور التى لم يكن من الممكن تفاديها فى دراستك .

الملخص :

لا بد لجميع الدراسات البحثية - سواء كانت كمّية أو نوعية - أن تخضع للتقويم بواسطة القوانين والإجراءات المحددة لطرق البحث التى استخدمت للحصول على النتائج . لقد قام المؤلفان هنا بتطوير معايير التقويم الخاصة بطريقة النظرية المجذّرة . ويجب أن تكون تلك المعايير مفيدة ليس فقط بالنسبة لأولئك الراغبين فى تقويم البحوث الخاصة بهم أو الخاصة بزملائهم ، ولكن يجب أن تكون مفيدةً أيضًا للعاملين فى هيئات التحرير ووكالات تمويل المشاريع البحثية من الذين يتعين عليهم أيضًا تقويم الدراسات المعتمدة على طريقة النظرية المجذّرة .

وليس من قبيل الصدفة اللغوية أن تشير كلمات «مبنى» «بناء» «عمل» إلى كل من العملية ونتيجتها المنجزة . وبدون معنى الفعل فإن معنى الاسم سيظل فارغًا .

John Dewey, **Art as Experience**, 1934, p: 51.

المراجع

Agar, M., (1986): **Speaking of Ethnography,** Beverly Hills, CA: Sags.

Becker, H., (I970): **Sociological Work: Method and Substance,** New Brunswick, NJ: Transaction.

Becker, H. (1982): **Art Worlds: Berkeley,** CA: University of California Press.

Becker, H., (1986a): **Doing Things Together: Selected Papers,** Evanston, IL: North- Western. University Press.

Becker, H., (1986b): **Writing for Social Scientists,** Chicago: University of Chicago Press.

Biernacki, P., (1986): **Pathways for Heroin Addiction,** Philadelphia, PA: Temple University Press.

Blumer, H., (1931): "Science without Concepts", **American Journal of Sociology,** 36: 515-533.

Blumer, H., (1996): **Symbolic Interaction,** Englewood Cliffs, NJ: Prentice–Hall.

Broadhead, R., (1983): **Private Lives and Professional Identity of Medical Students,** New Brunswick, NJ: Transaction Books.

Cauhape, E., (1983): **Fresh Starts: Men and Women after Divorce,** New York: Basic Books.

Charmaz, K., (1983): "The Grounded Theory Method: An Explication and Interpretation", In R. Emerson (Ed.), **Contemporary Field Research**, (PP. 109-126), Boston: Little Brown.

Corbin, J., (1987): "Women's Perceptions and Management of a Pregnancy Complicated by Chronic Illness", **Health Care for Women International,** 84, 317-37.

Corbin, J., & Strauss, A., (1984): "Collaboration: Couples Working Together to Manage Chronic Illness", **Image**, 16, 109-115.

Corbin, J., & Strauss, A., (1988): **Unending Work and Care: Managing**

Chronic Illness at Home, San Francisco, CA: Jossey-Bass.

Corbin, J., & Strauss, A., (1990): "Grounded Theory Method: Procedures, Canons, and Evaluative Criteria", **Qualitative Sociology,** Forthcoming.

Corbin, J., & Strauss, A., (1991): "Comeback: Overcoming Disability", In G. Albrecht & J. Levy (Eds.), **Advances in Medical Sociology** (Vol. 2) Greenwich, CT: JAI Press.

Davis, F., (1963): **Passage Through Crisis,** Indianapolis, IN: Bobbs-Merrill.

Denzin, N., (1970): **The Research Act,** Chicago: Aldine.

Dewey, J. (1934): **Art as Experience,** New York: Minton, Balch.

Diesing, P., (1971): **Patterns of Discovery in the Social Science,** Chicago: Aldine.

Drake, S., (1957): **Discoveries and Opinions of Galileo,** Garden City, NY: Doubleday Anchor Books.

Fagerhaugh, S., & Strauss, A., (1977): **The Politics of Pain Management: Staff-Patient Interaction,** Menlo Park, CA: Addison–Wesley.

Fagerhaugh, S., & Strauss, A., Suzcek, B., & Wiener, C., (1987): **Hazards in Hospital Care,** San Francisco: Jossey-Bass.

Fielding, N., Pr Fielding, J., (1986): **Linking Data,** Beverly Hills, CA: Sage.

Fujimura, J., (1987): "Constructing Doable Problems in Cancer Research: Articulating Alignment", **Social Studies of Science.** 17, 257-93.

Glaser, B., (1963): "The Use of Secondary Analysis by the Independent Researcher", **American Behavioral Scientist,** 11-14.

Glaser, B., (1972): **Experts and laymen: The Patsy and the Subcontractors,** Mill Valley CA: Sociology Press.

Glaser, B., (1978): **Theoretical Sensitivity,** Mill Valley, CA: Sociology Press.

Glaser, B., & Strauss, A., (1965): **Awareness of Dying,** Chicago: Aldine.

Glaser, B., & Strauss, A., (1967): **The Discovery of Grounded Theory,** Chicago: Aldine.

Glaser, B., & Strauss, A., (1968): **Time of Dying,** Chicago: Aldine.

Gortner, B., & Schultz, P., (1988): "Approaches to Nursing Science Methods", **Image**, 20, 22-23.

Guba, E., (1981): "Criteria for Assessing the Trustworthiness of Naturalistic inquiries", **ETC**, 19, 75-41.

Hammersley, M., & Atkinson, P., (1983): **Ethnography: Principles in Practice,** New York: Tavistock.

Hughes, E., (1971): **The Sociological Eye,** Chicago: Aldine. Reprinted. New Brunswick. NJ: Transaction I987.

Johnson, J., (1975): **Doing Field Research,** New York: Free Press.

Kidder, L., (1981): "Qualitative Research and Quasi-Experimental Frameworks". M. Brewer & B. Collings (eds.), **Scientific Inquiry and The Social Sciences.** San Francisco, CA: Jossey–Bass.

Kirk, J., & Miller, M., (1988): **Reliability, Validity and Qualitative Research,** Beverly Hills, CA: Sage.

Kvale, S., (1969): "To Validate Is to Question", In S. Kvale (ed.), **Issues of Validity in Qualitative Research** (pp. 73-42). Lund, Sweden: Studentlitteratur.

Le Compte, N., & Gietz, J., (1982): "Problems of Reliability and Validity in Ethnographic Research", **Review of Educational Research,** 52, 31-60.

Lofland, J., (1971): **Analyzing Social Setting,** Belmont, CA: Wadsworth.

Mliles, M., (1983): "Mixing Qualitative and Quantitative Methods: Triangulation in Action", J., Van Maanen (ed.), **Qualitative Methodology,** Beverly Hills, CA: Sage.

Miles, M., & Huberman. A., (1984): **Qualitative Data Analysis,** Beverly Hills, CA: Sage.

Pfaffenberger, B., (1988): **Microcomputer Applications in Qual-**

itative Research, Newbury Park, CA: Sage.

Popper, K., (1959): **The Logic of Scientific Discovery,** New York: Basic Books.

Rapport, S. & Wright, W., (eds.), (1964): **Science: Methods and Meaning,** New York: Washington Square Press.

Rosenbaum, M., (1981): **Women on Heroin,** New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.

Sandelowski, M., (1986): "The Problem of Rigor in Qualitative Research", **Advances in Nursing Science,** 8, 27-37.

Schatzman, L., & Strauss, A., (1973): **Field Research: Strategies for a Natural Sociology,** Englewoood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

Schneider, J., & Conrad, P, (1983): **Having Epilepsy: The Experience and Control of Illness,** Philadelphia, PA: Temple University.

Seyle, H., (1956): **The Stress of Life,** New York: Mc Graw Hill.

Shibutani, T., (1966): **Improvised News: A Sociological Study of Rumor,** Indianapolis. IN: Bobbs-Merrill.

Star, S. L., (1989): **Regions of the Mind: Brain Research and the Quest for Scientific Certainty,** Stanford, CA: Stanford University Press.

Strauss, A., (1978): **Negotiations,** San Francisco: CA: Jossey-Bass.

Strauss, A., (1982): **Interorganizational Negotiation,** Urban Life, 11, 350-67.

Strauss, A., (1985): Work and the Division of labor. **Sociological Quarterly,** 26, 1-19.

Strauss, A., (1987): **Qualitative Analysis for Social Scientist,** New York: Cambridge University Press.

Strauss, A., Bucher R., Ehrlich, D., Schatzman L., & Sabshin, M., (1964): **Psychiatric Ideologies and Institutions,** Glencoe, IL: Free Press.

Strauss, A., & Corbin, J., (1988): **Shaping a New Health Care System,** San Francisco, CA: Jossey–Bass.

Strauss, A., & Corbin, J., (1989, August): "Tracing Lines of Conditional Influence: Matrix and Paths", **Paper Delivered at the Annual Meetings of the American Sociological Society,** San Francisco, California.

Strauss, A., Corbin J., Fagerhaugh, S., Glaser, B., Maines, D., Suczek, B., & Wiener, C., (1984): **Chronic Illness and the Quality of Life,** (2nd ed.). St. Louis: Mosby.

Strauss, A., Fagerhaugh, S., Suczek, B, & Wiener, C., (1985): **The Organization of Medical Work,** Chicago: University of Chicago Press.

Tesch, R., (1989): **Qualitative Research: Analysis Types and Software Tools,** Philadelphia. PA: Taylor and Francise.

Whyte, W. (1955): **Street Corner Society,** Chicago: University of Chicago Press.

Wiener, C., (1981): **The Politics of Alcoholism,** New Brunswick, NJ: Transaction Books

Wiener, C., Fagerhaugh, S., Strauss, A., Suczek, B., (1979): "Trajectories, Biographies and the Evolving Medical Technology Scene: Labor and Delivery and the Intensive Care Nursery", **Sociology of Health and Illness,** 1, 261-83.

قائمة المصطلحات

نبذة عن مؤلفى الكتاب

- جوليت كوربين (Juliet Corbin) تعمل محاضرة بقسم التمريض بجامعة سانوزيه الحكومية بمدينة سانوزيه بولاية كاليفورنيا ، كما تعمل مساعدة باحث فى قسم العلوم الاجتماعية والسلوكية فى جامعة كاليفورنيا بمدينة سان فرانسيسكو . وقد حصلت على شهادة البكالوريوس فى التمريض عام ١٩٦٣م من جامعة أريزونا ، كما حصلت على شهادة الماجستير فى علم التمريض عام ١٩٧٢م من جامعة سانوزيه ، وشهادة الدكتوراه فى التمريض عام ١٩٨١م من جامعة كاليفورنيا . وقد قامت بتأليف (وشاركت فى تأليف) عدد من المقالات البحثية وبعض الأجزاء فى كتب منشورة ، كما شاركت فى تأليف كتاب منهجى بعنوان «العمل المستمر والرعاية» المنشور فى (١٩٨٨م) ، وكذلك شاركت فى تأليف كتاب بعنوان «تشكيل نظام جديد للرعاية الصحية» المنشور فى (١٩٨٨م) . وتقوم فى الوقت الراهن ببحث حول دور الجسم فى الفعل ، كما أنها اشتركت أيضًا فى الدراسة الحقلية المتعلقة بانسياب العمل فى المستشفيات .

- آنسيلم ستراوس (Anselm Strauss) أستاذ متقاعد فى علم الاجتماع بقسم العلوم الاجتماعية والسلوكية بجامعة كاليفورنيا بمدينة سان فرانسيسكو ، وقد تركزت أنشطته البحثية فى علم اجتماع الصحة والمرض وفى علم اجتماع العمل والمهن . أما الطرق المنهجية المستخدمة غالبًا فى بحوثه فهى مزيج من الملاحظات والمقابلات الحقلية ، وأحيانًا يستخدم الوثائق التاريخية كبيانات أولية . ومن بين مؤلفاته والمؤلفات التى شارك فيها : كتاب اكتشاف النظرية المجذَّرة (١٩٦٧م) ، وكتاب التحليل النوعى لإخصائى العلوم الاجتماعية (١٩٨٧م) ، وكتاب الوعى بالموت (١٩٦٥م) ، وكتاب التنظيم الاجتماعى للعمل الطبى (١٩٨٥م) ، وكتاب العمل والرعاية المستمرين (١٩٨٨م) . كما عمل أستاذًا زائرًا فى جامعة كمبردج ، وجامعة باريس ، وجامعة مانشستر ، وجامعة كانستانس ، وجامعة أديلايدى ، وجامعة هيجن . أما بحوثه الراهنة فتشمل كلاً من : دراسة اتخاذ القرارات الخاصة بسياسات مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) وتطبيقها ، ودراسة انسياب العمل فى المستشفيات ، ودراسة دور الجسم فى الفعل .

المترجم فى سطور

** الدكتور عبدالله حسين الخليفة .

- من مواليد الخماسين بمحافظة وادى الدواسر .

*** المؤهل العلمى :**

- درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع بجامعة تكساس أوستن بالولايات المتحدة الأمريكية ، عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

*** الوظيفة الحالية :**

- أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

*** الأنشطة العلمية :**

- أثر العوامل الاجتماعية فى توزيع السكان على أحياء مدينة الرياض ، مركز أبحاث مكافحة الجريمة ، ١٤١١هـ .
- المحددات الاجتماعية لتوزيع الجريمة على أحياء مدينة الرياض ، مركز أبحاث مكافحة الجريمة ، ١٤١٣هـ .
- العوامل الاجتماعية المؤثرة فى الفارق العمرى بين الزوجين ، مجلة العلوم الاجتماعية ، ١٩٩٥م .
- Population Spatial Distribution Policies in Saudi Arabia, ESCWA, 1993.
- Religiosity in Islam as a Protective Mechanism Against Criminal Temptation, AJSS, 1994.

مراجعا الترجمة فى سطور

**** الدكتور على أحمد بن راشد السلطان .**

- من مواليد الزلفى

*** المؤهل العلمى :**

- درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع من جامعة ولاية ميتشجن بالولايات المتحدة الأمريكية ، عام ١٤٠٨هـ .

*** الوظيفة الحالية :**

- مدير البرامج العليا ، معهد الإدارة العامة .

*** الأنشطة العلمية :**

- النزاع والتطور (التغيير) .
- التنمية .
- سلوكيات التعليم .
- أساليب البحث العلمى .
- إدارة النزاع .
- التفاوض .

**** الدكتور على بن عيسى الشعبى .**

- من مواليد درب بنى شعبة - منطقة جيزان .

*** المؤهل العلمى :**

- درجة الدكتوراه فى فلسفة التربية ، من جامعة الملك سعود فرع أبها ، عام ١٩٨٩م .

*** الوظيفة الحالية :**

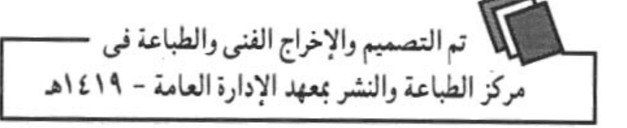
- عميد القبول والتسجيل وشؤون الطلاب .

*** الأنشطة العلمية :**

- رئيس مجلس إدارة الجمعية السعودية للعلوم التربوية النفسية بأبها ، وعضو النادى الأدبى بها .
- عضو جمعية معلمى اللغة الإنجليزية لغير الناطقين بها بالولايات المتحدة الأمريكية - Tesoi .
- عضو مجلس التعليم بمنطقة عسير ، وعضو لجنة التنشيط السياحى بها .
- عضو اللجنة الرئيسية لجائزة أبها للتعليم الجامعى .

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة


تم التصميم والإخراج الفنى والطباعة فى
مركز الطباعة والنشر بمعهد الإدارة العامة - ١٤١٩هـ

هذا الكتاب

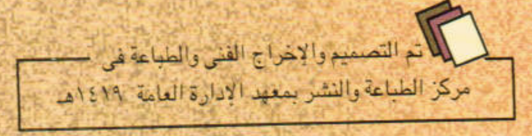
من مقومات البحث الأساسية جمع البيانات المتعلقة به ثم تحليلها وتفسيرها . وعندما يجد الباحث نفسه أمام أكوام من البيانات يتساءل في قرارة نفسه عن إمكانية الاستفادة من كل تلك البيانات في بحثه ، وعما إذا كان في مقدوره التأكد من صلاحية وموثوقية ما جمعه من معلومات .

ثمة أسئلة أخرى تطرح نفسها ، مثل : كيف يتغلب الباحث على النزاعات الشخصية المنحازة ، والمفاهيم الذاتية عند اختياره للمعلومات ؟ والأهم من ذلك كيف يصل إلى صيغة نظرية تختصر ما تم جمعه من بيانات ؟

وقد قام مؤلفا الكتاب باتباع أسلوب مبسط ـ إلى حد كبير ـ استطاعا من خلاله إرساء الأساس لدراستهما بحيث يسهل فهمها من قبل مدرسي وطلاب المعارف التطبيقية . وقد اتبع المؤلفان تدرج خطوات البحث بدءاً من بلورة الهدف الأساسي منه ، ومروراً بالرموز المستخدمة والتحليلات ، ووصولاً إلى الدخول في عملية كتابة البحث أو الحديث حوله . كما تستعرض خاتمة هذا الكتاب المعايير الخاصة بدراسة النظرية المجذرة .

وقد جاء الكتاب زاخراً بالتعاريف والأمثلة .

السعر ٣٣ ريالاً



تم التصميم والإخراج الفني والطباعة في
مركز الطباعة والنشر بمعهد الإدارة العامة ١٤١٩هـ

ردمك : ٣ - ٠٣٩ - ١٤ - ٩٩٦٠